

الْيَوْمَ كَامَلَ التَّوْبَى



محفوظ
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الشيخ حسين العايش البراك

التَّكَاْمُلُ التَّرْبَوِيُّ

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المقدمة

للتربية في الإسلام دور فائق في إيصال الشخص إلى كماله، وتلتقي التربية بالتعليم من ناحية والتزكية من ناحية أخرى، وقد ربط بينهما الحق تعالى في قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)، ولولا التربية لم يستطع الإنسان أن يتقدم إلى الأمام، من هنا أكدت الأديان السماوية عامة والإسلام بنحو خاص على أهمية التربية والتزكية للنفس للوصول إلى الكمال، وقد أقسم الله تعالى في سورة الشمس بأحد عشر قسمًا أعقبهم بأن الفلاح يكمن في التزكية للذات، كما أن دور الأنبياء الرئيس هو في التربية لأمتهم وبذلك يتحقق الولاء الخالص لله تعالى وللأنبياء والرسول وأوصيائهم ﷺ، وقد حصر النبي ﷺ الهدف من بعثته بتميم مكارم الأخلاق، من هنا قدم العلماء زاداً كبيراً وافراً للأمة بكتبهم الأخلاقية وأرادوا بذلك انتشال الأمة من براثن المادة، ورفع مستوى الأفراد معنوياً ليصلوا إلى الله تعالى بعد تذوق طعم القيم المعنوية.

وقد أفصح العلماء على أن التربية تتوقف على بذل الجهد والصبر والتعلم المستمر، بذلك يتاح للإنسان أن يصل إلى كماله المعنوي بل المادي أيضاً للترابط الوثيق بين العالمين.

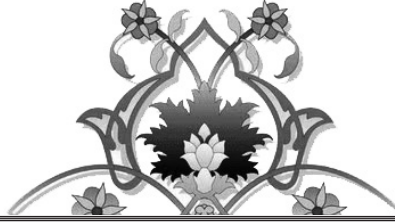
من هنا أولينا هذا الجانب أهمية كبيرة لدوره المحوري في رقي الأفراد والأمم فركزنا في الدروس والمحاضرات على أهمية التربية التكاملية في النضج المعنوي،

والكتاب الذي بين يديك أخي القارئ هو خطوات يتاح لمن قرأها بتأمل وعمل بها أن يصل إلى نضجه وكماله المعنوي، وقد أريد به أن يكون واضحاً في أسلوبه مركزاً في طرحه سهلاً في تناوله للقيم المعنوية ليسهل على السالك طريق الوصول إلى الله تعالى سائلين المولى جل وعلا التوفيق والسداد وخدمة الطيبين الذين يتغنون الخير وبه يعملون، والحمد لله رب العالمين.

الشيخ حسين العايش البراك

بتاريخ: ٢٧ / ٢ / ١٤٣٥ هـ





القسم الأول:

■ ■ الأسرة والتربية ■ ■

الفصل الأول:

الزواج أساس البناء الاجتماعي



دور الزواج في إيصال الفرد إلى الكمال

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

إن من أهم ما يفكر به الإنسان في الحياة الدنيا، هي مسألة استتباب النظام الاجتماعي من خلال توطيد دعائمه، ولن يتحقق استتباب هذا النظام إلا باستتباب الأمن في المجتمع، الذي يتوقف على تلبية ما يحتاجه، فإذا لم نلبي للمجتمع ما يحتاجه، فإن دعائم الأمن فيه ستنهار. لذا فإن العلماء يقولون إن من دعائم استتباب الأمن الاجتماعي مسألة تأمين الحاجيات الأساسية في الجنس على ضوء القانون والنظام، لأن عدم تلبية ما يحتاجه المجتمع من الناحية الجنسية يؤثر سلباً ويؤدي إلى انهيار المجتمع، والإنسان عندما يكبر تتصور فيه نيران الشهوة، ويخيل إليه أن مسألة فتح باب ما يحتاجه لإرواء ظمأه الغريزي هو الذي يحقق له الاطمئنان، ويكون الإنسان في مرحلة البلوغ كالطفل الذي يريد أن يلعب بكل شيء، ويريد أن يحقق لنفسه كل ما يصبوا إليه وإن كان يعود عليه بالضرر، ولكنه سرعان ما يكتشف بأن تلك النظم والقوانين الاجتماعية تعود عليه بالخير كفرد، وأيضاً تعود على المجتمع بأسره لكونه لبنة، تشكل مفردة في بناء هذا الهرم الاجتماعي. لذا ورد عن المصطفى ﷺ عن علي عليه السلام، أنه قال: (لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ (يتزوج) إلا قال رسول الله

ﷺ: كمل دينه^(١)، وكمال الدين يشير به المصطفى ﷺ إلى مجموعة من النواحي، أولها أن ذلك الفرد قد حقق لنفسه الشخصية المتكاملة التي تسهم في دور العطاء المتزن في المشاركة الجماعية والاجتماعية، وأما إذا كَبَتَ الفرد غرائزه فإن الضرر سيعود عليه شخصياً، كما وأنه لو أطلق لنفسه العنان في إشباع غرائزه فإن الضرر سيعود على المجتمع ككل. وهذا الإفراط والتفريط يرفضه الإسلام ويستعيض عنه طريقاً وسطاً، وضح المصطفى ﷺ في الحديث: (ما بُنِيَ بناء في الإسلام أحب إلى الله عز وجل من التزويج)^(٢) لذا علينا أن نفكر في مجموعة من المحاور:

المحور الأول: تثقيف المجتمع بأهمية الزواج المبكر.

إن من عوامل الرقي الاجتماعي إزاحة كل العقبات التي تعوق الزواج، ولا يتم ذلك إلا من خلال التركيز على الثقافة الإسلامية التي تدعو إلى التزويج المبكر، ونحن نعلم بأن العوائق كثيرة، ولكن المجتمع يستطيع الإسهام بالإعلام الهادف في أن يبين لأولياء أمور الشباب والشابات أهمية الزواج المبكر، باعتباره يشكل سياجاً آمناً عن الانحراف. فهذه الشهوة بالنسبة للإنسان كالنار تشتعل في داخله، فتحرق الأخضر واليابس إذا لم تصب حسب الأطر القانونية التي شرعت من قبل المشرع الحكيم، إذاً علينا أولاً أن نثقف مجتمعنا بأهمية الزواج المبكر، وذلك كفيل بالحد من الكثير من الآلام التي تعترى ذلك الشاب وتلك الشابة، وقد لا يتصور البعض - بالخصوص الذي تتوافر لديه الزوجة الصالحة ويعيش في المسكن الاجتماعي المرفه - ما يعانيه الشاب والشابة من آلام وآمال، وعلينا أن نسهم في التخفيف عن آلامهما وفي تحقيق ما يصبوان إليه من آمال، ولن يتحقق هذا إلا من خلال ثقافة تركز أهمية الزواج المبكر.

المحور الثاني: الانضباط القانوني للشباب والشابة.

علينا أن نزرع في ذهنية الشاب والشابة ونبين لهما أن مراعاة القانون والانضباط ضمن ذلك

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٤، ص ١٥٠.

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٤.

الالتزام القانوني سوف يحقق ثلاثة أمور هامة:

الأول: تحقيق الرفاه والاطمئنان لهما ولأسرتيهما ولمجتمعهما، وأن إشباع الغرائز من دون قانون وانضباط - حتى لو حقق رغبة محدودة - فإنه سيعود عليهما بالضرر الفادح والكبير في الزمن القريب غير البعيد.

ولذلك نرى أن الكثير من الناس الذين أطلقوا شهواتهم العنان من دون انضباط، سببوا لأنفسهم ولأسرهم ولمجتمعهم من الويلات والآلام والمشاكل ما لا يعلم به إلا الله تبارك وتعالى.

الثاني: تحقيق السعادة التي يصبوا إليها الإنسان.

الثالث: الإسهام في تحجيم أضرار تلك الشهوة التي تعترى الجانب الفلسفي أو الجانب الجسمي من الإنسان.

المحور الثالث: أهمية التسهيل في الزواج.

إن الزواج - والله الحمد - في مجتمعنا الأحسائي، بل في الخليج - عند من ينتمون إلى مدرسة أهل البيت عليه السلام ويستقون من مشربهم - سهل وميسر، إلا أننا بحاجة إلى تسهيل أكبر وأكثر باعتبار أننا نعيش في عالم مفتوح، فلم يعد هذا الزمن الذي نعيش فيه كالزمن السابق الذي يعيش فيه الشاب دون أن يطلع على مجريات الأمور التي من حوله، فلقد أصبح الشاب هذا اليوم يعيش العالمية بكل ما تعنيه كلمة العالمية من معاني، وذلك بواسطة الإنترنت، والفضائيات، والمجلات التي تُعنى بمختلف أنواع المعرفة وتحتوي على الكتابات والصور التي تثير شهوة المتقي فضلاً عن ذلك الإنسان الذي قد لا يكون له وازع من التقوى، فعلينا أن نلتفت لهذا الجانب، وتسهيل الزواج يسهم إسهاماً كبيراً في تحجيم ما يحيط بمجتمعنا من مشاكل وما تخطط له بعض تلك الفضائيات من خلال إيجاد بعض البرامج الهابطة، والمسابقات التي تدفع ذلك الشاب وتلك الشابة إلى السقوط في مهاوي الرذيلة والفساد.



من هنا ندرك أهمية التسهيل والتيسير في الزواج، فمن خلال ما ورد عن أهل البيت عليه السلام، نجد تركيزاً خاصاً على أهمية تقليل المهر، قال المصطفى عليه السلام: (أفضل نساء أمتي، أقلهن مهراً)^(١)، فالمرأة التي مهرها قليل، لها أفضلية على غيرها من النساء اللاتي مهرهن كثير، ومادام الحديث حول الشاب والشابة فهناك نقاط مهمة ينبغي أخذها بعين الاعتبار:

الأولى: إن فكرة الزواج المبكر التي ذكرناها سوف تحل الكثير من المشاكل التي نعيشها، ولكن باعتبار أن الشاب يكون مشغولاً بدراسته الجامعية، فقد لا يستطيع الزواج بمفهومه العام، ولكن يمكنه أن يرتبط بالشابة في هذه المرحلة برباط وثيق وهو العقد الشرعي، بمعنى أن يعقد على الفتاة وتبقى عند أهلها، وهو أيضاً يبقى عند أهله، ويمكنه أن يزور زوجته في بيت أهلها، أو هي تزوره في بيت أهله إلى أن تنتهي فترة الدراسة الجامعية، فيرتبطان بالزواج وهذه الطريقة لها دور كبير في التخفيف من نار الشهوة، وتحقيق اطمئناناً وأماناً نفسياً واجتماعياً، حتى على المستوى الدراسي، فيحقق للشاب والشابة مستويات علمية راقية ونجاحات باهرة، وذلك نتيجة الاستقرار النفسي والتركيز الذهني.



الثانية: علينا أن نراعي الحاجات الأساسية الملحة بالنسبة للشباب والشابات، ونسعى لتحقيقها، ونزيع العوائق التي تقف أمام تحقيق ذلك، فهذا أسلم من أن تنحرف تلك الفتاة فتؤثر على سمعة أهلها، أو ينحرف ذلك الشاب ويؤثر على سمعة أهله.

الثالثة: علينا أن نوضح للشاب والشابة، ما يعنيه قوله تعالى في الآية التي استهللنا بها حديثنا فالموددة هي: الحب، والرحمة هي: العطاء بلا حدود. وعندما يفهم ذلك الشاب ثقافة الإسلام، ويقدم كل منهما للآخر عطاءً بلا حدود فإننا نضع سياجاً رائعاً مستقى من خلال ثقافتنا الإسلامية، ومن خلال خلقنا القويم المأخوذ من القرآن

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٤، ص ٢١٦.

الكريم، ومن أحاديث المصطفى ﷺ، والعترة الطاهرة، وبذلك نبني أمتنا على أسس من الخير ودعائم من الفضيلة. أسأل الله تبارك وتعالى - ونحن في مستهل هذا الشهر، وهو شهر ربيع، الذي يكثر فيه التزويج - أن يكون لنا نحوان من الزواج:

١- الزواج الذي يتحقق فعلاً، بمراسيمه الخاصة واجتماع الزوجين معاً تحت سقف واحد.

٢- الزواج على حد تعبير الفلاسفة والعلماء، هو زواج بمرتبة القوة، أي نربط بين أبنائنا وبناتنا برباط العقد الشرعي الذي يسهم في تحجيم الرذيلة.



اختيار الزوجة وصفاتها

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) (الروم) صدق الله العلي العظيم.

استعرضنا في القسم الأول أهمية الزواج في بناء المجتمع الإنساني وفي إيصال الفرد إلى كماله في النواحي المتعددة الناحية النفسية والجسدية والروحية، وكذلك في تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع ككل، وقد وردت روايات متعددة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليه السلام تفصح عن هذه الحقيقة.

قال ﷺ: (ما استفاد امرؤ بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة، تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله) (١).

نجد هنا أنّ النبي ﷺ يبين هذا المطلب على أن أهم المنجزات والمكتسبات التي يحققها الإنسان في مساره التكاملي هو إناء الأسرة، الذي عبر عنه بالزوجة الصالحة التي تتوافر فيها مجموعة من الصفات:

الأولى: أنها قادرة على إشباع حاجة الزوج وإدخال السرور عليه، وبالطبع فإنّ النبي ﷺ عندما يعبر هذا التعبير بالنسبة للرجل، أيضاً يريد به المرأة، وبالتالي نستطيع أن نعكس هذا الأمر ونقول لها: لا توجد امرأة استفادت فائدة كبرى بعد إسلامها

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٤.

كاستفادتها بكونها زوجة وكونها لبنة في بناء صرح ذلك المجتمع المؤمن والمسلم.

الثانية: قوله ﷺ: (وتطيعه إذا أمرها) باعتبار وجود قيمومة في الدين الإسلامي للرجل على المرأة.

الثالثة: قوله ﷺ: (وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله) أيضاً هذه إشارة جميلة منه ﷺ على أهمية الاستقرار والأمانة في الأسرة، لأن الأسرة التي تتوافر فيها الأمانة ويتوافر فيها الاستقرار وتسلك جادة الصواب فهي أسرة ناجحة.

هذا المطلب الذي أبانته الروايات عن ﷺ والأئمة ﷺ، هو أيضاً ما يفصح عنه العلماء في دراساتهم في العصر الحديث، فهناك نظريات كثيرة وكتب تبين ما وصلت إليه الأبحاث الحديثة، وأن ما أبانه الإسلام في بدء الدعوة هو خلاصة لكل التجارب التي توصل إليها البحث العلمي في عصرنا الراهن. فهذا هو أحد أساتذة الجامعات من الباحثين يقول في هذا الشأن: [إن القضايا الجنسية هي من جملة الأمور التي يتمكن من خلالها الإنسان من إظهار أخلاقه وصفاته، فعلى سبيل المثال من يبدو في سلوكه الجنسي فاضلاً لهيئته على الآخرين، ومستغلاً لهم، فلا يمكن أن يكون في مراحل حياته الأخرى جديراً بالعدالة ومستعداً للمطالبة بها، كذلك فإن من يعتبر الجنس قدراً فلا يمتلك القدرة الكافية لفهم قيم القضايا].

وعلى هذا، فهناك أمران ينبغي للشباب أن يعيرهما أهمية كبرى:

الأول: مسألة العدالة في بناء الأسرة الصالحة، فالإنسان يستطيع أن يجسد قيم العدالة من خلال ارتباطه بالزوجة الصالحة، والكثير من الناس يمارس الظلم والجور، باعتبار أنه لم يفهم بعد قيم العدالة، وأن الطريقة المثلى لفهم العدالة تتأتى من خلال بناء الأسرة، فيتعرف الإنسان على مسؤوليته ويقوم بواجباته الملقاة عليه أحسن قيام، وبذلك يفهم حقيقة العدل التي جاءت به الشرائع السماوية، وأفصح عنها في القوانين الوضعية كأفضل سمة تحقق للإنسان الخير والرفاهية، هذا المطلب الذي أشارت إليه الأبحاث الحديثة، وقد ورد في كثير من الروايات بيان له، قال ﷺ: (خير أمتي: أولها



المتزوجون وآخرها العزاب^(١) أي أن الخير الذي يصل إليه الإنسان يتحقق من خلال الزواج، وقال عليه السلام: (يا شاب تزوج وإياك والزنا، فإنه ينزع الإيمان من قلبك)^(٢)، فالإنسان الذي لم يتزوج فإنه يسلك طريقين كل منهما لا ينسجم مع التقدم في الجانب الكمال للإنسان:

الطريق الأول/ هو أن يكبت شهواته، ويعود عليه الكبت والحرمان بمشاكل، من أسوأها العقد النفسية التي تجعله لا يعيش الطمأنينة والهدوء والاستقرار، ولا يستطيع التعامل بإيجابية مع الآخرين.

الطريق الثاني/ أن يطلق العنان لشهواته وبالتالي يسلب المجتمع أمنه واستقراره. فلا توجد طريقة مثلى غير ما أشارت له كل الشرائع السماوية، وبينه الإسلام بأروع ما يكون من تشريع وهو الزواج.

ويحسن بنا أن نبين مطلباً غاية في الأهمية يتناسب مع وضعنا الراهن، خصوصاً أننا في شهر يكثر فيه الزواج بمنطقتنا.

الثاني: ينبغي للشباب أن يستشير أباه، وأن يرجع لأمه، وأن يستفيد من ذوي الخبرة والاختصاص قبل أن ينتخب، وقد ورد في الروايات أهمية الاستشارة، لأنها مطلوبة في كل ما يرتبط بشؤون حياتنا، وبالاختصاص في الزواج، قال الإمام علي عليه السلام: (شاوّر قبل أن تعزم، وفكر قبل أن تقدم)^(٣) وقال عليه السلام: (ومن شاوّر الرجال شاركها في عقولها)^(٤)، فالإنسان إذا ضم عقول الآخرين وتجاربهم إلى عقله وتجاربهم فإنه بالتأكيد قد أثرى الجانب الذي يستطيع به أن يحقق أفضل النتائج التي يطمح أن يصل إليها.

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٤، ص ١٥٦.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ١٩٦.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٢٤.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٠٢٥.

من يختار الزوجة أو الزوج؟

هناك الكثير من الشباب والشابات يشكون من بعض الممارسات التي تفرض عليهم من قبل الأهل، فيقوم الأب مثلاً باختيار الزوجة التي يراها مناسبة لابنه، من دون أن يكون للابن أي دور في هذا الاختيار، وكأن الأب هو الذي سيتزوجها وليس الابن، وهذا من الأخطاء الفادحة التي ينبغي علينا أن نلتفت إليها، فالذي يريد أن يتزوج هو الشاب أو الشابة وليس الأب أو الأم، فمحور الاختيار ينبغي أن يكون بيد ذلك الشاب وبيد تلك الشابة.

وظيفة الأبوين تجاه الأبناء:

إنّ مهمة الأبوين تجاه أبنائهما هي إسداء النصيحة والتوجيه الذي يصب في مصلحتهم ويتمثل ذلك في عدة نقاط:

الأولى: أن يوضحا للشاب أو للشابة كيفية اختيار شريك المستقبل ومواصفاته التي تبنى على أساس الأحاديث الشريفة عن المعصومين عليه السلام، مثل ما ورد، عن المصطفى صلى الله عليه وآله: (اختاروا لنطفكم فإن العرق دساس)^(١).



الثانية: ذكر توجيهات العلماء حول كل ما يرتبط بالحياة الزوجية.

الثالثة: أن يتحدث الأبوان عن تجاربهما كزوج وزوجة.

الرابعة: التركيز على الابن في أن يهتم بالدين والخلق في صفات الزوجة، قال صلى الله عليه وآله: (وعليك بذوات الدين تربت يداك)^(٢)، وأنّ الزوجة ليست بها لها أو بجمالها لأن المال يزول، والجمال مجرد إرواء لظماً جنسي في فترة محدودة، ثم يتلاشى ويتتهي، بينما الذي يبقى هي تلك السمات والصفات والركائز الأساسية التي تتوافر في شخصية تلك المرأة الصالحة والتي تشده وتربطه بها في كل حركة وسكون، وهذا كله يربط الزوج بها ارتباطاً وثيقاً، لا يمكن أن ينفصل، ولذلك نجد أن بعض الأزواج، إذا ماتت زوجته

(١) تربية الطفل في الإسلام: مركز الرسالة: ص ٢٨.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ١١٨.

يتألم كثيراً، لأنها مثلت له المحور في حياته، والطمأنينة والهدوء والاستقرار والسكينة والرابطة لإيمانية، وهذه هي الزوجة التي يريدها الإسلام وتشير إليها الروايات.

مشكلة انتخاب الأبوين زوجة الابن في الروايات:

إن مشكلة اختيار الأبوين للزوجة دون أن يكون للابن أدنى رأي، ليست من مختصات مجتمعنا الذي نحن في كنفه، بل كانت لها جذور عميقة ممتدة إلى زمن الأئمة عليهم السلام، واستعرضت في الروايات: عن أبي يعفور سئل الإمام الصادق عليه السلام عن مسألة اختيار الأب والأم للزوجة دون جعل رأس الخيط بيد الشاب، قلت له عليه السلام: (إني أريد أن أتزوج امرأة وإن أبويَّ أرادا غيرها، قال تزوج التي هويت ودع التي يهوي أبواك)^(١) بمعنى أن يكون محور الاختيار ورأس الخيط في الانتخاب بيد الشاب والشابة، لأن نزع جانب الحرية منهما، سيجعل كل المشاكل التي تتحقق في المستقبل ترجع إلى سلب الاختيار منهما، وبالتالي لتفادى ذلك، ينبغي أن نعطي الشاب والشابة كامل الحرية في الاختيار، وبهذا يتحقق بناء العش الزوجي السعيد، والأسرة الصالحة في المستقبل.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٩٣.

اختيار الزوجين في أحاديث المعصومين عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

لا زال الكلام موصولاً حول تصحيح وإيضاح بعض المفاهيم المتعلقة بالزواج، استعرضنا فيما تقدم بعض الأبحاث التي لها أهمية في اختيار الرجل للمرأة التي يريد أن يتزوج بها، وكذلك في اختيار المرأة للرجل الذي تريده.

الزوجة المثالية عند المعصومين عليه السلام

ونوضح هنا بعض ما جاء من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام في مميزات الزوجة المثالية، ونستعرض ذلك باقتضاب ضمن أمور:

الأول: الدين والخلق.

إنّ هذين المحورين هما الركيزة الأولى التي أكد عليها الإسلام في اختيار المرأة، وذلك لدورهما الكبير في إنجاح الحياة الزوجية، وجعلها حياة سعيدة، أما بقية العوامل الأخرى، فينبغي أن تنصهر فيهما، ولا يعني هذا أنّ الإنسان لا يسعى نحو العوامل الأخرى كالجمال غير أنه ينبغي أن يكون المطلب الرئيس والأساس لمن يبتغي الزواج هو الخلق والدين، ولا يكون الدين تبعاً للجمال أو تبعاً للمال أو تبعاً للأسرة

بل تكون الأمور الأخرى تابعة للدين ولو تعارض الدين مع الأسرة فالراجح هو الدين، إذن لو تعارض الدين مع الجمال فالراجح هو الدين، باعتبار أن أي عامل من العوامل الأخرى لن يدوم بل يبقى فترة مؤقتة ثم يتلاشى، أما الخلق والدين فهما عاملان ثابتان والدين أكثر من الخلق كما أكدت على ذلك الروايات باعتبار أن الخلق تابعاً للدين في الأعم الأغلب.

جاء عن النبي ﷺ في إيضاح ما تقدم أنه نهى (أن تنكح المرأة لما لها وجمالها، وقال ما لها يطغيها، وجمالها يرددها، فعليك بذات الدين)^(١)، إنَّ بعض الناس ينكح المرأة ويتزوجها لأجل أنها من أسرة كريمة فقط، ويغفل أهمية الخلق والدين، والروايات أوضحت أن هذا الزواج لا يستقر ومآله إلى الفشل إلا ما شاء الله، قال النبي ﷺ: (من نكح امرأة حلالاً ببال حلال غير أنه أراد به فخراً ورياء وسمعة لم يزد الله بذلك إلا ذلاً وهواناً)^(٢)، والذل والهوان كناية عن عدم الارتياح والاستقرار والطمأنينة والدعة والعيش الرغيد في مسيرة الزواج، وهذا المعنى الذي أكدته الروايات أثبتته البحوث العلمية الحديثة، فالاستبانات والاستقراءات المتعددة أكدت على أهمية الدين والأخلاق في نجاح الزواج.

قال أحد العلماء الذين بحثوا هذا الشأن (هاروي لاك) في كتابه «توقع التوافق في الحياة الزوجية» إنَّ عدم الاهتمام بالدين له تأثير كبير في إرباك الحياة الزوجية.

الثاني: العقل والأدب.

إنَّ عقل المرأة وحسن تدبيرها في الأمور أمر جد هام ويرجع إلى حسن تربيتها، واهتمام أهلها بتنشئتها على إدارة المنزل، وطريقة التعامل مع الظروف الصعبة، قال الإمام الكاظم عليه السلام عندما ذكر عنده النساء، أنَّ خيرهن (ما كان لك فيها هوى،

(١) دعائم الإسلام: القاضي النعمان المغربي: ص ١٩٥.

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ١٤، ص ٣٢.

وكان لها عقل وأدب فلست تحتاج إلى أن تأمر ولا تنهى^(١) والإمام يؤكد على أنّ هذا النوع من النساء لا يحتاج إلى أمر ونهي من الزوج، فهي تعرف دورها ووظيفتها بنحو كامل، وهذه ميزة راقية في الزوجة.

الثالث: عدم الاكتفاء بجمال المرأة.

أكدت الروايات أنه لا ينبغي أن تطغى عوامل الإثارة على نوعية انتخاب الرجل للمرأة، خصوصاً فيما يرتبط بشكلها، غير أنّ بعض الشباب يهتم بجمالها وشكلها الخارجي فقط دون الالتفات إلى الأمور الأخرى، وهذا أمر خطراً جداً على الشباب الذين لا يعلمون بعواقب الأمور، ولا تتوافر لديهم تجارب في هذا الشأن، وقد أكد النبي ﷺ على أن هذا العامل لا ينبغي أن يغفل العوامل الأخرى ويجعل عليها ضبابية دون انتباه إلى العواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، قال ﷺ: (إياكم وخضراء الدمن، قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء)^(٢) والتشبيه رائع، فهناك بعض الجيف أشبه بمياه المجاري، تنبت عليها أعشاب جميلة ورائحة، غير أنّ أساسها سيء، وقد يقترن بهاء المنظر بالروائح التي تؤذي وتدوم، ولذلك قال ﷺ: «خضراء الدمن» هي امرأة حسنة غير أنّ منبتها سيئة.

الزوج المثالي عند المعصومين عليه السلام:

من المسائل التي أكدت عليها الروايات أنه ينبغي لمن أراد أن يزوج كريمته - الأب وولي الأمر - أن يراعي استمرار واستقرار وهناء الحياة الزوجية، ولا يحصل ذلك إلاّ بأمور وميزات لا بد من مراعاتها.

التدين والأخلاق الحسنة:

أي أنّ المرأة إذا خُطبت ينبغي أن يُنظر أولاً في دين الرجل وأخلاقه، وقد أكدت

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٧.

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٣٥.

الروايات على هذا غاية التأكيد، قال النبي ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه، فزوجه، إلا تفعلوه، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)^(١)، وحذر ﷺ من الذين لا يتوافر فيهم الدين، فقال ﷺ: (من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمه)^(٢)، فهو ﷺ أبان أنّ من أعطى ابنته لفاسق على أساس منصب أو مال أو وجاهة أو لأسرة كريمة، فقد أودى بابنته إلى الهاوية، وقد تصل الأمور إلى ما لا يحمد عقباه، فالأب لم ينفعها، بل أضّر بها، وقطع رحمه ولم يصله بما ينفعها، والتأكيد على أهمية الأخلاق والدين بل على خصوص الدين، لأن بعض الروايات أكدت على مسألة الدين أكثر من تأكيدها على الأخلاق باعتبار أن الخلق يتأتى تبعاً للدين، غير أنّ الدين لا يأتي تبعاً للخلق، ونعلم أنه عند اشتداد الغرائز إذا لم يتوافر الدين للإنسان فإنه سينفلت تحت وطأة شدة غرائزه، أما إذا كان الدين متوافراً لدى الإنسان، فإنه سيقى نفسه من الانزلاق ويحفظها بالتوازن ويجعلها في المسار الصحيح، والروايات بتأكيدها على أنّ الدين يتبعه الخلق إلا ما شاء الله تحض على أهمية الركن الأساس في الشخصية، نعم هناك نواذر أي أنه قد يتوافر الدين مع سوء خلق غير أنّ الأعم الأغلب هو التوأمية بينهما إذ من كمال الإيمان الخلق الجميل الحسن، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (رأس الإيمان حسن الخلق والتحلي بالصدق)^(٣)، ورأس الإيمان أي القمة منه أن يكون الإنسان إيمانه يدل على الخلق الكريم، كتب الحسين بن بشار إلى إمامنا الرضا عليه السلام يسأله عن مسألة في هذا الشأن فقال: إن لي ذا قرابة قد خطب إلي وفي خلقه سوء؟ قال إمامنا الرضا عليه السلام: (لا تزوجه إن كان سيء الخلق)^(٤)، وقال ﷺ: (أحسن الناس إيماناً أحسنهم خلقاً ولطفهم بأهله)^(٥)، فالتعامل بلطف مع



(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٧٦.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٢٠٤.

(٣) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ص ٢٦٣.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١٨٣.

(٥) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٨، ص ٣٨٧.

الزوجة ولين عريكة يبرز حقيقة الإيمان، قال عليه السلام: (خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(١)، فالكمال في التعامل باللطف والرحمة والمودة يجسد منتهى الحسن الكمال في شخصيته عليه السلام، والروايات أفصحت أنّ من زوج كريمته من شخص لا دين له فقد جعلها تعيش الظلم طوال حياتها، إنّ الحياة فيها الحلو والمر وفيها المشاكل واللطف والدعة والاستقامة والاستقرار والأشياء الجميلة كثيرة غير أنه قد يطغى المر على الأمور الحسنة الجميلة لذا أكدت الروايات.

قال الإمام الحسن عليه السلام عندما سأله رجل: إنّ لي ابنة فمن ترى أزوجه؟ قال عليه السلام: (زوجها من رجل تقى، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها)^(٢)، فحب التقى كرم في التعامل بمكارم الأخلاق وبغضه سير على جادة الصواب والقانون الإسلامي، فلا يبخس المرأة حقها، ويتعامل وإياها كما ينبغي أن يتعامل لأنه مؤمن، والدين والخلق من الركائز العميقة المؤثرة في استمرار وديمومة الحياة الزوجية في حسن وبهاء.

عادات غير حسنة:

ونحذر هنا من بعض العادات الخاطئة التي يقوم بها بعض الناس ثم تنتشر كانتشار النار في الهشيم، منها دخول أبي البنت مع أبنائه ليلة الزواج، فهذا تصرف غير صحيح وغير محبذ، فليلة الزواج ليلة خاصة تأتي النساء فيها بألبسة وفساتين مختلفة، وقد لا يُراعى الحجاب بنحو كامل، وبالتالي فهناك إثارة وفتنة والدخول مورد شبهة ينبغي للمؤمن أن يتبعد عن مواطن وموارد الشبهة، قال النبي عليه السلام: (حلال بين وحرام بين وشبهات بين ذلك)^(٣)، فإن لم يكن العمل حراماً فعلى أقل تقدير هو من موارد

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٧١.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١٨٢.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٧، ص ١٥٧.

الشبهة، وينبغي للمؤمن السائر على خط أهل البيت عليه السلام أن يُجَنَّب نفسه موارد الشبهة خصوصاً بعض الشبهات التي عواقبها وخيمة، ونُذكر هنا على أنّ الكثير من الانحرافات السبب الرئيس فيها النظرة الحرام، فهي تؤدي بالإنسان إلى الهلاك، جاء في الرواية أنّ النظرة سهم الشيطان الذي يصطاد به، فما بالك إذا لم تكن نظرة واحدة بل عشرات ومئات عندما يدخل والد العروس مع أبنائه ليلة الزواج وهم أجنبان على أجنبيات، ينبغي الحذر والبعد عن العادات الخاطئة.



الزواج من الأقارب والأباعد

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ ءَايَنْتَهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

استعرضنا بعض ما يتعلق بالزواج من أبحاث ونستعرض في بحثنا موضوعين هامين لهما علاقة ذات شأن بالزواج:

الأول: الزواج من الأقارب.

الثاني: الزواج من الأباعد غير الأقارب.

الزواج من الأقارب:

إنّ الزواج من الأقارب لا مانع منه من الناحية الشرعية، بل هناك بعض الروايات التي قد يستفاد منها استحباب الزواج من الأقارب إذا تحقق شرطان أو أكثر، الأول: أن يكون الزواج لله تعالى، والثاني: أن يراد به صلة الرحم، ورد عن المصطفى ﷺ: (من تزوج لله ولصلة الرحم توجه الله بتاج الملك)^(١)، وتاج الملك كناية عما أعده الله تعالى من النعيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال يوم القيامة، فالتعبير كناية عن مرتبة من السعة في عالم الغيب في الآخرة، إذن الزواج من الأقارب قد تتحقق به

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٥١.

بعض الفوائد منها صلة الرحم، ونضيف هنا مسألة هامة لها أثرها في الزواج من الأقارب هي أنّ الزواج من الأقارب لا بد أن يبتني على أسس موضوعية فالروايات التي استعرضنا شطراً منها لا ينبغي أن نلغي الخصوصية التي تبين أهمية الدين منها كقوله ﷺ: (وعليك بذات الدين تربت يداك) ميزان الحكمة ج ٤ أو الروايات التي تفصح عن أهمية الخلق في الزوجة، فهذه الصفات لها موضوعية في اختيارها ولا يمكن أن يتغاضى من أراد الزواج عنها، ويسدل عليها ستاراً كي يتزوج من أقاربه أي أنّ الزواج من الأقارب لا بد أن تتحقق الشرائط الموضوعية فيه يضاف إلى ذلك صلة الرحم كي يكون الزواج من الأقارب مستحباً، ومن الأمور الهامة التي يجب مراعاتها الشرائط الصحية فمن يريد أن يتزوج من إحدى قريباته عليه أن يلحظ الجانب الصحي، خصوصاً في منطقتنا لوجود أمراض الدم الوراثية وغيرها من الأمراض التي تدعو الإنسان أن يفكر مراراً قبل أن يُقدم على الزواج، لأنه لا يكلفه وحده، وإنما يكلف الجيل القادم عناءً ومشقةً ويتطلب خسائر فادحة، تتحمل الدولة والوطن الكثير من أعبائها، بالإضافة إلى انشغال الوالدين بالجانب الصحي للأبناء فعلياً أن نبحت في زواج الأقارب الناحية الموضوعية، فلا مانع من الناحية الشرعية بالزواج من القريبات، وقد يكون محبباً إذا توافرت الشرائط الصحية في الزوجة القريبة، وتوافرت الشرائط الموضوعية التي أشارت إليها الروايات كالدين والخلق، بالإضافة إلى ما ذكرناه من إرادة المتزوج التقرب إلى الله تعالى وصلة الرحم)، فإذا تحققت هذه الحثيات فالزواج من الأقارب من المستحبات.

الزواج من الأبعد:

والزواج من غير الأقارب له ميزات متعددة، قد لا تتوافر في الزواج من الأقارب نستعرض بعضاً منها:

الأولى: التعارف بين الناس.

وهي ميزة هامة جداً، ولا يراد به التعارف النظري بل التعارف العملي بمعنى

التمازج والتداخل القوي والمتين، ولعل ما ورد في الأمثال المتداولة على الألسن (كن نسيباً ولا تكن ابن عم) يبين هذه الحثيثة، فالزواج من الأباعد يخلق روابط كبيرة ومتينة، ويفتح للإنسان آفاق رحبة قد لا تخطر على ذهنه عندما أقدم على الزواج، فالكثير من المصالح التي لم يلتفت إليها في الزواج من غير القريبات أي الأباعد تتحقق، وهذه ظاهرة جليلة في سيرة المصطفى ﷺ والأئمة من أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، فقد تزوجوا من البعيدين، وذلك من أجل تكوين روابط لها أثرها الفعال في النواحي الاجتماعية والثقافية، وإنشاء علاقات متينة بين القبائل والمجتمعات، لذا وجدنا بعض زوجات الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لا يرتبطون معهم بنسب.

الثانية: إلغاء الطبقة الاجتماعية.

لا يخفى على أحد أن المجتمع الإسلامي فيه طبقات مختلفة كالسيد والعبد، والشريف في النسب والأقل منه، والأسود والأبيض، والغني والفقير، لذا سعى الإسلام لإزالة الفوارق تبعاً لمنهجه القويم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، ومن هذا المنطلق قام الرسول ﷺ بتزويج المقداد من أشرف القبائل قريش، بل من بني هاشم، قد تزوج من بنت عم الرسول ﷺ وهو الزبير بن عبد المطلب، والمقداد عبد وليس من القبائل المعروفة، ولا مكانة ووجاهة له، والنبى ﷺ الطاهرين أفصح عن سبب ذلك فقال ﷺ: (ليتسع النكاح فينا له كل منكم، ولتعلموا أن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(١) أي أن هدف الزواج إلغاء الفوارق الطبقة حتى لا يقال إن فلاناً أكفأ أو أرفع درجة، وبذلك يحقق الشارع روح التسامح، ويزيل الفوارق التي بسببها تحدث المآسي، وقد مارس هذا الواقع الأئمة من أهل البيت ﷺ ممارسة عملية فكانوا يتزوجون بالجواري، وقد لامهم بعض باعتبار أنهم لسن من العرب، إلا أننا نأسف أن الفوارق الطبقة لازالت متفشية وموجودة إلى يومنا الحاضر، وإن كانت قلت بنحو ملحوظ غير أن البعض لا زال يفكر بالنمط القديم

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٤، ص ١٨٦.

فلا يلحظ الكفاءات والقدرات التي يمتلكها الشاب، ولا الجانب الديني والخلقي بل يجعل المقياس القرب والبُعد القبلي ويرى أنّ بعض الناس لا يمكن أن يزوجه بحجة أنّه بعيد لا يدخل فينا، والنتيجة أن تبقى مجموعة من النساء عوانس.

الثالثة: الفوائد الصحية في الزواج من الأبعد.

إنّ هذا الأمر ليس بقاعدة عامة، غير أنّ الأعم الأغلب هو أنّ من يتزوج من الأبعد يرى خلوهن من أكثر الأمراض والمشاكل الصحية، وهي أمور كثيرة. أولاً: أن يتجنب الأمراض الوراثية الموجودة عنده.

ثانياً: أن يحقق فوائد لأبنائه من ناحية القوة والذكاء والحيثيات الأخرى التي قد تتوافر في من يتزوج منهم، جاء في الحديث الوارد عن النبي ﷺ بيان هذا الأمر بتعبير جد جميل، قال ﷺ: (اغْتَرَبُوا لَا تَضُؤُوا)^(١)، ضؤى في اللغة بمعنى: ضَعُفَ. والحديث عن المصطفى ﷺ يشير فيه إلى معنى رائع وجميل، وهو أنكم إذا ابتعدتم تحققون جانباً صحياً كبيراً يحقق متانة في الجسم، ونموّاً لدى الجيل الجديد، ولذا نجد الكثير من الأمراض الوراثية عندنا السبب الرئيس يكمن في الزواج من الأقارب، والأحاديث الشريفة تشير إلى هذا المضمون وتريد أن تبين أهمية إزالة السلبات التي تتحقق في الزواج من الأقارب، وتبين تحقق فائدة كبيرة في إبراز الجانب الإيجابي للزواج من الأبعد، وعلينا أن نلفت النظر إلى أنّ ما ذكرناه يمثل الأعم الأغلب، وليس قاعدة مطردة ودائمة، إذ يمكن للإنسان أن يتزوج بامرأة مصابة ببعض الأمراض التي يحملها هو مع أنها بعيدة عنه، وليست من أقاربه، ومن هنا ينبغي أن نلاحظ هذه الأمور بعين من الموضوعية والروية، فلا تأخذ من يريد الزواج العاطفة ويتعجل، فيقع فيما لا تحمد عقباه، بالإضافة إلى وجود جوانب هامة أشارت إليها الأبحاث الحديثة، قد لا نتفق تماماً معها ولكن نشير باقتضاب إليها ككون الجانب الجنسي في الدافعية في الزواج من الأبعد أقوى منه بكثير في الأقارب أي قوة الدافعية الجنسية



(١) المجازات النبوية للشريف الرضي: ص ٩٣.

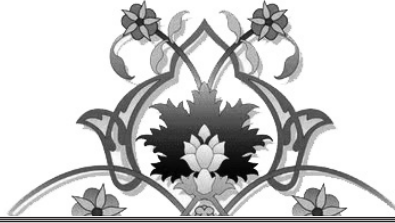
والربط الوثيق من الناحية الجنسية أقوى وأشد في الزواج من الأبعاد، هذه بعض الأمور العامة والحديث التي لا بد أن تلحظ من لدن الشباب والشابات، وأؤكد هنا على بعض النقاط الهامة التي ينبغي أن نلتفت إليها:

الأولى: أن التصوير في الزواج فيه شؤون وشجون، فالمسألة لا ترجع إلى الحلية والحرمة، فهناك بعض الحلال له مخاطر كبيرة وكثيرة، فالزوجة في ليلة زفافها والنساء اللاتي معها يأتين وهنّ بكامل زينتهنّ، ويتم تصوير النسوة من قبل أيدي غير أمينة وغير ملتزمة، وقد تنقل الصور إلى من يسيء الاستفادة منها، وقد يستخدم تقنية الحاسب الآلي في تركيب هذه الصور على أجساد نساء غير محتشمات أو إظهار أصحاب هذه الصور في أوضاع مخلة بالأدب والأخلاق، ويتم ذلك بطرق فنية مختلفة، وبالتالي تتعرض العائلات المحترمة إلى إساءة السمعة والمهانة الاجتماعية، وقد تستغل بعض النسوة هذه الطريقة للابتزاز الجنسي، وتضغط على من صوّرت للقبول بالرديلة كي تحافظ على سمعتها وعرضها، وقد تسقط بعض الفتيات في الرديلة كما نقرأ ذلك في الصحف، فالمسألة ليست بسيطة والتصوير قد يؤدي إلى فضائح وهتك أعراض وإساءة سمعة إذا لم يتوخى الحذر والحيلة.

الثانية: وهي جد هامة، وتتعلق بالتصوير أيضاً في الأعراس والحفلات الخاصة، فعندما يؤخذ فيلم الكاميرا ليحمض أو يُجرى عليه تعديلات في بعض الاستوديوهات التي تعمل فيها عمالة أجنبية تختلف معنا في ثقافتنا، وتبحث هذه العمالة عن الصور التي لها طابع جمالي أو لها بعض الحشيات الأخرى، ثم تقوم بنشرها أو بيعها من أجل مكاسب مادية، وهذا يمثل خطراً كبيراً على مستقبل الزوجة وعلى عائلتها، وقد تتعرض للطلاق بسبب بعض الأخطاء غير المقصودة.

الثالثة: إنّ الجولات المدمجة بكاميرا، والتي تحمل من بعض النسوة إلى حفلات الزفاف النسائية، وتصور بها النساء، قد تحصل الاستفادة سيئة من الصور من دون قصد، وينبغي هنا أخذ الحذر ومحاولة منع دخول الجولات المدمجة في حفلات الزواج، وتنبيه الأهل والنساء على توخي الحذر في هذا الشأن.





الفصل الثاني:

■ ■ أسس ومبادئ الحياة الزوجية السعيدة ■ ■



الأول: الاختيار السليم بين الرجل والمرأة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

وقال رسول الله ﷺ: (من سعادة المرء الزوجة الصالحة)^(١).

أهمية الزواج في حياة الإنسان.

من أهم المنعطفات في حياة الإنسان تأسيس الحياة الزوجية، ويؤثر هذا المنعطف على الزوجين - الرجل والمرأة - لما له من أهمية كبيرة على مسارات الحياة المختلفة، وبه يتحقق التكامل على جميع الأصعدة المتنوعة، ونستطيع أن نوجز أهميته في أمرين:

الأول: الوصول إلى السعادة والاستقرار.

يشير بعض العلماء إلى أهمية الزواج بقوله: لا يوجد شيء يستحق أن يُعدَّ له الإنسان روحه وقلبه كالزواج. وذلك، باعتبار أنَّ الزواج له تأثير كبير في حياة الإنسان؛ بحيث يجعلها ترفل بالسعادة وتهيمن عليها الطمأنينة وتحفها السكينة والهدوء، ويستطيع المتزوج أن يسير في خطى الحياة بثبات واستقرار. ولعل حديث الرسول ﷺ الذي

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٤١.

ذكرناه يشير إلى هذه الحقيقة، (من سعادة المرء الزوجة الصالحة)^(١) وقوله ﷺ: (ما استفاد امرؤ فائدة بعد الإسلام؛ أفضل من زوجة مسلمة، تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله)^(٢).

الثاني: الوصول إلى كمال الدين.

إن تكامل المرء لا يحصل بشكل سليم إلا من خلال الزواج؛ لأنه يعطي المرء أكبر قدر ممكن من الحصانة ضد الانحراف، وكان النبي ﷺ يُرشد الشباب، ويحضهم على الزواج، كي تحصل المناعة الكافية من مزالق الشيطان، قال ﷺ: (يا شاب عليك بالزواج، وإياك والزنا؛ فإنه ينزع الإيمان من قلبك) مكارم الأخلاق للطوسي ص ١٩٦، وخطابه ﷺ في الحديث ليس موجهاً لفئة خاصة من الشباب، بل يعم جميع أفراد الشباب ذكوراً وإناثاً، والزواج صيانة للشباب والشابة من الانحراف، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (لم يكن من أحد من أصحاب النبي ﷺ يتزوج إلا قال ﷺ: (كمل دينه)^(٣) وكمال الدين تعبير غاية في الروعة باعتباره يرتبط بتوافر أساس هام يكمل الجوانب العبادية والمعنوية في الإنسان، ويحافظ على بقاء واستمرار هذه الجوانب متألفة مشرقة في مسيرته التكاملية.

الأسس السليمة للحياة الزوجية

إن كثيراً من الشباب والشابات لا يعرفون الأسس والقواعد السليمة التي تُبنى عليها الحياة الزوجية السعيدة، لذا، لا بد لنا أن نستعرض بعض القواعد الهامة، التي لها مدخلية في إيصال الشباب والشابات إلى الفهم الصحيح في اختيار الشريك الآخر بشكل جيد، ومن أهم الأسس التي يقوم عليها الزواج، الاختيار السليم للزوج والزوجة.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٤، ص ١٥٠.

الاختيار السليم أساس الزواج السعيد

إن الروايات الشريفة ركزت بشكل واضح على أهمية اختيار الشريك الآخر، وإذا لم يختَر أحد الزوجين شريك حياته بنحو سليم، فإن المستقبل لن يكون مضيئاً له، خصوصاً أنَّ الشاب والشابة في مقتبل عمرهما؛ ولا يمتلكان التجارب التي تؤهلها للوصول بذاتيهما إلى فهم معايير الاختيار السليم، ويمكن أن نلخص ذلك في نقطتين رئيسيتين:

الأولى: الاختيار على أساس الدين والخلق.

الدين والخلق هما أهم الأسس التي يقوم عليه الاختيار في الزواج السليم؛ وقد ركزت الروايات على هذا الجانب ومنحته أهمية فائقة؛ لما له من تأثير إيجابي ينعكس على الزوج والزوجة، قال النبي ﷺ: (عليك بذوات الدين، تربت يداك) ^(١) إنَّ اختيار الزوجة التي رضعت الإيمان ورُبيت على مبادئ الدين من أساسيات الزواج السعيد؛ ذلك أنَّ الدين سوف ينعكس على خلقها ويعود على الزوج ونسله بخير كثير، وقد أكدت الروايات عليها، وأوضحت الآثار الوخيمة المترتبة على عدم الأخذ بذلك، روى إمامنا الباقر عليه السلام عن جده النبي الأكرم ﷺ قوله: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) ^(٢) فالشخصية التي تتصف بالمستوى الديني والخلقي الجيد، ينبغي أن لا تُرد حين تتقدم لخطبة فتاة؛ لأنَّ ردها سيؤول إلى الفتنة والفساد الكبير؛ وتتضح الفتنة بجلاء من خلال عزوف الكثير من الشباب عن التقدم لتلك الفتاة، فتبقى في بيت أهلها دون حصولها على الزوج المناسب، ويعود الضرر ليس عليها فقط بل على الشاب أيضاً، ويؤدي بهما في النهاية إلى هاوية السقوط والانحراف، ولو تتبعنا أسباب الانحراف في أوساط الشباب والشابات لوجدنا أنَّ أقوى الأسباب تأثيراً التأخر عن الزواج.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٨.

(٢) عوالي اللثالي لابن أبي جمهور الأحسائي: ج ٢، ص ٣٤٠.

ما هي أهمية الدين والخلق؟

إن الشخصية المتدينة لا يصدر منها الظلم لشريكة حياته مهما بلغت شدة الخلاف بينهما، وذلك أنه يرتبط بالقانون الإلهي، ولا ينطلق من الفوضى والنزوات الفاسدة، وردود فعله من خلال التطبيق الدقيق لقواعد الشريعة الإسلامية، وهذا ما أفصحت عنه الروايات قائلة إذا زوجت ابتك من المتدين، فلن يسيء إليها حتى إذا اختلف معه، وقد بحث علماء العصر تأثير الدين في الحياة الزوجية، وتوصلوا إلى أن من يرتبط بالدين، أكثر نجاحاً في علاقاته الزوجية، وذلك أن الجانب المعنوي في حياة الإنسان، يصيره ينظر إلى شريك حياته بعين الرضا والتقدير، ويؤدي ذلك إلى تجاوز السلبيات المؤثرة على استقرار الحياة الزوجية، قال عليه السلام: (عليك بذات الدين تربت يداك) ^(١) وقاله عليه السلام: (ما استفاد امرؤ بعد الإسلام أفضل من زوجة صالحة) ^(٢) والأخلاق لا تقل أهمية عن الدين في اختيار الشريك الآخر، بل تمتاز بأهمية كبيرة وذلك أنه كلما اتسع الجانب الأخلاقي امتلك الإنسان مرونة فائقة أكبر مما يجعل حياته في وئام وسعادة تمكنه من اجتياز المشاكل الزوجية بنجاح، وتعدي عقباتها بسلام.



الثانية: الحرية التامة في اختيار الشريك الآخر.

إن اختيار الطرف المناسب يرجع إلى الزوج والزوجة؛ فالزوج له الحرية التامة في اختيار شريكة حياته، والزوجة لها ذلك في اختيار شريك حياتها، ولا يحق لأي طرف من العائلة أن يفرض رأيه ويجبرهما على شخص معين، لا يرغبان فيه، ولا يعني هذا استغناء الشاب والشابة عن مشورة غيرهما في اختيار الشريك الآخر، بل الأفضل أن يستعينا بالأبوين باعتبار تجاربهما في الحياة، وما عاشاه من عمر كفيل بمنحهما صواب الرأي، ويمكنهما الاستفادة من ذوي الرأي الحصيف، الذين أنضجتهم تجارب الحياة.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٨.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٤١.

نتائج الاختيار الصحيح للشريك الآخر

إن اختيار الشريك الآخر له من التأثير الشيء الكبير، ليس على حياة الإنسان الحالية؛ بل على مستقبله وذلك أن نسله وامتداده سيرتبط بمن اختاره، وهنا نتيجتان هامتان للاختيار السليم:

الأولى: الوصول إلى السعادة المعنوية.

إن سعادة الإنسان المعنوية، تتوقف على اختيار الزوج؛ فإذا كان الاختيار يقوم على أسس موضوعية؛ أثر تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله.

الثانية: نجاح الحياة الزوجية.

إن من استعجل بالاختيار؛ ولم يرجع إلى ذوي الرأي أو إلى أبويه فإنّ تسرعه قد يتسبب في اختيارٍ فاشل يؤدي إلى فشل حياته ومستقبله، وضياع أبنائه.



الثاني: خصال الزوجة بين العقل والجمال والوراثة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم).
صدق الله العلي العظيم.

أهمية الدين في اختيار الزوجين

استعرضنا مبادئ الاختيار السليم بين المرأة والرجل للحياة الزوجية السعيدة، وذكرنا معيارين من المعايير هما الحرية التامة في اختيار الشريك الآخر، والاختيار على أساس الدين والخلق، ولا بد من التركيز على ذلك إكمالاً للبحث السابق، لأهمية اختيار الزوج لزوجته واختيارها له على أساس الدين وحسن الخلق، وقد وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  ذكرنا طائفة منها، خصوصاً ما يفصح عن أهمية اختيار الزوجة ذات الدين من لدن الرجل، ونريد أن نكمل البحث بذكر ما يبين أهمية الدين في اختيار الزوج من المرأة؛ ورد عن النبي ﷺ: (من زوج كريمته من فاسق؛ فقد قطع رحمه)^(١) وندرك عمق هذه الرواية باعتبار أن مآل الولد الذي تلده المرأة سيندر ويتلاشى من ناحيتين: الناحية الطبيعية، والناحية الدينية المعنوية، وكلاهما يرتبط بتأثير الفسق على الحياة، والنبي ﷺ في قوله: (فقد قطع

(١) مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٢٠٤.

رحمه) يريد أن يوضح أنّ الأب لم يمنح لابنته البقاء والاستمرار من الناحية الطبيعية لأنّ الذنوب والآثام تؤثر على وجود الإنسان واستمراره، ولا من الناحية الدينية المعنوية باعتبار أنّ الذنوب والآثام تخرجه عن ربة الدين ورابطة الإيثار.

المعيار الثالث: الاختيار على أساس توافر العقل.

المعيار الثالث العقل ويتسم بأهمية فائقة في حياة الإنسان، إذ أنه يمثل ميزاناً يوزن به الصواب من الخطأ ويُعرف به الخير من الشر، وورد في الروايات الإفصاح عن الأهمية الكبيرة للعقل، قال الإمام الصادق عليه السلام: (العقل ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان)^(١) وورد أنّ العقل يُطاع به الباري تعالى. فالعقل من الأهمية بمكان واختيار المُقبل على الزواج المرأة العاقلة بالإضافة إلى الدين والخلق، لأنّ العقل عامل رئيسي في استمرار حياته معها في وئام وانسجام، وللعقل دور كبير في انتقال سمات الفهم الدقيق لشؤون الحياة والتعامل بمنطق إلى الأجيال الآتية من نسله. والنبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته عليهم السلام ركزوا على أهمية العقل كمعيار مؤثر في الاختيار السليم للزوجة، وأشاروا إلى الخطر الفادح المترتب على إهمال العقل من الوقوع في البلاء في المعيشة وضياع الأولاد؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إياكم وتزويج الحمقاء؛ فإنّ صحبتها بلاء وولدها ضياع)^(٢) وكل إنسان يدرك أنّ غير العاقل يوقع غيره في أمور لا تُحمد عقباها؛ ويدخله في مشاكل هو في غنى عنها؛ لأنه لا يُحكّم منطق العقل في التعامل الإيجابي بينه وبين الآخرين، قال شاعر الفرس الخيام:

فاشرب نقيع السُّمِّ من عاقل واسكُب على الأرض دواء الجهول
والشعر يشير إلى أنّ العدو العاقل إنْ قدّم لك سماً نقيعاً فاشربه فهو أولى من الدواء
الذي يقدمه الجاهل. والإنسان من المهم أن يركز في اختياره على العقل والإدراك

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١، ص ١١٦.

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٨٤.

السليم. غير أنّ بعض الشباب يقع في خطأ كبير ويتصور أنّ جمال المظهر الخارجي للمرأة كافٍ دون نظرٍ إلى عقلها، فالحمقاء والمجنونة ولو كانت جميلة، فهي تفقد الاتزان الذي يمنحها القدرة على العيش مع الزوج وإدارة المنزل بشكل صحيح، بالإضافة إلى عدم امتلاكها الحكمة والوعي، فلا تستطيع أن تتعامل مع أبنائها بطريقة سليمة، ولن تكون قادرة على تنشئتهم على وفق التربية الصحيحة، والأئمة من أهل البيت عليهم السلام عندما يسألون عن الزواج بالمرأة الحمقاء أو المجنونة ذات السمات الجمالية، يردعون عن ذلك ويؤكدون على عدم الارتباط والزواج منها لما يترتب على هذه العلاقة من تكوين أسرة وإنجاب، ولما سينتقل إلى النسل من آثار ضارة ناتجة عن الوراثة، أما إذا كان الارتباط الشرعي بالمجنونة والحمقاء لإشباع الغريزة الجنسية، فلا يمنع الأئمة عليهم السلام ذلك.

المعيار الرابع: جمال المرأة في مفهوم الإسلام.

وقد يتساءل بعض عن السبب في التركيز على هذه القواعد التي ترتبط بالجانب المعنوي، بينما لا توجد إشارة أو إيحاءة إلى الجانب الجمالي للمرأة، والإنسان بطبيعته يبحث عن الجوانب الجمالية، إنّ هذا التساؤل كي تتضح الإجابة عليه لابد من التأكيد على أنّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام لم يهملوا الجمال في اختيار المرأة، بل، أولوه عناية فائقة، والإنسان إذا أراد أن يختار، فليلاحظ الجمال؛ قال النبي صلى الله عليه وآله: (أفضل نساء أمتي أصبحهن وجهاً)^(١) وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إذا أراد أحدكم أن يتزوج فليسأل عن شعرها، كما يسأل عن وجهها؛ فإنّ الشعر أحد الجمالين)^(٢) غير أنّ ذلك لا يعني أن يركز الإنسان على الصبغة والجمال للمرأة أو المال، ويتناسى الركائز والدعائم التي يبتني عليها البيت الزوجي وبناء الأسرة من الدين والخلق،

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٣١.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٥٩.

لأن ذلك، يؤدي إلى فقدان التوفيق الإلهي في تحقيق الحياة الزوجية السعيدة، بالإضافة إلى أنه قد لا يتوفق لإنجاب ذرية طيبة وصالحة، ولن يصل إلى الهدف الذي ابتغاه من زواجه منها، وإن كان ذلك قد يحقق إشباع ظمأه الغريزي دون الوصول إلى الهدف من الزواج، وقد أشارت الروايات إلى ذلك، قال الإمام الحسين عليه السلام: (من تزوج امرأة لجمالها جعل الله جمالها وبالأعلى عليه)^(١) وقال النبي صلى الله عليه وآله: (من تزوج امرأة لما لها وكره الله إليه)^(٢) أي لا ينبغي البحث عن ما لها من المكنة الاقتصادية دون توافر الخصال الهامة كالدين والخلق، والتربية الصالحة في بيئة تجسد قيم الإسلام في حياتها التعاملية.

المعيار الخامس: الاختيار وفق بيئة تربوية صالحة.

هناك مبدأ هام وقاعدة أساسية أفصح عنها في الروايات لاختيار الزوجة، جاء في سؤال أحد الرواة للإمام الصادق عليه السلام عندما قال: إن صاحبتني هلكت - أي ماتت - وكانت لي موافقة وقد هممت أن أتزوج، قال الإمام عليه السلام: (انظر أين تضع نفسك، ومن تشركه في مالك، وتطلع على دينك وسرك)^(٣) ونلاحظ وجود مجموعة من الصفات الهامة أكد عليها الإمام عليه السلام في اختيار الزوج لزوجته؛ فقله عليه السلام: (انظر أين تضع نفسك) تنبيه أن الإنسان بطبيعته عندما يرتبط بعلاقة زوجية، لا بد أن يكون شريكاً مع الزوجة في إنجاب الولد، فهناك شراكة في الإنتاج، ولا بد أن يضع الإنسان نفسه في بيئة صالحة ومتدينة عاقلة ذات خلق كريم، وهذه الصفات الحسنة تنتقل عبر قوانين الوراثة إلى نسله، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام، عندما أراد أن يخاطب فاطمة بنت حزام الكلابية - أم البنين - قال لأخيه عقيل: (انظر إلى امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوجها)^(٤)، والإمام عليه السلام ركّز على قوانين مكتسبة، فهناك



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٥٣.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٥١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٧.

(٤) الأنوار العلوية للنقدي: ص ٤٤١.

نوعان من القوانين، قوانين بيولوجية تنتقل عبر الكروموسومات والجينات، وقوانين مكتسبة يتأثر بها الإنسان من محيطه العائلي الذي تترسخ فيه مبادئ الدين والخلق، والرواية الأنفة الذكر قالت (انظر أين تضع نفسك ومن تشركه في مالك، وتطلعه على دينك)^(١) وأوضح ما تشير إليه، الوراثة المكتسبة التي ترتبط بجنسيتي التربية والدين، ولا بد من الاعتناء بالدين الممتزج بالعوامل التربوية؛ التي تنعكس إيجاباً على الفتاة وحياتها مع زوجها وأولادها.



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٧.

الثالث: النظرة الشرعية بين الواقع الديني والاجتماعي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) صدق الله العلي العظيم.

المعيار السادس: النظرة الشرعية بين الرجل والمرأة.

لا زال البحث موصولاً حول الأسس والقواعد السليمة للاختيار الأمثل لكل من الزوجين لشريك حياته، وقد استعرضنا بعض الأسس الهامة التي ركزت عليها الروايات، و انتهينا إلى موضوع الجمال، وبيننا أنه رغم أهميته، إلا أن الروايات لم تجعله أساساً ينطلق الزوج منه في اختيار زوجته، بل عليه أن يجعل الجمال تابعاً للدين، وكذلك المال فلا ينبغي للزوج - حتى إذا كان لا يمتلك وفرة مالية- أن ينطلق في اختياره لزوجته على وفرة المال لديها.

أهمية النظرة الشرعية في الزواج السعيد

من القواعد الهامة التي ذكرت في الروايات لاختيار الزوجة التعرف على جسدها عن قرب، فالزوج إذا أراد أن يختار زوجته لا بد أن يتعرف على الناحية الجسدية، ولهذا الأمر أهمية كبيرة باعتباره يصنع القناعة له لبدء مشواره على أساس مواصفات رغب فيها لتوافرها في شريكة حياته، وعندما تتحقق هذه القناعة لديه تصبح انطلاقة مطمئنة، والاطمئنان والإيقان حصل لأن اختياره كان سليماً مبتنياً على قواعد

صحيحة، وسوف ينعكس ذلك على استقرار حياته الزوجية وسعادتها، وهذا هو الهدف الذي يروم المشرع من تشجيعه بالتعرف على جسد المرأة وهو حصول قناعة الزوج بها.

النظرة الشرعية في الأحاديث

إن التعرف على جسد المرأة هو النظر إليها قبل التقدم لخطبتها بشكل رسمي، وقد جرت العادة بين الناس في التعرف عليها بطريقتين:

الأولى: بإرسال بعض الأقرباء للتعرف عليها كالأم أو إحدى الأخوات فتذكر له الموصفات التي قد تعجبه وقد لا تعجبه.

الثانية: الاكتفاء بوصف بعض أقرباء الزوجة التي يريد أن يختارها.

لكن الشريعة المقدسة ركزت على عدم الاكتفاء بالوصف وحده، وأن على الزوج أن ينظر بنفسه ويتعرف على المرأة بشكل مباشر؛ لينبني حياته الزوجية على الأساس السليم - كما أشرنا - باعتبار أن الزواج أكبر مؤسسة يقوم بها الإنسان في حياته؛ وتمثل استمرارية وجوده من حيث النسل، وقد وردت روايات متعددة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  توضيح ذلك، جاء رجل يخبر النبي ﷺ أنه تزوج فقال له رسول الله ﷺ: (أنظرت إليها؟ قال: لا، قال ﷺ: فاذهب وانظر إليها)^(١)، والنبي ﷺ لم يكتف من هذا الرجل أن يتعرف على شريكه حياته بشكل غير مباشر، وإنما أمره أن يذهب ويتعرف عليها بنحو مباشر، وفي الروايات تفصيلات أكثر وأدق من ذلك، فقد جاء سائل إلى الإمام الصادق  وقال له: الرجل يريد أن يتزوج المرأة، يجوز له أن ينظر إليها؟ فقال الإمام : (نعم وترقق له الثياب) والإمام يريد أن يوضح حدود النظرة الشرعية؛ حيث يتسنى للنظر أن يتعرف عن قرب على المرأة حتى يصبح اختياره قائم على دعامة سليمة - كما أوأنا في سالف الكلام - باعتبار أن ترقيق الثياب كما يشير بعض الفقهاء تعبير كنائي من الإمام  لمن يريد أن يتزوج



(١) تفسير الألوسي: ج ٤، ص ١٩٦.

ليتمكن من النظر إلى محاسنها، وقد تعجب السائل من قول الإمام الصادق عليه السلام: (وترقق له الثياب)، فأزال الإمام عليه السلام هذا التعجب من ذهنه بقوله عليه السلام: (إنه يريد أن يشتريها بأعلى الأثمان)^(١) أي أنّ الخاطب الراغب في تلك المرأة عندما يتزوجها، فهو يشتريها بأعلى الأثمان، ولا بد هنا أن نقف عند قوله عليه السلام: (إنه يريد أن يشتريها بأعلى الأثمان)، باعتبار أنّ البعض يتصور أنّ الإمام عليه السلام يشير إلى المهر، بينما كلامه ع لا يرتبط بالمهر وحده، بل، يركّز على مسألة أعمق وأعظم من المهر أشارت إليها روايات أخرى، وأوضحت أنّ من يريد أن يرتبط بالمرأة من خلال الزواج، فإنه سيطلعها على أسرارها وخصوصياته الدينية وغير الدينية، وسوف يكشف لها عن واقع حاله، وهذه النقطة ذات أهمية بالغة، لا بد أن تكون الشراكة مبتنية على وضوح وشفافية خاصة، ينطلق منها الزوج في مبدأ أمره، كما أنّ الزواج رباط وثيق يجمع بينهما، ويترتب عليه الإنجاب والديمومة لنفسه ولها؛ لأنّ استمرار الحياة بوجود النسل من خلالها، ولا بد أن يتعرف عليها عن قرب، وهذا أغلى الأثمان كما عبرت الرواية. ولعل هذا الرأي في النظرة الشرعية بهذا المستوى من العمق والدقة من خصائص المذهب الأمامي، وإن كان قد وردت بعض الآراء لدى مذاهب العامة تؤيد ذلك.

حدود النظرة الشرعية عند الفقهاء

إنّ الفقهاء يختلفون في النظرة الشرعية، التي هي -كما قلنا- قاعدة أساسية للتعرف على الجانب الجسدي والجسماني في المرأة، وهذا النحو من التعرف يعطي الإنسان القناعة بالطرف الآخر، فبعض فقهاءنا؛ كصاحب الجواهر قدس سره والسيد الإمام وغيرهما، يقولون: إنّ الرجل يجوز له أن ينظر إلى جسد المرأة، بشكل بيّن وواضح ما عدا العورة استناداً إلى طائفة من الروايات، منها هذه الرواية التي ذكرناها، (وترقق له الثياب). وبعض الفقهاء يخصص النظرة الشرعية بالوجه والكفين فقط، وبعضهم يتوسط بين نظرة صاحب الجواهر وبين هذه النظرة المحدودة بالوجه والكفين كالسيد الخوئي والسيد السيستاني وبعض الفقهاء المعاصرين، حيث يقولون: يجوز للرجل

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٨٩.

النظر إلى المرأة التي يريد الزواج منها إلى الوجه والكفين وإلى شعرها ومحاسنها كالرقبة وبعض مواطن الجمال لديها، وبعض الروايات تدلل على ذلك، فقد سأل بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام الإمام عليه السلام عن هذه المسألة فقال: قلت أينظر الرجل إلى المرأة يريد تزويجها فينظر إلى شعرها ومحاسنها؟ قال الإمام عليه السلام مجيباً السائل: (لا بأس بذلك، إذا لم يكن متلذذاً) ^(١) أي يسوغ لمن أراد أن يتزوج أن ينظر إلى شعر المرأة ومحاسنها؛ بشرط أن لا يكون قاصداً التلذذ، ويشترط العلماء أيضاً لجواز النظرة أن يكون قاصداً الزواج بها ويحتمل حصول الموافقة عليه، أما لو علم أنه يُرد فلا يجوز له النظر، وكذلك أن يكون لديه احتمال الحصول على إطلاع أكثر عندما ينظر إليها، هذه أهم الشروط التي أكد عليها الفقهاء لجواز النظرة الشرعية.

تقييد الحكم الأولي العام للنظرة الشرعية

وينبغي هنا أن نلتفت إلى مسألة هامة، وهي أن قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور) أمر إلهي بوجوب غض النظر، وعلى هذا الأساس لا يجوز للإنسان أن ينظر إلى المرأة بالحكم الأولي، والحكم عام. وكذلك لا يجوز لها أن تنظر إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١)، والآية تثبت وجوب التستر والحجاب على المرأة بالحكم الأولي وهو حكم عام، فلدينا حكم بعدم جواز نظر الرجل للمرأة التي ليست من محارمه، ولا يجوز للمرأة أن تكشف شعرها أو شيئاً من محاسنها للرجل، وهذان الحكمان بالعنوان الأولي، والروايات التي تقول بجواز نظر الرجل للمرأة التي يريد الزواج منها تُقيّد هذين الحكمين أي حالة استثنائية لحرمة نظر الرجل للمرأة، وتتحول الحرمة إلى الجواز، وذلك لمن يريد أن يرتبط مع المرأة برباط الزوجية الوثيق، فالتقييد والتخصيص للحكم الأولي العام؛



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٢، ص ٨٨.

لأنه كما قال الإمام عليه السلام في الرواية السابقة، (يريد أن يشتريها بأعلى الأثمان)^(١).

النظرة الشرعية حق للمرأة

إنّ النظر إلى من يريد الزواج منها ليس مختصاً بالرجل، بل هو حق مشروع للمرأة لمن تريد الزواج به، والروايات وإن أبانت أنّ الرجل يجوز له النظر إلى من يكون عازماً على الزواج منها، إلا أنّ هذا الحق مكفول للمرأة أيضاً، ولم تصرح الروايات به لسبب. قد يقول قائل لماذا لم يرد ما يدل على جوازه؟

والجواب واضح من جهتين:

الأولى: إنّ المرأة تتمكن من رؤية الرجل في مناسبات متعددة وفرص مختلفة، فتراه ماشياً في الطريق مما يتيح لها النظر إليه بسهولة ويسر، وتتمكن من التعرف عليه بشكل سري لا يشعر به الرجل.

الثانية: أشار إليها بعض الفقهاء وهي وجود أولوية في المقام؛ فإذا جاز للرجل أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوج بها، فمن باب أولى أن يكون لها حق في رؤية من ترغب في الزواج منه؛ لأنّ الرجل يشتريها بأعلى الأثمان ويشركها في دينه وأماناته، وكذلك الحال بالنسبة لها، فالملاك لكل من الزوجين واحد؛ فإذا ساغ للرجل لأجل هذه العلة والسبب أن ينظر إليها، كذلك الحال يجوز لها أن تنظر إليه.

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٨٩.

الرابع: الزواج في ظل التناسب العمري والقناعة الذاتية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) صدق الله العلي العظيم.

لا زال الكلام موصولاً عن الأسس التي استعرضت في الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  للاختيار السليم لكل من الزوجين لشريك حياته.

المعيار السابع: التقارب العمري.

من المسائل التي أشير إليها في الروايات ومنحت أهمية بالغة، التقارب العمري؛ أي التقارب في السن بين الزوجين، ولا يعني هذا أنَّ المشرع يشترط في صحة الزواج أن يكون أحد الزوجين في نفس سن الآخر، فالزواج صحيح من الناحية الشرعية حتى لو كان أحد الزوجين أكبر من الآخر بعشرات السنين، إلا أنَّ الحديث يتركز على مسألة الاختيار السليم والشراكة المنتجة والناجحة والواصلة في عطائها إلى مرتبة القمة وأعلى درجات التضحية، ويتحقق ذلك من خلال التقارب العمري بين الزوجين، وهذا ما أكد عليه الإمام الصادق  عندما قال له رجل: إنَّا نزوج صبياننا وهم صغار، فقال الإمام : (إِذَا زُوجُوا وَهُمْ صَغَارٌ لَمْ يَكَادُوا أَنْ يَأْتَلَفُوا)^(١) والعلماء عندما يصلون إلى قول الإمام : (لَمْ يَكَادُوا أَنْ يَأْتَلَفُوا)،

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٠٤.

يشيرون إلى نقطتين هامتين:

الأولى: الحرية في الاختيار بمعنى أنّ القرار لابد أن ينطلق من كل من الزوجين على أساس اختياره التام، فإذا كان أحدهما يكبر الآخر بسنوات عديدة، فإنّ الغالب وجود ضغط خارجي من خلال الأبوين يؤدي إلى إخضاع إرادة أحد الزوجين لتقبل الآخر، وعندئذ لا يحصل الائتلاف؛ كما أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى ذلك.

الثانية: تحقق الانسجام والتوافق؛ لأنّ من الصعوبة بمكان أن يصبح بين الزوجين انسجام وتناغم في حال كون الفارق العمري بينهما كبيراً، وهذا يعني عدم وجود لغة تفاهم مشتركة بينهما، ويصعب حينئذٍ على أحد الشريكين التعايش مع الآخر والصبر عليه وتحمله، وبالتالي لا يمكنه التلاؤم والانسجام معه، بينما لو كانا متقاربين في العمر لأمكن أن يتأتى التلاؤم والانسجام بينهما، بالإضافة إلى أنّ التقارب في العمر يصبح عاملاً مساعداً في إخضاع العوامل السلبية في حياتهما، وتحويلها إلى إيجابية تُصب في مصلحتهما، وهذا ما أكدّه الإمام عليه السلام في قوله: (لم يكادوا أن يأتلفوا) باعتبار أنّ الائتلاف والانسجام يمنح كلاً من الزوجين النضج العالي ويوصلهما إلى مرتبة عالية من السعادة في الحياة الزوجية؛ بيد أنّ هذا التلاؤم والتوافق الزوجي مرهون بمجموعة من العوامل؛ أهمها أمران:

الأول: استثمار التقارب العمري بين شريكي الحياة، وتفعيله، وهذا بدوره يُؤثر في جعل مستوى التفكير متقارباً.

الثاني: التوافق في محصل العمر، باعتبار أنّ بذل الجهد في الحياة، وتلقي العناء والمرور على الأحداث يجعل كلاً من الزوجين يقترب من الآخر.

المعيار الثامن: القناعة الذاتية في الاختيار.

من المحاور التي أشارت إليها الروايات في الاختيار السليم أن ينطلق القبول من خلال قناعة ذاتية لكل منهما، وقد أومأنا إلى هذه المسألة باقتضاب فيما تقدم، ونرغب أن نُفرد لها بحثاً مستقلاً، كي تستوفي جميع جوانبها، لعلنا بأنّ الزواج مؤسسة



اجتماعية متقومة بطرفين، يعيشان حياة واحدة، وشراكة دائمة في كل ما يرتبط بهما، ولا بد لهذه الشراكة أن تكون على وفق اختيار الرجل لفتاة أحلامه، ومنطلقة من رضاه الذاتي، وقناعته النفسية التي يحملها بين جنبيه، وكذا الحال بالنسبة للزوجة، فلا بد أن يكون اختيارها ناشئاً من قناعتها الشخصية.

أهمية القناعة الذاتية للفتاة في زواجها من الرجل

لقد ذكرت الروايات التي صدرت من المشرع أنه لا يجوز لأحد الأبوين أن يجبر ابنته على قبول الزواج من شخص لا تريده؛ لأنّ ارتباطها الزوجي لا بد أن يكون من خلال قناعتها الذاتية، ورضاها الخاص بها، وإن كان المشرع أباح للوالد أن يشترك مع ابنته في أمرها، وجعل رضاه وإذنه شرطاً في صحة العقد؛ إلا أنه لم يجعل للأب الاستقلالية في الرأي من دون موافقة الفتاة على الزواج، بل أكد على أن يكون زواجها ينطلق من قناعتها الذاتية الصادرة منها. وإذا لم ينطلق الرضا من قبلها فإنّ صحة الزواج محل إشكال لدى الفقهاء، لذا، أكدوا على أنّ رضا الفتاة من شروط صحة الزواج، وأشارت الروايات إلى هذا الرضا بإشارات وإيحاءات بسيطة؛ لأنّ الغالب كون الزوج هو الذي يختار المرأة.

أهمية القناعة الذاتية للرجل بزواجه من المرأة

هناك مجموعة من الروايات أكدت على أنّ الرجل لا بد أن تكون لديه القناعة التامة بالفتاة التي يتقدم لخطبتها؛ ولا يحق لأبويه إجباره على الفتاة التي لا يرغب فيها غير أنّ الغالب في الإجماع والإكراه أن يكون على الفتاة، والروايات أولت عناية أكبر برضا الفتاة، وأما الرجل فإنّ الروايات ركزت على عدم تدخل أحد أبويه في أمر زواجه، وأنّ الاختيار الكامل له، جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام، وقال له: إني أريد أن أتزوج امرأة، وأنّ أبويّ أرادا غيرها، فقال الإمام عليه السلام: (تَزَوَّجْ التي



هَوَيْتَ وَدَعَّ التي يَهوي أبواك^(١) فالاختيار للابن وليس للأبوين، لأنها لن يعيشا مع هذه الزوجة، والزوج هو الذي يعيش معها طوال حياته، بالإضافة إلى أنَّ اختياره إذا انطلق من قناعاته الذاتية، فإنه يثمر نجاحاً متصلاً ووثاماً دائماً، وهذا من الأهمية بمكان حيث نجد تركيزاً كبيراً في الروايات عليه بنحو الصرامة، كما حدث ذلك من قبل الإمام عليه السلام عندما قال: (تزوج التي هويت ودع - اترك - التي يهوي أبواك)، لأنَّ الاختيار غاية في الأهمية، وهو ما أسميناه بالقناعة الذاتية؛ وهذه القناعة تولد انسجاماً طبيعياً، يُشعر الرجل بأنَّ زواجه نبع عن إرادته واختياره المستقل، ويتحمل التبعات والسلبيات الناتجة من سوء اختياره.

المعيار التاسع: أن لا يكون الزواج قائماً على التفاخر الأسري.

من الأمور الهامة التي لا بد من مراعاتها بدقة في اختيار المرأة أو الرجل أن لا تُعطى أهمية كبرى للزواج من أسرة مشهورة أو ثرية دون الاهتمام بالمقومات الذاتية من الدين والخلق، التي تعتبر من المبادئ الأساسية للزواج السعيد، وبعض الناس يقع في خطأ فادح وتغرُّه الأماني الخادعة فيؤلي أهمية فائقة لاختيار الزوجة أو الزوج على أساس المظهر الخارجي للأسرة، وما تملكه من ثراء اقتصادي كبير، بغض النظر عن المقومات الأخرى، خصوصاً إذا كان الزوج لا يمتلك تجربة، مع العلم أنَّ هذا الاختيار الظاهري من المقومات العارضة التي سرعان ما يكتشف الزوج أو الزوجة ضعفها وخوائها وعدم دخالتها في إضفاء السعادة على الحياة الزوجية. ورغم أهمية اختيار الأسرة الكريمة والمعروفة، إلاَّ أنه لا بد من وضع الاختيار في حدوده الطبيعية فإذا لم تتوافر المقومات الذاتية التي ذكرناها في الزوجة فلا يكون المقوم العارض هو الأساس الذي ينطلق منه الزوج في اختيار زوجته؛ لأنه سيدرك أنَّ اختياره ليس بموفق من جهة، وأنه لا يستحق هذا الكدح الكبير والإعطاء الجزل دون حساب من جهة أخرى، وقد جاءت الروايات تحذر من الوقوع في المنحدر الخطر لهذا الزواج،

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٩٣.

قال النبي ﷺ: (من نكح امرأة حلالاً بهال حلال غير أنه أراد به فخراً ورياءً وسمعة لم يزد الله بذلك إلا ذُلًّا وهواناً)^(١) ولا بد من وقفة تأمل في هذا الحديث النبوي الشريف، الذي يُوضح وقوع بعض في الخطأ، لأن اختياره كان على أساس الافتخار على الآخرين لكونه تزوج من البيت الفلاني، وقد يسبب اختياره الرياء لديه لأنه جعل الهدف من اختياره زواجه من تلك الأسرة دون أن يُولي المقومات الذاتية الأهمية الكبرى، وعند ذلك يتحمل العواقب الوخيمة لاختياره كالشعور بالذل والهوان في شخصيته، وقد أبان النبي ﷺ ذلك بوضوح وجلاء تامين في الرواية السابقة. لذا، على الشاب والشابة مراعاة هذه النقطة ليتكامل زواجهما بالنجاح.



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٥٢.

الخامس: خصال الزوجين بين الواقع والطموح

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

لا زال الكلام موصولاً عن أسس الاختيار لشريك الحياة، وقد استعرضنا أهم المواصفات التي ركز عليها المشرع، وذكرْتُ بإسهاب في الروايات، وسنستعرض بعض الإيحاءات التي طُرحت في الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  لأهميتها الفائقة، مع أنَّ بعض النصوص الروائية ذكرت أهمية الاتصاف بها من أجل استقرار الحياة الزوجية؛ إلاَّ أنَّ الإنسان يستطيع أن يتلمس من الروايات ضرورة توافر تلك السمات في اختيار الزوج لزوجته، وفي اختيارها له ليعيش معيشة هانئة طيبة.

صفات الزوجة التي ينبغي اجتنابها

أكَّد النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  على بعض الصفات من أجل حياة سعيدة لكل من الزوجين، وإضفاء سمات الاستقرار والهناء لكل منهما، وكان التركيز على خصال الزوجة، قال النبي ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ رِجَالٍ؟ الذَّلِيلَةُ فِي أَهْلِهَا، الْعَزِيزَةُ مَعَ بَعْلِهَا، الْعَقِيمُ الْحَقُودُ؛ الَّتِي لَا تَتَوَرَّعُ مِنْ قَبِيحٍ، الْمَتَبَرِّجَةُ إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا،

الحصان معه إذا حضر؛ لا تسمع قوله، ولا تطيع أمره، وإذا خلا بها بعلمها تمتعت؛ كما تمنع الصَّعْبَةَ عند ركوبها، ولا تقبل منه عذراً ولا تغفر له ذنباً^(١) وسنسلط الضوء على بعض فقرات هذه الرواية لنفهم هذه الخصال فهماً سليماً لإضفاء السعادة على الحياة الأسرية.

تكييف الزوجة مع حاجات الزوج

الرواية أفصحت عن مطلب في غاية الأهمية وهو القدرة على التكيف من لدن الزوجة في كسب قلب الزوج، فالزوجة لها القدرة في كسب قلب شريك حياتها بنحو مستمر، وكما يتحقق ذلك ينبغي أن يتوافر لديها الاستحواذ على مشاعره وتملك أحاسيسه.

وبدأ النبي ﷺ ببيان ذلك من خلال الزوجة التي لا تتلمس السعادة لحياة زوجها، ووصفها بأنها امرأة شريرة؛ لأن الشر يتأتى من عدم تكييف الإنسان مع أقرب الناس إليه، والنبي ﷺ ذكر خصالها في صفات متعددة:



الأولى: المرأة المهانة في بيت أهلها.

قال ﷺ: (ألا أخبركم بشرار نساءكم؛ الذليلة في أهلها)^(٢)، فما معنى الذليلة في أهلها؟

إن المرأة التي لا تتلقى الاحترام والتكريم في بيت أهلها ينعكس ذلك على حياتها الزوجية في تعاملها مع زوجها، وتربيتها لأبنائها؛ فترية الأهل إذا كانت قائمة على الإهانة والإذلال ستولد عقداً نفسية لها أسوأ الأثر في حياتها الزوجية؛ لأنّ الذل والخنوع سيبرز في حياتها بصورة ممارسة للخطرسة على زوجها، لذا قال ﷺ: (الذليلة في أهلها، العزيزة مع بعلمها)^(٣) لأنها تعكس ما تلقته من تربية سيئة إلى حياتها الزوجية،

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٣٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

وكي يتجنب الإنسان الوقوع في شرك هذا النوع من النساء، لابد له أن يختار الزوجة التي رُبيت بكرامة عند أهلها، وينبغي أن يترث في اختياره، لتأثير ذلك على استقرار حياته الزوجية.

الثانية: السلامة من الأمراض النفسية.

ثم قال عليه السلام: (العقيم الحقود التي لا تتورع من قبيح)^(١)، والمقطع من الرواية يُبين أمراً غاية في الأهمية، وهو السلامة من الناحية النفسية؛ بمعنى أن لا تكون الزوجة التي يختارها الزوج مصابة بعقد نفسية تُؤثر على حياتها الزوجية كالحقد على الآخرين الذي يُشكل وبالأعلى الواقع الأسري، فالحقد صفة سيئة تدفع بصاحبها إلى ممارسة العمل المشين، قال عليه السلام: (لا تتورع من قبيح)^(٢) ويعود ذلك بالضغينة في قلب كل من الزوج والزوجة.

الثالثة: المرأة المتبرجة إذا غاب عنها زوجها.

ثم بينت الرواية مطلباً في غاية الأهمية، وهو أن المرأة التي عاشت الدفء والحنان والعواطف الجياشة، ستمتلئ نفسياتها بالعفة ومبادئ الخير والفضيلة؛ وسوف تبث تلك المشاعر إلى قلب زوجها، وبذلك تستقطب أحاسيسه وتُشبع رغباته، بخلاف الزوجة السيئة التي وصفها رسول الله ﷺ بقوله: (المتبرجة إذا غاب عنها بعلها)^(٣) فتُظهر محاسنها لغيره، ومع زوجها تظل محصنة لنفسها لا تبدي شيئاً من محاسنها له.

آثار وجود الخصال السيئة في الزوجة

ثم بين عليه السلام آثار تلك الصفات السيئة في الزوجة، وأهمها:

الأول: عدم الانسجام والتكيف مع الحياة الزوجية بمخالفة الزوج، وعدم الطاعة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

لأوامره، قال عليه السلام: (لا تسمع قوله ولا تطيع أمره)^(١).

الثاني: رفضها وممانعتها للفراش الشرعي، قال عليه السلام: (وإذا خلا بها تمنعت كما تمنع الصعبة)^(٢)، فتعامل مع زوجها تعامل الفرس التي يُريد صاحبها امتطاء ظهرها فترفض متمنعة منه؛ فلا يستطيع الفارس أن يمتطيها، والزوجة السيئة بمثابتها باعتبار عدم توفر المبادئ الطبيعية والسمات التي ركزت عليها الروايات في الزوجة الصالحة، قال عليه السلام: (كما تمنع الصعبة عند ركوبها)^(٣).

الثالث: عدم قبولها لعُذر زوجها، لقد أشار علماء التربية أنّ الحياة الأسرية لا تخلو من أخطاء ومشاكل، وتتطلب من الإنسان قدراً أكبر من التفهم والوئام واغتفار الخطأ؛ وذلك هو الأسلوب الأمثل في إرجاع الحياة إلى طبيعتها وهدوئها، الزوجة التي كانت ذليلة عند أهلها تتصف بالحدق، ولا تقبل عذراً، قال عليه السلام: (ولا تقبل منه عذراً، ولن تغفر له ذنباً)^(٤) ومن الضروري أن يختار المرء شريكة حياته أن خالية من تلك الصفات.

خصال الزوج الصالح

وبعد أن أنهى عليه السلام صفات الزوجة السيئة أخذ يُبين صفات الزوج الصالح، فقال عليه السلام: (ألا أخبركم بخير رجالكم)^(٥) وبَيَّنَّ أهم الصفات التي يلزم توافرها في الرجل:

الأولى: التقوى والنقاء.

لقد بينا أهمية الدين في الحياة الزوجية، والرواية تُشير إلى معنى أرفع درجة من اتصاف الرجل بالدين، وهو أن يتصف بميزة أخرى مع تدينه؛ وهي التقى، وليس

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) (وسائل الشيعة (آل البيت) للعالمي: ج ٢٠، ص ٣٤).

التقى فحسب، بل تُسبغ عليه صفة أخرى وهي النقاء، والنقي هو الواصل إلى مراتب عالية في إيمانه ونزاهته، وذلك أنّ التدين لا يكفي وحده بل لابد من الوصول إلى درجة من التقوى والنقاء كي يُحقق حياة زوجية مستقرة وعيشاً هنيئاً.

الثاني: الكرم والسماحة.

ثم بيّن ﷺ أهمية السماحة والندى، فقال ﷺ: (السَّمَحُ الكَفِين)^(١)، والسّمح له معنيان:

الأول: الكريم مع زوجته، فيوفر لها ما تحتاجه في الجانب المادي.

الثاني: الكريم في تعامله. ومع أنّ المدلول الأولي للرواية هو أهمية العطاء المادي، إلا أنّ السّمح يأخذ معنى كريم في تعامله، لأنّ الزوج كما يبذل المال من أجلها ويعتبره وسيلة لرفع مستوى زوجته وأسرته، فهو كريم في تعامله وأخلاقه، والنبي ﷺ يصفه بقوله: (خيرُ رجالكم) لندى كفه في العطاء المادي والمعنوي.

الثالث: غض البصر.

ثم قال ﷺ: (النقي الطَّرْفَيْن)، إنّ من الأمور التي تجلب قلب المرأة وودها أن يكون الزوج غاضاً لبصره عن غيرها من النساء، فذلك يُشعرها أنها فتاة أحلامه، وستسعى لإشباع رغباته، وتحقيق ما يدور في خلدته وخياله، وستحس بأنوثتها الكاملة، وتُدرك أنها تقوم بوظيفتها على أكمل وجه. أما عندما تجد أنّ طرْف زوجها يتحرك يميناً وشمالاً في نظره إلى النساء، فهذا يعني أنها لم تُحقق رغباته على النحو المطلوب، وسينعكس سلباً عليها، وتصاب بعُقد نفسية لعدم قيامها بوظيفتها الأنثوية تجاه الزوج، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحيشة وضرورة توافرها في الزوج من خلال غضه لطرّفه، وقصر نظره على زوجته، ليشبع رغباته الكامنة في نفسها.

(١) نفس المصدر السابق.

الرابع: البر بالوالدين.

إنَّ بعض المتزوجين ينسى أهله عندما يتزوج ويريد من زوجته أن تنسى أهلها، والزوج الناجح هو الذي يُبين لزوجته أهمية برها بوالدها ووالدتها، وحضها على علاقة طيبة مع أخوانها وأخواتها، ويُبين لها أنه رغم حُبها وإشفاقه عليها إلا أنه يُخصّص قسماً من وقته للبرِّ بأبيه وأمه؛ ولا يسمح لزوجته أن تستحوذ على جميع وقته وتُنسيه والديه، وعليها أن تفهم أن ذلك يضغط على أعصاب الزوج، ويجعل تعامله معها عكسياً لا يُرضيها، فإذا أرادت أن تكسب قلبه، فعليها أن تتعامل بمرونة معه في برِّه لوالديه، والنبي ﷺ بيّن أهمية هذه الصفة في، فقوله: (البرُّ بوالديه)، وعندما تختار المرأة زوجاً لا بد أن تُركز على أن يكون على علاقة ووثام مع أبيه وأمه؛ وتسعى هي للاهتمام بوالديه، وحثه على ذلك، فهذا الأمر ينعكس عليها، وعلى علاقتها بزوجها، وكذلك على علاقتها بأبنائها فتلد أبناءً بارين بآبائهم وأمهاتهم؛ لأنهم تربوا في كنف أب وأم بارين، والرواية ركزت على هذا المطلب، لأنها تتحدث عن صفات عامة للرجل، ثم تعطف على ذلك خاصاً، وهو البرُّ بالوالدين، لأنه من الصفات التي تندرج في الدين والخلق، والروايات تذكر بهذه الخصائص والميزات لتؤكد على توافرها في الزوجين.



الخامس: توفير جميع احتياجات الأسرة.

ثم قال ﷺ: (ولا يُلجئ عياله إلى غيره)^(١)، التعبير فيه إطلاق ليس في الجانب المادي فحسب، وإنما يشمل الجانب التربوي والسلوكي، وما يحتاجه الابن من إرواء ظمأه في الجوانب المتعددة، ومن الأهمية بمكان في اختيار الزوج لزوجته أن يدقق في تلك الصفات القبيحة في المرأة، كي يتجنبها ويُركز على أضدادها، لإضفاء العيش الهنيء والحياة الوداعة والمستقرة في البيت الأسري، وإذا كان لا بد للرجل من أن يتحلّى بهذه الصفات، فكَذلك الزوجة إذا أرادت اختيار شريك حياتها، فلا بد لها أن

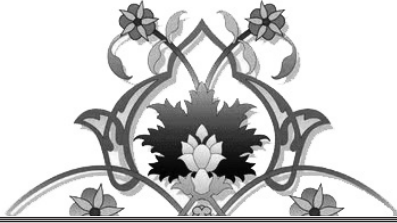
(١) نفس المصدر السابق.

تُرَكِّز على تقواه ونقاؤه وكرمه واستقامته ليكون سليماً في نظره إلى النساء الأخريات، فلا ينظر إليهنَّ نظراً حراماً.

ثمرات توافر الصفات الحسنة بين الزوجين

ثم بينت الرواية أنه عند اتصاف الزوجين بهذه المواصفات فسوف يكونا قادرين على اختيار ما يُحقق لهما الخير في دنياهما وأخراهما، قال عليه السلام: (إِنَّ مِنَ الْقِسْمِ الْمَصْلَحَ لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ تَكُونَ لَهُ امْرَأَةٌ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سِرَّتَهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حِفْظَتَهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ) ^(١) أي أن الله تعالى من كرمه وعطائه على عباده يُقسم الأرزاق ويمنح الهبات لهم، ومنها الزوجة الصالحة التي تَسِرُ الزوج إذا نظر إليها، ولا ينبغي أن نتصور أن السرور ينحصر في الناحية المادية؛ بل يشمل ذلك السجيا والخصال الحميدة الكامنة في شخصية المرأة التي تُوجب السرور، وهي خلاف الصفات التي أشارت إليها الروايات، والتي إذا توافرت في الزوجة جعلت الحياة جحيماً لا يطاق، ولا بد من الإشارة إلى أن قوله عليه السلام: (إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سِرَّتَهُ) مفهوم عام، لأنَّ نظر الإنسان إلى الآخرين، كالزوجة ليس من الناحية الجنسية أو المظهر الجمالي وإنما يكون نظره لها كالنظر إلى العالم أو النظر إلى شخص موهوب، فالنظر يؤدي إلى أن تكون النفس مائلة إليها بطبعها، والنظر إلى الزوجة بالمواصفات المذكورة في الروايات يشرح النفس، ويدخل السرور عليها، ولا بد أن يُرَكِّز الرجل على أن تكون شريكه حياته لا تحمل مرضاً نفسياً في ذاتها، فلا تكون حقودة أو حسودة؛ بل تُحِبُّ الخير لنفسها وللآخرين، بالإضافة إلى العفاف والقدرة على استقطاب قلب زوجها بحلاوة منطقتها وجمال سلوكها.

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٤٠.



الفصل الثالث:

■ ■ دور الأسرة في بناء المجتمع الفاضل ■ ■



الأول: أصناف الأسرة عند علماء الاجتماع

قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) صدق الله العليُّ العظيم.

نستعرض بحث الأسرة ضمن حلقات متعددة لأهميته ذلك أنها هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وصلاحيها الخطوة الأولى والركيزة المهمة لصلاح وتقدم المجتمع، ومن خلال هذا المنظور نستعرض بحوثاً في الأسرة لأهمية ذلك في الواقع الاجتماعي.

تحديد الأسرة عند علماء الاجتماع

الأسرة في اللغة هي الأرحام، أي ما يشمل الزوج والزوجة والأبناء والأقارب، ومعناها في علم الاجتماع الحديث يختلف عنه في اللغة، ويختلف عن تحديد الشارع المقدس لها، لقد حدّد علماء الاجتماع الأسرة بأنها جماعة تُحددها علاقة جنسية مُحكمة وعلى درجة من تحمل المسؤولية تُمكن هذه الأسرة من إنجاب الأطفال وتربيتهم إلا أنّ الأسرة بهذا التحديد تكاد ألا تشمل إلا الزوج والزوجة، ونجد أنّ أحدث النظريات في علم الاجتماع تؤكد أنّ الأسرة تتألف من الزوجين والأولاد، وهذا هو الرأي الذي استقر عليه العلماء مؤخراً.

ونريد باصطلاح الأسرة ما يشمل الزوج والزوجة والأولاد فقط، ويُؤيد هذا الاصطلاح ببعض المعاني اللغوية للأسرة فهي تأتي بمعنى الدرع أو الدرع الحصينة،

ومن الواضح أنّ المعنى اللغوي أُسبغ عليه شيء وأُعطِيَ للأسرة المكونة من زوج وزوجة وأولاد، ويشمل حتى الأقارب لما لهذا التكوين من رقابة واقية لدرء المخاطر التي يتعرض لها الفرد، فالأسرة تُشكل وقاية ودرعاً من المخاطر التي تواجه اللُحمة المتفق عليها بين أفراد الأسرة.

أقسام الأسرة :

والأسرة في البحوث الحديثة تُقسم إلى أقسام نستعرض بعضها باقتضاب يسير:

الأول: الأسرة النابذة.

ومعناها الأسرة الطاردة لأطفالها التي لا ترتاح إليهم بل تمجهم، وهذا على خلاف الطبيعة والتكوين النفسي لأنّ الإنسان بطبعه يميل إلى الأطفال ويحبهم إلّا أنّ بعض الأسر الشاذة تنبذ الأطفال ولا تُغدق عليهم الحنان والمحبة والمودة، ولا تتعامل معهم على أساس التقدير والاحترام لشخصياتهم، وفي الغالب يكون المجرمون وأصحاب العلاقات السيئة ينحدرون من أسر نابذة، لأنّ النبذ بأيّ درجة من الدرجات له مردود سلبي على شخصية وسلوك الطفل.



الثاني: الأسرة القابلة.

والعكس من الأسرة النابذة الأسرة القابلة فهي في مقابل الأولى تتعامل بالأسلوب الراقى والبناء الذي يُشكل أحد الركائز الأساسية في تكوين شخصية الطفل. ونجد أنّ الأسرة القابلة تُنجب أفراداً صالحين ورجال علم، وزوجات صالحات قادرات على بناء المجتمع الصالح.

الثالث: الأسرة المستبدة.

وهي التي تتعامل بطريقة تُضعف شخصية الطفل، وتحاول أن تجعله يُطبق جميع ما يصدر من أوامر دون فهم لها، وبذلك تجعل سلوك الأطفال سلوكاً مرآتياً يعكس

سلوك الأبوين في الغالب، ويترتب على ذلك آثار خطيرة من أهمها فقدان الأطفال روح المسؤولية، وشعورهم بالنقص والارتباك وسهولة الانقياد للأوامر المتلقاة من الآخرين، حتى وإن كانت تعود عليهم بالضرر الكبير لأنهم يُطبقون نظاماً عسكرياً قائماً على الاستبداد، وليس قائماً على المودة والاحترام وتبادل المسؤولية.

الرابع: الأسرة المسرفة.

وهي المبالغة في الحفاظ على الطفل، فبعض الأسر لا تتعامل بالتعامل الطبيعي بل تحاول أن تُسبغ على الطفل مزيداً من الحنان يفوق الحد الطبيعي، وهذه الأسرة تسمى بالمسرفة لأنها تُغالي في إسباغ الحنان والمحبة على الطفل وتنفذ له كل رغباته دون حدود، وهذا التعامل يؤدي إلى تحجيم طاقات الطفل وعدم أخذه لدوره في الحياة بنحو طبيعي ومعتدل، وقد قال علماء التربية إنَّ أغلب الذين يصابون بالعقد النفسية والمشاكل المتعددة هم نتاج طبيعي لنوع الإسراف في التعامل من لدن الأب أو الأم أي أن التعامل الذي لا يقوم على الوسطية والاعتدال في إغداق المحبة والحنان، بل يقوم على المبالغة وإضفاء أكثر مما يحتاجه الطفل من العواطف التي تبني شخصيته - وهو ما يطلق عليه في عرفنا الحالي بالتدليل - فالولد المدلل فوق الحد اللازم، والتدليل في الغالب يُنتج شخصية تنهرب من مسؤولياتها ولا تستطيع مواجهة مصاعب الحياة وعقباتها لتجتازها ظافرة، بل تنتظر من الأبوين تحمل المسؤولية وتخليصها من المصاعب، وقد نجد بعضاً يصل إلى مرحلة الشباب ولا يزال متكللاً على الأبوين يلجأ لهما مع كونه مستقلاً عنهما في السكن والمورد المادي لكنه لا يمتلك الشخصية القادرة على مواجهة المصاعب ولا يستطيع الاعتماد على نفسه.

الخامس: الأسرة الديمقراطية.

وهي في قبال النمط الرابع، فهي تشبه العملية الديمقراطية في الواقع السياسي، إلا أنها على نطاق ضيق أي في إطار مجتمع الأسرة الصغير، ومن أولويات هذه الأسرة تهيئة الطفل كي يستطيع التكيف مع الواقع الاجتماعي بإيجابياته وسلبياته، ويُسهّم في



تنمية الجانب الإيجابي من مجتمعه، ويُقلل الجانب السلبي، باعتباره تربي على المشاركة في إبداء الرأي بحرية تامة واحترام الرأي الآخر، وهذه الأسرة تُخَرِّج في الغالب العظماء والمبدعين الذين يستطيعون أن يرتقوا بمجتمعاتهم إلى الأمام، إننا بالرغم من وجود هذه الأسر لدينا غير أننا نريد لمجتمعنا أن يأخذ كل الإيجابيات في الأسرة القابلة والأسرة الديمقراطية حتى يتكون بمزج إيجابيات الأسرتين أفراد لهم القدرة على بناء مجتمع صالح، وهذا المكون الاجتماعي الحاصل من الجمع بين الأسرة القابلة والأسرة الديمقراطية يركز أساساً على تحمل المسؤولية من قبل الأبوين، والشعور بالمسؤولية ينبثق من فهم روح التشريع الإسلامي، الذي أشار إليه النبي ﷺ: (خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(١) والحديث يشرح قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) فاللباس يُضفي الستر والجمال والزينة ويُضفي أيضاً البهجة والسرور والاستقرار النفسي، لذا نجد الناس في أعيادهم يلبسون أنواع الثياب والألبسة الجميلة التي تُضفي البهجة على نفوسهم. وهذا ما يحصل بين الزوج والزوجة، فإنَّ كلاً منهما مصداق لكلمة لباس التي وردت في الذكر الحكيم، وهو أيضاً مصداق لقوله ﷺ: (خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(٢) فالزوج كلما استطاع أن يُعطي لزوجته بلا حدود، وكلما استطاعت هي أن تُعطي لزوجها بلا حدود كلما تحقق جوٌّ من البهجة على البيت والأسرة وانعكس على الأطفال وأثر إيجاباً في بناء شخصيتهم، وأسهم في تكوين مجتمع صالح.



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٧١.

(٢) نفس المصدر السابق.

الثاني: أهمية الأسرة في الواقع الاجتماعي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) صدق الله العلي العظيم.

استعرضنا - في بحث سابق - أنواع وأصناف الأسرة، وبيننا أن الأسرة تُصنف لدى العلماء بأصناف متعددة، منها المستبدة والديمقراطية والنابذة والقبالة والمسرفة، وأوضحنا هذه الأقسام بنحو مفصل، ونُسلط الضوء على المناحي المتعددة التي تحتلها الأسرة في الواقع الاجتماعي.

دور الأسرة في بناء شخصية الفرد:

قال العلماء: إنَّ الإنسان يتعلم اللغة والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية من لدن أسرته، كذلك تتَرَسَّخ القيم السلوكية والسعي نحو تحقيق الذات ويرتبط ذلك وثيقاً بالأسرة، لذا قد نشاهد في مجتمعنا شخصين يتساويان في القدرات غير أنَّ أحدهما يتفوق على الآخر دراسياً أو وظيفياً واجتماعياً، ويعود السبب بنسبة كبيرة إلى الدافع والمحفز الذي يتلقاه الفرد من الأسرة. وهذا يعني أنَّ للأسرة أهمية كبيرة في مجالات متعددة، ويبدأ الدور الأسري بتنشئة الأسرة للأبناء على تعلم العادات والأعراف الاجتماعية الحسنة، والتوجيه السلوكي والأخلاقي السوي، وترسيخ المبادئ والقيم الرفيعة، وينعكس ذلك على شخصية الفرد في سعيه الجاد نحو تحقيق ذاته والتفوق الدائم على جميع الأصعدة، ونجد أنَّ الشرائع السماوية جمعاء أولت الأسرة عناية

فائقة، وركزت تركيزاً كبيراً على أهميتها من خلال التأكيد على محاور متعددة:

الأول: تشكل الأسرة.

إنّ هذا المحور هام في بناء كيان الأسرة على أساس متين لأنّ تشكل الأسرة يبدأ من مرحلة ما قبل الزواج، ونجد أحاديث وكلمات وردت عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام تشير إلى هذا المعنى، قال ﷺ: (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)^(١). فالاختيار الصحيح للنطفة يكون بالبحث عن الزوجة التي تتوافر فيها الصفات والخصال الحميدة، ويسهم هذا في تكوين أسرة تنتمي إلى جذور طيبة وقوية، وذلك إحدى الركائز التي تقوم عليها الأسرة الناجحة.

الثاني: دور رب الأسرة القيادي.

هناك كلمات تُبيّن الدور الفاعل والمؤثر لرب الأسرة في قيادة السفينة نحو شاطئ الأمان، ويظهر هذا من خلال اللازم، قال ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين، إذا اتقى الله عز وجل) وأشار بالسبابة^(٢)، الحديث له مدلول ومعنى يطابق نفس ألفاظ الحديث وهو الإشارة إلى الدرجة التي يصل إليها كافل اليتيم وهي مرتبة الأنبياء والرسل لكفالاته ورعايته له، ولكلام النبي ﷺ مدلول التزامي - أي من يرافق ويلتزم ما يدل عليه لفظ الحديث وهو من يفقد أباه بالمعنى الشرعي لليتيم - فهو فاقِد لأمر كبير، ويحتاج إلى الأنبياء والرسل لإعطائه ومنحه ما فقده. وإن كان من الناحية الاجتماعية يُقصد باليتيم من فقد أحد أبويه.

الثالث: إشباع الحنان والدفء العاطفي.

حتى تتضح لنا النقطة السابقة بعمق نشير إلى أنّ الأب والأم لا يمثلان الرعاية الظاهرية فقط، والتي تستند إلى البعد المادي، وإنما يحققان للولد جوانب أخرى تسهم

(١) تربية الطفل في الإسلام: مركز الرسالة: ص ٢٨.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٧٠٨.

في بناء شخصيته، من أهمها إشباع الحنان والدفء العاطفي في شخصية الولد، لأنه إذا افتقد الحنان والدفء يمكن أن يتحول إلى غير سوي، بالأخص إذا وقع في ضربة رفقاء السوء، فإن الفراغ العاطفي يتحول إلى مشكلة تعود على الأسرة والمجتمع بالضرر الكبير. أما لو وجد أصدقاء يقومون سلوكه فسوف يكون الأثر الإيجابي لصلاحه واستقامته عائداً بالنفع على المجتمع بأسره. لذا تقع على الأبوين مسؤولية كبيرة في إشباع الجانب العاطفي للأبناء ليكونوا أفراداً صالحين فاعلين.

الرابع: إسداء النصيحة والكلمة الهادفة.

إن هذه النقطة في غاية الأهمية، إذ أن كثيراً من الآباء لا يؤلون اهتماماً بالجانب التربوي في شخصية أولادهم، ويعتقدون أن تلبية الحاجات الظاهرية من المأكل والمشرب والملبس تكفي في إيصال الولد أو البنت إلى مرحلة الرشد والاستقامة، بينما نرى أن الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام فيها تأكيدات كثيرة ومتعددة تبين أن إسداء النصيحة والتأديب ليس مساوٍ للاهتمام بالجانب المادي في درجته وربته وإنما يتفوق عليه بمراتب، ونشهد بعض الناس يُلبّي كل احتياجات أبنائه في مأكلكم ومشربهم ودراساتهم، حيث يضع أستاذاً خاصاً لأبنائه، ولكنه لا يهتم بتقويم الاعوجاج في سلوكهم ويدعهم للظروف الزمنية أو للمجتمع، وهذا من الأخطاء الفادحة، لذا على الأب والأم والأقارب مسؤولية النصيحة والتوجيه، بالأخص إذا كانت كلمتهم مؤثرة في شخصية ذلك الشاب حتى يُسهموا بدور فعال في تقويم الاعوجاج، أما الاكتفاء بالجانب السلبي والسكوت وإناطة التوجيه للزمن والمجتمع فهو فلا يكفي في استقامته، لذلك نجد الكثير من أبناء الأسر المرفهة ينحرفون، وذلك لأنهم لم يتلقوا النصيحة والكلمة الهادفة والتذكرة، بالطبع هناك بعض الناس قد لا يُوفق للاستقامة حتى مع النصيحة كما حدث ذلك مع ابن نوح الذي لم يتأثر بنصائح النبي نوح عليه السلام، فالتأثر بالنصيحة وقبولها ليس قاعدة كلية ومطرده وإنما كما قال العلماء: إنها قاعدة تعم الأغلب، أي الأكثرية من الناس ينصاعون ويتأثرون بما يسمعون، فالكلمة الطيبة عندما تصدر من شخص سوي في سلوكه فلها أكبر الأثر في



شخصية ذلك الشاب، ونحن رأينا كثيراً من الشباب الذين اهتدوا بواسطة الاستماع لمحاضرة في ماتم حسيني أو زيارة أحد المؤمنين والتأثر بنصيحتهم.

واجبات الأب والأم في تقويم سلوك الأبناء

إنّ من الضروري الإشارة إلى مجموعة نقاط ذات أهمية لكل من الأب والأم فيما يجب على كل منهما في تقويم سلوك الأبناء:

الأولى: إدراك حجم المسؤولية.

إنّ الكثير من الآباء والأمهات في مجتمعنا وفي كثير من المجتمعات لا يعلم حجم المسؤولية والدور المناط به، ويتعامل عفويّاً مع أبنائه وبناته، فيتركهم دون تخصيص جزء من وقته وأمواله من أجل استقامة سلوك أبنائه وبناته وأسرته، ولا ينسجم هذا مع ما يريده الإسلام من الأبوين في رعاية أبنائهما، قال النبي ﷺ: (ألا كلّم راع، وكلّ مسؤؤل عن رعيته)^(١)، فالمسؤولية تعني إعطاء الاهتمام بتلك الأسرة التي يتعاون الأبوان في توجيهها وتقويمها، أما إيكال الأمور إلى الصدفة والقول من البعض أنه إذا كبر سيهتي، فمن قدّرت له الهداية سيهتي ومن لم تقدر له الهداية فلن يهتي، فهذا كلام غير صحيح، لأنّ نسبة كبيرة من الهداية ترتبط بتوجيه الأبوين، وقد بينت الروايات ذلك وأكدت عليه الدراسات العلمية الحديثة التي قام بها علماء التربية وعلم النفس.



الثانية: التعامل المتوازن مع حاجات الأبناء.

إنّ الجهل بالمسؤولية وإيكال الأمور إلى الظروف الزمنية يؤثّر في انحراف شخصية الأبناء، وكذلك انعدام التوازن في تلبية احتياجاتهم بالتركيز على الجانب المادي وإهمال الجانب المعنوي، ولذا نجد بعض المراهقين يعيش في وسط مادي وثرّاء فإذا كبر قليلاً طلب من أبيه سيارة، ومع علم أبيه باعوجاج شخصيته إلا أنه يشتري له، وفي ذلك

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٢١٢.

ضرر كبير عليه وعلى المجتمع لكونه غير ناضج بالمقدار المطلوب، بالإضافة إلى الخطر الذي يسببه في قيادته المتهورة المؤدية إلى إزهاق أرواح بريئة، لذا فعلى الأب أن يعتني باستقامة شخصية أبنائه وأن يفكر بتوازن جاد في الطلبات التي تصدر من الابن ويمنعه عن بعض ما يطمح إلى تحقيقه، خصوصاً إذا علم بوجود ضرر يعود عليه وعلى أسرته ومجتمعه، وعلى هذا الأساس لا بد أن يكون الأب والأم على دراية وفهم عميقين باحتياجات أبنائهما التي تعود بالنفع عليهم، وأن لا يبادرا في تلبية أي طلب مقدم من الأبناء دون دراسة وتأنٍ فيه.

الثالثة: المشاركة في صنع القرار.

وتترتب على ما أشرنا إليه في بحث سابق في موضوع الأسرة، وهو الغفلة عن إعطاء الابن الفرصة للمشاركة في صنع القرار داخل الأسرة، خصوصاً القرارات التي يمكن أن يكون له دور فيها، كاستشارته في شراء بعض حاجيات البيت أو تبديل أثائه أو فرشته، إن ذلك يشعره بأهميته وأن له دور في صنع القرار في محيط الأسرة، ويؤثر إيجاباً في بلورة شخصيته، ويشكل أهم الدروس العملية التي تنمو مع الطفل ليكون لها أبلغ الأثر في صنع القرارات الكبيرة التي يتخذها في المستقبل، لذا دأب العلماء على تنشئة أبنائهم منذ الصغر على المشاركة في القرارات المتعددة التي تصقل شخصيتهم وتمنحهم التجربة الكافية لاتخاذ القرارات الحكيمة في المستقبل.

الرابعة: الحرية واحترام الرأي.

إن احترام الرأي الصادر من الابن وإعطائه الحرية في إبداء آرائه ونظرياته أمر في غاية الأهمية ولا بد أن يلتفت إليه كل من الأب والأم، فلا يستصغران آراء الابن أو يقللان من شأن ما يطرحه من أفكار، بل يسعيان لإتاحة الفرصة له في إبداء رأيه ويبدیان أهمية لقبول آرائه. إن علينا أن نؤمن بأن بعض الأبناء قد تصدر منهم آراء وأفكار حسنة تضاهي آراء الكبار الذين لديهم نُصح، بل وتتفوق أحياناً على ما يصدر من آبائهم وأمهاتهم، لأن الله تعالى وَزَعَ الكمال على الناس، ففقد يلتفت الابن إلى أمر

في غاية الأهمية لا يلتفت إليه الأبوان، وعلى الأسرة التي تريد رفع مستوى أبنائها وترشيد سلوكهم أن تُولي أهميةً إلى الحرية وسماع الرأي الآخر الصادر من الابن لأنّ ذلك يُنمّي شخصيته ويعطيه ثقة بنفسه وقدراته.

أهمية التوجيه والتشجيع في نمو شخصية الفرد:

إنّ بعض الآباء يُسفّه ما يصدر من أبنائهم وهذا خطأ فادح، لأنّ ذلك يجعل الابن يستصغر نفسه، ويستشعر عقدة الحقارة والنقص في ذاته، لأنه يجد أنّ كل ما صدر منه ليس بذي قيمة. بخلاف التشجيع التدريجي ودفعه للمشاركة في إبداء رأيه حتى وإن كانت فكرته غير صائبة إلاّ أنه ستنضج آرائه وتؤدي إلى نتائج باهرة إذا سعى الأبوان بجد في تعليمه القواعد والأسس الصحيحة التي يسلكها فيصل إلى الرأي الصائب، وبهذه الطريقة تنمو شخصيته، قال علماء التربية: إنّ الأسرة بالرغم من أنها صغيرة إلاّ أنها أشبه بالحكومة التي تقوم على مبدأ ديمقراطي أو على مبدأ استبدادي، فالحكومة الديمقراطية هي التي ينمو الشعب فيها، ويتطور في كل المناحي، وأما الاستبدادية فهي التي يصدر الرأي فيها من جهة محددة وليس هناك سماع للرأي الآخر ويصبح المجتمع لا يسير نحو التقدم، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك وسمّاه الحكمة، فقال ﷺ: (ما من بيتٍ ليس فيه شيءٌ من الحكمةِ إلاّ كان خراباً)^(١)، أي أنّ البيت لا يصل إلى تحقيق أهدافه، ومن أراد لأبنائه أن يصلوا إلى الرشد والسؤدد والحكمة والإسهام في بناء الواقع الاجتماعي فعليه أن يلتفت إلى النقاط السابقة التي أشرنا إليها لتكون أسرته تحمل في سماتها وصفاتها الرشد والسؤدد والوعي.



(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج ٢، ص ١٩٤.

الثالث: مبادئ بناء الأسرة الصالحة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) صدق الله العليُّ العظيم.

استعرضنا في البحث السابق أهمية بناء الأسرة والدور الكبير لها الذي يُسهم في التقدم الاجتماعي، ونواصل تنمية ما تقدم بذكر أمور هامة، لا بد أن تؤخذ بالحسبان لتأكيد الروايات عليها، وهذه الأمور إذا توفرت شكلت سياجاً يمنع دخول الخلل إلى الأسرة، من أهمها:

الأول : مبدأ الحب.

إنّ توافر الحب بين الزوجين وكذلك بين الأبناء وأفراد الأسرة هو البلمسم الشافي لكل ما يحدث للأسرة من خلل، فالحب قادر على إزالة الخلل، والعكس من ذلك فإنّ الأسرة إذا وُجد فيها ما يُنمي البغضاء والشحناء ستكون مُعرضة للتفكك والتشتت بنحو تدريجي، لقد أشار علماء التربية إلى أنّ الشخصية السوية هي التي تُمثل الرحمة والاستقامة في المجتمع وهي نتاج لأُسَرٍ سوية يسود الحب بين أفرادها، والعكس من ذلك فإنّ المجرم وغير السوي هو نتاج لأُسَرٍ يسود في علاقات أفرادها البغضاء والانتقام والتسلط وعدم الاحترام للفرد الآخر، ولعل ما ورد عن النبي ﷺ في

توكيد مبدأ الخيرية، بقوله ﷺ: (خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(١) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمبدأ الحب.

أثر الحب في العطاء الأسري:

إنّ الحب هو القاعدة لمبدأ العطاء دون حدود فمن أحب بذل لمحبوبه دون حساب، أما إذا لم يتوافر الحب فالتعامل مع الآخر على ضوء الحسابات والمصالح، وهو لا ينطلق من قاعدة الحب، فالمحب يعطي حبيبه دون حساب، وكذا الأمر في البناء الأسري فالزوج يُقدم لزوجته ما يستطيع دون حساب، والزوجة تُقدم لزوجها ما تستطيعه دون حساب، وكذا الأب مع أبنائه وبناته، والأبناء والبنات مع الأبوين، وكلما كان العطاء كبيراً من كل فرد الأسرة كلما ساد جوّ الوئام والمحبة وأعطى تقدماً مطرداً وانعكس على أفراد الأسرة، أما إذا ساد مبدأ الانتقام والشحناء فمن الطبيعي أن يتعرض أفراد الأسرة لعثرات في حياتهم الزوج أو الزوجة أو الأولاد والبنات، ويفصل بعضهم عن بعضهم الآخر ويقف بعضهم مع هذه البنت أو ذلك الولد.



الثاني: مبدأ التعاون.

التعاون الأسري ينبثق من الحب، والأسرة أشبه بخلية النحل التي يسودها النظام وكل منها يقوم بوظيفته ليكون لكل نحلة في الخلية العيش الطبيعي، والأسرة المثالية هي التي يتحقق بين أفرادها التعاون والبناء الذي يُوصل كلاً منهم إلى النمو والرشد الطبيعي، ولا يمكن للزوج أن يصل إلى رشده وكماله دون تعاون بين أفراد أسرته، وكذا الحال للزوجة والأبناء والبنات، وحتى يتضح هذا المبدأ بجلاء ننظر إلى عمق التشريع الإسلامي في واجباته تجاه الزوجة في البيت، فهو لا يوجب عليها القيام بالوظائف التي تؤديها بنحو طبيعي، فلا يجب عليها أن تطبخ أو أن تغسل الملابس

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٧١.

أو غير ذلك مما يرتبط بشؤون المنزل بل حتى رضاع طفلها له أجره ويمكنها أن تأخذ مقابل عملها أجره، وهذا يدل على أن ما تقوم به الزوجة له احترام كبير في الشريعة الإسلامية، وله قيمة ترتبط بمبدأ التكامل في محيط الأسرة.

دور التعاون في التكامل والتماسك الأسري:

إنَّ ثقل المسؤولية لا ينبغي أن يلقى على كاهل الزوجة فإنها لن تستطيع أن تُبرمج واقعها المعيشي مع طموحها، وبالتالي لن تستطيع أن تتقدم على أكثر من صعيد، فهناك الصعيد العلمي والثقافي والتربوي والاجتماعي والروحي، والشريعة الإسلامية لم توجب على الزوجة القيام بالوظائف المنزلية حتى تجد متسعاً من الوقت لرفع مستواها الثقافي والروحي وتقوم بدورها الاجتماعي. ويتطلب ذلك التعاون الأسري، والنبي ﷺ وأئمة الدين والعلماء الربانيين كانوا يُسهمون في القيام ببعض الشؤون المنزلية، وكلما استطاع أفراد الأسرة أن يُسهموا في إضفاء التعاون في الجو الأسري كلما ازداد الترابط وثاقة وصلابة وبعُدَ الجو الأسري عن الانفصام والتشرد. وقد يتصور بعض أن التعاون للأب يقتصر على إسداء النصيحة والتوجيه فقط، إلا أن الأمر ليس كذلك، والمطلوب من الأب أن يُسهم بعبائه ومشاركته في محيط أسرته، بالإضافة إلى كونه رُبَّاناً للسفينة من خلال إسداء النصيح وإعطاء الموعدة، وبالتعاون بين أفراد الأسرة يزداد التماسك ويشدُّ عرى الارتباط بينها.

الثالث: مبدأ النظام.

نظام الأسرة يرتبط بما جاء في الشريعة الإسلامية من مبدأ الطاعة والقيومة للرجل أي أنه رأس الهرم، أما باقي أفراد الأسرة فترتبط به في تحمل المسؤولية. وكل فرد يُمثل مسؤولية تجاه ما يصدر من الأب في المحيط الأسري، وله الطاعة المطلقة، وعلى الزوجة والأولاد والبنات أن ينصاعوا خاضعين لتوجيهاته ونصائحه والأوامر

والنواهي الصادرة منه، خصوصاً إذا كان الأب له رشد وثقافة وعلم، أي لا ينطلق من التعصب بل ينطلق من خلال التقيد بأوامر الشارع والانضباط السلوكي على وفق جادة الصواب، وبذلك تكون الطاعة لرَّبَّان السفينة لها آثار إيجابية تنعكس على الأسرة. أما إذا انفرط عقد الطاعة وكانت الزوجة لا ترى وجوب طاعة الزوج، تصدع النظام الأسري وتفككت روابطه، وقد وردت روايات كثيرة تؤكد على مبدأ الطاعة للزوج حتى في خروج الزوجة لزيارة أقاربها وصلة رحمها، والروايات كثيرة تفصح أن ذلك من الواجبات الشرعية التي على الزوجة التقيد بها وأن الحفاظ على النظام وتحمل المسؤولية في إطار الأسرة أهم من صلة الرحم. ولا يعني هذا أن النظام يقوم على التعسف بالأوامر الصارمة، بل ينبغي أن يتسم النظام بالمرونة التي تُحقق التكامل والرقى للأسرة. ونؤكد هنا أن الزوجة في مجتمعنا تُقدم الكثير من العطاء كالقيام بشؤون البيت ويمثل ذلك عبئاً كبيراً عليها، ويتطلب من الزوج أن يُعطي التقدير والحب والحنان لتلك الجهود التي تقوم بها.

الرابع: مبدأ الكلمة الطيبة.

إنَّ الكلمة الطيبة من الأهمية بمكان بين الزوج والزوجة وأفراد الأسرة، وقد أكد الحق تعالى أهميتها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) (إبراهيم)، وبين النبي ﷺ أنَّ الكلمة الطيبة صدقة، لأهميتها الفائقة في الجو الأسري. ومن المؤسف أن بعض الأزواج لا يعي دورها خصوصاً تجاه الزوجة، كما أن بعض الزوجات لا تعي أهمية الكلمة الطيبة مع زوجها أو أبنائها. والروايات وردت مؤكدة على أهمية الكلمة الطيبة، جاء في الحديث: (أيما امرأة قالت لزوجها ما رأيت قط من وجهك خيراً فقد حبط عملها)^(١)، أي أن تلك الأعمال التي جاءت بها تصبح سراباً، إنَّ الزوجة قد تقدم الكثير لزوجها

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٦٢.

وأبنائها لكنها تُفسد ما قدمته بكلمة واحدة، والزوج أيضاً قد يُقدم الكثير ويذل قصارى جهده في سبيل إسعاد زوجته وأولاده ولكنه يقول كلمات نابية غير منضبطة لزوجته فيحبط الله أعماله، إن الأعمال كالورد إذا ذبل لا يحس بجماله ولا تدرك أناقته فجماله يرتبط بغضاضته، وأعمال الخير لا تكون غضة طرية مع الكلمات النابية وغير المسؤولة، فإذا صدر من أحد الزوجين تجاه الآخر أو تجاه الأولاد اللفظ السيء أثر سلباً وأفقد الكثير من الإيجابيات.

الخامس: مبدأ المرونة والتسامح.

المرونة والتسامح لهما أهمية كبيرة في شد أواصر الألفة بين أفراد الأسرة، والكمال لله تعالى، وكل إنسان معرض للخطأ غير أن من يستطيع تجاوز الآثار السلبية للأخطاء هو الإنسان الناجح الذي يتعاطى المرونة والتسامح تجاه الأخطاء، خصوصاً إذا صدرت من أفراد الأسرة، فيعالجها بروية وعقلانية تُسهّم في إبدال الخطأ إلى صواب، والروايات تؤكد على تجاوز الأخطاء، وعلى الصبر وقوة التحمل والانضباط السلوكي وعدم ردود الفعل اللامسؤولة من الزوج تجاه زوجته أو أحد أبنائه، ففي الرواية: (من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر أعطاه الله ثواب الشاكرين)^(١)، والرواية عند التأمل فيها ندرك معانٍ كثيرة وعميقة. وكفي نفهم هذه الرواية لا بد أن نعرف معنى ثواب الشاكرين. فالشاكر هو الذي يستخدم جميع نعم الله تعالى فيما أمره به، والشاكر قليل قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ) أي أنه لا يصل إلى مقام الشاكر إلا الأقلون عدداً والأعظمون عند الله تعالى قدراً. لأنَّ المقام لا يمكن أن يصل إليه إلا من أتعب نفسه وبذل جهداً ومشقة وتحمل الصعاب ويمكن للإنسان أن يصل إلى هذا المقام ببعض الأعمال التي يؤديها في محيط الأسرة بصبره على ما يصدر من أخطاء من لدن الزوجة والأبناء، والرواية تشير إلى أنَّ الصبر

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٧٤.

على خُلق الزوجة هو المصداق الأبرز للشاكر، لكون كل من الزوج والزوجة قطب تدور عليه رحي الأسرة، والرواية لا تحصر الصبر والثواب الكبير عليه بصبر الزوج على زوجته وبالعكس فقط، بل يشمل من يصبر على سوء خلق أبنائه فإن الله تعالى يعطيه ثواب الشاكرين، فالملاك والمصلحة موجودة في الرواية للزوجة والأبناء، ويسمي العلماء ذلك بتنقيح المناط، والصابر يحقق الخير والوثام واستمرار الحب في محيط الأسرة وينعكس ذلك على أفرادها، فيعيش الجميع روح المسؤولية ويصبح كل فرد لبنة في بناء الواقع الاجتماعي.



الرابع : أهمية الجود والكرم في استقامة الأسرة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) صدق الله العليُّ العظيم.

أهمية الجود والكرم في البعد المادي

استعرضنا بعض المبادئ الهامة الموجبة للتقدم والعيش الرغيد في الحياة الأسرية، ونواصل بحثنا حول الموضوع لما له من أهمية كبيرة حيث إنّ بعض المبادئ عوامل فائقة التأثير، ولعل من أهم ما أكدنا عليه الحب والتسامح اللذين لهما الأثر الكبير في تقدم الأسرة ونموها المطرد، كما أنّ من العوامل المؤثرة الجود والكرم في نطاق الأسرة، والجود والكرم لهما جنبتان مادية ومعنوية، ولا نريد استعرضهما معنويًا بشيء من التفصيل والإسهاب وإنما نريد أن نمحور الحديث حولهما الناحية المادية في تعامل رب الأسرة مع زوجته وأفراد أسرته، وكما يتضح لنا دور الجود والكرم في استقامة الأسرة ونموها المطرد لا بد أن نستعرض مقدمة لها دخل في بحثنا.

إنّ الله تعالى أوجد الإنسان فقيراً محتاجاً لا يستغني عن خدمات أبعد الناس إليه فضلاً عن أقربهم منه من الذين لهم تأثير على مسار حياته، والاحتياج قد يرتبط بالحاجات الطبيعية نظير حاجة الإنسان إلى الأوكسجين أو الطعام، وقد يفوت رب الأسرة أن يولي عناية بالحاجات الطبيعية المادية التي لها الأثر البالغ في استقامة أسرته

كالحاجة إلى اللباس والتجمل والزينة ووسيلة النقل المناسبة.

أثر الغفلة عن تأمين الحاجات الطبيعية:

إنَّ الغفلة عن الحاجات الطبيعية المادية لأفراد الأسرة تجعل بعض أفرادها لا يعيش الحالة الطبيعية التي تؤمن احتياجاته المادية، فإذا كان يحتاج إلى ملابس تتلاءم مع المحيط الذي يعيش في كنفه، ولا يؤمن له ذلك فسوف يتأثر سلباً، إنَّ هذه الظاهرة ليست بمطرودة ومستشرية، وإنما لها وجود في كل المجتمعات ومنها مجتمعنا، وعلى الأب أن يلتفت إلى الحاجات الطبيعية لأبنائه، إنَّ عدم الالتفات والغفلة قد يجز الأبناء إلى مشاكل أخلاقية كبيرة من ناحيتين:

الأولى: معنوية: فقد يصاب الإنسان بعقدة الحقارة في ذاته نتيجة أنه يرى نقصاً لا يستطيع أن يسده.

الثانية: مادية: قد توصله إلى الاعتداء على حقوق الآخرين وسلب ما لديهم من مال، فيسرق أو يختلس أو يجري صفقات تجارية وهمية غير قانونية، وما إلى ذلك من أمور نتيجة للعوز والحاجة.



والأمران في غاية الأهمية وينبغي على رب الأسرة أن يركز عليهما، لئلا يُصاب بعض أبنائه أو بناته بمشاكل أخلاقية، والأخطر العوز عند الزوجة، فقد يؤدي إلى الانحراف إذا كانت لا تجد ما يسد حاجاتها الضرورية، وكانت في ضيق من العيش، فإنها قد تؤمن ما تحتاجه بخلاف الشرع فتتحرف في سلوكها، وعلى رب الأسرة مسؤولية جسيمة في الالتفات إلى سد النقص ورفع العوز لئلا يؤدي ذلك إلى ما لا يحمد عقباه.

دور التعامل المتوازن في استقامة الأسرة:

إنَّ بعض الآباء لا يلتفت إلى أهمية الجلوس مع أبنائه أي أنه قد يغدق عليهم في كرم العطاء المادي غير أنه لا يعطيهم من حنانه وعطفه بجلوسه معهم وإسداء

النصيحة لهم وتعليم الأبناء كيفية التعامل مع الآخرين والأسلوب الأمثل في تخطي العقبات الكأداء التي تعترض طريق حياتهم، وبعض العلماء يرى أنّ الجود والكرم في هذا أعظم منه في الجانب المادي فالجود لا ينحصر في الجنبه المادية فحسب، بل يتحقق بإعطاء الأبناء الدروس والتوجيهات النظرية والعملية في مكارم الخلق والتعامل الفذ في وسط المجتمع، وهذا الجود أولى وأفضل من الجود في الجانب المادي، لكن بعض الناس يولي اهتماماً كبيراً بالجانب المادي ويُهمل الجانب المعنوي، وبعضهم بالعكس يركز على الجانب المعنوي ويقصر في الجانب المادي. والتوازن في التعامل مع الزوجة والأبناء يتحقق بالحفاظ على استقامة الأسرة والبذل مادياً ومعنوياً لاطراد نموها وتماسكها.

أثر البخل والتقتير:

هناك بعض الأسر يبرز فيها- بنحو واضح - بخل رب الأسرة فهو رغم كونه يتمتع ببجوحة الثراء الكبير لكنه يُقتَر تَقْتِيراً كبيراً على أفراد أسرته بما يؤدي إلى معاناتهم ووقوعهم في المشاكل الأخلاقية المادية والمعنوية، وإصابتهم بعقد نفسية يؤدي بهم إلى الاعتداء على الآخرين في الجانب السلوكي بارتكاب بعض الجُنَح. إنّ البخل له آثار سيئة تنعكس سلباً على أفراد الأسرة، وقد يصاب بعض بالذهول إذا اطلع على بعض الأرقام الموجودة في المجتمعات ومنها مجتمعتنا، ومن تلك الأمور أنّ بعض الأفراد على وظيفة كبيرة ولديه رصيد ضخّم، غير أنّ أبنائه لا يستطيعون أن يحصلوا على ما يؤمن حاجاتهم الضرورية، فضلاً عن الرفاه في الأسرة، بل قد تؤمن لهم حاجتهم من خلال العطايا والصدقات العامة أو التبرعات من بعض أقاربهم، والأب المسؤول عن أسرته يكدّس ويجمع المال كرصيد في حسابه دون أن ينفق منه على أبنائه ويعيش أبنائه الضيق والظنك والألم الشديد دون أن يلتفت الأب أنّ ماله الموت وسيخلف المال لأسرته التي بخل عليها به في حياته.



دور الإنفاق في استقامة الأسرة:

أوضحت الروايات بشيء من التفصيل دور الإنفاق في استقامة الأسرة ونموها ونشاطها، ومشاركتها بفاعلية في أداء دورها الاجتماعي دون اضطراب، أما إذا لم يتحقق الإنفاق وقُتِرَ وبخل الأب على أبنائه فإنَّ المصير السيئ ينتظرهم بإصابتهم بأمراض أخلاقية تستشري فيهم، ويصعب عند ذلك على رب الأسرة أن يعالجهم ويخلصهم من محتهم، حتى لو أسدى لهم النصائح والتوجيهات فإنها إذا لم تركز على قاعدة أساسية تفقد تأثيرها.

الاستطاعة في الإنفاق:

ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ قال: (إن المؤمن يأخذ بآداب الله، إذا وسع عليه اتسع، وإذا أمسك عنه أمسك)^(١) إنَّ بعض الناس قد يصاب بظروف مادية صعبة، وعليه أن يوازن في إنفاقه مع واقعه المعيشي، فلا يضغط على نفسه ويرهقها بالإنفاق، لأنه معذور فيما بينه وبين الله تعالى، ولكن إذا وسَّع الله تعالى عليه فلا بد أن يُوسَّع على عياله.



السعة في الإنفاق:

قال الإمام الباقر عليه السلام: (إن عيال المرء أسراؤه، فمن أنعم الله عليه بنعمة فليوسَّع على أسرائه، فإن لم يفعل أوشك أن تزول تلك النعمة)^(٢)، فالأولاد والزوجة بمثابة الأسراء لدى الأب فإذا أنعم الله تعالى على الأب فعليه أن ينفق على أبنائه وزوجته كي يعيشوا الرفاهية، أما إذا أنعم الله عليه وقُتِرَ على أبنائه كما يفعل بعض الناس فسوف يوصل أسرته إلى الهاوية والسقوط في مستنقع الرذيلة، وعليه أن يلتفت إلى كلمة أسراء التي تشير إلى أنَّ الأبناء والبنات لا دخل لهم يستطيعون من خلاله تأمين حاجاتهم ومصدر دخلهم من الأب، وإذا كان بإمكانه أن يسد العوز وقُتِرَ على أبنائه

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٥٤١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٢٠٨.

فقد مارس التعذيب ضد أسرته -أسرائه-.

الإسباغ والاعتدال في الإنفاق:

قال إمامنا زين العابدين عليه السلام: (أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله)^(١) فمن أراد أن يصل إلى مرتبة الرضا عند الله تعالى، ويتحقق له ذلك ويرضى الله تعالى عنه ويرضيه، إذ أن هناك تبادل في علاقة العبد مع ربه، فإذا رضي الله عنه تكفل بإرضائه، والمرضي عند الله تعالى هو الشخص الذي يُسبغ على عياله مما آتاه الله من النعم. وقد فسّر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨)، بأنّ الأسير لا ينحصر بمن يؤسر في سوح الوغى والحرب، بل له مصاديق والأولاد البنات والزوجة منها، فهم يعيشون تحت رحمة الأب، فإذا تمكن مالياً ولم يُسبغ عليهم فقد عامل أسراه بسوء المعاملة، قال الإمام عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨) (الأسير؛ عيال الرجل، ينبغي للرجل إذا زيد في النعمة، أن يزيد أسراه في السعة عليهم)^(٢).

الإنفاق في تأمين الاحتياج:

وهناك رواية في غاية الأهمية في مضمونها لكون الراوي لها محمد بن مسلم الثقفي الطائي، وهو من كبار فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام والرواية عن إمامنا الباقر عليه السلام قال محمد بن مسلم: «أن رجلاً جاء إلى الإمام الباقر، فقال له: إن لي ضيعة -بستان في جبل - دَخَلُهَا ثلاثة آلاف درهم فأنفق على عيالي منها ألفي درهم وأتصدق منها بألف درهم» قال له الإمام الباقر عليه السلام: (إن كانت الألفان تكفيهم جميع ما يحتاجون إليه لستهم فقد نظرت إلى نفسك، ووفقت لرشدك، وأجريت نفسك في حياتك بمنزلة ما يوصي به الحي عند موته)^(٣) أي أنّ الإنفاق في سبيل الله لا يكون إلا بعد تأمين

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٣٦.

(٢) الكافي للكليني: ج ٤، ص ١١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٥٤١.

الرفاه والعيش الرغيد للأسرة، لأنّ ذلك له مردود إيجابي إلاّ أنه على رب الأسرة أن يلتفت إلى أنّ إنفاقه لا يُوصل الأسرة إلى درجة الطغيان، ولا يجعلها تحتاج وتفتقر وتفقد استقامتها. والإنسان على نفسه بصيرة بمقدار حاجته وما يكفي أسرته، وعليه الالتفات إلى أنّ المعاش في الحياة الدنيا يؤثر على عالم الآخرة الذي ينتظر الإنسان، وعليه أن يعيش على درجة عالية من الاستقامة فيفكر في انتقاله إلى عالم الآخرة، ويضع وصية يحدد فيها ما ينبغي للوصي أن يقوم به بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وقد نبه الإمام عليه السلام على ذلك، فقال عليه السلام: (وأجريت نفسك في حياتك بمنزلة ما يوصي به الحي عند موته).

الأولوية في الإنفاق:

قال الإمام الصادق عليه السلام: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول)^(١)، والإمام يحدد مبدأ الأولوية بمعنى أنّ الإنسان لديه أجندة وعليه أن يراعي كيفية إنفاق أمواله وطريقة صرف وقته وتحركه في مسار حياته، وقول الإمام عليه السلام: (وابدأ بمن تعول) أي اجعل أولويات حياتك لأسرتك فهم الأقرب من الناس إليك وهم الذين يمثلون الديمومة والاستمرار لوجودك، وعندما نتحدث عن شخص مات ولديه أولاد صالحون نقول إنه لم يمت، وذلك أنّ استمرار وجود الإنسان في عياله فليجعل همه وقدراته تتركز أولاً عليهم فهم أقرب الناس إليه ومن ثمّ يولي اهتمامه بالآخرين. وتكمن الأهمية الفائقة هنا للوجود والكرم في الإنفاق المادي على الأسرة والأقربين وجعل ذلك أولوية لهم على غيرهم، كما جاء في الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام.



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٥٤٢.

الخامس: أهمية الاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٥٣)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، صدق الله العليُّ العظيم.

دور الاحترام في نمو شخصية الفرد:

لا زال الكلام موصولاً حول المبادئ الهامة التي يجب أن تُراعَى في النظام الأسري كي تكون الأسرة مثلاً لما يريده الإسلام، وقد استعرضنا بعض المبادئ التي إذا توافرت حققت نجاحاً في تماسك الأسرة، ولعل من أهم العوامل التي يؤكد عليها العلماء الاحترام في وسط الأسرة بين الزوج وزوجته وبين الأب وأبنائه، وبين الأم وأبنائها وبناتها، والاحترام بين أفراد الأسرة ينطلق من مبدأ الكرامة الذي أشار إليه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فالله تعالى خلق الإنسان كريماً وفطره على الكرامة، وإذا كان المحيط الأسري قائماً على مبدأ الكرامة في التعامل لتنشئة البرعم الصغير على احترامه من لدن أفراد الأسرة فالنتيجة المؤكدة هي تفتح هذا البرعم بشذا الورد وعبق الندى، أما إذا كان الطفل لا يحترم وتمتهن كرامته فالنتيجة الطبيعية التي يحصدها الأبوان أولاً والمجتمع ثانياً هي الشوك الذي سيكون عائقاً في تقدم المجتمع. إنَّ مراعاة القواعد العامة لاحترام أفراد الأسرة في غاية الأهمية بل لا يختص ذلك

بالمحيط الأسري وحده وإنما يشمل تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان. والنبى ﷺ والأئمة من أهل البيت  كانوا في غاية الرعاية والتجسيد الكامل لمبدأ الاحترام لمن يتعاملون وإياه من مختلف الناس.

دور الاحترام في تشكّل شخصية الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٥٣)، إِنَّ الآية تُؤكد على مبدأ الكرامة الفطري في كُنْه وجود الإنسان وفي دخيلة نفسه من خلال عدم الاكتفاء بقول الحسن وإنما بتحري الأحسن، وإذا سار الشخص على وفق هذه الطريقة المثلى في محيطه الأسري فإنَّ وجدانه يتشكّل على احترام الغير، وسوف يتعامل مع أي فرد من الأفراد حتى مع ألد أعدائه بمبدأ الاحترام والكرامة الإنسانية، وبالعكس من ذلك فإذا امتُهنت كرامة الإنسان فإنَّ ما يصدر منه من أقوال وأفعال ينم عن دخيلة نفسه وأنها بنيت على الامتهان وعدم الاحترام للكرامة الذاتية، ويترتب على ذلك آثار سلبية لا حد لها وقد يصبح الإنسان وحشاً كاسراً في تعامله مع مجتمعه وفي تعامله مع محيطه الأسري، وقد أشار العلماء إلى أنه كلما رُوِعت كرامة الإنسان وأُحترمت كلما قوت واشتدت جذور الخير والصالح في ذاته وانعكست على سلوكه.



الاحترام خلق النبى ﷺ والأئمة :

إنَّ مبدأ الاحترام الذي أكدناه ندرکه من خلال التقاطع والتلاقي بين المجتمع والأسرة، إذ أنَّ الأسرة هي الركيزة الأولى لتشكّل الواقع الاجتماعي، ويتضح ذلك في أقوال النبى ﷺ والأئمة من أهل البيت  وفي تعاملهم مع الآخرين في اتجاهين:

الأول: التعامل مع الأسرة.

نقل المحدثون أنَّ النبى ﷺ كان يتعامل بالاحترام الفذ مع الصديقة الزهراء  ومع سبطيه الحسن والحسين ، والأمر وإن كان له ربط بالجانب الغيبي في شخصيات

هؤلاء العظماء، لكن النبي ﷺ يُريد أن يُعلّم أمتَه الطريقة المثلى في التعامل مع البنت والأولاد والاحترام الجَم والسُوك السوي والتقدير الفائق لهم لينعكس ذلك عليهم.

الثاني : التعامل مع المجتمع.

وهو واضح في تعامل النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام مع الناس، ويظهر ضمن أمور:

الأول : سلوك النبي ﷺ مع الناس.

إنّ النبي ﷺ لا يحترم أبناءه والمقربين إليه فحسب، بل أنه يحترم الآخرين بفائق الاحترام، وقد انعكس ذلك بنحو كبير على كل فرد من أفراد المجتمع، وأصبح الاحترام مصدراً للجذب في شخصيته ﷺ، وأكد المحدثون ذلك بذكر مواقف عدة:

الأول: إنّه ﷺ كان يُكرم الداخل عليه ويؤثره بالوسادة إذا كان متكئاً عليها ودخل شخص عليه قدّم له المتكأ، وبذلك يعطي الدروس في احترام الآخرين.

الثاني: إنّه ﷺ دخل عليه شخص في مسجده وكان المسجد خالٍ -فيه متسع- فترشح النبي ﷺ عن مكانه، فالتفت الداخل إليه وقال يا رسول الله: إنّ في المكان لمّسع، فالتفت النبي ﷺ إليه وقال ﷺ: (إن حق المسلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس إليه أن يتزحزح له)^(١) أي أن يشعره بعناية واحترام وتقدير لشخصه، وإذا تم تبادل الاحترام بين الناس سادت مكارم الأخلاق علاقات المجتمع.

الثالث: عندما قَسَم النبي ﷺ الغنائم على زعماء قريش الذين دخلوا الإسلام حديثاً، ولم يُعطِ الأنصار شيئاً، فتأثر بعضهم من ذلك، لكونهم قدّموا الكثير له ﷺ ولم يحصلوا على شيء. وقد تجلّى في موقف النبي ﷺ حقيقة الاحترام للأفراد الذين شعر بعضهم بعدم الاحترام لشخصياتهم، وفي ذلك الموقف عبرة ودرس عملي لمن أراد التعامل مع أفراد المجتمع وفئات الناس المتعددة والمختلفة في طرق تفكيرهم،

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٦، ص ٢٤٠.

فالنبي ﷺ أراد أن يجلب وُدَّ زعماء قريش الذين أسلموا حديثاً، ورغم أنَّ الأنصار تلقوا عناية وتربية منه ﷺ إلا أنَّ بعضهم رأى أنَّ ذلك السلوك لا يتلاءم مع ما عودهم عليه ﷺ، فتصور أنه ﷺ يارس عنصرية تجاه الأنصار وصدرت منه كلمات لا تتناسب مع مقامه ﷺ، فوقف ﷺ وبينَ لهم ما أسداه إليهم من خدمات كبيرة ثم قال ﷺ: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتهم وصدقتم أتيننا مكذبا فصدقناك وغدولا فنصرناك وطريدا فأويناك وعائلا فأغنيك أوجدتم في أنفسكم)، والنبي لا يكتفي ببيان ما أسداه من خدمات لهم، بل يدافع عن شخصياتهم ويعوضهم بعباء غير مادي فيقول ﷺ لهم: (أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم)^(١)، أي جعل جزاءهم وجوده المقدس ﷺ حتى همَّلت عيونهم وذرفت دموعهم وتأثروا تأثراً بالغاً، وينم هذا عن الاحترام الكبير لشخصيات الأنصار من قبله ﷺ.

الثاني : سلوك الأئمة عليهم السلام مع الناس.

وهكذا سار الأئمة من أهل البيت عليهم السلام على الاحترام الفذ والكبير لشخصيات الناس انطلاقاً من مبدأ الكرامة الذي شرحناه آنفاً، ففي إحد الأيام كان الإمام علي عليه السلام مسافراً، وفي الطريق كان برفقته أحد النصاري، فسأل الإمام عليه السلام قائلاً : أين تذهب ؟

قال عليه السلام : أريد أن أذهب إلى الكوفة، وعندما وصل عليه السلام مع النصرائي إلى مفترق طرق، رأى النصرائي أنَّ الإمام لم يتجه نحو الكوفة بل سار معه، فالتفت النصرائي إليه عليه السلام قائلاً له: ألم تقل إنك تريد الكوفة؟ قال الإمام عليه السلام : (هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه وكذلك أمرنا نبينا)^(٢)، وهذا السلوك

(١) مسند أحمد لأحمد بن حنبل: ج ٣، ص ٧٦.

(٢) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٦٧٠.

الكريم من لدن الإمام علي عليه السلام أحدث تأثيراً كبيراً في شخصية النصراني، فما كان منه إلا أن دخل الإسلام.

قواعد الاحترام في التعامل مع الأبناء:

وقد أعطى النبي ﷺ قواعد في الاحترام والسلوك السوي على مستوى المحيط الأسري في تعامل الأب والأم مع أبنائهما وأفراد أسرتهما، وأوضح ص هذه القواعد في تعامل الأب مع أبنائه بقوله: (ولا يُرهقه ولا يخرق به)^(١)، وهاتان قاعدتان عظيمتان تحتاجان للتوضيح:

الأولى: (ولا يُرهقه)، فالأب في تعامله مع ابنه لا يحاول أن يُثقل عليه ويرهقه ويُجمله عبئاً ثقيلاً لا يستطيع حمله، بل يحاول أن يخفف عليه ليعتاد تحمل الأعباء الكبيرة بشكل تدريجي.

الثانية: (ولا يخرق به)، أي لا يتهمه بالخرق والسفاهة والجنون وعدم الإدراك وعدم العقل، وحتى إذا صدرت من الابن بعض الأفعال غير الطبيعية وغير المنسجمة مع السلوك السوي ينبغي أن يتحمل الأب ذلك، ويُبين للابن خطأ أفعاله بشكل تدريجي ينسجم مع الاحترام والتقدير لشخصه، أما تسفيه آراؤه في كل حين فإن ذلك يركز في شخصيته أنه لا كرامة له، وسوف تكون الأعمال التي تصدر منه تتلاءم مع ما ركّزه الأب في شخصه. وعلينا من خلال التعاليم الفذة التي وردت عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليه السلام أن نتعامل أولاً مع الزوجة بالاحترام الفذ والفائق لأنها مصدر ينعكس على الأبناء في تربيتها لهم، فإذا امتهن الزوج كرامة زوجته فإن تلك الكرامة الممتحنة تنعكس سلباً على الأبناء، وكذلك ينبغي أن تتعامل الزوجة مع زوجها، فإذا امتهنت الزوجة كرامة زوجها فإن ذلك ينعكس على كرامة الأبناء بشكل سلبي،

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٨١.

وعلينا أن نتعامل مع الأبناء من خلال هاتين القاعدتين اللتين رسمهما المصطفى صلوات الله عليه وآله لنغرس في المجتمع نبتة صالحة يكون لها أبلغ الأثر في تقدمه المُطرد.

السادس: إشباع الجانب الإنساني طريق لاستقامة الأسرة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال) صدق الله العلي العظيم.

الفارق بين الإنسان والحيوان:

استعرضنا بعض العوامل المؤثرة في السلوك السوي في تربية الأبناء في البحوث السابقة، ونشير إلى عامل آخر مؤثر في استقامة الأسرة وسلوكها السوي، ويرتبط بإبراز الفارق الأساس بين الإنسان والحيوان، وحتى تتضح هذه النقطة بجلاء نُؤكد أنّ الكثير من الناس عندما يتحرك في مجالات الحياة المختلفة فإنّ الدافع لحركته هو إشباع الجانب الغريزي في وجوده، أي إشباع ظمأ الجانب الحيواني في شخصيته ويتناسى الظمأ الآخر الموجود في شخصيته وهو الجانب الإنساني، وهنا تقع المسؤولية على رب الأسرة في إلفات نظر الطفل منذ نعومة أظفاره على الاهتمام بهذا الجانب.

مسؤولية الأب والأم في إبراز دور العقل:

إنّ الأب والأم إذا لم يقوما بالتركيز على أهمية الجانب الإنساني في شخصية الأبناء، فلن يستطيعا أن يجعلوا السلوك الصادر منهم سلوكاً سوياً ومستقيماً ينسجم مع عالم القيم والمثل، لأنّ الدافعية والمحرّكية الأولى لدى الإنسان هي التي تحركه

نحو إشباع الجانب الحيواني في شخصيته ويُؤدي ذلك إلى نسيان الجانب المعنوي. والذي يُذكره بهذه الجنبه المعنوية في شخصيته هو الفكر الذي يستند إلى العقل، والعقل يحتاج إلى العلم.

إنَّ رب الأسرة يحتاج أن يؤكد على الفكر كمبدأ أولي وعلى الأم أيضاً تأكيد ذلك دائماً وأبداً، وكي يتضح ذلك ينبغي إلفات نظر الأبناء إلى الفارق بين الحيوان والإنسان، فالحيوان لا يتقدم كالإنسان لعدم العقل لديه، ويستفيد من الغريزة المودعة فيه من الله تعالى فأروع ما نشاهده من إبداع في النحل إنما هو بالغريزة، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل)، والتقدم الهائل والكبير في عالم النحل وفي عالم النمل يستند إلى الغريزة فقط، وليس هناك قدرة عقلية توجب لهذا الحيوان الإبداع والتقدم إلى الأمام، بينما الإنسان في كل حُقبه زمنية تمر عليه يزداد في معارفه وقوة إدراكه وفي الطرق التي يستطيع بها أن يُسخر وسائل الحياة المختلفة لرفاهيته، وهذه القوة الفائقة لا وجود لها في عالم الحيوان، وقد أشار إمامنا الصادق عليه السلام في حديثه إلى المفضل بن عمر إلى الفارق بين الحيوان والقرود رغم أنَّ القرود كثير الشبه بالإنسان، ولكنه لا يستطيع التقدم الكبير والهائل الذي يتحقق للإنسان. إذ أنَّ الإنسان يستند إلى الفكر، وهو يستند إلى العقل، والأبوان هما اللذان يؤكدان باستمرار على أهمية القوة الهائلة لدى الإنسان وهي العقل.

دور العقل في استقامة سلوك الإنسان:

إنَّ للعقل أهمية بالغة في نطاق الأسرة على مختلف الأصعدة، وينبغي التأكيد على دوره ومساره الجوهري في حياة الأبناء أي أن يتحدث الأبوان لأبنائهما عن الدور الكبير للعقل في كبح جماح الشهوة وترويض الجانب الحيواني ليستقيم مع ما أمر الله تعالى به. والتأكيد أنَّ العقل هو من أهم قوى الردع في الإنسان التي تحمي الأسرة من الوقوع في الانحراف، وقد أشار بعض اللغويين أنَّ تسمية العقل ناشئة من عقل

الشيء بمعنى ربطه، والعقل يستطيع ربط الإنسان على مبدأ الاستقامة والثبات كي لا يقع تحت سيطرة الجهل والخمول وينشط العقل بعاملين هامين:

الأول: العلم.

إنّ الأب والأم مسؤولان عن التأكيد على أهمية العلم للطفل كي يُتاح له أن يُنمي تلك القوة الهائلة لديه، والتي بإمكانه الاستناد عليها في مراحل الحياة المختلفة.

الثاني: التفكير.

إنّ تفكير الإنسان وتأمّله والمقارنة بينه وبين والحيوان من جهة وبينه وبين أخيه الإنسان غير المكتمل عقلياً - المصاب بالتخلف العقلي - من جهة أخرى يشعّر بالفارق الكبير بينه وبين غير المكتمل عقلياً، وسوف يعلم القيمة الحقيقية لنعمة العقل التي مُنح إياها، وكذلك عندما يرى بعض الأشخاص الذين تقدم بهم السن فأصبحوا فاقدوا الوعي والإدراك غير قادرين على التفكير والتركيز بشكل صحيح فإنّ ذلك يشعره بنعمة التفكير التي ترسم شخصية الإنسان وأسلوب حياته.

دور العقل في توجيه القدرات الإنسانية:

من هنا يأتي دور العقل بالتأمّل والتفكير الدقيق لاستخدام قدرات الإنسان فيما يريده الله تعالى، والجنوح إلى الانحراف عند بعض الأبناء يتأتى من عدم الوعي بأهمية العقل المؤدي إلى عدم احترام وتقدير الذات، والتعامل مع نفسه كحيوان، وتعطيل القدرة الهائلة المودعة فيه من الله تعالى، والتي بها يتميز عن الحيوان الذي لا يعي ولا يتقدم ولا يمكنه تسخير قدراته في رقيه، وهنا نقطتان هامتان نركز عليهما:

الأولى: الربط بين عالمي المادة والمعنى بواسطة العقل، أي أنّ على الأب والأم أن يوضحا لأبنائهما الفارق بين العالم المرئي المحسوس الذي يتعامل معه وبين العالم غير



المرئي وغير المحسوس أي عالم المجردات، ويؤكد أن على الجنبه غير المرئية في وجود الإنسان بواسطة العقل شيئاً فشيئاً، وبهذه الطريقة يجعلان الولد والبنات أكثر إدراكاً لأهمية العالم غير المرئي من خلال الاستناد إلى قوة وقدرة العقل لديهما.

الثانية: الربط الوثيق بين عالمي الدنيا والآخرة، الذي يتأتى من خلال قيام الأب والأم بالمقارنة لأبنائهما بين الإنسان الذي استطاع أن يستفيد من الحياة في تحقيق أهدافه وطموحاته قبل أن ينتقل إلى عالم الآخرة وبين الإنسان الذي لم يستفد من الحياة الدنيا ولم يسع فيها لتحقيق أهدافه وطموحاته قبل أن يرحل عنها، وهذا النوع من المقارنة يُعطي درساً عظيماً في أنّ الإنسان الذي يُشاركك في الوجود والقدرات وفي الكثير من المواهب والصفات قد انتهى دوره في هذه الحياة الدنيا، وله ما حقق فيها من انجاز في عالم المعنى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) (الطور) وعلى رب الأسرة أن يؤكد أهمية الإنجاز في للحياة الآخروية التي هي الحياة الحقيقية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدَارُ الْآخِرَةَ لِهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) (العنكبوت)، أي أنّ الحياة الدنيا التي نعيشها ليست هي الحياة الحقيقية إذّ مهما حصل للإنسان من مكاسب في عالم الدنيا فهو مشوب بالكدر والألم، ولا يستطيع الإنسان مهما أوتي من قوة وقدرة في كل جوانب الحياة أن يعيش من دون ألم أو تعب، ولا يمكن لأي إنسان أن يعيش الرغد الكامل الذي أشار إليه تعالى في الآية الآنفه، وقد جاء عن إمامنا زين العابدين (عليه السلام) بيان هذه المعنى قال (عليه السلام): (وأنت لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى) (١) أي أنه لن يستطيع شخص في هذا العالم المادي أن يحقق جميع ما يصبو إليه من لذات دون أن يفقد لذة أخرى في قبالتها، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى مراتب عالية من العلم احتاج أن يستفرغ الوسع وي بذل الجهد الكبير، وإذا أراد أن يتقدم اقتصادياً احتاج إلى بذل الجهد والعمل الدؤوب كي يحقق طموحه، والتقدم في أي مجال يسلب الإنسان

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٦، ص ٢٣١.

الكثير من الراحة، فلا تُوجد لذة من اللذات في عالم المادة دون فقد أخرى في قبالتها، أما عالم الآخرة فلا وجود للنصب والتعب فيه، ولذته دائمة لا يفقد معها الإنسان لذة أخرى.

أهمية المقارنة في إحداث التفكير المتوازن:

من خلال هذه المقارنات الدقيقة التي تعتمد على أهمية العقل والإدراك السليم في وجود الإنسان، يستطيع الأب أن يبنى الولد وال بنت منذ البدايات الأولى على الارتباط بعالم القيم، ويدفع أبنائه إلى التفكير المتوازن، فلا ينجر في الشهوة، ولا ينجر إلى عالم الحيوانية كما يحصل لبعض الأبناء، وذلك لعلمه الطريقة الصحيحة للتفكير وتأصل الجانب العقلي في شخصه، فيثمر ويُعطي عطاءً مباركاً في سلوكه من قدرته على تقييد ولحم زمام شهواته بما ينسجم مع المبدأ الإلهي، وهذا الأسلوب هو الذي يضمن تقويم السلوك والاستقامة في السير التكاملي نحو الله تعالى، وقد أكدت الروايات الواردة عن أهل البيت عليه السلام على التفكير عبر العقل تارة وعبر تنميته تارة أخرى، قال الإمام الصادق عليه السلام: (أفضل العبادة إيمان التفكير في الله وفي قدرته)^(١)، بشرط أن يكون التفكير لهدف وغاية، وهي وصول الإنسان به الله عز وجل، وقال عليه السلام: (لا عبادة كال تفكر في صنعة الله عز وجل)^(٢) أي في عالم الملك والمملوك اللذين خلقهما الله، وهذا النوع من التفكير يهدي الإنسان إلى طريق الخير ويأخذ به إلى الرشd والسداد.

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٥٥.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٨، ص ٣٢٤.

السابع: أهمية العلم في استقامة الأسرة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر) صدق الله العلي العظيم.

دور العلم في استقامة الفرد:

من المهام الرئيسة التي يجب أن يؤليها الأبوان عنايةً كبيرةً لمستقبل أبنائهما التعليم، فله أهمية كبيرة في حياة الفرد بمقدار ما يحصل عليه الفرد من علم نافع يستطيع تأمين مستقبل باهر يقوم على دعامة قوية ومتينة، وكلما أولى الأبوان العناية الفائقة بالعلم في تنشئة وتربية الأبناء استقام الأبناء في طريق الصواب ويتطلب ذلك من الأبوين التشجيع الدائم والمستمر على تحصيل العلم، وحتى يتضح دور العلم في حياة الفرد والمجتمع نُقدم مقدمة هامة يتجلى فيها ذلك.

دور العلم في بناء شخصية الفرد:

من الطبيعي أن الأبوين يهتمان بالحاجات المادية للأبناء، ومن أهمها إشباعه غذائياً، وتأمين الغذاء لهم يُسهّم في اكتفائهم مادياً وعدم حاجتهم للآخرين، وينعكس إيجاباً على الجانب المعنوي والروحي، إنّ الغذاء له دور في بناء الوجود المادي والمعنوي من الشخصية، وهناك دعائم لبنائه، من أهمها، الاستقامة والسلوك السوي، وتقوى الله تعالى والمعرفة العقدية ركيزتان رئيسيتان يستند إليهما الابن في أحلك الظروف التي تمر

به، وهذا ما نجده في القصص القرآني عند ذكر إلقاء الصديق يوسف عليه السلام في غيابة الحب، الذي يُعتبر بلاءً عظيماً لو حدث لغيره عليه السلام لأصيب بحالة من المهستيريا قد تؤدي إلى فقدان عقله، خصوصاً إذا كان الابن في المراحل الأولى من طفولته، أما إذا كان الابن مرتبطاً بالله تعالى وتربى تربية صالحة تعمق فيه التقوى والارتباط الإلهي، والاستناد إلى القوة المطلقة لله تعالى فإن ذلك يجعله قوياً صامداً لا يتأثر بأي شيء يُصاب به. والعلم يُدعم الارتباط بالله تعالى، ويجعل المسار المادي في الطريق السوي، ويجعل شخصيته تسير في الاتجاه الصحيح. وبهذا تتضح أهمية العلم في حياة الإنسان، وقد أفصح الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عن دور العلم حياة الإنسان المادية والمعنوية، قال الإمام علي عليه السلام: (اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة)^(١) فاكسب العلم يكسب الإنسان الحياة السليمة والسعيدة من ناحيتين:

الأولى: المعنوية، وتعتمد على ثلاث دعائم رئيسية هي: البناء العقدي والبناء الفقهي الذي يرتبط بالسلوك السوي من ناحية القانون، والبناء الأخلاقي الذي يحتاج إليه الإنسان في التعرف على أسس ومبادئ الأخلاق في شخصيته، وهذه الأنحاء الثلاثة تعتمد على العلم.



الثانية: المادية، ويعتمد عليها الفرد في العيش سوياً مستقيماً مطمئناً محققاً لذاته ولحاجاته المادية، وذلك يرتبط بالعلم ارتباطاً وثيقاً.

دوافع تحصيل العلم عند علماء النفس:

إنّ رب الأسرة بحاجة ماسة إلى العلم، أكان رب الأسرة أباً أو أمّاً - في بعض الأحيان النادرة - بالتأكيد أنّ دور الأم قد يكون أكبر من دور الأب، وذلك لاهتمام الأم بالجوانب التربوية التي تُشكل شخصية الولد أو البنت من خلال احتضانها الطفل في المراحل الأولى، والذي يتطلب الكثير من الحنان والرعاية الخاصة التي تؤثر في شخصية الطفل، إنّ رب الأسرة بحاجة للتأكيد على أهمية العلم في بناء شخصية

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٧١٠.

الأبناء. وتجذير ذلك من خلال الدوافع والمحفزات التي أكد عليها علماء النفس لجعل الولد يسير سيراً حثيثاً نحو تحصيل العلم:

الأول: المثير والاستجابة.

يؤكد علماء النفس على أنّ الإشباع الذي تتلوه استجابة يُؤدي إلى تعلم الاستجابة وتقويتها، ومن أهم ما يرتبط بهذا المبدأ الحاجة فينبغي للأبوين تعليم الأبناء بالحاجة الماسة لتحقيق ذواتهم ووجودهم واستمرارهم في الحياة، والعلم له أهمية كبيرة في تحقيق الحاجة التي يصبو إليها الولد.

الثاني: المعرفة.

إنّ المعرفة ترتبط بوجود إرادة لدى الإنسان، والإرادة تنطلق من العقل، والإرادة والعقل لهما الدور الفاعل في شخصية الإنسان، وهذه النظرية تعتمد على تركيز ظاهرة حب الاطلاع التي تدفع الإنسان للمعرفة والعلم، وكلما اطلع على شيء وجد نفسه بحاجة إلى اطلاع أكبر ومعرفة أعمق لأنّ العلم لا ينتهي.

ورب الأسرة معنيٌّ بغرس حبّ الاطلاع وتركيز هذه الغريزة الفطرية في شخصية الأبناء وتجذير حبّ العلم لديهم أي بجعله كبعض الهوايات لدى بعض الأسر، فالهواية إذا وجدت لدى بعض أفراد الأسرة انتشرت للجميع، وكذا الحال إذا ركز الأبوان حبّ الاطلاع والمعرفة في شخصية بعض الأبناء أثر ذلك تأثيراً كبيراً في بناء شخصيته وانتقل لبعضهم الآخر.

الثالث: البعد الإنساني.

وهذا الدافع من الأهمية بمكان، ويرتبط بالنظرية الإنسانية، وكيفية تحقيق الإنسان لإنسانيته كفرد وكيفية تحقيق استقامة المجتمع بالمطالبة بحقوقه والحفاظ على كرامته، ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بالعلم. فالمجتمعات التي تمتلك العلم والمعرفة تُحقق لنفسها قوة ومنعة، والتقدم في العصر الحديث يُقاس بما تمتلكه المجتمعات من المعلومات،



أي أنّ العلم يُحقق التقدم والرفاه للمجتمع ليس في الناحية المادية فحسب، وإنما في الناحية المعنوية بالكرامة والعزة، ومن أراد للفرد الكرامة والعزة وتأمين ما يحتاجه فعليه تأكيد أهمية العلم.

العقبات الكبيرة التي تقف أمام حب العلم:

الأول: عدم احترام العلم.

إنّ الأبناء الذين يعيشون محيط لا يحترم العلم سوف يتأثرون بذلك كما يحصل لدى بعض الشباب عندما يقال له: إنّ الأيام هي أيام قطف الثمار للسنة الدراسية، فيُبدى اللامبالاة وعدم الاكتراث وينسى العواقب الوخيمة التي تترتب على إخفاقه في الامتحان بنحو متكرر كضياع مستقبله وتدهور حياته، ويردد عبارات تنم عن عدم اهتمامه بالعلم كقوله ما عسى أن أكون وماذا سيتحقق إليّ؟.

الثاني: تأثير الإعلام المضاد.

إنّ بعض الناس يُردد المقولات الخاطئة فيقول إنّ بعض من تخرج من الجامعة وحصل على الشهادة لم يستفد منها ولم يحقق المستقبل الذي طمح إليه، وهذا خطأ كبير ويجب على الأبوين معالجته، لأنّ العلم لا يرتبط بالوظيفة فحسب، وإنما يرتبط بنواح متعددة كثقافة الإنسان وكرامته وتقدمه معنوياً، والوظيفة هي مفردة خاصة لا تمثل كلّ وجوده، والمقولات الخاطئة هي إعلام مضاد يُؤثر سلباً على طموح الشباب والطلاب، وينفرهم من العلم، ويقتل آمالهم، لذا على الأبوين أن يزيلوا آثار ذلك الإعلام السيئ.

الثالث: الجهل بالآليات رفع المستوى الدراسي.

هناك آباء يقعون في أخطاء وبسببهم يقع الكثير من الأبناء في تلکم الأخطاء، فالأب الذي لم يتعرف على الوسائل والآليات التي ترفع مستواه العلمي ولا يعلم بأهمية تكرار المعلومة وتأثير ذلك في رفع المستوى إلى درجة الامتياز، وكذلك لا يعلم



بأهمية المناقشة في الدرس ودور الكتابة له وتلخيصه في تركيز المعلومة، وكذلك لا يعلم بتأثير الجد والصبر في رفع المستوى العلمي والدراسي لن يتمكن أبناؤه من معرفة ذلك منذ البدايات ويخسرون الكثير بسبب عدم اطلاع الأب على ما تقدم، إنّ كل هذه الأمور بحاجة ماسة إلى التأكيد عليها من الأبوين من أجل بناء شخصية الطفل على حبّ العلم كأفضل شيء لديه وأنه كالغذاء المفضل الذي يتعلق به بعض الأطفال بنحو خاص ويحبونه حباً كبيراً، إنّ دور الأب هو في إزالة العقبات التي تُبغض الأبناء في حب العلم والمعرفة.

أهمية ضرب الأمثلة في تجذير حب العلم:

ولعل من الأمور الهامة التي تجذر حب العلم في شخصية الأبناء وتحريكهم وتحفيزهم ضرب الأمثلة المتعددة، فلذلك أبلغ الأثر الفاعل، وقد مارس القرآن الكريم هذا الأسلوب في إيصال الإنسان إلى القيم وتوجيهها في شخصيته، وتركيز حب الإطلاع من خلال إعطاء نماذج من حياة العلماء والمصلحين والشخصيات الأكاديمية الكبيرة التي لم تكن في بداية تحصيلها العلمي تمتلك القدرات الكبيرة غير أنّ المثابرة والصبر والاستمرار أوصلتهم إلى مراتب عالية، ولعل السيد الطباطبائي (صاحب الميزان) خير مثال لذلك، فقد كان يرحمه الله في بداية تحصيله الدراسي عادياً، وأصبح نجماً متألقاً بعد ذلك عندما ثابر وصبر، فوصل إلى المستوى الراقى، والكثير من العلماء في حقول العلم المختلفة كانوا في البدايات الأولى بمستوى عادي، فأينشتاين (صاحب النظرية النسبية) كان تحصيله العلمي أقل من الجيد، وعندما ثابر وصبر وأراد بجدّ دون تردد وصل إلى مستوى مرموق وأثرت نظريته النسبية في كثير من العلوم التي أوجبت تقدماً للبشرية، إنّ إعطاء هذه الأمثلة وتكرار ذلك يجذّر حب العلم في شخصية الأبناء.

ماذا نحقق من هذا التجذير؟

أولاً: إنّ تحذير الأبناء وأمرهم بتأمين مستقبلهم والتذكير لهم بأهمية دور العلم في

بنائهم على جميع الأصعدة، وأنَّ حُبَّ العلم يُهيأ الأرضية لهم في تأمين المستقبل المادي والمعنوي.

ثانياً: التجذير يسهم في بناء وتقديم المجتمع، والمجتمعات تقدمها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم، وكلما تحققت التخصصات العلمية المؤثرة -كالطب والهندسة والرياضيات والفيزياء وعلوم اللغة وعلوم الإنسانيات وغير ذلك - كان مستقبل المجتمع أفضل وكلما أصبح المجتمع يمتلك الوسائل التي بها يستطيع أن يؤمن لنفسه ما يحتاجه ويسهم في تقدم نفسه فاز وظفر، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر).

وختاماً فإنَّ مسؤولية الأبوين بذل قصارى جهدهما في الآونة الأخيرة لقطف الشار اليانعة لأبنائهم.



الثامن: أسس وقواعد في تربية الأبناء

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) صدق الله العلي العظيم.

لا زال الكلام موصولاً حول الأسس والقواعد التي أولاها الإسلام عناية فائقة، لما لها من تأثير على الأبناء في السلوك التربوي، والوالدان إذا لم يتوجها لأهمية هذه القواعد فإن التربية قد تُصاب بإخفاق كبير، وقد لا يستطيعان أن يحصدا الثمار الطيبة من الجهد من هذه القواعد:

الأولى: حب الذات.

إن حب الذات أمر فطري للإنسان، وينشق منه الاعتماد على النفس، وهو غرس الباري تعالى بيد قدرته في كنه وجود الإنسان، وله جنتان:

الأولى إيجابية: تعود على الإنسان بالنفع والخير العميمين.

والثانية سلبية: تؤثر في سلوك الإنسان نحو الكمال.

وعلى المربي الناجح أن يراعي الجانب الإيجابي من حب الذات باعتبار أن خصال الخير الحميدة، ومنها الاعتماد على النفس تنشق من حب الإنسان لذاته، وكما ندرك أهمية حبه لذاته نزيد هذا المطلب إيضاحاً، وذلك أن الإنسان يرى بوجوده الحب والمودة لمن أحسن إليه، كما أنه يعتبر من يسيء إليه عدواً له فيغضه، وهذا مبدأ عام،

وتنبثق منه قاعدة أخرى يشير إليها الفلاسفة والعلماء من المسلمين وغيرهم، قال (جون ديوي) «إنّ مسألة الحياة على الاهتمام هي أهم محرك ودافع يدفع الإنسان إلى التألق والوصول إلى الكمال» وهو يشير إلى أنّ الإنسان عالم عظيم ينطوي على الأهمية من خلال مسألة الحياة التي تساوي حب الذات.

الثانية: أهمية مبدأ الإحسان إلى الآخرين .

الإحسان قانون عام يتمثل في العطاء والتشجيع للإيصال إلى الكمال من غير أن يشاب بالمن والأذى، وقد أبان النبي ﷺ وأهل البيت  أهمية الإحسان غير المشوب بالمن والأذى، قال ﷺ: (جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها)^(١)، وقال الإمام الصادق : (طُبعت القلوبُ على حُب من أحسن إليها وبُغض من أساء إليها)^(٢)، وفصل الأئمة من أهل البيت  في الأحاديث أهمية التعامل الإيجابي الذي يحصل من خلال العطاء وإضفاء الاحترام والتقدير على الغير، باعتباره يولد الحب وبه تتبادل المشاعر والأحاسيس والعواطف وبذلك يكون الولد أرضاً صالحة قابلة لإنبات البذور الطيبة، وعلى العكس تماماً الإساءة إلى الغير خصوصاً الولد والبنت، فإنّ ذلك يسمهما في ذاتيهما ويتولد منه الإيذاء وهو امتهان لكرامتهما، وهناك علاقة تبادلية تتحقق في الأعم الأغلب فمن أساء إلى ولده سوف يجد عدم الاحترام من قبله، وينعكس هذا الأمر بنسبة أقل بين الابن وأبويه، من هنا يواجه الآباء مشكلة كبيرة خصوصاً عند تعدد الأبناء واختلافهم في المواهب والقدرات والتفكير، ووجود علاقة تبادلية تجعل الحب المتدفق من الأبوين للابن البار المحسن بنحو أكبر وأعظم، وإذا ظهر ذلك ولّد مزيداً من التعنت للابن الآخر الذي لا يرى المشاعر والأحاسيس المبذولة لأخيه. والقلوب جُبلت على حُب من أحسن إليها، كما جاء في الروايات والدراسات الحديثة في علمي التربية والنفس وهي تدعو المربي أن يتأمل ملياً لوضع الدواء في المكان المناسب.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٦٤١.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٦، ص ١٨٤.

الثالثة: مبدأ التسوية والعدل بين الأولاد.

إنَّ مبدأ العدل والإحسان بشكل متساو بين الأولاد له أهمية كبيرة، وينبغي على الوالد الحكيم أن يُخفي ما يدعوه أن يُحسن كثيراً لأحد أبنائه دون الآخر حتى إذا كان ذلك لبعض الميزات كالبرّ منه وعليه أن يساوي في تعامله بين أبنائه حتى لا يعود بالضرر عليه أو عليهم، وأكد القرآن الكريم على أن تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان يتم على أساس العدل والإحسان، بغض النظر عن الانتماء الديني، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، والنبی ﷺ ركّز هذا المبدأ في مواقف متعددة، فعندما رأى رجلاً قبل أحد أولاده وترك الآخر لم يرضه التصرف، وقال ﷺ: (فَهَلَّا سَاوَيْتَ بَيْنَهُمَا؟!)(١)، وقال ﷺ أيضاً: (اعدلوا بين أولادكم وكما تحبون أن يعدلوا بينكم)(٢)، ومن أهم طرق التعامل الإيجابي بين الأولاد التسوية بينهم في الحنان وتوزيع النظرات والابتسامات، قد أبان الأئمة من أهل البيت  بأنَّ سورة يوسف ما جاءت إلّا لتقويم السلوك التربوي والسير في المسار الصحيح.

والنتيجة التي نصل إليها هي أنَّ الأضرار التي تترتب على عدم التسوية بين الأولاد لا تقتصر على البغضاء فقط، بل تؤدي إلى عُقدة الحقارة والنقص فالابن إذا لم يُغض أبويه فإنه مع ذلك لن يصل إلى ما يصبو إليه الأب أو تطمح إليه الأم من وصول الولد إلى الدرجة المثل والمرتبة العالية.

طرق علاج سلوك الأبناء في مدرسة الأئمة .

والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت  عالجت الموضوع بأساليب ناجعة وسليمة:

الأول: المصانعة والمدارة .

قال الباقر : (والله إني لأصانع بعض ولدي، وأجلسه على فخذي، وأكثر له

(١) مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٢٢٠.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٠١، ص ٩٢.

المحبة، وأكثر له الشكر، وأن الحق لغيره من ولدي، ولكن مخافةً عليه منه ومن غيره، لئلا يصنع به ما فعلوا بيوسف إخوته^(١) فبعض الأولاد لا يستحق المصانعة نتيجةً لاجوجاج سلوكه ولكن المربي الناجح يضطر لمصانعته، وإعطائه مزيداً من الحنان والمحبة، لئلا تتكرر في قصة يوسف له فيكيدونه إخوته، قال الإمام عليه السلام: (وأكثر له الشكر وإن الحق لغيره من ولدي، ولكن مخافةً عليه منه) أي من نفسه؛ والإمام عليه السلام يؤكد خوفه من حسد غيره من الأولاد الذي هم أولى منه، مع كونهم أكثر استحقاقاً للعناية والاهتمام منه، لكنه يُحسن له كي لا يُسيء لإخوانه الذين يستحقون الإحسان. (مخافةً عليه منه ومن غيره لئلا يصنع به ما فعل بيوسف إخوته)، ثم قال عليه السلام: (وما أنزل الله سورة يوسف إلا أمثالاً لكي لا يحسد بعضنا بعضاً، كما حسد بيوسف إخوته، وبغوا عليه)^(٢)، والحديث يشرح كيفية التعامل بشكل حكيم ومدرّوس من الأب والأم ومن المربي الذي يتولى أطفالاً يريد أن يُسبغ عليهم حناناً وعاطفةً أو عطاءً مادياً، ويحاول أن يعدل في إسباغهم بالنعم المادية والمعنوية لمن يتولى رعايتهم.

الثاني: التصابي ومراعاة مستوى الابن.

التصابي من القواعد المهمة التي أولاها الأئمة عليهم السلام عناية كبيرة، لأهميتها في السلوك التربوي وانعكاس أثرها الطيب على نفسية الابن، والمقصود منه أن الصبي ليس بمستوى إدراك الأبوين في العلم والثقافة والفهم، ولا ينبغي لهما أن يتعاملوا وإياه كما يتعاملان مع الكبار الذين طورتهم التجارب وأنمت خبراتهم، والطفل ليس كذلك فيحتاج إلى النزول إلى مستواه كي يُتاح له الرقي بنحو تدريجي إلى المستوى الذي يؤهله لتعلم ما لدى الكبير، وقاعدة التصابي تتحقق بخفض مستوى الأب ثقافياً وعلمياً ليكون بمستوى أبنائه حتى ينفث الابن عليه شيئاً فشيئاً يرتفع مستواه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من كان عنده صبيٌ فليصابي له)^(٣) أي إذا كان عندك ولد اجعل

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٩، ص ٢٤٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٨٦.

نفسك بمستواه، وقد تصور بعض العلماء كلمة (فليتصابى له) بمعنى اللعب معه فقط، والمسألة ليست كذلك، وإنما ترتبط بتنزيل مستوى القدرات للأب والمربي إلى مستوى الولد، كي يُتاح له أن يوصل أفكاره وأخلاقه إلى الولد، وهذا أسلوب رائع له أهميته الفائقة في رفع مستوى الابن الإدراكي والعلمي والثقافي، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (من كان له ولدٌ صَبًا) ^(١) أي كان في مستواه وأصبح صبيّاً كابنه.

الثالث: التألف والتأديب.

إنّ الولد في - الأعم الأغلب - لا ينسجم إلّا مع من يماثله ومن هو على شاكلته، خصوصاً إذا تفتّحت مداركه، فيحتاج إلى أسلوب جذب إلى أبيه، ويتحقق ذلك بإثارة وممارسة دوراً إعلامياً تجاهه من خلال التودد إليه وتقديم الهدايا وإعطائه بعض المعلومات المؤثرة والتي يجبها، كي تبدأ عملية تلاحم وتلاقي بين فكره وفكر الأب وهذا ما تشير إليه كلمة تألف الواردة في حديث النبي صلى الله عليه وآله عندما قال: (رحم الله عبداً أعان ولده على برّه بالإحسان إليه، والتألف له، وتعليمه وتأديبه) ^(٢) والتأديب في الحديث لا يراد به أن تجعله مؤدّباً بإسداء النصيحة إليه، إذ أنّ التأديب في اللغة كالترويض وممارسة الرياضة، والإنسان إذا أراد أن يتعلم فناً من فنون الرياضة يحتاج إلى الممارسة المتكررة، والتأديب له نفس المعنى أي يحاول الأب أن يغرس ما يريد إيصاله إلى الولد والبنت من خلال التكرار، والنبي صلى الله عليه وآله لا يريد منا أن نُعلمه فقط بل يريد أن نُؤدبه أي أن نروض الولد كي يصل إلى الدرجة التي نطمح أن يصل إليها.

الرابع: إدخال السرور والفرح إلى الأبناء.

إنّ الارتياح النفسي واطمئنان البال لهما الأثر الفاعل في الوصول إلى الكمال ولا يستطيع الأبناء تحقيق الارتياح والطمأنينة دون مساعدة من الأبوين، وقد أشار النبي صلى الله عليه وآله إلى هذا المعنى لدقته وأهميته للمربي كي يصل الأبناء إلى درجات الكمال العلمي

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٥، ص ١٦٩.

والسلوكي، قال ﷺ: (من فرّح ابنته فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقرّ بعين ابن له فكأنما بكى من خشية الله)^(١) والرواية تشير إلى نقطتين هامتين تتعلقان بالبنت والابن:

الأولى: إنّ إدخال الفرّح على البنت باعتبارها كتلة من المشاعر ومجموعة من الأحاسيس وقد تُصاب بضغوط طبيعية في الحياة، فتحتاج إلى من يمارس عملية التنفيس عنها كي لا ترتد عكسياً على شخصيتها، والأبوان لهما الدور الأكبر في ذلك، والنبي ﷺ يشرح عظمة هذا الدور ويقرّنه بثواب عتق شخص من ولد إسماعيل أي عندما تُدخل الفرّح والبهجة على قلب الفتاة فكأنما أعتقت أحد أولاد الأنبياء.

الثانية: إنّ جعل الابن قرير العين مرتاح البال، هادئ النفس، مطمئناً في خطواته لديه استقرار نفسي، هذا العمل تجاه الابن له الأثر الكبير في قرب الأبوين من الله تعالى والنبي ﷺ يبين أنه يُوصل إلى قمة العبودية وأعلى مراتب السلوك العرفاني، إذ أنّ البكاء من خشية الله تعالى يوصل الباكي إلى أعلى درجات الكمال العبودي وكذلك إقرار عين الابن له نفس الأثر.

هذه القواعد السلوكية التي أفصح عنها النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام تشرح للأبوين الاتجاه الصحيح الموصل للأبناء إلى الرقي والتقدم والمستقبل الباهر.



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٥١٤.

التاسع: دور العبادة في بناء شخصية الأبناء

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة) صدق الله العلي العظيم.

أهمية الارتباط بالعبادة منذ الصغر

من الدعائم التربوية والأسس الهامة في شخصية الابن الارتباط بالعبادة فلها أثرها في حياة الابن في ريعان الصبا، ولها غاية الأهمية، إذ أنها تمثل الغذاء الروحاني للإنسان، وكما أن الجسد يحتاج إلى غذاء، كذلك الروح -الجنبنة المعنوية للإنسان- تحتاج إلى غذاء، وإذا لم يتناول الشاب الغذاء الروحاني فالنتيجة ضعف شخصيته، وعدم استقامة سلوكه، والروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  أوضحت أهمية إشراك روح العبودية في الابن بعد أن يتم له خمس سنوات، فيُعلَّم الارتباط بالله تعالى عبر الركوع والسجود والذكر والطهارة والأمر بالآخرى، ونجد تفكيكاً لأجزاء العبادة لبيان التدرج في الأسلوب التربوي لربطه مع بارئه تعالى منذ صغره، والروايات تؤكد على الأبوين إذا أرادوا ربط أبنائهم بالله تعالى فعليهما أن يعلما الأبناء السجود لله تعالى.

دور العبادة في شخصية الطفل

وحتى يتضح دور الارتباط بالعبادة في شخصية الطفل نستعرض مقدمة نبين من خلالها ذلك، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (إن الإيمان ليدو لمعةً بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نأ وزاد حتى يبيض القلب كله)^(١) والرواية تشير إلى معنيين هامين: الأول: الجنبه التكاملية في شخصية الإنسان المعنوية، إذ أنه لا يصل إلى الكمال إلا عبر طريق طويل يتدرج فيه إلى أن يتسلق ذرى المجد ويصل إلى قمة الكمال. فالكمال بذور تحتاج أن تسقى لتنمو شيئاً فشيئاً حتى تترعرع وتصبح وارفة باسقة مثمرة ولا يتأتى للإنسان ذلك في بُرْهة زمنية محدودة بل يحتاج إلى مدة طويلة، والإمام عليه السلام يوضح أن الإيمان يبدأ صغيراً كاللمعة البيضاء أشبه بالنور الخافت ثم يقوى بشكل تدريجي إلى أن يبيض القلب كله فيصبح نوراً مُتَلَأَلًا يُضيء وجود الإنسان المعنوي والمادي معاً.



الثاني: إن الإنسان ومنذ صغره يرتكب بعض الأخطاء التي لا تُكتب عليه قبل بلوغه لكنها تؤثر في وجدانه الخُلُقِي، وفي الجانب المعنوي من شخصيته، فالكذب ومساوئ الخلق يُؤثران تأثيراً كبيراً على الإنسان البالغ المكلف ويحاسب عليهما أما غير البالغ إذا اقترف معصية فتؤثر فيه تأثيراً محدوداً، يشتمل على نحو من الضلالة ولا يجري عليه قلم التكليف ولا يحاسب عليها ما دام لم يبلغ الحلم، والروايات الواردة بينت ذلك وقد أفتى به الفقهاء، والعمل السيء يحتاج إلى تدارك بعمل صالح وعبادة تحو السوء، فإذا اقترف الصبي خطأً كالكذب ينبغي أن يتعود أن يجد الملجأ لتغيير السلوك غير الحميد إلى حسن، فيستشعر غفران الله تعالى لكل ما ألمَّ به من خطأ، وما صدر منه من سوء وأنه إذا التجأ إلى الله تعالى بالدعاء، والسجود والذكر، فإنه يبيض قلبه وتزكو نفسه، والحديث يشير إلى ذلك: (ليدو لمعةً بيضاء فإذا عمل العبد

(١) الطفل بين الوراثة والتربية للشيخ محمد تقي فلسفي: ج ٢، ص ١٤٧.

الصالحاتِ نما) فالصغير إذا صدر منه ما يتنافى مع الأوامر الإلهية سعى إلى إنماء الجانب العبودي في شخصيته حتى يُضيء وجوده.

أهمية الجانب العبادي في شخصية الإنسان

هناك روايات كثيرة تبين تأثير العبادة في شخصية الإنسان سواء كان صغيراً أم كبيراً، ولدينا طائفة من الروايات تؤكد على أهمية الجانب العبودي في شخصية الإنسان منذ صغر سنه، وتأثير ذلك الكبير والعظيم على سيره التكاملي، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئِلَ في كم يؤاخذ الصبي بالصلاة؟ فقال عليه السلام: (فيما بين سبع وست سنين)^(١) أي يُعلم ويُمرن على العبادة منذ السنوات الأولى، ويُتدرج معه إلى أن يصل إلى عشر سنوات وعندها يحاسب على تركه الصلاة، قال عليه السلام: (مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً)^(٢) أي إذا بلغ الصبي سبع سنين لا بد أن يؤمر بالصلاة، قال الفقهاء إن هذه العبادة تمرينية يترتب عليها الثواب ولا ترجع إلى الصبي، وإنما ترجع إلى أبويه، وهناك نظرية أخرى تقول إن عبادات الصبي يرجع ثوابها له وهذا الرأي هو الأصح، والصبي إذا لم يبلغ الحلم لا يؤاخذ بما صدر منه من ذنب في صغر سنه، لكنه يُعامل بمزيد من الكرم الإلهي إذا أتى بالطاعات ويحصل على نتيجة العبادات الصادرة منه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد)، والآية تطرح أمرين:

الأول: الإيمان.

الثاني: تقوية الإيمان عبر الارتباط بذكر الله تعالى الذي يُنمي الإيمان ويُجذره في شخصية الولد والبنت.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٤، ص ١٨.

(٢) مستدرک وسائل الشيعة للنوري: ج ٣، ص ١٩.

تأثير المعارف المعنوية في شخصية الطفل:

إن الروايات الواردة تبين نقاطاً هامة ترتبط بالجانب المعنوي في شخصية الابن ضمن أمور:

الأول: التدرج في إعطاء المعارف المعنوية.

قال الإمام عليه السلام: (إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له سبع مرات: قل: لا إله إلا الله)^(١)، أي تبدأ معه شرح مفردات التوحيد منذ بلوغه ثلاث سنوات، ثم قال عليه السلام: (ثم يترك حتى يتم له خمس سنين ثم يقال له: أيها يمينك وأيها شمالك، فإذا عرف ذلك حول وجهه إلى القبلة، ويقال له: اسجد)^(٢) أي يؤمر بالسجود لله كي يرتبط به تعالى ويتعلم كيفية الخضوع للمبدأ المتعال، والروايات تشير إلى ما أوضحناه فيما تقدم وهو أننا لا نعلم الولد والبنت بشكل مفاجئ، بل نبدأ معه التعليم الجاد عندما يبلغ عشر سنوات وقبلها كنا قد علمناه بشكل تدريجي، والإمام عليه السلام في قوله: (فإذا عرف ذلك حول وجهه إلى القبلة، ويقال له: اسجد) أي يطلب منه أن يسجد لله، ويبين له أهمية السجود له تعالى.



الثاني: بيان الحكمة من التشريع.

هناك مطلب آخر فائق الأهمية ننوه به وننبه عليه، هو أن التعامل مع الأبناء لا ينبغي أن يكون عبر الأوامر فقط دون تبيان الحكمة وما يترتب عليها، والمربي قد لا يستطيع شرح فلسفة التشريع لأبنائه غير أن بإمكانه أن يشرح الحكمة المترتبة على التشريع، فإذا أراد ترغيب البنت أو الولد لمأكولات معينة ذكر ما يترتب عليها من فوائد، وإذا أراد منعه من بعض المأكولات ذكر الأضرار الصحية المترتبة على تناولها.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

وكذلك الأمر في العبادات التي يأتي بها الأبناء، فإذا أراد الأب أمراً بعبادة شرح ما يترتب عليها من فوائد كالسجود والدعاء وقراءة القرآن، وأكد على الجانب المعنوي الذي تُحدثه العبادة وذكر الله تعالى في حياة الإنسان، وأبان الفارق الكبير بين الفوائد الجمة المترتبة على الجانب المعنوي من العبادة والذكر وأوضح الفوائد المحدودة التي يجنيها الإنسان من الجانب المادي المرتبط بالأكل والشرب وعند ذلك سوف يجعل الأبناء يرتبطون ارتباطاً كبيراً بالجانب المعنوي، وعلى الأبوين تبيان تأثير كلمة التوحيد في نفس الإنسان وفي صقل روحه، وما يترتب على تكرار كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» من آثار عظيمة في الدنيا والآخرة أبانتها بينت في روايات النبي ﷺ وأهل بيته ، وأهمها:

١ - الأمن من العذاب الإلهي، فكلمة التوحيد حصانة للإنسان إذا أدرك معناها فلا ينزل في مهاوي الرذيلة، وهناك أيضاً أذكار لها آثار كنفي الفقر ليتاح للابن أن يعيش حياة هائلة لا يحتاج أن يمد يده إلى الناس، ويوسع الله تعالى رزقه، إن بعض الأذكار تبين كيف يُحقق الإنسان الاكتفاء في رزقه إذا داوم عليها وإذا أراد الولد أن يُصبح مُكثف، فعليه أن يُداوم على قراءتها، والأبوان إذا بينا لأبنائهما فوائد الأذكار وذكر ما يترتب على قراءة بعض سور القرآن والأدعية من آثار إذا داوم عليها الإنسان كدعاء كميل الذي يُشكل حافظاً ودافعاً لربط الإنسان ربطاً وثيقاً بالله تعالى والمهم هو التربية العملية على تلك الأذكار لتصبح جزءاً من شخصيته الذاكر لا يستطيع أن يفارقتها، وتمتزج بوجدانه، ولحمه ودمه وعظامه.

الثالث: المداومة على الأعمال.

إنّ قطف الثمار المترتبة على الأعمال بالمداومة عليها ورد في بعض الروايات أنّ الإنسان لا يحصل على الفوائد الكبيرة لهذه الأعمال إذا لم يُداوم عليها لمدة سنة على الأقل.

العاشر: أهمية الوقت في حياة الإنسان

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان) صدق الله العلي العظيم.

الوقت والإنسان في القرآن

إنّ المفاهيم العامة التي لها التأثير الإيجابي لبناء الأسرة بناءً سليماً لترتقي درجات سامية في الفضيلة والكمال الوقت.

ولا شك أنّ تثقيف الأبناء مهمة يقوم بها الأبوان لبلورة مفاهيم تتجذر في نفوس الأبناء من خلال الإيضاح والتكرار لتلك المفاهيم، وقد ورد في القرآن الكريم التأكيد المتكرر على أهمية التذكرة، وذلك يشير إلى أهمية ما ذكرناه، وفي مقدمة المفاهيم التي تحتاج إلى إيضاح وفهم سليم وصحيح من قبل الأبناء الوقت والزمن في حياة الإنسان. فإذا لم يدرك الابن دور الوقت في حياته فلن يستطيع أن يتقدم إلى الأمام ويتخطى العقبات، وقد بين القرآن الكريم أهمية الوقت، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان) والآية تشير إلى أنّ كلاً من الوقتين يخلف الآخر، ليستطيع الإنسان أن يتلافى ما أضاعه ليلاً في النهار، وأن يعوض ما أضاعه نهاراً في الليل، وقد أكد القرآن الكريم على دور الوقت في سياق مجموعة من الآيات الكريمة ف أقسم به في سور عديدة، كقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ (الفجر)، ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ (العصر)،

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾ (الضحى)، وآيات أخر تُبين أهمية الوقت للإنسان.

الوقت والإنسان في الروايات

وكذلك أكدت الروايات أهمية اغتنام الوقت، لآفات نظر الإنسان خصوصاً الشباب إلى أهمية اغتنامه، قال عليه السلام: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال، عن عُمره فيما أفناه)^(١) والوقت هو عمر الإنسان الذي يسأل عنه يوم القيامة، وجاء في الروايات التأكيد على ذلك من خلال الإشارة إلى أن ساعات الإنسان في يومه صناديق مقفلة تُفتح له في يوم القيامة، وكل ساعة صندوق، فإذا رأى الإنسان أنه ملاً الصندوق بالعمل الصالح والخير استبشر، وإذا رآه خال اغتم ورأى نفسه مغبوناً، وإذا رأى أنه ملاً الصندوق بالعمل السيئ -والعياذ بالله- أصبح في حالة يرثى لها من الندم والأسف دون جدوى، والرواية السابقة ورد فيها (وشبابه فيما أبلاه)^(٢)، قال علماء النحو إن هذا من عطف الخاص على العام، إن فترة الشباب رغم أنها برهة زمنية من العمر لكن الحديث أكد عليها غاية التوكيد، باعتبارها مليئة بالزخم والحياة والنشاط والفاعلية ولا تتوافر للإنسان في بقية أزمنة عمره، فقله عليه السلام: (وشبابه فيما أبلاه)^(٣)، سؤال عن العمر بأكمله ولكن فترة الشباب برهة زمنية محددة يُسأل عنها من قبل الله تعالى بالخصوص، ويختلف السؤال عنها عن السؤال الذي يوجه بشكل عام لعمر الإنسان كله، ثم تتابع الرواية: (وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت)^(٤) وهناك روايات بلورت هذا المفهوم وأكدت.

خصائص الوقت:

إنّ الأبوين إذا أوضحا لأبنائهما خصائص الوقت وأدركاها استطاع الأبناء اغتنام

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧، ص ٢٥٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

الوقت، وينبغي للإنسان أن يُبلور ذلك لأحبائه وذويه وأبنائه وبناته بخصائص:

الأولى: سرعة انقضاء الوقت.

إنَّ الوقت يمر بسرعة هائلة وينقضي، قال تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (٤٦) (النازعات)، وإذا عَلَّمَ الإنسان أبنائه بسرعة انقضاء الوقت وألفت انتباههم إلى ذلك وأدرك الأبناء أهمية الوقت، وضرورة المبادرة والعمل في نفس اللحظة دون تسويف أو تأجيل، إنَّ تركيز الأبوين على هذه النقطة الهامة التي أفصحت عنها أي الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) (آل عمران)، وبين القرآن الكريم أنَّ من سمات وخصائص الأنبياء والرسل المبادرة والاعتناء السريع للوقت، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٩٠) (الأنبياء)، وأبان القرآن الكريم أنَّ الصالحين السائرين على نهج الرسل يغتنمون الوقت، ويسارعون إلى ذلك قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) (آل عمران).

الثانية: صعوبة تلافي الوقت المنصرم.

إنَّ الوقت المنقضي لا يستطيع الإنسان أن يتلافاه إلا بجهد كبير وتعب شديد، ولا يتاح لكل إنسان تحقيق ذلك بسهولة ويسر، بل يحتاج إلى دأب في العمل وجهد في بذل قدراته لتلافي ما انقضى من الوقت، وفي كثير من الأحيان لا يستطيع الإنسان أن يعوض ما فاتته من الوقت ويندم على إضاعته له، قال الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأَخْبَرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

والإنسان الذي تمر عليه الأوقات ويتمتع فيها بكامل قدراته ثم تنقضي، ويرى نفسه لا يستطيع أن يعوض الفُرص النادرة في زمن شبابه وهرم جسده يتألم ويتمنى أنه استفاد من وقته غاية الاستفادة.

الثالثة: الوقت هو الحياة.

الوقت هو الحياة، وينبغي أن ننبه أبناءنا لذلك، باعتبار أن الزمن الذي يعيشه الإنسان هو حياته إذ أن الحياة هي الحس والحركة، وكلما ازدادت قوة بشكل أكبر استمتع الإنسان بحياته أفضل، وإذا كان الطرف الذي يستوعب الحياة حقيقته حس وحركة فإذا انقضى زمنه انقضت حياته حيث لا يستطيع أن يدرك ما يريد، وأن يحقق ما يصبو إليه، ولن يستطيع أن يصل إلى مراده، إذن الوقت هو حياتنا، ولا ينبغي للإنسان أن يفرط في حياته، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون)، ووردت الروايات وأقوال العلماء الصالحين تؤكد المساواة بين الوقت والحياة.

كيفية الاستفادة من الوقت:

إنّ الأبوين إذا بينا لأبنائهما وبناتها كيفية الاستفادة من الوقت خصوصاً أيام العطل التي هي من الأهمية بمكان، وبعض الناس يظن أن الوقت الذي يمر في أيام العطلة لا ينبغي أن يُستفاد منه، لأنه وقت للعب فحسب، وهذا خطأ، إذ أن اللعب له وقت محدد وللعمل وقته الآخر، ولا ينبغي للإنسان أن يمضي كل وقته في اللعب واللهو، لأن هذا غير سائغ من الناحية الشرعية والعقلانية، وعلى الإنسان أن يستثمر وقته في أيام العطل بما يعود عليه بالإيجابية، نعم قد يحتاج أن يستجم قواه ويلعب ويمرح بنحو يعود عليه بالفاعلية والنشاط دون أن يقضي جُلّ وقته دون نفع، فإن هذا غير محمود في الثقافة الإسلامية، والأحاديث تُندد بضیاع الوقت في اللعب واللهو، ونشير إلى بعض النقاط الرئيسة والهامة في كيفية استفادة الأبناء من الوقت:

أولاً: تدوين الأهداف المراد تحقيقها.

إنّ تدوين الأهداف التي يريد أن يحققها الابن أو البنت مع الأب في العطلة يعود بالنفع والخير على ذلك الابن كتلافي الضعف الذي مر عليه في بعض المواد الدراسية أو رفع ثقافته الدينية أو التغلب على بعض المشكلات، وعندما يدون ذلك بوضوح



ويُسعى لتحقيقه منذ بداية العطلة، فإنّ المراجعة المتكررة لذلك الهدف يحقق للإنسان فاعلية ونشاطاً للتقدم بخطوات سريعة لتحقيق هدفه.

ثانياً: تقسيم الأهداف حسب الأولوية.

إنّ على الإنسان أن لا يضع أهدافاً كثيرة فيقع في إرباك للوصول إليها، خصوصاً الأب الذي يطلب من أبنائه وبناته أن يحققوا كل تلك الأهداف، فينبغي أن تُقسم الأهداف الكبيرة إلى بسيطة وصغيرة كي يستطيع الابن والبنات أن يجدوا سهولة في التقدم نحو تحقيق الهدف، ولا يشعروا أنّ الهدف شبح كبير ومرعب لا يمكن التقدم نحوه لتحقيق ما يُريده، فتقسيم الأهداف من الثقافة الهامة التي على الأبوين أن يُبلرواها للأبناء.

ثالثاً: الترفيه.

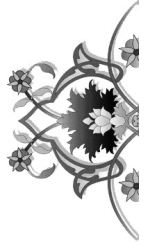
إنّ الإسلام شجّع على الترفيه لأهميته القصوى، غير أنه نبذ إشغال الوقت بأكمله فيه، لأنه غير سائغ في الثقافة الإسلامية، وأما الترفيه فقد وردت الروايات وكلمات أئمة أهل البيت تُبين أهميته للإنسان، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (رَوْحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً فِسَاعَةً)^(١) والساعة يُراد بها الفترة الزمنية التي ملئت بالعمل، واحتاج الإنسان إلى مُتسع من الوقت ليرُوح قلبه، ويمرح ساعة ليستجم نشاطه مرة أخرى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَكْرَهَ عَمِيَ)^(٢) والإنسان الذي يعمل بنحو مستمر لا يستطيع أن يُحقق إنجازاً، والمسألة لا بد من توضيحها للأبناء.

رابعاً: حقيقة الوقت.

لقد أشرنا إلى هذه النقطة، ونكررها لأهميتها لأبنائنا وبناتنا، وهي أنّ الوقت هو الحياة، وإذا لم يستفد الإنسان من وقته فإنه لن يستفد من حياته.

(١) كنز العمال للهندي: ج ٣، ص ٣٧.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٤٤ رقم الخطبة ١٩٣.



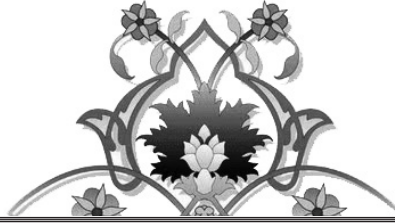
خامساً: القراءة الجادة للزمن الماضي.

إنّ العودة مرة تلو الأخرى والنظر فيما تحقق من أهداف في الزمن الماضي ومحاولة تلمس الأخطاء كي لا يقع فيها مستقبلاً بتدوينها لتستقر لديه، قال الصادق عليه السلام: (أما أنكم لن تحفظوا حتى تكتبوا)^(١) وأثر عن السلف قوله (ما كُتِبَ قَرٌّ وما حُفِظَ قَرٌّ)^(٢)، فالذي يعتمد على ذاكرته فقط دون أن يُدون أخطائه التي مرت عليه ولا يحاول أن يستفيد منها في مستقبله فإنّ إنجازاته بسيطة، بينما الذي يدون ملاحظاته ويستفيد منها بجدية ونشاط دائبين سوف يستفيد الاستفادة الكاملة في مستقبله، ولعل الآية التي بدأنا بها تشير إلى النقاط.



(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٦٦٣.

(٢) تدوين السنة الشريفة للسيد محمد رضا الجلاي: ص ٣٨١.



القسم الثاني:

■ ■ التربية الإسلامية ■ ■

الفصل الأول:

التعاليم الإسلامية في تربية الأبناء



التعاليم الإسلامية في تربية الأبناء

قال رسول الله ﷺ: (ما نَحَلَ والدٌ ولدهُ أفضلَ من أدبٍ حسن) (١).

يشكل الأبناء الوجود المستمر للإنسان، ويبقى الإنسان ببقاء أبنائه وذريته، وكل إنسان يحاول جاداً أن يخلد، وأن يبقى ذكره الحسن المحمود بين الناس، ومن الواضح أن البقاء والدوام لله تعالى غير أن الله تعالى منح الإنسان نعماً بها يبقى خالداً، من أهمها أمران:

الأول: العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرُ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦).

الثاني: الذرية.

إن ذرية الإنسان توجب له البقاء والخلود، وقد منحه الله تعالى غريزة حب البقاء من ناحية، والحب لأولاده من ناحية أخرى إلا أن كثيراً من الناس لا يفقه هذه النعمة العظيمة، ولا يُحسن العناية بأولاده كي يوصلهم إلى الكمال المنشود الذي يُهيئهم للرفي بمجتمعهم إلى مستوى عالٍ من الرفاه والأمن والسلامة، ويؤهلهم لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، وقد ركزت الأحاديث الكثيرة على أهمية إعطاء الأبناء عناية فائقة تعود على الأسرة والمجتمع بالخير الوفير.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٦٨٠.

جوانب تفوق وصَلاح الأبناء:

هنالك أسس ذات أهمية فائقة، يمكن من خلالها أن يصبح الابن لَبَنَةً صالحة في المجتمع، وقد ركزت الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام على أمرين:

الأول: الأدب.

وقبل الدخول في لب الموضوع لابد من الوقوف عند كلمة الأدب والتأديب للأبناء، فالمراد من الأدب لغة الرياضة أي جعل الولد يرتاض، ومعنى ذلك أن يمارس عملاً يستمر عليه ليُحرز إنجازاً ويحقق مُكتسباً، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى اكتساب المهارة أو التفوق إلا من خلال الارتياض أكان ذلك في المجال المعنوي أو في المجال المادي، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (وإنما هي نفسي أروّضها بالتقوى)^(١) إن الإمام عليه السلام يرسم لنا طريقاً في بناء النفس من الناحية المعنوية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالارتياض الذي يوصل المرتاض إلى مرتبة الكمال من خلال التأديب المستمر لنفسه - التزكية - وإذا غفل عن هذا النحو من التأديب سوف يعود إلى حالته الأولى، ولن يستطيع الحفاظ على ما كان عليه، بل سوف يرجع متقهقراً إلى الوراء، قال المصطفى ﷺ: (ما نحل والدٌ ولده أفضل من أدب حسن)^(٢)، يركز الحديث على مسألة هامة ترتبط بالجانب التربوي في حياة الأبناء، إذ أنّ بعض الناس يُكرم أبناءه، فيشتري لهم الهدايا المتعددة ويسعى في تحقيق رغباتهم، وذلك أمر حسن ومُشجع عليه من الناحية الشرعية. ولكن كلمة أدب في الحديث لها إطلاق لا يقتصر على الجانب المادي، بل يشمل كل الوسائل المتاحة التي من شأنها بناء شخصية الولد وتطويره ورفع مستواه على كل الأصعدة، وهذا أهم من العطاء

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ٧١.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٦٨٠.

المادي، ويمكن أن يُحوّل الأب العطية المادية إلى أدب من خلال جعلها وسيلة مقربة إلى الأدب باتخاذ مريباً للابن أو بشراء كتاب له أو بإلحاقه بإحدى الدورات التدريبية التي تشحذ عقله وتعلمه كيف يرسم الخطط للتفوق العلمي وتحقيق النجاح في كل المجالات أو أن يفسح للابن المجال كي يسافر لإتقان مادة علمية معينة تنعكس إيجاباً على شخصيته وتطور قدراته، وقد حضّت الشريعة الإسلامية على ذلك وبينت أنّ الكرامة لا تتحقق للأبناء إلا بالأدب الحسن، قال النبي ﷺ: (أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم)^(١) والإكرام يتحقق بحسن الأدب.

إذن الارتياض أو الرياضة بتلقين الأبناء الاستمرار في إتقان مهارات تؤدي بهم إلى الرقي والكمال والفاعلية التي تعود عليهم بالخير وعلى أهلهم ومجتمعهم أمر حضّ عليه الشارع وأكّده.

الثاني: طلب العلم.

إنّ طلب العلم وردت فيه أحاديث كثيرة خصوصاً في مجال حضّ الأولاد على طلب العلم، ولا يراد به العلم الشرعي فحسب، وإن كان العلم الشرعي له أهمية كبرى أي أنّ على الإنسان أن يُعلّم أبنائه ما يحتاجونه في أمور دينهم، وذلك واجب، وكذلك عليه أن ينصحهم بالتخصص في علوم الشريعة بأن يكونوا من العلماء أو من طلبة العلم، فهذا غاية في الحسن، إنّ أمر الأبناء بالاهتمام بتحصيل العلم حتى وإن كانوا كباراً أو موظفين، له أهمية كبيرة فعليهم أن يحصلوا على بعض المعارف الدينية بالدراسة غير أنّ الأمر بطلب العلم للأبناء لا يختص بالجانب الديني فقط بل يشمل كل المجالات التي تُسهم في التقدم العلمي والمعرفي للبشرية جمعاء، قال ﷺ: (مروا أولادكم بطلب العلم)^(٢) وقال الإمام الصادق عليه السلام: (لا يزال المؤمن يورث أهل بيته

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١ ص ٤٧٦.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٦٨٠.

العمل والأدب الصالح حتى يدخلهم الجنة^(١) والإمام عليه السلام أكد على الأمرين معاً، الاهتمام بالأولاد من ناحية الآداب العامة بكيفية تعاملهم مع آبائهم وإخوتهم وسائر الناس أي مع الآخر الذي يختلفون معه في الرأي، وذلك يرتبط بالآداب والأخلاق، والجانب الآخر يرتبط بإتقان المعرفة في كل شيء، وتحويلها إلى واقع عملي وسلوكي للإنسان، إذ قد يكون للإنسان معرفة بشيء لكنه لا يستطيع أن يطبقه، لذا نجد بعض الناس عندما تسأله عن أحسن الأمور وعن أفضلها يُجيبك إجابة صحيحة إنه التقوى والأدب، ولكنه لا يرشدك إلى التطبيق الأمثل الذي تسلكه كي تصل إلى الأدب. والأحاديث تحث على التطبيق العملي وتؤكد على الآداب -أي الارتياض- بترويض النفس على التعامل بمحاسن الأخلاق مع الآخرين، والسيطرة على الغضب وكبح جماح النفس، والإمام الصادق عليه السلام أوصى في الحديث المتقدم ببرنامج مستمر في تربية الأولاد على وفق العلم والأدب. ولا يمكن فصل العلم عن الأدب ولا الأدب عن العلم، فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى درجات الكمال المادي والمعنوي.



التطبيق العملي لتربية الأبناء

قال المصطفى عليه السلام: (أدبوا أولادكم على ثلاث خصال، حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن)^(٢) ومعنى حب النبي عليه السلام هو التأسى به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١)، فحبه عليه السلام يُراد به البدء بالميل العاطفي له عليه السلام، ومن ثم التأثير والافتداء به، والترقي في درجات الاقتداء والاتباع حتى الوصول إلى أعلى درجاته ومراتبه، ثم قال عليه السلام: (وحب أهل بيته)، إن حب أهل البيت الأطهار عليهم السلام له أهميته الفائقة، وقد بين القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣)، ثم قال عليه السلام: (وقراءة

(١) مستدرک الوسائل للنوري: ج ٢١، ص ٢٠١.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٦٨٠.

القرآن) إذ القرآن دستور الحياة، والحبل المتصل بين الحق والخلق، والخصال الثلاث من الآداب، كل منها له الأهمية الكبيرة على حياة الأبناء، والبداية بترويضهم على الاقتداء بالمصطفى ﷺ من خلال الميل العاطفي القلبي له ﷺ، والميل إلى أهل البيت ﺍﻟﻤﻨﻪ ﺍﻟﻤﻨﻪ والتأثر بهم في التضحية والإيثار والشهامة والكرم والانضباط على وفق مبادئ الإسلام، والاهتمام بقراءة القرآن الحقيقية، ولا يُراد بقراءة القرآن هاهنا القراءة لألفاظه فقط دون التأثر بمعانيه، وقد وردت أحاديث توضح معنى قراءة القرآن وتزكّن على أهمية تطبيقه عملياً، جاء في الرواية: (رب تالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه)^(١). وقد جسد النبي ﷺ القرآن الكريم جاء في الحديث بأن خلقه القرآن. وعند تعليم الأبناء قراءة القرآن لابد من دعوتهم للتخلق به، قال إمامنا أمير المؤمنين ﺍﻟﻤﻨﻪ ﺍﻟﻤﻨﻪ: (علموا صبيانكم من علمنا)^(٢) إن الإنسان يحتاج إلى القدوة الحسنة في حياته، وقد كان الناس في السابق يقومون بالتذكير المتكرر بضرورة الاقتداء بالنبي وأهل بيته في المجالس العامة والبيوت التي نذهب إليها في شهر رمضان، وعندما يأتي بعض قُرّاء القرآن من كبار السّن فإنه يُؤكد على ذلك، ولا تزال كلمات أولئك القراء ترن في مسامع السامعين لما لها من تأثير إيجابي على من سمعها، (علموا صبيانكم من علمنا ما ينفعهم الله به)^(٣). إننا عندما نريد غرس الفضائل والأخلاق التي يتصف بها أهل البيت ﺍﻟﻤﻨﻪ ﺍﻟﻤﻨﻪ -الإيثار أو مساعدة الآخرين أو الإسهام في البناء الاجتماعي - في أولادنا لابد من تعليمهم ذلك من خلال القصص الهادفة الواردة عن الأئمة من أهل البيت ﺍﻟﻤﻨﻪ ﺍﻟﻤﻨﻪ، فهو يمثل سلوكاً عملياً في شخصياتهم، وإذا استمع الابن إلى هذا القصص ترسخت معالم الفضيلة في نفسه، ولم ينزلق يميناً أو شمالاً.

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ٤، ص ٢٤٩.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٧٨.

(٣) نفس المصدر السابق.

التربية في أحاديث الأئمة عليه السلام.

لقد بينت الأحاديث الكثيرة عن أهل البيت عليه السلام ضرورة الالتفات إلى غرس المفاهيم الصحيحة في فكر الأبناء في بداية سني عمرهم، وسنستعرض حديثين غاية في الأهمية، يشكلان معلّمان من المعالم الفكرية في الجانب التربوي للإنسان.

البناء العقدي للابن في طفولته

الأول: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليه المرجئة)^(١). إننا نحتاج كثيراً في عصرنا الراهن إلى ذلك، وذلك لوجود نظريات وأفكار تصلنا كالسيل المنهمر، وتستهدف عقولنا وأذهان شبابنا، والإمام الصادق عليه السلام كانت المرجئة في عصره هي الفرقة المنحرفة التي تسعى للتأثير في البناء العقدي على الشباب وحديثي السن، وقد حذر الإمام المجتمع الإسلامي من أفكارهم، ودفع الآباء إلى غرس المفاهيم العقدية في نفوس أبنائهم كي تتغلغل في ذواتهم، وتصبح حصناً منيعاً يمنع دخول الشبهات، وتؤهل الولد أن يجيب عنها وعليها مطمئناً في نفسه، ثابت الجنان. وقوله عليه السلام: (بادروا) تؤكد على ضرورة المسارعة كي لا يسبق الغير بطرح الشبهات، فتأخذ مجالها في أذهان الأبناء، وهذا أدب تربوي رائع. ولا بد من التأكيد على مسألة هامة يُغفل عنها كثيراً ترتبط بالأبناء الصغار حيث يسمح لهم بالاستماع والمشاركة للبرامج الحوارية في الفضائيات أو النت، والتي تمس العقيدة بنحو مباشر مع أنه ليس لديهم الحصانة الكافية ويمكن أن ينزلقوا أو يتأثروا بتلك الشبهات. من هنا لا بد من إرشاد الأبناء ووضع الخطط الكفيلة بتحصينهم عقدياً وأخلاقياً، وانتقاء الدروس والمحاضرات المناسبة لمستواهم العقلي، وعلى المربي مسؤولية كبيرة تجاههم بغرس المفاهيم الحقّة من خلال الطرح المتكرر في المناسبات المختلفة لتؤكد تلکم المفاهيم لديهم وتخلق



(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٧، ص ٣٣١.

في شخصيتهم الإيمان والخلق، كيلا تتأثر بما يُلقى عليها من شبهات. إنّ الشبهات التي طرحت في عصر الإمام عليه السلام محصورة بالمجال العقدي بينما أصبحت في عصرنا الحاضر تشمل كل المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية. ولعل الجانب الأخلاقي يُستهدف إعلامياً أكثر من غيره، ومن الضروري أن تهتم الأسرة بالحفاظ على أبنائها من أي فساد أخلاقي، وأن تغرس الفضائل في نفوسهم مهتمة بالجانب التربوي الروحي بتنميتهم بالعبادة والمواظبة على قراءة الأدعية والأذكار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فالغذاء الروحي يصقل شخصياتهم المعنوية، ويجعلهم محصنين لا يستمعون الغناء ولا الكلمات البذيئة غير المؤدبة، ولن يتأثروا بما يستمعون ولا يقصد الإمام عليه السلام بقوله: (بادروا أحداثكم بالحديث) القرآن الكريم وحديث أهل البيت عليهم السلام فحسب، بل كل كلام حسن يعود بالفائدة عليهم ويُحصن شخصياتهم.

استثمار حداثة السن عند الطفل

الحديث الثاني: قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته)^(١) يشير عليه السلام إلى الاستعداد للتلقي عند الولد في سنواته الأولى من السابعة فما فوق، فهذا العمر في غاية الأهمية باعتبار التأثير الأكبر لشخصيته في هذا السن، ثم قال الإمام عليه السلام: (فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لبك)^(٢) فالإنسان إذا تقدم في العمر صعب عليه التأثير والتغيير في المرحلة العمرية المتقدمة إذ تزدحم المفاهيم في ذهنه فتسبب له تشويشاً بخلاف من كان في ريعان الصبا فإن تأثيره أسرع لأن كل ما يتلقاه في ذلك الوقت هو بمثابة أوتاد الأرض كالجبال الرواسي في ثباتها.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٧٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

وندعو كل مؤمن ومؤمنة يريد أن ينطلق من فكر أهل البيت عليه السلام بتطبيق الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته أن يكتب بعض آي القرآن والأحاديث المؤثرة على لوحات فنية بخط حسن ويزين بها منزله لتذكره بقيم الأخلاق الجميلة.



الجوانب التطبيقية في تربية الأبناء

قال رسول الله ﷺ: (ما نحل والدٌ ولده أفضل من أدب حسن)^(١).

استعرضنا فيما تقدم أهم ما يعطيه الأبوان لأبنائهما. وهو الأدب والعلم، فهما الجناحان اللذان يطير بهما الأبناء إلى الآفاق العالية، ويخلقون بهما في سماء المجد والفضيلة، ويستطيعون بهما اجتياز العقبات التي تواجههم، وهناك مجال تطبيقي لا بد من التفات الأبوين إليه، لما يمتاز به من أهمية كبرى، يستطيع به الأبناء أن يتكيفوا بإيجابية مع محيطهم الاجتماعي. وقد أشارت بعض الروايات إلى الجانب التطبيقي، بل أنّ بعضها ذكر ذلك بتفصيل، وسوف نوضح ذلك في نقاط:

أولاً: النظافة.

إنّ من الجوانب التطبيقية التي أوليت عناية في التأديب، وحُصّ عليها في الروايات النظافة في البدن واللباس، فهناك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام تؤكد على ذلك، منها الحديث المشهور: (النظافة من الإيمان)^(٢) ومنها: الحديث الوارد عن النبي ﷺ: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كل صلاة)^(٣) غير أنّ الكثير من الناس يتعاطى مع هذه الأحاديث نظرياً فقط ولا

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٦٨.

(٢) النظام السياسي في الإسلام للقرشي: ص ٢٩٥.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢، ص ١٧.

يجسدها عملياً في المجال التطبيقي والتربوي للأبناء، فالنظافة تحتل أهمية فائقة في إعطاء الإنسان الشعور بتكيف شخصيته مع الواقع الاجتماعي، وذلك أنّ الآخرين لا يشعرون باشمئزاز منه لعدم اعتنائه بنظافة بدنه أو لباسه، وقد ورد الحث والحض الأكيدان على أهمية العناية بالنظافة في البدن واللباس، والحديث الآنف الذكر - (النظافة من الإيمان) - كاف فهو يشير إلى أنّ النظافة بمثابة العمل الصالح في بعض مفرداته، فهي إما أن يتحقق بها الإيمان فتكون جزءاً يتكئ عليه الإيمان، وإما أنها تُنمّي درجة الإيمان في شخصية المؤمن، من هنا فإنّ على الأبوين أن يهتما برعاية الأبناء في نظافة الثياب وحسن المظهر خصوصاً في فترة المراهقة.

مراحل الطفولة في حياة الإنسان:

ولابد من تأكيد الاهتمام بالأبناء في فترة الطفولة التي تمر بمرحلتين:

الأولى: الطفولة المبكرة: وهي من الثالثة إلى الخامسة.

الثانية: الطفولة المتوسطة: وهي من السادسة إلى الحادية عشر.

وبالإضافة إلى هاتين المرحلتين، فهناك مرحلة المراهقة والشباب التي لا تقل أهمية عنهما، وتبدأ من الحادية عشر إلى السادسة عشر أو السابعة عشر. ويُعبر بعضهم عن هذه المرحلة بالطفولة المتأخرة.

إنّ على الأبوين في هذه المراحل الثلاث أن يركزا على الأطفال والشباب بالاهتمام على مسألة النظافة في بعدها الشمولي، وذلك أنّ بعض الناس رغم حُسن مظهره، إلا أنه لا يهتم بنظافة فمه، مما يوجب تقزز الآخرين منه أثناء حديثه معهم ويُنظر إليه بنظرة لا تليق به، وكما يحصل التكيف والتلاؤم معه ويستطيع أن ينطلق في مجالات الحياة بإيجابية، فإنّ على الأبوين أن يعطياه دروساً عملية وتطبيقية في النظافة.

ثانياً: الطّعام.

وهو جانب تطبيقي في التربية، وقد أشارت الروايات إلى أهميته من ناحيتين:



الأولى: حليّة الطعام.

فالأبناء - منذ المراحل الأولى لطفولتهم المبكرة - في أمس الحاجة إلى توجيه الأبوين في أهمية الانتباه إلى حلية الطعام الذي يُتناول بأن يكون على وفق الضوابط الشرعية، خصوصاً عندما يذهب الأولاد إلى المدرسة، ومن المؤسف أن بعض الآباء لا يهتم بمسألة حلية الطعام بحجة أنّ الأولاد غير مكلفين، والولد وإن كان غير مكلف من ناحية عدم حرمة تناول الطعام غير الحلال، فهو غير بالغ إلا أنّ التكليف مناط بالأب ويجب عليه أن ينجب أبنائه أكل الحرام هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك آثار وضعية سلبية للطعام الحرام على الأبناء لأنّ الطعام لا ينظر إليه فقط من جانب الحلية والحرمة، بل ينبغي أن ينظر إلى آثاره السيئة التي تعود بالضرر على من يأكله حتى لو لم يعلم بحرّمته. وعلى الآباء أن يُعلموا الأبناء بالآثار السلبية له، إنّ الله تعالى لا يُجرّم شيئاً إلا لوجود أضرار كبيرة على الإنسان بتناوله، إمّا من الناحية الظاهرية (الخارجية) التي تؤثر على جسم الإنسان، وإما من الناحية النفسية والمعنوية، نعم؛ هناك بعض الأطعمة لا نعلم السبب في حرمتها، ولكننا ندرك أنّ الله تعالى لا يحرم شيئاً إلا لوجود مفسدة فيه وأثر سلبي يعود على الإنسان.

الثانية: الغذاء الصحي.

وهو من الأهمية بمكان، وعلى الأبوين أن يتعرفا على الغذاء الصحي الذي يبني شخصية الابن من الناحية الذهنية والعقلية والجسمية، وهناك عشرات الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام تشير إلى الغذاء الصحي للأطفال، وما ينبغي أن تتناوله الأم من الأطعمة في فترة الرضاعة لتحقيق التغذية السليمة لأنّ حليبها يتكون من الطعام الذي تأكله، إذن هناك أهمية للطعام في فترة الطفولة والشباب والمراهقة، وعلينا أن نُعلم أبنائنا بالإضافة إلى حلية الطعام نوعية الطعام الذي يبني الجسم والعقل والنفس بناءً سليماً، وكما تتضح الفكرة أستعرض بعض الأمثلة، إنّ بعض الأطفال يتناول أطعمة لا تعود عليه بالنفع بل تعود عليه بالضرر كالأطعمة المحتوية على مواد حافظة مضرّة، وقد يتضرر الطفل بأمراض معضلة (خبيثة) لا يُشفى منها،



ومن الضروري أن يُفهم الطفل ذلك وأنه لا يتاح له ممارسة حريته بتناول كل طعام يريده دون مسؤولية، بل لابد أن يُعلم الابن الأطعمة المفيدة التي تنفعه في بناء جسمه، وقد قرأت في بعض الكتب التربوية وسمعت أيضاً بعض الأخصائيين من علماء التغذية يقول إنَّ وجبة الإفطار صباحاً قبل الذهاب إلى المدرسة لها أهمية كبيرة من ناحيتين: الأولى الناحية الجسمية، والثانية الناحية الذهنية المرتبطة بالتعلم، فهم يتلقون دروساً ويحتاجون إلى تحريك العقل وبذل جهد فكري، والأغذية الخفيفة التي قد تُشبع الإنسان لا تعود بالنفع عليه في تغذية المخ وعمل الذهن والعقل، إذن على الأبناء تناول الأغذية التي أُشير إليها في الروايات، وأكدها العلم الحديث كالزبيب لاحتوائه على سكر الجلوكوز وهو غذاء الذهن، إنَّ عمل الذهن يحتاج إلى غذاء خاص يختلف عن الغذاء الذي يحتاجه الجسم، ومسؤولية الأبوين أن يُفهموا الأبناء أهمية تناول الغذاء الذي يفيدهم لذهنهم وعقلهم ليشغل بفاعلية خصوصاً في الحصص الأولى من الدراسة وأيام الامتحانات، فتناول العنب والتفاح والزبيب والأغذية التي تعود بفائدة كبيرة، وتكون غذاء للذهن لها أهميتها، والروايات أشارت إلى ذلك، وإذا أردنا لأبنائنا أن يتفوقوا دراسياً وأن يحافظوا على صحتهم الذهنية، فعلينا أن نركز على أهمية بعض الأغذية الخاصة في وجبة الإفطار، وقد سمعت أيضاً من أحد طلبة العلم حديثاً رائعاً وجميلاً، قال إنه ليس من العيب وجود بعض الفنادق الراقية - خمس نجوم مثلاً - التي تُقدم الفاكهة وتجعلها في متناول الجميع في فترة الصباح قبل وضع وجبة الإفطار، فذلك يرجع إلى أن تناول الفواكه غذاء لدماع الإنسان، ونضيف هنا أمراً هاماً يتعلق ببعض الأفراد - الشباب والمراهقين - الذين يهتمون بالرشاقة في أجسامهم مما يؤدي ببعضهم إلى ترك بعض الأغذية الهامة، وفي ذلك ضرر يعود عليهم لحاجة أجسامهم الماسة لهذه الأغذية، فهم يحتاجون إلى تنبيه من قبل الأبوين وإفهام أن الرشاقة ليست على حساب بناء الجسم بناءً سليماً وصحياً، والروايات اهتمت بجنبتين: الأولى: الغذاء الحلال، والثانية: نوعية الغذاء الذي يبني الجسم والعقل والنفس بناءً سليماً.



ثالثاً: النوم.

وهو جانب تطبيقي هام أشارت إليه طائفة من آي القرآن الكريم والروايات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبا)، فالنوم لا تقل أهميته عن الغذاء الذي يتناوله الإنسان، وله تعلق بالصحة وبالإبداع للشخصية، والنوم الكافي يؤثر إيجابياً على شخصية الإنسان ويتيح له أن يبذل جهداً كبيراً لكونه استرجع قواه بنومه، وقد ركزت الروايات على فترتين هامتين للنوم؛ الأولى: نوم القيلولة وهي النوم قبل الظهر بساعة، والثانية: النوم المبكر، وأشارت الروايات إلى وجود فترات يكره النوم فيها كالنوم قبل غروب الشمس وقبل طلوع الفجر، ويحسن بنا أن نبه على أهمية النوم المبكر للأولاد لمن أراد لهم موفور الصحة والاستقرار النفسي والتفوق العلمي.

أهمية النوم المبكر

إنّ النوم المبكر لا يقل عن التغذية السليمة في جنبتيها اللتين أشرنا إليهما، مع أنّ الوضع الحالي لا يساعد عليه، بل يساعد على النوم المتأخر مما يجعل الابن يذهب إلى المدرسة وهو في غاية التعب والعنت، ولا يتاح له أن يتلقى دروسه بحالة من الوثام مع نفسه، بل يرى نفسه تحت ضغط التعب والإرهاق والسهر، وقد يُغفَى في أثناء دراسته لأنه لم ينم النوم الكافي، إنّ على الأب أن يعلم أبناءه أهمية النوم المبكر بشكل تطبيقي وأن يبين أثره الإيجابي على حياة الابن كتعليمه أهمية الغذاء الصحي والحلال، نعم؛ في بعض الأحيان قد تضطره الظروف إلى السهر كما يحدث ذلك في شهر رمضان، ولا يتاح لبعض الناس أن ينام في الليل إلا أنّه من الضروري مع ذلك أن ينام قسطاً ولو بسيطاً من الليل، إنّ بعض الناس لا يعطي أهمية للنوم، ويترك الأبناء وشأنهم، وذلك خطأ فادح.

إنّ تنظيم النوم لا تقتصر أهميته للأبناء فحسب، بل يشمل الجميع، ومن أراد أن يتفوق فعليه أن ينام النوم الكافي، وكما يتضح الدور الهام للنوم لننظر أنّ أحد أنواع

التعذيب المؤثر هو التسهير وسلب النوم من الإنسان لإيذائه. إنَّ منع الإنسان من الغذاء أسهل من منعه من النوم فهو يستطيع أن يقاوم الجوع، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم ترك النوم لتأثير ذلك على عقله، إنَّ تربية الأبناء على النظام والانتظام والتعليم التطبيقي للنوم بأخذ قسطٍ من الراحة في فترة غير متأخرة من الليل، وحضهم على أن لا يتأخروا في نومهم يعود عليهم بالنفع الكبير.

العوامل المؤثرة في سلوك الإنسان

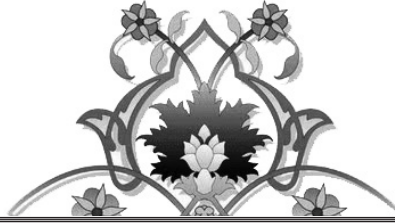
لقد ذكر العلماء ثلاثة عوامل تُؤثر على سلوك الإنسان:

الأول: المحيط الذي يعيش في كنفه.

الثاني: الوراثة، فلها أهمية كبيرة أشارت إليها الروايات.

الثالث: التربية، خصوصاً ما يتعلق بالجانب التطبيقي، والتربية أهم عامل مؤثر على حياة الإنسان في أبعادها المختلفة، قال تعالى: ﴿يَبْنِي أَقْوَ الصُّلُوةَ وَأُمِّرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝١٩﴾ (لقمان)، والآيات تشير إلى الجانب التربوي التطبيقي الذي مارسه لقمان الحكيم عليه السلام مع ابنه، بتوجيهه المباشر بأن يفعل كذا وأن لا يفعل كذا، وهذا درس عظيم نستفيد منه في التربية العملية التطبيقية لأبنائنا، وذلك أنَّ الابن لا يتجاوب مع الأب في أمره ونهيه إذا كانا نظريين فحسب، فإذا تحدث الأب عن أهمية النوم المبكر، وهو يسهر إلى الصباح، فمن الصعوبة أن يطبق الابن كلام أبيه، إنَّ من يسهر عليه أن لا يجعل ابنه يسهر، وليعلم أنه يتضرر بسهره ولا ينبغي له أن يجعل ابنه يتحمل ذلك الضرر الجسدي والنفسي والعقلي.





الفصل الثاني:

■ ■ مرحلة المراهقة في تأثيرها الاجتماعي والنفسي ■ ■



خصائص مرحلة المراهقة وطرق التأثير على المراهق

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

تستعرض الآية المباركة المراحل التي يمر بها الإنسان في تطوره، وسنستعرض مرحلة هامة من تلك المراحل التي تؤثر في حياة الإنسان، وفي محيطه الأسري والاجتماعي أيضاً، وهي مرحلة المراهقة؛ فهذه المرحلة يشترك فيها الآباء والأمهات من تصرفات المراهق والمراهقة، وقبل بدء البحث نبين معنى المراهقة.

المراهقة في مدلولها ومعناها

المراهقة في اللغة بمعنى النمو؛ فراهق الفتى وراقت الفتاة، أي نمت نمواً مطرداً؛ والنمو على قسمين:

الأول: النمو العادي الذي يرافق مرحلة الطفولة.

الثاني: النمو غير العادي، الذي ينمو الفتى فيه نمواً سريعاً.

فالمراهقة هي مرحلة النمو السريع، التي تدل على أنَّ الفتى النامي والفتاة النامية سوف يصلان إلى مرحلة الرشد والحلم بشكل سريع؛ وسيبلغان مرحلة الاكتمال في وقت قريب، وهذه المرحلة تعد من أخطر المراحل التي تمر على الإنسان في فترة شبابه،

وترتبط بنواحٍ متعددة:

الأولى: مرحلة الطفولة.

الثانية: المحيط الأسري.

الثالثة: المحيط الاجتماعي الذي يعيش في كنفه الفتى والفتاة.

خصائص مرحلة المراهقة:

إنَّ مرحلة المراهقة لها مجموعة من الصفات والخصائص تجعلها مختلفة عن سائر المراحل، وقد أكّد علماء النفس ذلك عندما قالوا: إنَّ مرحلة المراهقة لها خصائص مختلفة، وسوف نستعرض أهمها:

الأولى: ظهور التغيرات الجسمية.

إنَّ أول ما يُدلل على دخول الفتى والفتاة هذه المرحلة ظهور التغيرات الجسمية البارزة، فالشاب يكتمل في قواه الجسمية، والفتاة يظهر ما يدل على بدئها هذه المرحلة من خلال التغيرات التي تبدو عليها.



الثانية: الجمع بين خصائص الطفولة وسمات الرجولة.

هذه المرحلة تجمع بين الموروث الذي حصل عليه الشاب في مرحلة الطفولة وبين التأسيس لمرحلة جديدة، باعتبار النضج الذي يحصل للمراهق لمرحلة الرشد، فتتسم هذه المرحلة بالجمع بين مرحلتين، مما يجعل الفتى المراهق والفتاة المراهقة يشعران بأنهما قد تخلصا من مرحلة ودخلا مرحلة أخرى، تتسم بتحمل المسؤولية والمشاركة في الأمور، فيرى المراهق أنه كسائر الأفراد الكبار له مسؤولية لما يتصف به من نضج.

الثالثة: الجمع بين المتناقضات.

إنَّ التصرفات التي يقوم بها المراهق تتصف في هذه المرحلة بالجمع بين المتناقضات، باعتبار ما لديه من فكر وثأب، فيحاول الوصول إلى كل ما يبتغيه، بالطرق التي يرى

أنها تحقق ما يروم، فله مطامح كبيرة تشغل اهتمامه بمجرد دخوله في مرحلة المراهقة.

الرابعة: قلة الخبرة والتجربة.

إنَّ مرحلة المراهقة تبدأ بالبلوغ وتنتهي بالرشد وقد اختلف علماء النفس في السن الذي تبدأ فيه مرحلة المراهقة فذكر بعضهم أنها تبدأ من سن الرابعة عشر وتنتهي بسن العشرين، وذكر بعضهم الآخر أنها تبدأ من السادسة عشر وتنتهي بالخامسة والعشرين، وعلى كل حال فالمراهق في هذا السن قليل الخبرة والتجربة، ورصيده ضئيل منهما؛ فهو لا يمتلك معلومات كافية لما يتخذه من قرارات، ولا يحيط بتجارب الراشدين ولا يفهم المحيط الاجتماعي الذي يعيش في وسطه غير أنه يتمتع بحيوية كبيرة ونشاط فائق من ناحية الطاقات الجسمية الكبيرة.

الخامسة: تحمل المسؤولية.

أكد علماء النفس أنَّ هذه المرحلة هي ولادة للإنسان، فكما أنه يولد فتبدأ مرحلة طفولته المبكرة، كذلك يولد ولادة جديدة تبدأ من مرحلة الشباب، وهذه الولادة تتلخص بتحمل المراهق لعبء وثقل المسؤولية التي لم يكن تحملها قبل ذلك.

السادسة: وجود بعض الدوافع القوية لديه.

إنَّ المراهق يمتلك مجموعة من الدوافع القوية، لعل أعظمها الدافع الجنسي الذي يضغط عليه بقوة، وتظهر عنده قوة الخيال، فخياله يكون جامحاً يتحرك في مساحة واسعة وفي أنحاء متعددة، وتنامي لدى المراهق ملكة الاستدلال والمقارنة الناضجة بين الأشياء، ويزدحم فكره بالرغبات الكبيرة ويتوق إلى تحقيق ما ترغب إليه نفسه؛ ويطمح في تحقيق انجازات كثيرة بأقصر الأوقات وأخزل الطرق، كي يصل إلى ما يروم مع أنه لا يمتلك النضج الموصل إلى ما يطمح لقلته تجربته وعلمه، غير أنه يسبح في عالم من الخيال، يدفعه لاتخاذ قرارات لا تتسم بالحكمة والروية مما يؤثر سلباً على نفسه وعلى محيطه الأسري والاجتماعي.



السابعة: اللامبالاة تجاه نصائح الآخرين.

إنّ من خصائص المراهق عدم اهتمامه بما يُقدّم إليه من نصائح، ترشده إلى ما يحقق له الخير، وقد يرى أنّ ما يُقدّم إليه من نصائح وإرشادات يمثل موروثة اجتماعياً ليس إلاّ، ويعتقد أنه قادر بما فيه من قوة فائقة أن يتعدى بعض الحدود ويتجاوز الخطوط الحمراء التي يرى الأبوان والمجتمع عدم إمكانية اجتيازها، ويعتبر بعض الباحثين أنّ المراهق في خياله الكبير أشبه بمن يريد أن يربط عربة بإحدى نجوم السماء، ولا بد من التأكيد أنّ هذه الخصائص لا تنطبق على كل مراهق؛ وإنما تنطبق على كثير منهم، لأنّ قسماً من المراهقين قد استفاد من عوامل متعددة في مرحلة شبابه، فكان لها التأثير الكبير عليه في مرحلة المراهقة، ولم تأخذ أبعاداً عكسية تؤثر سلباً على شخصيته. أما من لم يتح له أن يأخذ قسطاً من التربية والتجربة والثقافة المتعددة في مرحلة الشباب فإنّ مرحلة المراهقة تؤثر سلباً عليه.

الثامنة: ضعف الاستدلال المنطقي لديه.

من خصائص المراهق والمراهقة الضعف في الاستدلال، ومناقشة الآراء الأخرى، لكونه يعتقد أنّ الأفكار المطروحة، وإن كانت منطقية إلاّ أنها تمثل موروثة اجتماعياً قديماً، فيحاول بنحو ما الخروج على ما هو متفق عليه لدى العرف بسبب ازدحام التخيلات عنده والخيال الكبير لديه الذي يحدث اضطراباً في مشاعره.

طرق التأثير على المراهق

هذا هو واقع المراهق؛ وما ذكرناه من سمات وصفات يحكي طبيعته، ولا ينبغي للأبوين أن يتألماً كثيراً لما يشاهدانه من تصرفاته، بل ينبغي لكل منهما أن يتكيف مع واقعه، وليس معنى التكيف أن ينصاع الأبوان لرغباته.

إنّ وصول المراهق إلى هذه المرحلة يحتاج من الأبوين أن يلتزما بنقطتين هامتين:

الأولى: تتألف من أمور لا بد من قيام الأبوين بها:

الأول: أن يتحمل الأبوان المراهق بصبرٍ إلى أن يتكيف على التربية الراشدة والسديدة.
 الثاني: أن يُوضحا سُبُل الخير ومناهج الرشاد من خلال التكرار فيما يُعطى له من معلومة.
 الثالث: إظهار المحبة له؛ وذلك من أهم الطرق التربوية المؤثرة عليه فهي تؤثر في إسداء النصيحة والموعظة وغرس مبادئ الخير والفضيلة في الشاب والشابة؛ وذلك أمر فطري وبدهي للأبوين، خصوصاً للأب فإنّ عليه أن يظهر محبته لابنه، ليس بمقدار ما يحب نفسه، بل أكثر من ذلك، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (وجدتك بعضي بل وجدتك كلي)^(١).

إنّ استمرار وجود الأبوين يتحقق عبر الأبناء، لذا يريد الأب لابنه التفوق، والجدية والوعي لمسؤوليته في الحياة.

الرابع: تذكير المراهق بأن لا يمل من تكرار الموعظة وإسداء النصيحة، فإنّ ذلك منهج القرآن، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (البقرة: ٢٧٨) وقد جاء في آية واحدة الأمر بتقوى الله تعالى مرتين، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر)، وفيها إشارة إلى أهمية تكرار المعلومة.

الثانية: عدم اللوم.

إنّ على الأبوين أن يتوجها إلى ما أشار إليه إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته الرائعة: (جهل الشاب معذور، وعلمه محذور)^(٢) يؤكد الإمام عليه السلام في الشطر الأول من هذه الكلمة على أنّ ما يصدر من الفتى المراهق والفتاة المراهقة من أخطاء شيء طبيعي يعذران فيه، وفي الشطر الثاني يُعلل ذلك الإمام عليه السلام بأنّ علم الشاب محذور أي أنّ علمه قليل، ومن الطبيعي أن يقع في أخطاء مكررة، وعلى الأبوين أن يتحملا كثيراً في سبيل إيصاله إلى رشده، خصوصاً إذا صدر الخطأ منه في التعامل مع الأب

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٩٩.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري ج ٢ ص ١٤٠٠.

والأم أو مع أخوته أو مع محيطه الاجتماعي، ولعل الآية الكريمة التي استهللنا الحديث بها تبين جانب الضعف الذي يتصف به الإنسان للوصول إلى مرحلة الاكتمال، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم)، فالإنسان يسير في مراحل الضعف حتى يصل إلى مراحل القوة والاكتمال.

وأنوه هنا إلى أن جملة من الخصائص ذكرها العلماء والأخصائيون في كتبهم، وقد اعتمدت على كثير من المصادر وركزت على اثنين أساسيين هما: محاضرات الشيخ الفلسفي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه (الشباب والشيوخ والكهول)، وكتاب (سيكولوجية الطفولة والمراهقة) لعبد العلي الجسماني، وهو من الكتب الجيدة التي تعتمد الدراسة الميدانية؛ فإذا ذكر معلومة دعمها باستبانات متعددة، أجريت من قبل الأخصائيين والعلماء مما يجعل الفكرة شبه مبرهنة.



وعي الأسرة لحاجات المراهق الخاصة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم) صدق الله العلي العظيم.

استعرضنا سابقاً مرحلة هامة في حياة الإنسان تمثل منحنيّ خطيراً في مصيره وحياته، وأوضحنا أنّ للأبوين والمحيط الاجتماعي والأصدقاء دوراً بارزاً في إيصال المراهق إلى رشده، والإسهام في استقامة شخصيته، وذكرنا بحثاً يتصل بخصائص مرحلة المراهقة، وهنا نشير أنّ الإنسان له أبعاد مختلفة يعبر عنها بعض الباحثين بالذوات المتعددة، باعتبار أنّ كل واقع من هذه الذوات يتطلب التفاتاً جاداً إليه.

المراهق بين ثلاث قوى تتجاذبه

قال بعض الباحثين: أنّ هناك ذات واقعية يمتلكها المراهق، يتعامل من خلالها بواقعية، وعلى ضوء ما هو المطلوب منه قانوناً واجتماعاً، وفي قبال ما تتطلبه ذاته الواقعية تواجهه مشكلة الذات الانتقالية التي تجعله يعيش منعطفاً آخر بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى هي مرحلة القدرات الكبيرة نفسياً وعاطفياً وجسمانياً، لكن هذه القدرات التي أشرنا إليها في بحثنا السابق لا تمتلك رصيذاً من العلم والخبرة، وعليه فإنّ انتقال شخصية المراهق إلى الاستقامة والسؤدد من الصعوبة بمكان باعتبار عدم التوازن في مرحلة الانتقال - ما يسمى بالذات الانتقالية - كما أنّ

للمحيط الاجتماعي التأثير الكبير - وقد عبّر عنه بعض الباحثين بالذات الاجتماعية - في متطلبات القيم والمثل؛ وذلك أنّ المراهق يروم الوصول في هذه المرحلة الخطرة إلى القمة في نواحي متعددة، منها عالم المثل - عالم القيم - فهو يريد أن يكون شخصية مرموقة تمتاز بالمستوى الرفيع من الناحية الروحية والأخلاقية والمعنوية.

حاجات المراهق المؤثرة في شخصيته

بالإضافة إلى الذوات التي تتجاذب المراهق لا يزال يحتاج حاجات متعددة ويمكننا أن نلخص تلك الحاجات في الآتي:

الأولى: حاجة الانتماء.

إنّ المراهق في هذه المرحلة بمسيس الحاجة إلى أن ينتمي إلى أقرانه الذين يماثلونه في السن والتوجه، ويعيشون معه في نفس المحيط، كما أنه يحتاج أيضاً للانتماء إلى المؤسسة التربوية التي يدرس فيها وإلى المجتمع بشكل عام بينما قد لا يفكر في الانتماء إلى الأسرة، ويرى أنّ ذلك من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى إثبات، لذا لا يهتم بانتمائه الأسري رغم تأثيره الكبير على شخصيته.



الثانية: الحاجة إلى الخلاص من الخوف.

والمراهق رغم ما يتوافر لديه من قدرات كبيرة من الناحية الجسمية والعاطفية إلا أنه يخاف أن يخفق في مستقبله، ولا يتاح له أن يستثمر ما لديه من قدرات فيما يتوق أن يصل إليه.

الثالثة: الحاجة إلى المحبة والحنان والعطف.

الحاجة إلى الحنان والعطف ترافق الإنسان في مراحل حياته المختلفة غير أنّ حاجة المراهق إلى المحبة والعطف في هذه المرحلة أكثر من بقية مراحل حياته الأخرى؛ بسبب التأثير الكبير في استقامة شخصيته وإخراجه عن التأرجح إلى التوازن في شخصيته، فهو بحاجة إلى دفء العاطفة وعمق المحبة أن تظهر بنحو دائم من أبويه والمحيطين به.

الرابعة: الحاجة إلى الخلاص من الشعور بالإثم.

من الحاجات التي توازي في أهميتها الحاجات السابقة التحرر من الشعور بالإثم والذنب، وذلك أنه قد يصدر من المراهق ذنب أو يقترف إثماً يؤثر على مسار شخصيته، ويظهر ذلك بوضوح في مرحلة المراهقة، فالإثم والذنب يؤثران تأثيراً بالغاً خصوصاً إذا كان يعيش في محيط صالح وفي جوٍّ أسري متدين، فإن اقتراف الذنب يؤجج في مشاعره الإحساس بانجرافه إلى جادة الضلالة وخروجه إلى عالم الغواية وأنه من الصعوبة عليه أن يعود إلى عالم الرشد والاستقامة، لذا على الأبوين والأصدقاء تبيان أن بإمكانه أن يعود إلى حالته الطبيعية بالاستغفار والإتيان ببعض الحسنات، قال رسول الله ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١).

الخامسة: الحاجة للمشاركة في المحيط الاجتماعي.

من الحاجات الماسة التي يحتاجها المراهق المشاركة والتعاون مع محيطه الأسري والاجتماعي، والحاجة في المحيط الأسري أهم، ولا بد أن يُسهم الأبوان بتكليفه ببعض المسؤوليات؛ كي يحس بدوره في محيطه الأسري، وبذلك ينمو نمواً طبيعياً، ويدرك دوره الاجتماعي من خلال المشاركة والتعاون في محيطه.

السادسة: الحاجة إلى اعتراف الآخرين به.

إن من الحاجات الماسة للمراهق اعتراف الآخرين باستقلال شخصيته وأن باستطاعته أن يعتمد على نفسه ويخطو خطوات إلى الأمام مستقلاً عن غيره، وقد أشرنا سابقاً إلى أهمية مسألة الاستقلال في شخصية المراهق وتذكيره أن بإمكانه الاعتماد على ما لديه من إمكانيات، ولذلك يتجلى الدور البارز والمؤثر للأبوين والأصدقاء في تشجيعه دون إفراط باعتياده على شخصيته.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٨، ص ٣٩٣.

دور المحبة والعاطفة في نظر أهل البيت عليه السلام.

الروايات والأحاديث الواردة عن المصطفى عليه السلام وكلمات أهل البيت عليه السلام من الأهمية بمكان، فهي نبراس يهتدي به المربون والآباء والأمهات في التعامل السليم مع المراهق، وقد ركزت على مجموعة من الأمور:

الأول: إظهار المحبة للمراهق.

جاء في الحديث النبوي ما يشير إلى دور الحنان والمحبة بالنسبة للمراهق، قال عليه السلام: (إذا نظر الوالد إلى ولده فسرّه) أي نظر إليه بعطف وحنان (كان للوالد عتق نسمة)^(١) والحديث من الأحاديث الجميلة التي تبين أهمية إظهار العاطفة للابن والبنت وذلك أنّ الولد وإن واجهه الأبوان بقسوة في بعض الأحيان إلاّ أنّه لا يترسخ في نفسه من تلك القسوة شيء؛ بل، تزول بشكل سريع بسبب اللئام والمحبة من والديه.

الثاني: احترام المراهق.

ركز المصطفى عليه السلام على أهمية إكرام الابن، فقال: (أكرموا أولادكم، وأحسنوا آدابهم يغفر لكم)^(٢)، وهنا مسألتان تمتازان بالأهمية الفائقة، هما: الإكرام والإحسان؛ والإكرام رائع في معناه، وقد أكّده القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، إنّ الإكرام والتكريم هو التعامل بتقدير للمراهق بإظهار احترامه واستقلال شخصيته لما لذلك من أهمية كبيرة في استقامة شخصيته.

الثالث: الإحسان للمراهق.

ويرافق الإكرام والتكريم من الأبوين والأصدقاء الإحسان فهو يعادل الإكرام في أهميته، والإحسان أن يعطي الأبوان لابنهما عطاءً غير ممنون - غير مقطوع - بل متواصلًا بإسداء النصيحة وتبيان ما يعود بالخير والنفع عليه باعتباره يعيش مرحلة

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٥، ص ١٦٩.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٧٦.

القطام النفسى؛ أى الانتقال من مرحلة إلى أخرى، بل من مرحلتين فى الحقيقة؛ أى من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة، وتبقى لديه آثار التصرفات الطفولية، والانتقال من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الرشد والاستقلال فى شخصيته.

إضفاء محبة الأبوين فى تطوير مسار المراهق

إنّ الأبوين إذا لم يدركا الحاجات الأساسية التى أومأنا إليها، فإنّ مصير المراهق هو الاضطراب، وسيؤثر ذلك على مستقبله الراشد وعلى نمو شخصيته من الناحية المعنوية، ومشاركة الأبوين فى تربيته إذا تجردت عن تلك الحاجات تصبح غير مهمة لديه، نعم ربما تكون بالنسبة لبعض المراهقين مؤثرة فى تطوره ووصوله إلى الشخصية المستقلة، إنّ على الأبوين أن يدركا الدور الفاعل لهما بإظهار المشاركة الممزوجة بالمحبة والإكرام والإحسان، ومن هنا فإنّ إسداء النصيحة والإسهام فى استقامة شخصية المراهق والمراهقة أمر طبيعى لدى الابن؛ ويتقبله بقبول حسن، ويسهم فى توافق شخصيته المضطربة والمتأججة عاطفياً، ويؤدى ذلك إلى الانسجام والتوافق بين قدراته الكبيرة وما يروم أن يصل إليه من مستقبل.

المراحل التى يمر بها الإنسان فى القرآن

إنّ هذه الحيات التى أشرنا إليها، وذكرها القرآن الكريم فى الانتقالات المختلفة من الضعف - كقرارات الإنسان فى مرحلة الطفولة - إلى القوة ومن القوة إلى الضعف، غير أننا ندرك أنّ ما يصل إليه الشاب فى مرحلة المراهقة يمثل نضجاً كبيراً يتيح له أن يصل إلى رشده بنحو طبيعى إذا أسهم الأبوان بما يتوافق مع حاجاته النفسية.



العوامل المؤثرة في إنماء شخصية المراهق

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَنًا ط﴾ (الأحقاف: ١٥)
صدق الله العلي العظيم.

العوامل المؤثرة في استقامة المراهق

استعرضنا في بحثنا السابق المراهقة، وما ينبغي للأبوين أن يؤدياه تجاه الابن، وسنواصل البحث في هذا الدور الكبير الذي يضطلع به الأبوان في الرقي بشخصية الابن خصوصاً في فترة المراهقة، ويحسن أن نؤكد على بعض العوامل الهامة التي أظهرت الدراسات والاستبانات أهميتها، ونلخصها في العوامل الآتية:

الأول: القيم التي يتصف بها الأبوان.

إنّ من الأمور المؤثرة في استقامة شخصية الابن المراهق والبنات المراهقة القيم والمثل التي يتصف بها الأبوان؛ فلها أبلغ الأثر في الانعكاس الإيجابي على شخصية المراهق والمراهقة؛ وذلك أنهما مهما حاولا أن يخطّا لنفسيهما طريقاً يختلف عما عليه الأبوان إلا أنّ كلاهما يرى التآلق والنجاح يكمن في الاتصاف بنحو ما في السير على وفق شخصية الأبوين، ويعني هذا أنهما يحاولان بنسبة معينة إظهار الانسجام والتكيف مع ما عليه الأبوان، لذا من الأهمية بمكان أن يلتفت الأبوان إلى التأثير الصامت لشخصية كل منهما على الفتى المراهق والفتاة المراهقة، من خلال تجسيد

القيم وإظهار المثل التي يؤمن كل منهما بها في واقع يَبِّ وواضح؛ فعندما يأمران الابن بالصدق ولا يعكسان ذلك في واقعهما عملياً بل يمارسان الكذب أو يقومان بتوجيه الابن من خلال أمر أو نهْي، ولا يلتزمان بما أمرا ابنهما المراهق به، كي يعطياه درساً عملياً في القدوة، فإنَّ ذلك سيؤثر عليه بشكل غير مباشر، والدراسات أبانت التأثير الكبير والإيجابي في استقامة شخصية المراهق بذلك وبعض الدراسات أكدت بأنَّ الكثير من السلبيات التي يتصف بها المراهق يمكن تقليلها بشكل كبير بتطبيق الأبوين لما يأمران به، فإذا أمرا بشيء لا بد أن يبينوا بشكل واضح أنَّ ما أمرا به يمثل الواقعية والسلوك الحسن، قال الشاعر في القديم:

لا تنه عن خُلُقٍ وتأتِي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عَظِيمٌ^(١)

الثاني: حرية المراهق المقننة.

إنَّ الحرية للمراهق ينبغي أن تكون بنسبة معينة؛ فلا يشدد الأبوان الرقابة بشكل كبير، بحيث يصبح الابن وكأنه يعيش في السجن، إنَّ الأبناء الذين تُشدد الرقابة عليهم لا تصل شخصياتهم إلى مستوى من التألق والرشد، فهم بين أمرين؛ إما أن ينفلتوا كلياً عن مراقبة الأبوين وتشديدهما، وإما أن يطبقا ما يقوله بشكل كلي وحرفي، ويتخليان عن التفكير والاعتماد على شخصياتهم، قال العلماء: إنَّ على الأبوين أن ينظرا نظرة إيجابية؛ من خلال مراقبة الابن بنحو ما، وأن يغضوا الطرف عنه بنحو آخر، ويعني هذا إعطاء نسبة من الحرية له فلا تكون نظرتها مستولية بشكل كامل على تصرف الابن؛ لأنَّ الاستيلاء في النظرة بشكل كامل تجرده عن الاعتماد على شخصيته، ولا يتمكن من التعرف على الأشياء بذاته.



الثالث: عدم التمييز بين أفراد الأسرة.

أكَّد الأخصائيون في دراساتهم على عدم التمييز بين أفراد الأسرة في كل مراحل العمر خصوصاً في مرحلة المراهقة، فلا ينبغي التمييز بين البنت والولد، والتفضيل

(١) الصحاح للجوهري: ج ٣، ص ١١٧٤.

للبنات تارةً وللولد تارةً أخرى بإظهار الولد كملاك أو إظهار البنت أنها لا تخطئ، وأن الخطأ إذا صدر فهو من الابن، ولا بد أن يعاقب عليه، وأن يُقرَّع بنحو مستمر، إنَّ ذلك له تأثيره السلبي على شخصية الابن، ويؤدي إلى انفلاته وإتباعه لرفقاء السوء، والاقتداء بالسلوك غير السوي للأبوين، إنَّ التمييز له مردود غير حميد وسيء جداً، وينبغي للأباء والأمهات أن يلتفتوا إلى الآثار السلبية المترتبة عليه أكان ذلك بين الأبناء والبنات أو بين الأبناء بتفضيل بعضهم على بعضهم الآخر.

ويحسن هنا الفات الانتباه إلى نقطة غاية في الأهمية، وهي أنَّ بعض الأبناء يفرض احترامه على الأسرة بجده واستقامته وإطاعته للأبوين، بل ومبادرته في التآلق والانسجام والتكيف الإيجابي مع الجو الأسري، ومع ذلك لا ينبغي للأبوين أن يُظهرا حبهما وميلهما بشكل أكبر له دون غيره من الأبناء، ولا يُظهرا تميزه دون بقية الأسرة، أو يُظهرا حبهما له دون بقية أفراد الأسرة؛ إنَّ ذلك يعود على الابن المتفوق بالسوء، ويؤثر سلباً على بقية أفراد الأسرة، والدراسات المتعددة بينت ذلك، ولعل ما أورده القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته مثال يحتذى به لعدم إظهار الأب لحيه وحنانه أو إظهار الجانب الإيجابي في شخصية بعض أبنائه دون بعضهم الآخر، إنَّ على كل من الأبوين أن يحاول قدر ما يستطيع عدم إظهار التميز بين الأبناء.

الرابع: تخصيص الأبوين وقتاً للحوار مع الأبناء.

هذا الأمر من الأهمية بمكان وقد أكد العلماء والأخصائيون في دراسة فترة المراهقة أنَّ الأبوين مطالبان بتخصيص الوقت الكافي للأبناء في الحوار الجاد والهادف بينهم وبين أبنائهم، وأنَّ المشاكل التي تمر على الأبناء في فترة المراهقة تستدعي من الأبوين أن يخصصوا قدراً أكبر من الوقت، يتاح فيه الحوار بينهما وبين الابن المراهق كي تتم مناقشة المشاكل التي يواجهها ووضع الحلول الإيجابية في جَوِّ من الحوار الهادف، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال منح الوقت الكافي والفهم والثقافة والدراسة المتأنية لكل ما يمر به المراهق، وسَبْر المشكلة بنحو من الموضوعية؛ فلا تمر دون دراسة ووضع حلول إيجابية للجانب السلبي من المشكلة.

ماذا يريد المراهقون من آبائهم؟

لقد بينت الدراسات القائمة على استبانات لمجموعة من المراهقين ما يحتاجه المراهق والمراهقة من الأبوين؛ وأبانت أموراً متعددة يحتاجها المراهق، وركزت الاستبانات على ست نقاط:

الأولى: الثقة بالمراهق.

إنّ المراهق يريد من أبويه أن يثقاه، وعلى الأبوين أن يظهرها ثقتها ليس من الناحية السلوكية فقط، بل أن يبديا ثقتها به من ناحية التعبير بالإفصاح والتكرار على أنه مورد لثقتها، والشاب المراهق والفتاة المراهقة يطمحان في هذا السن إلى ذلك، ويؤثر ذلك إيجاباً في استقامتهما، ونمو شخصيتهما.

الثانية: منح الحرية النسبية.

لقد أشرنا آنفاً إلى أهمية إتاحة الحرية للمراهق بنسبة ما، كي يصل إلى إدراك الأمور بنفسه وتكون تصرفاته منبثقة عنه ونابعة من شخصيته.



الثالثة: عدم التدخل في شؤون المراهق.

على الأبوين أن لا يتدخلوا بشكل مستمر في صغائر الأمور لدى المراهق والمراهقة، لأنّ التدخل المكرر والمستمر يؤثر سلباً، وقد يريد الأب لابنه أن يلتفت إلى أمر صغير وجزئي فيكرره عليه، وعند ذلك يتبرم الشاب والفتاة من التكرار المستمر والأوامر الكثيرة (افعل ولا تفعل) (وقم بكذا واترك ذاك)، إنّ الدراسات بينت أنّ الأبناء والبنات في المراهقة أكثر تبرماً بالأوامر الكثيرة والمتعددة الصادرة من الأبوين.

الرابعة: الانسجام في أسلوب التربية بين الأبوين.

لقد أشرنا سابقاً إلى التناسق والانسجام في الأسلوب التربوي بين الأبوين فلا ينبغي أن يكون الأسلوب التربوي للأب ومن الأم متناقضين في الأوامر والتوجيهات

حتى مع الاختلاف والفوارق بين الأب والأم في الثقافة، فبعض الآباء يفترق عن الأم في المستوى الثقافي أو الإيماني، غير أن العلماء والأخصائيين أكدوا على أهمية التلاؤم والانسجام بين الأبوين للتأثير الإيجابي على الأبناء والبنات في دور المراهقة؛ وأن على الأب إذا صدرت تصرفات حسنة وطيبة بتوجيه من الأم لا ترقى إلى ما يريد وتختلف عن التوجيه الصادر منه أن يشجع ذلك ولا يزدريه فإن الاستخفاف به يؤثر سلباً على الأبناء، إن على كل من الأبوين أن يراعي الانسجام التام فيما يقوم به الآخر من أجل تربية الابن المراهق باستقامة وسداد.

الخامسة: حسن الظن في تصرفات المراهق.

لقد تبين في مطاوي كلماتنا السابقة أن على الأبوين ألا تكون نظرتهم إلى المراهق نظرة شك وريبة، فالأبناء والبنات في المراهقة يريدان من الأبوين أن يحضيا بنظرة ملؤها الثقة، وقد يخطئ بعض الآباء والأمهات في نظرتهم السلبية للابن، بناءً على تصرفات سابقة غير سوية صدرت من الابن، وعندما يصدر من الابن تصرف خاطئ يرتبان نظرتهم السلبية بناءً على المواقف المسبقة الصادرة من الابن، لقد عالج العلماء هذه المشكلة بالتأكيد على الأبوين أن لا يتصفا بهذه الصفة غير السوية تجاه الأبناء في فترة المراهقة، وأن يسعى كل منهما في تغيير سلوكه تجاه الأبناء؛ لأن المردود السلبي لهذه النظرة السلبية كبير جداً بل على الأبوين حتى وإن وجدت بعض الدلائل والعلامات على أن التصرف غير سوي، وموضع شك أن يركزا على الجانب الإيجابي إذا أمكن بزرع الثقة في ذهن الابن المراهق والبنات المراهقة وأنها موضع احترام وتقدير من لدن الأبوين، ليتأثرا إيجابياً بالسلوك السوي، مما يؤدي إلى نمو وصقل الشخصية؛ فالمرهق يرى الأب يحترمه ويقدر شخصيته، وينظر إلى أفعاله بأنها سائرة على الصراط السوي، ويبدأ في التقليل من تصرفاته الهوجاء وغير المستقيمة، وينجذب المراهق والمراهقة نحو قيم الخير والفضيلة.



إنّ هذه النقاط التي استعرضناها ناشئة من دراسات متعددة واستبانات وُزعت على كثير من المراهقين، ولعل الآية الكريمة التي استهللنا حديثنا بها - ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ (الأحقاف: ١٥) - تؤكد هذه التوصية الإلهية، التي لها أبلغ الأثر، فغرس مبادئ الخير في شخصية الشاب منذ نعومة أظفاره له مردود إيجابي عليه، لمعرفته بحقوق والديه، ووجوب الإحسان إليهما واحترام كل ما يصدر منهما، وإذا ترسخ الجانب القيمي أصبحت مرحلة المراهقة متفقة مع ما يريده الأبوان.



الأبعاد المحورية لمسؤولية الأبوين

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر) صدق الله العلي العظيم.

ما زال البحث موصولاً حول مرحلة المراهقة، وسوف نستعرض المسؤولية الملقاة على عاتق الأبوين من خلال إلفات نظر الشاب والفتاة في هذه الفترة بالذات إلى محورين أساسيين، والمحور الثاني يندرج في الأول باعتباره ظرفه.

الأول: أهمية الوقت.

هناك مسؤولية على الأبوين في التأكيد المكرر على أهمية الاستفادة من الوقت، باعتبار أن الشاب في مرحلة المراهقة تتنازعها عوامل متعددة، فيتغلب بعضها عليه، ويؤدي هذا بدوره إلى أن يصرف المراهق جلّ وقته أو كله بما لا يعود عليه بالنفع، وقد استعرضنا مسألة الوقت في أبحاث متعددة، لكننا نبين أهمية الوقت في مرحلة الشباب؛ لأنّ الروايات أفصحت عن أهميته القصوى في هذه المرحلة بالذات، إنّ الوقت وإن كان في كل مراحل العمر هاماً لكنه في مرحلة الشباب والطاقة المتجددة والحيوية الدافقة له أهميته الخاصة، والروايات أكدت ذلك، قال عليه السلام: (لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربعة: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت)^(١) فالروايات نظرت إلى

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢٧، ص ٣١١.

مراحل العمر المختلفة في زاوية، وجعلت مرحلة الشباب في زاوية أخرى خاصة بها لأنَّ مرحلة الشباب لها - كما أشرت - أهميتها الخاصة، ولذا، قال عليه السلام: (عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه) أي كيف صرف تلك المرحلة الخاصة من شبابه؟ وأين صُرفت؟ ويعني هذا أنَّ مرحلة الشباب لها أهميتها الخاصة، وفي نص آخر، قال عليه السلام: (التوبة حسن ولكن من الشباب أحسن)^(١) والمفهوم من هذه النصوص أنَّ أعمال الخير الصادرة من لدن الإنسان حسنة، ولها قبول من الله تعالى، لكنها في مرحلة الشباب لها الأفضلية؛ لأنَّ هذه المرحلة ترسخ فيها جذور الإيثار في الجانب المعنوي من شخصية الإنسان بقوة وثبات لحيوية ونشاط الشاب فيها، فإذا صُرفت تلك الحيوية والنشاط في أي مجال حقق المردود الإيجابي بشكل أعمق وأكثر، والكثير من الناجحين يعود سبب نجاحه إلى مرحلة شبابه، وحتى الدول والأحزاب تهتم بمرحلة الشباب باعتبارها تحظى بأهمية بالغة كما أشرنا.

دور الأبوين في إيضاح أهمية الوقت

وإذا كان الوقت له الأهمية الفائقة؛ فلا بد لكل من الأبوين أن يُولي عناية خاصة لهذه المرحلة في صرف وقت الشاب إلى ما ينبغي عليه أن يصرف وقته فيه لأنه قد لا يلتفت إلى ذلك، فيقضي جزءاً كبيراً من وقته فيما لا يعود عليه بالمردود الإيجابي، إنَّ دور الأبوين يتعدى هذه الأمور ويشمل وضع أجندة وترتيب أولويات للوقت كي يتسنى للشباب الاستفادة من الوقت بشكل كامل وصحيح.

الثاني: البناء العقدي والأخلاقي.

لابد من إلفات نظر الشاب إلى عالم الآخرة وأهمية العبادة في بناء شخصيته، وأهمية معرفة الله تعالى، وذلك لأنَّ البناء العقدي الصحيح له أثر كبير في تجذر المعرفة العقدية في عمق شخصيته، وقد أشارت الروايات إلى رعاية الشاب أو الناشئة والصبيّة، وأكدت على مرحلة الشباب بشكلٍ أعظم؛ لما لهذه المرحلة من أهمية، وأولت الروايات

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٤.

عناية خاصة للبناء العقدي والعبادي في شخصية الإنسان؛ باعتباره القاعدة للبناء الأخلاقي والروحي والمؤثر في صقل الجانب المعنوي.

أهمية البناء العقدي للشباب

قال الإمام الصادق عليه السلام: (بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئة)^(١) فالابن في سن المراهقة والشباب بحاجة إلى تركيز الجانب العقدي في شخصيته؛ لما له من أثر فعال في ترسيخ المبادئ الحقة، وإذا ترسخت صعب اقتلاعها وإزالتها من نفس الشاب. إذن الدور التعليمي له أهمية خاصة للشباب، وإذا قام كل من الأبوين بمسؤوليته في تركيز جهده في البناء العقدي أثمر ذلك السلوك الحسن.

دور الأبوين في البناء العقدي

نحمد الله تعالى على توافر طرق متعددة في عصرنا لمعرفة المعلومة العقدية عبر المحاضرة، والدرس، والاشتراك في البرامج الصيفية، بل، والبرامج الأخرى المتعددة التي يستطيع الأبوان إلفات نظر الشاب والفتاة إليها، إن الاشتراك في هذه البرامج لترسيخ الجانب العقدي في شخصية الشاب، وبالذات ما يتعلق بمعرفة الله تعالى من الأولويات، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (أول الدين معرفته)^(٢) أي أن أول شيء يؤكد عليه الأبوان في الجانب الديني من شخصية الشاب مسألة معرفة الله تعالى، ثم ما يتعلق بالمعاد والآخرة، فلذلك أهمية خاصة وكبيرة، وإذا لم يبين الإنسان شخصيته منذ شبابه على الالتفات للجانب الأخروي في حياته، وبنى كل ما يتعلق بشخصيته على الأمور المادية لم يترسخ في ذاته شيء من الجانب المعنوي؛ لأن الجانب الأخروي هو الذي يلفت الإنسان إلى مسؤوليته، والروايات أكدت ذلك، ذكر الشهيد المطهري (يرحمه الله) في إحدى اللفتات الرائعة له؛ أن القرآن الكريم لم يهتم بشيء كاهتمامه بعالم الآخرة، فهناك ما يربو على ألف وسبعمائة آية تؤكد على عالم الآخرة، من هنا

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٧، ص ٣٣١.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ١، ص ١٤.

على الأبوين أن يركزا في شخصية الشاب المراهق والفتاة أهمية عالم الآخرة، وإلفات نظرهما إلى هذا العالم السعي والكبير الذي يُشكل مستقبل الإنسان، فإذا صرف حياته لله تعالى فاز به، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) (القصص).

أهمية البناء الأخلاقي للشاب

إن الروايات كما أكدت على البناء العقدي أكدت أيضاً على البناء الأخلاقي والمعنوي في شخصية الشاب، وبالذات في مرحلة الشباب، والأبوان بحاجة أن يؤكدوا على الجانب القيمي منذ نعومة أظفار الولد، أي من المرحلة الأولى المبكرة، ولكن التأكيد على الجانب القيمي والمعنوي في شخصية الإنسان في فترة المراهقة بالذات أكبر وأعظم؛ باعتبار عدم الاستقرار والثبات في شخصيته؛ وسرعان ما تراه ينشد في فترة ما انشداداً كبيراً إلى المسجد أو إلى العبادة، وسرعان ما يتأثر بكلمة تصدر من هنا أو فكرة يستمع إليها من هناك، فيقل ذلك الاندفاع ويضعف، لذا، فإن التركيز على البناء الأخلاقي والمعنوي في شخصية الشاب في مرحلة الشباب هو تلقيح وتحديث للمعلومة، ولا بد للأبوين من الاعتناء به، إن الأخلاق الفاضلة ركيزة تبنى عليها شخصية الابن فيحترم الآخرين ويتعاون على عمل البر ويتسم بالصدق والفضيلة، ويراعي كل ما يرتبط بشخصيته الفذة، ومما يسهل للأبوين البناء الأخلاقي تقاطعه مع البناء العقدي، فإذا ركّز الإنسان جهده على البناء العقدي سهّل عليه البناء الأخلاقي، كما أنّ البناء الأخلاقي في شخصية الإنسان يسهم في تقبل المعلومة من الناحية العقدية، باعتبار أن إلفات نظر الإنسان إلى عالم الآخرة وعالم الغيب يجعله يهتم بالجانب المعنوي في شخصيته اهتماماً كبيراً، ويؤليه عناية خاصة.

والنتيجة التي نصل إليها هي أنّ على الأبوين أن يلفتا نظر الشاب إلى هذين المحورين، البناء العقدي في شخصيته والبناء الأخلاقي، وإذا لم يلتفت الأبوان إلى ذلك فقد يفرط الشاب في وقته وكذلك في معرفته العقدية، وحينئذ لن يصل إلى الهدف المبتغى.

المحافظة على التوازن النفسي في شخصية المراهق

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۙ ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ (الشمس) صدق الله العلي العظيم.

استعرضنا عاملين مُهمين ينبغي للأبوين أن يؤكداهما عليهما لنجاح التربية السليمة والصحيحة، وتأكيد عرى الإيثار بثبات في شخصية المراهق ونواصل استعراض بعض العوامل المساعدة والهامة التي ينبغي للأبوين أن يُلفتا انتباه المراهق والمراهقة إليها؛ لما لذلك من أهمية في ترسيخ الخير والفضيلة، وتجنب العثرات في شخصية المراهق والمراهقة.

دور الأبوين في تغلب المراهق على أزماته النفسية

مما ينبغي التأكيد المكرر عليه هو خطورة ما يمر به المراهق من أزمات نفسية تدعوه إلى التفكير بأن مصيره سوف ينتهي إلى الفشل، ولن تتغير حياته إلى الأحسن؛ وهنا يأتي دور الأبوين في إلفات نظره إلى إمكانية تبدل حالته إلى حالة أخرى، وأنّ الفشل ليس نهاية المطاف، وأنّ الإنسان يمكنه أن يتغير بين الفينة والأخرى، وقد قيل: (إنّ دوام الحال من المحال)، ولا يمكن أن تكون العوامل الموجبة للضعف دائمة إلى الأبد، بل سيعقب تلك العوامل عوامل أخرى، تدعوه إلى النجاح والتغلب على مشاكله، وبناءً على هذا يدرك المراهق والمراهقة أنّ التغيير إلى الأحسن ممكن وليس بمستحيل، وإذا وصل الشاب إلى القناعة الكاملة بإمكانية التغيير، لا بد للأبوين أن يوضحا

الخطوات العملية التي توصله إلى تغيير واقعه إلى ما هو أفضل، وقد قال العلماء: إنَّ ذلك يتحقق من خلال أمور:

الأول: الإجابة على تساؤلات المراهق.

لابد للأبوين من شرح نفسية المراهق؛ وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التي تشكل ركائز أساسية للخطوات التي تعقب الإجابة، وهذه الأسئلة محاور ثلاثة:

الأول: يدور حول ذات المراهق وواقعه، ويتلخص في السؤال التالي: من أنا؟ ويأتي دور الأبوين في إيضاح ذلك للمراهق والمراهقة بشيء من التفصيل حول مدلول السؤال وأبعاده، كي يصل إلى إدراك ذاته. وقد ذكرنا في بحث سابق أنَّ للمراهق ذوات متعددة، باعتبار الحالات المتغيرة، التي تمر بواقعه، وهناك كتب متعددة ترفع مستوى الإنسان، عند إعطاء الإجابة على هذا السؤال؛ وعلى الأبوين أن يوضحا للمراهق حقيقة الإنسان وما يمر به من مراحل متعددة في حياته، ليدرك ضعفه وقوته.



الثاني: يتعلق بمستقبل المراهق، ويعبر عنه بالسؤال التالي: ماذا سأكون عليه في المستقبل؟ لأنَّ مرحلة المراهقة تؤثر تأثيراً كبيراً في مستقبله، فإذا حدث للمراهق توازن واستقرار نفسي، وسار بخطوات مدروسة وواضحة، استطاع أن يتغلب على عوامل الضعف الكامنة في شخصيته، وأن يتخطى العقبات الكؤود، بما يعود عليه بالنفع والخير في مستقبله، والإجابة على تساؤل المراهق لها أهميتها الفائقة في نجاح وتأكيد قواعد الثبات التي يبني عليها شخصيته.

الثالث: يرتبط بالطريق الذي يسير عليه كي يحقق الفضائل، ويتأتى ذلك بالسؤال التالي ماذا عليَّ أن أسلك من الطرق التي تؤدي إلى الرشد والخير والفضيلة؟ وقد ألمحنا فيما تقدم أنَّ المراهق يمر بنقص من نواحي متعددة، من أهمها، نقص العلم والتجربة بمعنى أنَّ التجارب المؤثرة والواقعية التي فيها العبرة والدروس إذا أعطيت له شكَّلت بُعْداً هاماً في ثبات شخصيته وفهم واقعه.

أساليب الأبوين في إيصال المراهق إلى الرشد

إنّ الأبوين لا تقع عليهم مسؤولية الإجابة على تساؤل المراهق فحسب، وإنما يتحتم عليهما تبيان الخطوات والأساليب التي يسلكها المراهق كي يصل إلى مستقبل مشرق، ويتحقق ذلك بالتأكيد على نقطتين هامتين:

الأولى: أهمية العلم في حياة الإنسان.

إنّ فترة المراهقة قد تدعو الشاب إلى ترك التعليم والاتجاه إلى طرق أخرى، وينبغي للأبوين أن يُبينَا أهمية العلم باستمرار، وتأثيره الكبير في بناء المستقبل بثبات في كل نواحي الحياة، وليس في الناحية الاقتصادية فحسب، فالحالة المعنوية للإنسان وعلاقته الاجتماعية بأخيه الإنسان، وفهمه السليم لاتخاذ الخطوات المدروسة في الحياة كل ذلك يتوقف على العلم.

الثانية: أهمية التخطيط في الحياة.

ولابد للأبوين من التخطيط للحياة بشكل أفضل من خلال الشرح والإيضاح لمبدأ القدوة، ودون أن يقرن التخطيط بالتأكيد على العلم فلن يصل الشاب المراهق إلى ما يبتغي الأبوان أن يصل إليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب)، إنّ مبدأ الأسوة الحسنة والافتداء له أهميته في نجاح شخصية المراهق باطراد، وتقدمه إلى الأمام، والقدوة الكبرى لنا النبي ﷺ ومن بعده الأئمة من أهل البيت ، وهناك شخصيات تمثل قدوة في النجاح العلمي والاجتماعي والاقتصادي والنجاح في مناح متعددة، ويمكن للوالدين أن يضربا أمثلة للشخصيات الناجحة من خلال التأكيد على الأمور التي أدت إلى نجاحها وإبراز أهميتها للشباب المراهق والفتاة المراهقة، وسوف يجنب ذلك المراهق خطراً في شخصيته وهو الطموح اللاواعي، الذي يتصور المراهق أنّ ما يفكر به ممكن أن يصل إليه، حتى وإن كانت العوامل غير مساعدة في الوصول إلى ما يطمح له، إنّ التفكير اللاواعي يؤدي إلى عشرات كبيرة يمر بها المراهق، ويمكن



أن تُعالج هذه الحالة في شخصيته بمبدأ القدوة، وإخراج التفكير لديه من عالم الخيال إلى الواقعية، وهذا من الأهمية بمكان، إذ أن بعض المراهقين يتصور أن باستطاعته الوصول دون مساعدة الآخرين أو يتصور أنه سيتبوأ القمة في مجال محدد دون أن يعلم بأن الكثير من الوسائل تنقصه في ذلك المجال، من هنا نفهم الدور الكبير للقدوة، وتأثيره في السلوك السوي على المراهق، مما يؤدي إلى نجاحه وتخطيه العقبات.

الثاني : الحفاظ على المنجزات.

إن من الأمور التي أكد عليها العلماء خصوصاً في عوامل الضعف والاستقرار في شخصية المراهق والمراهقة أنه لا بد أن يلتفت الأبوان إلى وقايتهم وإبعاده عن الوقوع في الخطأ، فالمراهق قد يحقق بعض المنجزات، ويصل إلى بعض المكتسبات، وسرعان ما يتراجع القهقري إلى الوراء، ويُدمر بعض منجزاته أو يخفق في الحفاظ على مكتسباته التي اكتسبها بجده وكدحه، من هنا لا بد من إيضاح ذلك إليه قبل وقوعه فيما لا تحمد عقباه، ولعل المقولة المشهورة: (درهم وقاية خير من قنطار علاج) تعلمنا ذلك، فالأبوان والمربي والمرشد تقع عليهم مسؤولية في الحفاظ على المكتسبات، باعتبار أن البناء من الصعوبة بمكان والهدم والرجوع إلى الوراء أسهل ذلك بكثير، وإلفات نظر المراهق إلى هذه المسألة الهامة بالحفاظ على المكتسبات والمنجزات التي وصل إليها بكده وكدحه يتطلب ذلك منه بذل ما بوسعه للحفاظ على ما وصل إليه سواء كان ذلك مادياً أو غير مادي كالمهارات التي اكتسبها، وهنا لا بد من حثه على الصبر والصمود والتحدي لبعض العقبات لئلا تؤثر فيه وتدفعه للتراجع، والحكمة المتقدمة: (درهم وقاية خير من قنطار علاج) تنطبق على المجال الصحي وغيره من المجالات الأخرى كالرشد والنمو والتقدم في الحياة، وكلما التفت الإنسان إلى أهمية الحفاظ على شخصيته ومنجزاته أمكنه تجنب الوقوع في مطبات قد لا يستطيع الخروج منها، وما ذكرناه إلماحات وقواعد أكد عليها العلماء باستمرار في تخطي العقبات التي يمر بها الإنسان.



أسس وقواعد التعامل الاجتماعي للمراهق

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان) صدق الله العلي العظيم.

قواعد في تعامل المراهق مع المجتمع

لا زال البحث موصولاً حول بعض النقاط والمحاور الهامة التي ينبغي للأبوين أن يوليا عناية بها في التأثير لإيصال الشاب والفتاة المراهقين إلى مرحلة الرشد، من أهم هذه المحاور التأكيد على مسألة التعامل مع الطيف المتعدد في المجتمع بمرونة وحنكة، فقد أكد العلماء أنَّ الإنسان لا يمكن أن يعيش وحده بمفرده، باعتباره اجتماعياً بطبعه؛ ولا يمكن أن يتكئ على قدراته الفردية في الوصول إلى مرحلة الرشد وتكامل الشخصية، بل لابد له من علاقات مع مختلف أطراف المجتمع، ويحتاج إلى مجموعة من القواعد للوصول إلى مرحلة الرشد أهمها ثلاث:

الأولى: الحاجة إلى التجربة.

إنَّ من أهم الأمور التي ينبغي أن يدركها الشاب هو عدم حصوله على التجربة الكافية في التعامل مع أطراف المجتمع، وأنه بحاجة إلى الأبوين أو الموجه والمرشد؛ ليوضح له الطريق السليم ويشرح له القاعدة التي توصله إلى الخير وتجنبه السقطات، فقلة التجربة قد تؤدي به إلى عثرات لا يستطيع القيام منها بعد الوقوع فيها، وقد أوضح إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام هذه المفردة من خلال الخديعة التي قد يتعرض لها بعض من قبل أناسٍ لا يراعون القواعد ولا ينضبطون في سلوكياتهم، قال عليه السلام: (من

قلت تجربته خُذع^(١) إنَّ على الأبوين أن يُبينَا أهمية التجربة في الواقع المعاش وفهم قواعد السلوك الاجتماعي مع الطيف المتعدد.

الثانية: الحاجة إلى الذكاء والفهم الاجتماعي.

إنَّ بعض المراهقين يتصف بالذكاء غير أنَّ ذكائه علمي يتفوق دراسياً ويفهم الأفكار العلمية، إلاَّ أنَّه هناك فارق بين الذكاء العلمي والاجتماعي، من هنا يأتي دور الأبوين في شرح مقتضيات الذكاء الاجتماعي؛ كي يعي المراهق وجود الاختلاف والفرق بينهما، فالذكاء الاجتماعي يجعل الشاب والفتاة أكثر انضباطاً في سلوكهما وتعاملهما مع الأقران، وقد أطلق العلماء على ذلك الذكاء المكتسب، إنَّ الذكاء الاجتماعي ينبثق من سلسلة من العوامل تتيح للمرء أن يتعامل على وفق مقاييس تجنبه السقطات الاجتماعية.

أهمية الذكاء الاجتماعي

والمراهق يفهم بالذكاء الاجتماعي أسرار الحياة والألفة مع بعض الأفراد دون بعضهم الآخر؛ ويتبادل أسرار الحياة مع بعض إذ لا يمكن أن يكون ذلك مع كل أحد، فمن الناس ما يمكن أن يتكئ عليه ويركن إليه، ومنهم من يجب أن يتعد عنه ويكتم عنه أسرار الحياة، فالود والصدقة مع بعض أمرٌ لا مفر منه، ولا غنى عنه، أي أنَّ مرحلة التكامل للشخصية تتوقف عليه، ولا بد من وجود ثلثة من الأصدقاء للتكامل.



الثالثة: الحاجة الماسة للأصدقاء.

هناك أناس لا بد أن ينسجم المراهق وإياهم وأن يميل لهم، وآخرون ينفر منهم، لعدم التلاؤم بينه وبينهم، ونطلق على الفريق الأول - الذين ينسجم ويتلاءم في علاقاته معهم - الأصدقاء تسامحاً، وأما الذين ينفر منهم ولا يرتاح إليهم فنسميهم الأعداء تسامحاً أيضاً، وإنَّ كان قد يميل الإنسان إلى الكثير من الناس من غير أصدقائه وينفر عن كثير من الناس من أصدقائه، ولكننا نجد ضيقاً في المصطلح، ولا بد أن نتعامل مع هذا النحو من المصطلح للوصول إلى الأفكار التي نريد إيضاها. فإذاً التعامل مع الناس بمختلف القسمين والنوعين - الأصدقاء والأعداء - يحتاج إلى أسس معينة وفهم واع للوصول إلى المتغنى، ولا يمكن للإنسان أن يتعامل بسطحية وبساطة مع هذه الحالة، دون فهمٍ لما يعيشه الآخرون ولا إدراكٍ لمقتضيات المؤثرات في التعامل بين أطراف الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الشاب والفتاة.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٣٧٦.

المراهق بين كثرة الأصدقاء والأعداء

يحسن أن نبين منهجاً أُشير إليه في الروايات، هو كيف ينبغي للإنسان أن يتعامل في علاقاته مع أطراف المجتمع؟ فهل الأفضل أن يجعل له سلسلة من العلاقات الاجتماعية بصنع كثير من الأصدقاء وتجنب كثير من الأعداء، أم أنّ الأمر بالعكس فعليه أن يقلل من الأصدقاء وإنْ كثر أعداؤه!! من خلال الروايات يظهر التأكيد على أنّ الإنسان عليه أن يكثر من الأصدقاء؛ وهذا يعني أن المنهج الأفضل - الذي على الشاب أن يفهم مقتضياته - هو اتخاذ سلسلة من العلاقات مع أفراد المجتمع، تُهيء له ارتباطاً اجتماعياً مع أكبر قدر ممكن، وعليه أن يسعى بقدر استطاعته أن لا يكون له أعداء أو أناس يكرهونه، فكلما تمكن من توطيد العلاقات مع أفراد يتبادل وإياهم المصالح فيُقدمون له الخدمة عند الحاجة ويعينونه ويرفعون عن كاهله عبء ما عليه استطاع أن يحقق نجاحات باهرة تعود عليه وعلى المجتمع بالنفع الكثير، لذا، نجد هذا المعنى بوضوح في وصية لقمان لابنه عندما قال: (يا بني اتخذ ألف صديق، وألف قليل، ولا تتخذ عدواً واحداً، والواحد كثير)^(١)، وفيما نُسب إلى إمامنا أمير المؤمنين ع السلام من الشعر:

وليس كثيراً ألفٌ خِلٍ وصاحبٍ وإنَّ عدواً واحداً لكثير^(٢)

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٢، ص ١٦.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٢، ص ١٦.

ويعني هذا أنّ على الإنسان أن يبذل قصارى جهده في بناء علاقات اجتماعية قائمة على الوثام والمحبة مع الناس، ذلك هو الأفضل الأحسن.

هل يمكن الاستفادة من كثرة الأعداء؟

إنّ من الممكن أن يستفيد المرء من أعدائه وقد جاء ذلك في الروايات، روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام - عند دخوله المدائن أنه سأل جميلاً - أمين البلاط الساساني - عن الفائدة من كثرة الأعداء، فقال جميل: (إنّ الأعداء إذا كثروا يكون الإنسان متحرزاً متحفظاً أن ينطق بما يؤخذ عليه)^(١) وعلى هذا الأساس، فالأعداء يمكن أن يستفيد الشاب منهم في التحفظ على شخصيته؛ لأنّ العدو دائم النقد يلحظ ما يصدر من الإنسان من أخطاء ويراقبه فيها، وذلك مدعاة لتكامل الشخصية؛ وتجنب الأخطاء والزلات التي تقع منه، والتي لا يلتفت إليها ولا ينبهه أصدقاؤه عليها، للعلاقات الحميمة بينه وبينهم، وهنا تكمن أهمية وجود الأعداء فهم يركزون على إظهار العيوب والسقطات من لدن عدوهم، فيلتفت إليها الإنسان فتكامل شخصيته، فالأعداء كالمرآة للوصول إلى التكامل، وقد استحسن الإمام عليه السلام ما سمعه من حكمة صادرة من جميل، الذي عاش تجربة طويلة في بلاط الحكومة، وعرف قواعد التعامل مع الناس. غير أنّ القاعدة الأولية التي أشرنا إليها هي أنّ على الإنسان أن يتخذ أكبر عدد من الأصدقاء. وهنا لا بد للأبوين أن يُبينَا للشباب أهمية الاستفادة من الأفراد الذين لا يرتاح إليهم أو بينهم وبينه عداوة شخصية؛ يستفيد منهم في البُعد التكاملي لشخصيته.

النمط السلوكي في العلاقة مع الأعداء

بين الإمام عليه السلام نمطين من السلوك:

الأول: أنّ على الإنسان أن يربي ذاته؛ ليتاح له أن يكسب أكبر قدر ممكن مما اكتسبه من المحامد والخصال الطيبة.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣٤، ص ٣٤٥.

الثاني: أنَّ عليه أن يدرك المساوئ كي يتجنبها، من خلال ما يصدر من أعدائه من نقدٍ أو ذمٍ لشخصيته، فيجب على المرء أن يتكيف مع من لا ينسجم وإياه، كي يُتاح له إدراك بعض الأخطاء والعثرات التي تصدر منه، وهذه فائدة تعود على الإنسان من خلال أعدائه، قال الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه الرائعة فيما يستفاد من العدو: (أعداء الرجل قد يكونوا أنفع من إخوانه لأنهم يهدون إليه عيوبه، فيتجنبها ويخاف شمتهم به فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه)^(١) بعد أن يتعرف على عيوبه، وهذا الشخص يستطيع اجتناب العيوب خوفاً من شمتهم به، فيضبط نفسه ويتحرز غاية الدقة كي لا يقع في العثرات؛ لأنه يخاف على مكتسباته التي حصل عليها، ويحاول جاداً أن يحافظ عليها حتى لا يشمت أعداؤه به، وبذلك نعرف الغاية من الأصدقاء وهي الوصول إلى اكتساب المحامد والغاية من التعامل مع أعدائه هي التعرف على عثراته التي تصدر منه، فتضر بشخصيته فيتخذهم مرآة للوصول إلى إدراك عيوبه ونقائص شخصيته ويستطيع أن يتكامل من خلال ذلك.

التواضع من أهم مقومات الصداقة

لقد أكد العلماء في علاقات الصداقة بالنسبة للمراهقين على أمر في غاية الأهمية، وهو أنَّ الإنسان عليه أن يتواضع، كي يستفيد من الآخرين الذين في رتبته أو أعلى منه، بل، من يرى أنه أفضل منهم أو يتقدمهم في العلم، ومعنى ذلك أن يسعى في اكتساب ما لديهم من حكم وخبرات ومعارف، ولا يتاح ذلك له إلا بالتواضع لأصدقائه وأقرانه، أما إذا رأى أنه الأفضل والأحسن فلن يستطيع أن يستفيد من علاقاته مع الآخرين.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٢٠، ص ٢٧١.

أثر النقد في بناء شخصية المراهق

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان) صدق الله العلي العظيم.

بينما فيما سبق المهمات الأساسية المناطة بالأبوين في رفع مستوى الرشد، وتثبيت قاعدة لشخصية المراهق، بالتركيز على ثلاثة أمور هامة، هي الحاجة إلى التجربة والذكاء الاجتماعي وسلامة الأصدقاء، إن هذه الأمور الثلاثة لها أبلغ الأثر في وصول المراهق إلى النضج وتخطي العقبات، وسنستعرض بقية الأمور على النحو التالي:

الأول : الحاجة إلى الآخرين.

لابد من التأكيد في البدء على أنَّ الإنسان في الأعم الأغلب خصوصاً في فترة المراهقة، قد يحصل على بعض النجاحات، لقدراته الجسمية، فيتصور أنه قد وصل إلى مرحلة الاكتفاء وعدم الاحتياج إلى غيره، وينسى أنَّ الإنسان بطبيعته وفي كل آنات حياته يحتاج إلى الآخرين ليكمل نقصه، باعتباره ناقص بطبعه، ومهما وصل إليه من كمال وغنى، فإنَّ ذلك لا يجعله مستغن عن غيره، قال تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢)، أي إنَّ الله تعالى سخر بعض الناس لبعضهم الآخر لإكمال ما لدى البعض من نقص بما يتوافر من كمال لدى الآخر؛ فهو تعالى قسّم الكمال على

الناس، وليس هناك شخص كامل في كل شيء، وآخر ناقص في كل شيء، فحكيمته تعالى اقتضت أن يستفيد بعض الناس من بعضهم الآخر، وهذه من الحقائق المؤكدة التي نحتاج إلى غرسها في شخصية المراهق، لئلا يصاب بالغرور، ويظن في نفسه أنه ليس بحاجة للآخرين.

كيفية الاستفادة من الآخرين

إنّ من الأهمية بمكان أن يُوضح الأب لابنه المراهق قواعد الاستفادة مما لدى الغير من خبرات وكمالات في جوانب متعددة لا تتوافر لديه، خصوصاً أنه في مستقبل عمره، ولا يتاح للإنسان أن يحصل على ما لدى الغير من كمال إلا إذا خفض جناحه، وتواضع لغيره، وذلك أنّ الناس لا يمكن أن يعطوا ما لديهم، وأن يفيضوا مما عندهم على المتكبر المتغطرس الذي يرى أنه ليس بحاجة إلى الآخرين، والعكس من ذلك، فإذا كان وديعاً في أخلاقه، متواضعاً في تعامله مع غيره، سيجد أنّ الكمالات تنهمر عليه من كل حذب وصوب، وسيرغب الناس في التعامل معه وإرشاده إلى السلوك الحميد، وتحذيره من السلوك السيء.



الثاني : الحاجة للنقد.

إنّ على الأبوين أن يؤكدوا بشكل مكرر ومتواصل على أهمية النقد، وقد استعرضنا بإيماءة ترتبط بهذه المسألة فيما يتعلق بالصدقة والعداوة، وذكرنا أنّ القاعدة الأولى أن يتخذ المرء الكم الكبير من الأصدقاء، ويحاول جاداً أن لا يكون لديه أعداء، ومع ذلك، فمن الضروري أن يستفيد من أعدائه، كما جاء في حوار إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام مع أمين البلاط الساساني (جميل) الذي أبان فيه أنّ على الإنسان أن يستفيد من أعدائه ليتعرف على جهات نقصه والمساوئ والعيوب في سلوكه، وقد استحسّن الإمام عليه السلام

كلامه^(١)، ومع ذلك فإن المراهق بحاجة إلى نقد الآخرين من أقربائه وأصدقائه، كي يتعرف على نقائصه من خلال من يبادلّه المودة والحب، وهذا ما يصطلح عليه بالنقد البناء؛ لأنّ الحبيب والصديق الحميم يوجه النقد، ليس من أجل هدم ما بُني من كمال، وإنما لأجل أن يُصلح ويُقوّم السلوك، فيكون الأمثل والأفضل.

أهمية النقد

إنّ الكثير من الناس لا يعرف ما للنقد من أهمية فائقة للوصول إلى الكمال، مع أنه لا يمكن أن يتاح الوصول إلى الكمال، دون نقد من لدن الآخرين، فهم مرآة في تقويم الاعوجاج في الشخصية، قال رسول الله ﷺ: (المؤمن مرآة لأخيه المؤمن)^(٢) إنّ الإنسان إذا أراد الخروج من بيته رتبّ هندامه بمقابلة المرأة ليظهر بمظهر لائق وحسن، والأصدقاء مرآة لشخصية الإنسان بنقدهم البناء لجهات الاعوجاج والنقص في شخصيته، بحوارهم وإياه، مبينين أنّ ما صدر منه من تصرف لم يكن مناسباً، ولو أبدله بآخر لكان أفضل وأحسن. إذن لا شك في وجود فائدة من الانتقادات يستفيد منها المراهق في وصوله إلى مهارات التعامل مع الآخرين، وانتقاء الألفاظ التي تتناسب مع المخاطب، هذا ما ينبغي أن يصدر عند التحدث مع الغير، فالمحبون يقدمون النقد بطريقة بناءة خصوصاً لمن كان في مرحلة التكامل والمراهقة، فيقدمون له أغلى النصائح -مجوهرات ثمينة- وهذه الإرشادات والتوجيهات حكم وصل إليها الآخرون بالتجارب المتعددة والمضنية، وواجه كثير منهم إخفاقات حتى وصلوا إلى تلك الحكم التي جعلت شخصياتهم بناءة ومؤثرة، ويمكن أن تنال تلك النصائح بأبخس الأثمان، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: (لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفّاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كُفيت مؤونة

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣٤، ص ٣٤٥.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧١، ص ٢٣٣.

الطلب وعُوفيتَ من علاج التجربة^(١) إنّ من وصل إلى التجارب أدرك الفائدة من نقده، ويفهم بمجرد أن يتحدث، ويصغى إليه أنّ كلامه جوهر الحكمة، تضاف كرسيد لبناء الشخصية، وتكاملها.

كيفية التعامل مع النقد

إنّ على الأبوين أن يُوليا عناية لإفهام الشاب في مرحلة المراهقة أنّ من مقومات السلوك الحسن وطرق الوصول إلى الكمال النقد البناء غير أنه مع مزيد من الأسى فإنّ كثيراً من الشباب المراهق عندما يُنتقد من بعض إخوانه وأقربائه يردّ النقد بنقد مماثل له، فإذا قيل له: صدرت منك كلمة سيئة، أجاب: وأنت كذلك. والصحيح أنه لا أحد لم يصدر منه سوء، لكن عندما يُوجّه النقد للإنسان عليه أن يعرف كيف يتجنب ما صدر من نقص، ولا يرفض بالرد والمكابرة، بل عليه الأخذ بما قاله الغير وإبداء الاستعداد لتقبله، كي يضيف إلى رصيده الأخلاقي والقيمي، ما يؤدي إلى بناء شخصيته.



كيفية الاستفادة من الانتقاد

من هنا لابد أن يُعلّم الأبوان الشاب، ما يتعلق بهذين الأمرين الهامين اللذين أشرنا إليهما، حُسن الإنصات والاستماع لما يقوله الآخرون، أكان الكلام من عالم دين أو شخصية كبيرة ومؤثرة من الناحية الاجتماعية، أو من الذين نتعامل وإياهم دائماً وأبداً في البيت والعمل، فيمكن أن يقدم لنا هؤلاء جواهر حكم، وتجارباً ثرية، وعلى الشاب أن يتعلم كيف يأخذ من تجارب غيره، ويضيف إلى رصيده القيم، ويُعلّم أنه لن يستطيع الأخذ من غيره ومن تجاربه إلا بتقبله للنقد، وتواضعه للآخرين؛ فإذا أراد الآخرون أن يتحدثوا إليه فلا يحاول أن يقطع حديثهم، ليرز رأيه، ويبين أنّ لديه أكثر مما عندهم.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ٤٠.

تعلم حسن الإنصات

إن مرحلة المراهقة مرحلة مقتبل العمر، ويمكن تشبيهها بالأرض الخصبة التي تحتاج إلى الزرع والماء والمقومات الأخرى لتنبت، وكذلك الشاب في بدايات نموه ونضجه العقلي يحتاج إلى أمور، كي يصل إلى كماله، ولا يتاح له ذلك إلا بالاستعداد الذاتي والتواضع وتقبل نقد الآخرين لشخصيته، ويتم ذلك بحسن الإنصات لما يقوله الغير، قال الإمام الباقر عليه السلام: (فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول) ^(١) إن الإنسان لابد أن يكون حريصاً على استماع ما لدى غيره من حكم وتوجيهات في كل حياته، وقد ركزت على ذلك حكمة تقول: إن الله تعالى أعطى الإنسان لساناً واحداً يتحدث به، وأعطاه أذنين ليستمع بهما، وعليه أن يستمع أكثر مما يتحدث. إن علماء التربية يؤكدون على أهمية حسن الإنصات والاستماع إلى الغير خصوصاً في مرحلة المراهقة، وإذا تعلم الشاب حسن الإنصات والاستماع لما يقوله الآخرون، وتقبل النقد وتواضع، كان على الطريق المستقيم المؤدي إلى النجاة. هذه مهارات تتيح للشباب من خلال تعلمها إتقان ما يريد أن يصل إليه من كمال، وترسخ في شخصيته الرشد، وعلى الأبوين أن لا يصابا بملل بتأكيدهما هذه النصائح، لأن الطريق القويم الموصل إلى الرشد، لن يتاح إلا بالتكرار المستمر.

الاستفادة من الزمان النفسي

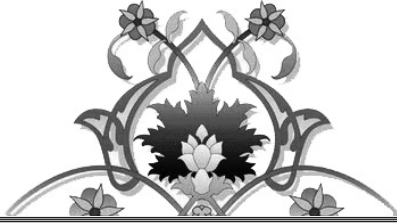
ويحسن أن ننبه على أمر غاية في الأهمية، وهو الزمان النفسي، وقد ذكرته بنحو مطلق، وأريد أن أكمل البحث بنحو مقتضب.

إن الزمان النفسي هو الأوقات الخاصة التي أكدت الآيات والروايات عليها، هناك محطات للإنسان يحتاج أن يتزود فيها، ولا بد للأبوين أن يُعلماه كيفية التزود منها، ومن أبرز هذه المحطات الأشهر الثلاثة - رجب وشعبان ورمضان - فقد ورد

(١) مستدرک الوسائل للنوري: ج ٩، ص ٥١ .

كَمْ هائل من الروايات تبين أهمية الأعمال الصالحة فيها باعتبارها تمثل زاداً روحانياً
ملئاً بالخير الذي يُؤصل قيم الحق والفضيلة، والاجتناب عن الرذائل والنقائص،
وبذلك يتاح للإنسان أن يقوم بأعمال طيبة تعود عليه بالخير والفضل العميمين.





القسم الثالث:

■ ■ الشباب تكامل في البعد الزمني ■ ■

الفصل الأول:

الجانب الطعنوي في حياة الشباب



الآثار الوضعية للأعمال العبادية في شهر شعبان

قال إمامنا زين العابدين عليه السلام: (وَهَذَا شَهْرُ نَبِيِّكَ سَيِّدِ رُسُلِكَ، شَعْبَانُ الَّذِي حَفَفْتُهُ مِنْكَ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّضْوَانِ، الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله وسلاماته عليه يَدَّأُبُّ فِي صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ فِي لَيَالِيهِ وَأَيَّامِهِ، بُخُوعاً لَكَ فِي إِكْرَامِهِ وَإِعْظَامِهِ إِلَى مَحَلِّ حِمَامِهِ)^(١).

يتزامن هذا الدعاء الجليل مع إطلالة شهر شعبان، كي يرسم صورة رائعة من الفيوضات الرحمانية التي يتفضل الله تعالى بها على عباده، والمقطع الذي افتتحنا به الحديث يبين جانباً من عظمة هذا الشهر، باعتباره شهر الرسول صلوات الله وسلاماته عليه، الذي كان يدأب في صيامه وقيامه، وورد عنه عليه السلام في وصفه لهذا الشهر بأنه شهر شريف كانت حملة العرش تُعظمه وتعرف حقه وأنه شهر تُزاد فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وتُزين فيه الجنان وهو شهر العمل، وفيه تُضاعف الحسنات سبعين ضعفاً والسيئات محطوطة والذنوب مغفورة، والحسنة مقبولة، والجبار جلّ جلاله يُباهي فيه بعباده وينظر من فوق عرشه إلى صُومائه وقُومائه فيباهي بهم حملة عرشه. وأهم الأعمال الواردة في شهر شعبان هي:

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٤٩٢.

الأول: الصوم.

الصوم من أهم العبادات التي تتكامل بها شخصية الإنسان وروحه، ويُؤثر هذا على سلوكه تأثيراً إيجابياً يرفعه إلى مدارج العروج والقرب من الله تعالى، أما صوم شعبان فله خصوصيات تميزه عن غيره، لذا أوصى النبي ﷺ منادياً ينادي عند بدء شهر شعبان بأنه شهره ﷺ، وقال ﷺ: (شعبان شهري رحم الله من أعاني على شهري)^(١) وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (ما فاتني صوم شعبان منذ سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي في شعبان)^(٢)، قال الإمام الصادق عليه السلام: (صيام شعبان ذخرك للعبد في يوم القيامة)^(٣).

وأهم الآثار الوضعية المترتبة على صومه هي:

السعة في الرزق

الأول: الرزق الوفير والتحصن من الأعداء. قال الإمام الصادق عليه السلام: (وما من عبد يكثر الصوم في شعبان إلا أصلح الله له أمر معيشته وكفاه شر عدوه)^(٤).

استحقاق الجنة

الثاني: أنه من موجبات دخول الجنة. قال الصادق عليه السلام: (وإن أدنى ما يكون لمن يصوم يوماً من شعبان أن تجب له الجنة)^(٥) بينما نجد في روايات صوم شهر رجب: (أن من صام ثلاثة أيام من شهر رجب وجبت له الجنة)، وهذا يُبين أفضلية الصوم لشعبان على صوم رجب، وقد أكد ذلك النبي ﷺ عندما سُئل عن أفضل الصيام قال: (شعبان تعظيماً لرمضان)^(٦).

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٨٧.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥٠٨.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥٠٥.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥٠٢.

الشفاعة

الثالث: شفاعة النبي ﷺ للصائم. وهذا ما أوضحه النبي ﷺ في الروايات الواردة عنه ﷺ حيث قال: (شعبان شهري ورمضان شهر الله، فمن صام شهري كنتُ له شفيعاً يوم القيامة)^(١) وهذا أثر كبير للصوم، ولا بد أن ألفت الانتباه إلى أن كل مؤمن يستحق شفاعة النبي ﷺ غير أن هناك من هو أقرب إليها، كالبار بوالديه يكون أقرب إلى شفاعته ﷺ، ومن أتى ببعض الطاعات كصوم شهر شعبان هو أقرب إلى الشفاعة.

محبة الله تعالى

الرابع: فوز الصائم بمحبة الله تعالى. فمن صام هذا الشهر نال المحبة الإلهية وهي من المراتب العالية التي يسعى العرفاء والعلماء للوصول إليها، قال الإمام علي عليه السلام: (من صام شعبان محبة لنبي الله ﷺ وتقرباً إلى الله عز وجل أحبّه الله عز وجل وقربه من كرامته يوم القيامة)^(٢) القرب من الله يحصل عليه المؤمن بصوم هذا الشهر.

قضاء الحوائج

الخامس: الصوم يقضي الحوائج. وصوم بعض أيام شهر شعبان له تأثيره الخاص، ورد في الحديث: (من صام يوم الاثنين والخميس من شعبان جعل الله تعالى له نصيباً، ومن صام يوم الاثنين والخميس من شعبان قضى له عشرين حاجة من حوائج الدنيا وعشرين حاجة من حوائج الآخرة)^(٣).

غفران الذنوب

السادس: الصوم يوجب غفران الذنوب. ورد عنهم عليه السلام: (صوم شعبان كفارة

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥٠٧.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٤٩٠.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٤٩٣.

الذنوب العظام؛ حتى لو أن رجلاً بلي بدم حرام فصام من هذا الشهر أياماً وتاب لرجوت له المغفرة^(١) وهذا يحتاج مزيداً من الإيضاح، تكفل الإمام الرضا عليه السلام به، قال: (.. حتى لو أن رجلاً بلي بدم حرام فصام من هذا الشهر أياماً وتاب لرجوت له المغفرة) الدم الحرام ليس قتل المؤمن فقط بل يكون بكلمة تؤدي إلى الإساءة إليه وبالتالي إلى قتله - والعياذ بالله - ومن الأمور التي توجب الغفران والرحمة الصوم في شهر شعبان .

الثاني: الدعاء والمناجاة.

الدعاء يمثل أعلى مراتب اللذة المعنوية، التي يتحدث فيها العبد مع سيده وحيبيه ويشكو همومه وآلامه، وهي لذة لا تقاس بها أي لذة أخرى. والأدعية في هذا الشهر لها الأثر الكبير في رقي الإنسان إلى أعلى مدارج الكمال والقرب من الله، وهي نحوين: الأول: الصلوات الواردة عن الإمام زين العابدين عليه السلام - صلاة الشجرة - لها الأثر في ربط الإنسان بأهل البيت عليهم السلام.



الثاني: المناجاة الشعبانية، تلك الابتهالات العرفانية التي تأخذ بمجامع القلوب وترفعها من العالم المادي إلى عالم معنوي رفيع، وخصوصية هذه المناجاة بمواظبة أئمة أهل البيت عليهم السلام على قراءتها. وقد كان السيد الإمام عليه السلام يحث تلامذته على قراءتها، ويسألهم آخر الشهر عن الاستفادة التي حصلوها من خلال قراءتهم لها.

الثالث: الاستغفار.

الاستغفار من الأعمال التي وردت في شهر شعبان ويظهر من بعض الروايات أنه أهم أذكار هذا الشهر للعبد، وقد ورد بكيفيتين:

الأولى: أن يقول العبد (أستغفر الله وأسأله التوبة) سبعين مرة، قال الإمام الرضا عليه السلام: (من قال في كل يوم من شعبان سبعين مرة (أستغفر الله وأسأله التوبة)

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٤، ص ٩١.

كتب الله له براءة من النار، وجوازاً على الصراط، وأحلّه دار القرار^(١).

الثانية: أن يقول (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحي القيوم وأتوب إليه). قال الإمام الرضا عليه السلام: (من استغفر في شعبان كل يوم سبعين مرة كان كمن استغفر في غيره من الشهور سبعين ألف مرة)^(٢).

الرابع : الصدقة.

أشارت الروايات إلى أنّ كثيراً من الابتلاءات يمكن أن يتجنبها الإنسان بدفع الصدقة، وكذلك القضاء المبرم أيضاً، فالصدقة تحصن المال وتحفظه من الآفات. والمداومة عليها في شهر شعبان تتميز بأثرها الوضعي الخاص، الذي تحدث عنه الإمام الصادق عليه السلام فقال: (من تصدق بصدقة في شعبان رباها الله عز وجلّ له، كما يُربي أحدكم فصيله؛ حتى يُوافي يوم القيامة، وقد صار مثل أحد)^(٣). كان المجتمع آنذاك يعتني بتربية الإبل، والصغير من الإبل يُولى عناية خاصة من صاحبها، وإذا تصدق الإنسان في شعبان فإن الله تعالى يُولى عناية فائقة بصدقته بإنائها أكبر مما يخطر بباله بأضعاف كثيرة.

الخامس : التهليل

التهليل من الأذكار التي تُقرب إلى الله تعالى، وله طابع آخر عندما يكون في هذا الشهر، لتعدد آثاره، وقد ورد بكيفية خاصة: (لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون)، قال عليه السلام: «ومن قال في شعبان ألف مرة: لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون، كتب الله له عبادة ألف سنة، ومحى عنه ذنب ألف سنة ويخرج من قبره يوم القيامة ووجهه يتلألأ مثل القمر ليلة البدر

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥٠٩.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥١١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥١٠.

وكتب عند الله صديقا»^(١) فمن كرر بهذه الكيفية ألف مرة تحقق له الآثار الوضعية الخاصة بالتهليل، وأهمها:

الأول: أن يكون عند الله صديقاً، وما أوجبنا أن نكون من الصديقين عند الله وتعالى.
الثاني: أن يشارك الأنبياء، فيبعثه الله تعالى من قبره ووجهه يُضيء لأهل المحشر كالقمر في ليلة البدر، ليصبح كالأنبياء مصدر النور والإضاءة.

وهناك بعض الأعمال الأخرى مستحبة في هذا الشهر، من أحبّ الاطلاع على مزيد منها عليه أن يراجع الكتب المطولة كالإقبال للسيد ابن طاووس وغيره من كتب الأدعية.



(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٩٤.

الأبعاد المعنوية للأعمال الصالحة في شهر شعبان

طريق التكامل في الشخصية المؤمنة:

قال الإمام زين العابدين عليه السلام في الصلوات الشعبانية التي تقرأ عند الزوال:
(اللهم صل على محمد وآل محمد، واعمر قلبي بطاعتك، ولا تحزني بمعصيتك،
وارزقني مواساة من قترت عليه من رزقك، بما وسعت علي من فضلك)^(١).

في هذا المقطع الجميل يدعو الإمام عليه السلام الله تعالى في هذا الشهر الكريم أن يعمر
قلبه بطاعته، وأن لا يُحْزِيه باقتراف المعصية وأن يُرْزَق مواساة الفقراء والمحتاجين
بالفضل الذي امتن الله تعالى به عليه من السعة في الرزق.

هذه غايات ومحامد يطمح كل إنسان مؤمن ويرجو من الله تعالى أن يصل إليها،
والأئمة من أهل البيت عليهم السلام بينوا الطريق الواضح للوصول إلى التكامل من خلال
أمور ثلاثة:

الأول: إعمار القلب بالطاعة.

الثاني: الابتعاد عن المعصية.

الثالث: الإسهام في التكافل الاجتماعي.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٨٤، ص ٦٨.

ارتباط الجانب المعنوي بالعمل الصالح:

ونبين هذه الأمور الثلاثة بالروايات لإيضاح الطرق التي أكد عليها الأئمة عليهم السلام في شهر شعبان، روى السيد ابن طاووس في إقبال الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئل ما أفضل ما يُفعل في شعبان؟ فأجاب عليه السلام: (الصدقة والاستغفار)^(١).

الصدقة

بذل المال في سبيل الله تعالى، أما من لا يبذل ماله فلا يتصدق ولا يُعطي، والعطاء له أهمية كبرى في الشريعة الإسلامية، خصوصاً في شهري شعبان ورمضان، قال الإمام الصادق عليه السلام: (من تصدق بصدقة في شعبان ربّاهُ الله عز وجل، كما يُربّي أحدكم فصيله حتى يُوافي يوم القيامة وقد صارت مثل أحد)^(٢) الصدقة تكبر وتنمو بعناية من الله تعالى حتى تصبح كجبل أحد.

الاستغفار

إنَّ الاستغفار له انعكاس إيجابي على المُستغفر، بما يُحدثه من الرُّقي الدائم في مدارج الكمال، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله ذلك بقوله: (وإنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله كل يوم سبعين مرة)^(٣) النبي صلى الله عليه وآله لا يعصي الله تعالى ولكن انشغاله بالأكل والشرب والأمور المباحة يؤدي إلى نوع من الرين على مرآة قلبه الصافية فيستغفر الله تعالى للرجوع إلى حالته السابقة، وذلك أنّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين» وللاستغفار في هذا الشهر ميزة فواحده تعدل سبعين ألف مرة في غيره، فيُحدث للإنسان روحية عالية تدفعه إلى الاستمرار في سيره التكاملي وقربه من الله تعالى.



(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٩٤.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥١٠.

(٣) ميزان الحكمة ج ٣ للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٧٨.

التهليل

التهليل هام، وقد وردت الروايات تحض على ذكر الله تعالى بـ«لا إله إلا الله» وورد في بعضها التهليل بكيفيات مختلفة، كل منها ترمز إلى حالة من التكامل.

منها: «لا إله إلا الله حقاً حقاً، لا إله إلا الله تعبداً ورقاً، لا إله إلا الله إيماناً وصدقاً». ومنها: التهليل الخاص الوارد في شهر شعبان، (لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون)^(١).

وكي نعرف الآثار المترتبة على هذا التهليل نقرأ ما ورد عن النبي ﷺ، روى السيد ابن طاووس (يرحمه الله) في كتاب الإقبال: عنه ﷺ، أنه قال: (ومن قال في شعبان ألف مرة: لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون، كتب الله له عبادة ألف سنة، وحى عنه ذنب ألف سنة ويخرج من قبره يوم القيامة ووجهه يتلأأ مثل القمر ليلة البدر وكتب عند الله صديقاً)^(٢) هذه آثار عظيمة.

وهنا تعليق جميل ذكره بعض العلماء يرتبط بالأعمال العبادية السهلة واليسيرة مع كون آثارها عظيمة، قال بعض العلماء المحققين:

إنّ هذه العبادات تُحدث أرضية طيبة في الإنسان إذا تحققت شرائط وتترتب عليها آثار من جملتها أن لا يموت إلا مع إيمان وتوبة واستغفار، وأيضاً أن لا يموت إلا وهو بار بوالديه، وهناك شرائط لازمة تترتب عليها هذه الآثار التي ذكرها النبي ﷺ، إذ من المعلوم أن من يخرج من قبره ووجهه يتلأأ كالبدن في ليلة تمامه وكماله لا بد أن يكون موالٍ لأئمة أهل البيت ﷺ، وكذلك من كُتب عند الله تعالى صديقاً لا يمكن أن يكون كاذباً أو أن تكون أفعاله مخالفة لما يُريده الشارع.

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٩٥.



وما ذكره هذا العالم من تحليل يُوافق الجمع بين الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، ويتفق مع ما ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، فمن مات على غير تقوى من الله تعالى ودون إيمان لن تحصل له الآثار والبركات الآتية.

المناجاة الشعبانية وتربية النفس

من أعمال هذا الشهر الشريف، المداومة على قراءة المناجاة الشعبانية، وقد ذكر أنّ جميع الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يقرءونها في شهر شعبان، وتشتمل هذه المناجاة على حشيات وحقائق معنوية، نتطرق إليها من خلال مقاطع المناجاة.

قال عليه السلام: (إلهي قد جُرْتُ على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها، إلهي لم يزل برك علي أيام حياتي، فلا تَقْطَعْ برك عني في مماتي...) (إلهي كيف آيس من حسن نظرك لي بعد مماتي، وأنت لم تولني الا الجميل في حياتي) إلى أن قال (إلهي إن كان صَغُرَ في جَنب طاعتِكَ عَمَلِي فَقَدْ كَبُرَ في جَنبِ رجائِكَ أَمَلِي إلهي كيف أنقلب من عندك بالخبية محروماً، وقد كَانَ حُسْنُ ظني بجودك أن تَقْلِبَنِي بالنجاة مَرْحوماً) (١).

نشير إلى بعض الحقائق المعنوية المتعلقة بالتمحور حول الذات والخطر الذي يدهم الإنسان جراء ذلك وطريق الخلاص من هذا المرض الأخلاقي من خلال نقطتين:

الأولى: أثر التمحور حول الذات.

قال الإمام عليه السلام: (إلهي قد جُرْتُ على نفسي في النظر لها...) الدعاء يوضح الجانب السلبي في الشخصية عندما تتمحور حول نفسها فتحدث بذلك جوراً على ذاتها، لكونها لا تسير كما يريد الله تعالى، ولا تنظر إلى النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام كقدوة.

إنّ التمحور حول النفس يجعل المرء جائراً على نفسه ظالماً لها، ويترتب على ذلك

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٩٧.

عواقب وخيمة، تؤدي به إلى النار، قال عليه السلام: (فلها الويل إن لم تغفر لها) الويل: وادٍ في جهنم أو إشارة إلى العذاب الإلهي الأليم، لا يكون من أهل النجاة ومن أهل الخير والسعادة والسودد.

الثانية: التخلص من التمحور حول الذات.

يُبين الإمام عليه السلام طريقاً للخروج عن هذه الحالة بأسلوبين:

الأول: التوسل إلى الله تعالى.

التوسل إلى الله تعالى بكرمه ونعمه وطاعته وفضله يخلص الإنسان من هذه الحالة المرضية، قال الإمام عليه السلام: (فلا تَقْطَعْ بَرَكَ عني في مماتي) وعلى الإنسان أن يرى دائماً أنَّ ما لديه من نعم ومنن من عند الله تعالى وبفضله، ويدعو الله تعالى أن يجعل ذلك مستمراً يشمل عوالم الغيب كما كان متحققاً له في عالم الشهود.

الثاني: التعلق بالأمل الإلهي وترك اليأس.

يرتقي الإمام عليه السلام بالطلب من الله تعالى أن يزيده من مننه حتى إذا صدر منه ما يخالف أوامر الله تعالى، يدعو الله تعالى أن يبقى الكرم والعطاء الإلهي مستمراً ليتجاوز ما صدر من تقصير وذنوب، قال عليه السلام: (الهي كيف آيس من حسن نظرك لي بعد مماتي، وأنت لم تولني إلا الجميل في حياتي).

يجتث الإمام ع اليأس من حياتنا ويزرع الأمل والرجاء بالله تعالى فقولته عليه السلام: (إلهي إن كان صَغُرَ في جَنبِ طَاعَتِكَ عَمَلِي فَقَدْ كَبُرَ في جَنبِ رَجَائِكَ أَمَلِي).

هذا الأمل هو حُسن الظن المعبر عنه في الروايات، بأن من مات وهو يحسن الظن بالله مات مغفوراً له وكان في درجة الصّديقين والشهداء الصالحين، وعلى الإنسان أن يجعل ظنه حسناً، قال الإمام الرضا عليه السلام: «أحسن الظن بالله، فإن من حسن ظنه بالله



كان الله عند ظنه»^(١).

ثم بسط الإمام عليه السلام يديه الراجيتين لفضل الله تعالى، قال: (إلهي كيف أنقلب من عندك بالخيبة محروماً، وقد كان حُسنُ ظني بجودك أن تقلبني بالنجاة مرحوماً) إنَّ هذا النحو من المناجاة لله تعالى يجعل الإنسان في مرتبة الصّديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.



(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٣٤٣.

العيد مسار التكامل والعروج نحو الله

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة) صدق الله العلي العظيم.

أُبارك للمسلمين جميعاً وللأخوة حلول عيد الأضحى السعيد.

إنّ الدين الإسلامي شرع عيد الأضحى والفطر لارتباطهما بحدث عظيم يمرّ به الإنسان على مستوى الفرد ومستوى المجتمع، فيُحقق إنجازاً هاماً على أكثر من صعيد، ومن ثمّ يأتي العيد بعد تحقيقه هذا الإنجاز الكبير، لما يشتمل عليه من مضمونٍ يؤثر في مسيرة الإنسان المستقبلية.

العلاقة التكاملية بين الفريضة والعيد

فعيد الفطر يكون بعد أن يمر الإنسان بدورةٍ تدريبيةٍ يتأهل بها إلى مستوى رائع في القدرة التي حصل عليها بالصّوم، واستطاع كبح جماح شهواته، ليس في الحرام فحسب، وإنّما عن الحلال أيضاً، فالصائم حقّق إنجازاً هاماً وكبيراً على صعيد إنسانيته، وارتقى إلى مدارج الكمال، وكذا الحال أيضاً في عيد الأضحى المبارك، إذ فيه يتحقّق إنجاز بنحو أعظم وأشمل لأنّ المكتسبات الكبيرة التي يجنيها الحاج على المستوى العقدي والمعنوي والاجتماعي لها عظيم الأثر، وعيد الأضحى يأتي بعد هذه الإنجازات ليُباركها، ويكون الحاج سعيداً مسروراً بما حققه من مكتسبات تعود عليه

بالخير والصالح في الدنيا والآخرة.

إنجازات الحج في المجالات المتعددة

إن المكتسبات التي يجنيها الحاج تتسم بالأهمية البالغة، لدورها الكبير في حياته على الصعيدين الفردي والاجتماعي، ونسلط الضوء على هذه المكتسبات الرائعة:

الأول: الإنجاز العقدي.

إن نسك الحج بما يشتمل عليه من مضمونٍ راقٍ يُحقق مكتسبات عقدية في أبعاد متعددة أهمها:

الأول: البعد التوحيدي.

إن الحاج الذي يقوم بالطواف حول الكعبة يتذكر الأساس الذي قام عليه البيت الحرام وهو التوحيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ (الحج: ٢٦)، والآية تُشير إلى تحديد وتعيين مكان البيت وأنه تأسس على التقوى والتوحيد، والطائف بالبيت إذا استحضر البعد المعنوي في طوافه أدرك التوحيد الحقيقي فقوى بناءه العقدي.



الثاني: البعد الأخروي.

والحاج عندما يرتدي ثوبي الإحرام يتذكر الكفن الذي يخرج به من الدنيا ويتجلى أثر الإحرام عندما يجتمع الحجاج - باختلاف لغاتهم وألوانهم ومذاهبهم - في صعيد عرفة، فتتشكل صورة مصغرة ليوم القيامة والأحداث التي تمر على الإنسان كتجسيد حي وليس كفكر نظري بحث، وذلك بدوره يُحقق الإيمان بالمعاد والآخرة.

الثالث: البعد المعرفي.

إن أهم المراحل التي يجب على الإنسان أن يلتفت إليها - بإمعان نظر وتأمل في الفكر - مسألة المعرفة في الحياة الدنيا، وماذا يجب على الإنسان أن يصل إليه في البعد

المعرفي؟ ويتكفل بذلك الوقوف على صعيد عرفة، والروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، ركزت على الجانب المعرفي وبيّنت دوره الكبير في الإيصال إلى الله تعالى من خلال الأدعية الواردة يوم عرفة، وأهمها دعاء الإمام الحسين عليه السلام ودعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لاشتغالهما على أرقى المضامين المعرفية التي تخاطب العقل والروح، وتفتح آفاقاً فكرية وعرفانية تُثري المسلم، وتوصله إلى القرب الإلهي المنشود.

الثاني: الإنجاز المعنوي.

إنّ الحاج عندما يرتدي ثوبَ الإحرام يتذكّر بداية وجوده وولادته عندما يُلف ببعض قطع القماش البسيطة، وانتهاء أمد حياته في الدنيا ليخرج بثوبين أو بثلاثة أثواب من عالم الشهود إلى عالم الغيب، والاستذكار يضبط سلوكه ويهذب أخلاقه لاستشعاره الموت في كل آن.

وعندما يخلع الحاج الألبسة الفاخرة يؤكد تجرده من المعاصي والردائل لتروك الإحرام التي تلزمه أن لا يقترف شيئاً منها مع العلم أنّ بعضها محللة للإنسان في الظروف العادية غير أنّ هدف التشريع الإلهي إيجاد إرادة صلبة للحاج، يستطيع بها مجاهدة نفسه ومغالبة شهواته ونزواته، وبذلك يتحقق له ما يريد، ويتأكد ذلك أيضاً في ذبح الهدي الذي ينحر فيه شهواته، وعندما يرمي الجمار يتذكر الحاج الإغواء الشيطاني في تراجع مسيرته التكاملية، ويتعاهد مع نفسه بالمضي والثبات لمحاربة العدو حتى إلحاق الهزيمة به والانتصار الكامل عليه.

الثالث: الإنجاز الاجتماعي.

إنّ اجتماع الحجيج في مكان واحد يفسح المجال للتعارف بينهم وعقد اللقاءات، والروايات أكدت ذلك، رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام في فلسفة الحج قوله: (فَجُعِلَ فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا)^(١) والتعارف يؤدي إلى إنشاء مجموعة علاقات تربط المسلمين بغض النظر عن بلدهم ولونهم ولغتهم، ومواقف الحج

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١١، ص ١٤.

المختلفة تُكرس ثقافة المساواة والأخوة والتعاون نحو الخير ومصلحة الإنسانية.

تقاطع إنجازات الحج

إنّ الإنجازات التي يُحققها الحاج في أداء مناسكه هي المنافع التي ذكرها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿٢٨﴾﴾ (الحج: ٢٧-٢٨) وتتقاطع الإنجازات التي ذكرناها مع ذكر الله واستشعار عظمتة تعالى في مواقف الحج، وإذا رجع الحاج إلى بلده تأتى له تحمل المسؤولية الملقاة عليه، وسعى جاداً بخطى ثابتة لتغيير شخصه وسلوكه، وانعكس ذلك الدور التغييري على محيطه ومجتمعه من خلال ما حققه من إنجازات ومكتسبات في مستويات مختلفة، فتتقاطع الأدوار المتعددة قبل العيد وبعده، ويتأتى للحاج الحصول على مكاسب كبيرة يحقق بها السعادة والسرور، إنّ المنجزات الهائلة التي قام بها، هي ذكر الله تعالى في أعماله ومناسكه التي أداها وشكره على ما تحقق، فأصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة).



الاعتماد على النفس طريق النجاح

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ (النجم)، صدق الله العلي العظيم.

أهمية الاعتماد على النفس

من المفاهيم التي بُلورت في الروايات بشرح وافٍ بل ومسهب مفهوم الاعتماد على النفس في الوصول إلى التكامل الشخصي من الناحيتين المادية والمعنوية، والمفهوم لم يأت في الروايات بهذا العنوان، وإنما عبّر عنه بتعابير مختلفة كاليأس عما في أيدي الناس، وقوة النية.

منهجية غرس الاعتماد على النفس

قبل أن أورد الروايات أوضح أمرين هامين لهما ارتباط بالاعتماد على النفس:

الأول: وعي الآباء لمفهوم الاعتماد.

إنّ الإنسان ومنذ نعومة أظفاره وصِغَرِ سنه يحتاج إلى الأبوين، وهي حاجة فطرية، والأب والأم كذلك يُدركان بفطرتها أنّهما إذا لم يُقدّما العون إلى وليدهما فإنه لن ينمو طبيعياً، ولن يترعرع بالشكل المطلوب، وعليه فإنّ حاجة الطفل لأبويه أمر فطري وطبعي يُدرکه الأبوان، والحاجة في المراحل الأولى من الوضوح بمكان، وتضعف

وتتضاءل بشكل تدريجي كلما كَبُرَ الولد وتَقَدَّمَ به السن. ونستطيع أن نُقسِمَ المربين من الآباء والأمهات في نظرهم تجاه مفهوم الاعتماد على النفس إلى قسمين:

الأول: الآباء والأمهات الذين لا يدركون أهمية زرع الثقة في الطفل للاعتماد على ذاته في الوصول لأهدافه، وإنما يحاولان تقديم العون بلا حدود لأبنائهما دون أن يوضحا لهم أنَّ العطاء الذي يقدمانه محدود، وسيتوقف، ولا بد للولد أن يدرك ذلك كي يصل إلى مرتبة الاعتماد على شخصه.

الثاني: الآباء والأمهات الذين لا يفهمون الولد والبنات الاعتماد على نفسه في صِغار الأمور منذ البداية، كي يتعلم الأسلوب الأمثل في وصوله إلى تحقيق مآربه في المستقبل، بل نجد الوالدين يُعطيان الولد والبنات كل ما يُريدانه دون شرح أو تبيان لأهمية الاعتماد على النفس وأثره البالغ في الحياة المستقبلية.

الثاني: سعي الآباء لاستقلال الأبناء.

يرتبط هذا المطلب بالفترة الزمنية التي يتخرج الأبناء فيها من مرحلة الثانوية أو من مرحلة المتوسطة، ويتحدد فيها مستقبل الولد، وعلى الأبوين أن يدركا أنه وبالرغم من حاجة الولد الماسة لهما إلا أنه أصبح شخصية مستقلة عنهما، فهو كيان يختلف عنهما في سيكولوجيته النفسية، بل في كثير من خصائصه وسماته التي ترتبط بشخصه، وهناك فوارق أساسية بين الابن وأبويه، وعلى الأبوين أن يدركا استقلال شخصيته عنهما، وإذا لم يدركا ذلك سيقعان في أخطاء فادحة، منها ما يرتبط بتخرج الولد من المرحلة الثانوية، إذ نجد أنَّ بعض الآباء عنده رغبة وميول تجاه بعض التخصصات العلمية أو بعض المهن تدفعه إلى المحاولة بجدية، وبذل قصارى جهده لإقناع الابن أو البنات بذلك التخصص، مع أنهما لا يرغبان فيه، من هنا تبدأ المشكلة وينشأ الصراع في داخل الولد بين التخصص الذي يُحقق طموحه وبين ما يُريده الأبوان. وقد يسعى لتحقيق إرادة أبيه أو أمه، وليست إرادته الشخصية المستقلة، لكنه لا يُفلح في الاختيار، وإذا أفلح قد يكون ضعيفاً في الحقل التخصصي، لأنه لم يختره، وليس لديه



الدوافع والمحفزات التي تنطلق من كنه وجوده، إنّ وظيفة الأبوين أن يوضحا للولد رغبتها في التخصص في الحقل العلمي المحدد كالطب أو الهندسة وما إلى ذلك من التخصصات، وأن يؤكد له أنه بإمكانه أن يحقق رغبته الذاتية التي تنطلق منه والتي تشكل العمود الفقري والأساس في الاختيار، وهي التي ينبغي أن يسعى إليها وليس ما اختاره الأبوان.

تحقيق طموحات الأب من خلال الابن

لقد قرأت كتاباً أعجبني كثيراً لأخصائيين في هذه المجال، يشير الكتاب إلى مصطلح يسميه «الانجاز عن طريق التشويه بالوكالة» أي أنه إذا أخفق الأب ولم يصل إلى ما كان يصبو إليه من طموح، فإنه يريد أن يُحقق ذاته من خلال ابنه في المستقبل، وعندئذ يرتكب خطأين، خطأ في حق نفسه، لأنه لم يبذل الجهد الكافي، وآخر في حق ابنه، لأنه لم يجعله مستقلاً في إرادته لتحقيق طموحه، إنّ مصطلح «الانجاز عن طريق التشويه بالوكالة» قد يشتمل على شيء من الغموض والإرباك، غير أنّ المقصود واضح وهو أنّ الأب يريد أن يُحقق ما يطمح إليه عن طريق ابنه، أي إنّ الانجاز الذي أخفق فيه يُوكّله إلى ابنه كي يحققه، والكتاب لـ «أيان ثلر وتريزا دي جرينمو» واسم الكتاب «علم صغارك الاستقامة والجرأة دون إكراه» ولقد أعجبني في تخصصه الموضوعي وذكره قصصاً هادفة وجميلة تُوصل الإنسان إلى الفهم السليم في جعل الابن يعتمد على ذاته في تحقيق تخصصه العلمي واكتساب المهارات والحرف التي يريد القيام بها وتعلمها.

الاعتماد على النفس في الروايات

عندما نظر روايات المعصومين عليهم السلام نجدها أولت أهمية بالغة بمسألة الاعتماد على النفس وإن كان بيان آخر عبّر عنه بـ «اليأس عما في أيدي الناس» أو بـ «أن لا يكون الإنسان كلاً على الآخرين»، أي أنّ عليه عدم الاعتماد على غيره في تحقيق مطالبه، بل عليه أن يبذل قصارى جهده في الوصول لأهدافه المرجوة، قال إمامنا زين

العابدين عليه السلام: (رَأَيْتُ الْخَيْرَ كُلَّهُ قَدْ اجْتَمَعَ فِي قَطْعِ الطَّمَعِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ)^(١) أي لا يكون الإنسان مُتَكِلًا على الآخرين في الوصول إلى ما يصبو إليه، بل يعتمد على شخصه، ولا يعني ذلك أن الابن يقطع احتياجه لأبويه بأي شكل، بل قد يحتاج لمساعدتهما ومساعدة الآخرين، قال تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ (الزخرف)، وقد شرحت الروايات ذلك بتسخير بعضهم لبعض، وأنّ الغنى المطلق لله تعالى وحده، والخلق يحتاج بعضهم لبعض بنحو متوازن، بأن لا يكون الاحتياج يُشكّل عالةً وكلاً على الآخرين، بل ضمن الحدود المقتنة، والأُطر المعروفة. قال الإمام الصادق عليه السلام: (اليأس مما في أيدي الناس عزٌّ للمؤمن في دينه)^(٢) أي أن اليأس يجعله يستشعر العزة التي لها أهمية قصوى للمؤمن، وبينت الروايات بوضوح أن الكمال النفسي والتقدم في المجال الاقتصادي يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالاعتماد على النفس، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (الحلم والأناة توأمان ينتجها علو الهمة)^(٣) إنّ علو الهمة مصطلح تذكره الروايات يشير إلى الاعتماد على النفس، أوضحه الإمام عليه السلام بقوله: (قدر الرجل على قدر همته)^(٤) أي كلما كان اعتماده على نفسه أكبر استطاع أن يحقق ذاته بنحو أعظم، وأوضح إمامنا الصادق عليه السلام أن الأنبياء ارتقوا الدرجات العلى ضمن المسار الطبيعي الذي يقوم على أساس الاعتماد على شخصياتهم بعد التوكل على الله تعالى، واستمداد العون منه.

الإمام الصادق عليه السلام يعرض نصائح لقمان عليه السلام

قال إمامنا الصادق عليه السلام حاكٍ عن لقمان في وصيته ونصائحه التي قدّمها لابنه بشكل مُترابط ومتسلسل، قال عليه السلام: قال لقمان -لابنه-: (يا بني إياك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب، وألزم نفسك التؤدة

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٩، ص ٤٤٩.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٩، ص ٤٥٠.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٤٧٠.

(٤) مستدرک الوسائل للنوري: ج ٨، ص ٢٢٢.

في أمورك، وصبر على مؤونات الإخوان نفسك، وحسن مع جميع الناس خلقك، يا بني إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضل به على إخوانك فلا يعدمك حسن الخلق وبسط البشر، فإنه من أحسن خلقه أحبه الأخيار وجانبه الفجار، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك، فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس، فإنها بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع طمعهم^(١).

الأول: الثاني.

قول لقمان: (يا بُنَيَّ أَلِمْ نَفْسَكَ التَّوَدَّةَ فِي أُمُورِكَ)^(٢) أي أن عليك بالتأني، فالإنسان العاقل إذا لاحت فكرة في ذهنه لا ينطلق بسرعة خلفها دون تفكير في عواقب الأمور، أما عندما يُشخص هدفاً، فلا بد أن يفكر ملياً، ويُجري دراسات موضوعية معمقة لما يريد أن يُقدم عليه، ففي عصرنا الحاضر نجد الشركات الكبرى إذا أرادت أن تُقدم على مشاريع تعمل دراسة جدوى متعددة الجوانب، وبتلك الدراسات يتبين لها الواقع، من هنا عبر لقمان عن هذا المصطلح بالتَّوَدَّة أي التفكير بتأمل وروية قبل الإقدام.

الثاني: الصبر في قضاء حوائج الإخوان.

قال لقمان عليه السلام عن ذلك: (وصبر على مؤونات الإخوان نفسك)^(٣) فالناس عندهم حوائج يحتاجون إليك في كثير منها، إذ يحتاج الناس بعضهم إلى بعض، وقد تجد بعضهم إذا احتيج إليه عراه السأم والملل، وكأنه لا يحتاج إلى أحد في يوم من الأيام، غير أن بعضهم حتى وإن احتيج إليه كثيراً تجده رحب الصدر، حتى إذا لم يُرد قضاء حاجة أخيه اعتذر منه بلباقة، وذلك ما أشار إليه لقمان في وصيته لابنه، إن الإنسان ينبغي أن يصبر في تحمل حاجات الآخرين، فإن استطاع أن يسهم في قضائها فعل أو اعتذر بنوع من اللباقة واللفظ.

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٣، ص ٤٢٠.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٣، ص ٤١٩.

(٣) نفس المصدر السابق.

الثالث: قطع الطمع مما في أيدي الناس.

قال عليه السلام: (واقع بقسم الله ليصفو عيشك، فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس)^(١) أي إذا أردت أن تصل إلى الخير في أمورك الدنيوية فاجعل نفسك مستقلاً في شخصك معتمداً على ذاتك، ثم بين ذلك من خلال المثال الواضح والجلي، فقال عليه السلام: (فإنما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع طمعهم)^(٢) الأنبياء والرسل هم العمالقة في خدمتهم للبشرية في مسارها التاريخي الطويل، وكان من أسرار شخصياتهم قطع طمعهم عما في أيدي الناس، واعتمادهم على الله تعالى وجدهم في الوصول إلى مآربهم وذلك هو المحور الرئيس في مسارهم.

البعد التربوي في فكر الإمام الحسين والسجاد عليه السلام

نبارك لكم جميعاً وللأمة الإسلامية ميلاد الإمامين الحسين وزين العابدين، وميلاد أبي الفضل العباس عليه السلام.

الميادين والحقول التي ركّز عليها الأئمة عليهم السلام

أئمة أهل البيت عليهم السلام مثلوا الحصانة للأمة، ومارسوا أدواراً تربوية وجهادية متعددة صنعت سياجاً يحافظ على الثوابت الأساسية، ولعل الجانب التربوي من أهم الجوانب التي ركّز عليها أئمة أهل البيت عليهم السلام في حقول وميادين الجهاد، لذا، وقد بذلوا عليهم السلام قصارى جهدهم في إبراز الجانب التربوي انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، إنّ الوظيفة الأساسية للنبي صلى الله عليه وآله هي إبلاغ شرائع الدين، وهي معنى يتلو عليهم آياته. أما «يزكيهم» فإنّ التزكية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب التربوي الذي نلمسه بوضوح عند تصفحنا لسيرة أهل البيت عليهم السلام في تعاملهم مع أبنائهم ومجتمعهم.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

توجيهات الإمام الحسين عليه السلام في إصلاح الأمة

لقد مارس الإمام الحسين عليه السلام الدور التربوي من خلال نصائحه وإرشاداته التي أسداها لشرائع المجتمع المختلفة، وكان لها دور كبير في معالجة الثغرات والمشاكل التي عايشها الناس آنذاك، وأهم النقاط التي ركّز عليها الإمام عليه السلام :

الأولى: طريقة التكيف مع الواقع.

عندما نقف على توجيهات الإمام عليه السلام في الجانب السلوكي والتربوي نجد تركيزاً على الأسلوب الأمثل في الانسجام مع الواقع، وقد أوضح عليه السلام ذلك في أحد توجيهاته بقوله: «من دلائل علامات القبول: الجلوس إلى أهل العقول»^(١)، فالإنسان الذي يريد أن يصبح مقبولاً أي متكيفاً مع الواقع الراقي عليه أن يجالس أصحاب الحِجى، الذين يتمتعون بالتجارب، ويستطيعون فهم الأمور فهماً سليماً وهم أصحاب العقول. إنّ العقل منحة كبرى امتن الله تعالى بها على الإنسان، لكنه يستخدم عقله في الوصول إلى الحق وإتباع الصدق واجتناب الزيغ تارة، وأخرى لا يفعل قدراته العقلية في الطريق الموصل إلى الرشد والكمال، ومن الوسائل والآليات التي تُسهّم في تفعيل العقل لدى الإنسان أن يصاحب ذوي العقول، ويقيم علاقات وثيقة مع الذين يمتازون برجاحة العقل كي يستطيع من خلال ذلك التكيف والانسجام مع مختلف فئات المجتمع.

الثانية: خطر المماراة والجدال.

ثم قال عليه السلام : «ومن علامات أسباب الجهل المماراة لغير أهل الكفر»^(٢)، هاهنا نقطة في غاية الأهمية، فبعض الناس الذين يحصلون على علم أو قدرات في المجادلة يستخدم علمه أو قدرته الجدلية مع أناس لا يؤثر فيهم ولا يجذبهم إلى طريق الهداية أي إنه يستخدم القدرة والمُكنة في غير محلها، والإمام عليه السلام يؤكد على أنّ الإنسان الذي

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١١٩.

(٢) نفس المصدر السابق.

يتمكن من الجدل والمهارة ولا يستخدمهما مع الجاحدين لإيصالهم إلى الرشد والهداية فإنّ ذلك دليل جهله، لأنّه يجادل ولا يستفيد في نهاية جدله من إيصال الغير إلى الحق، أو وضع جدار بينه وبين الباطل.

الثالثة: أبرز خصال العالم.

ثم قال عليه السلام: (ومن دلائل العالم انتقاده لحديثه)^(١)، إنّ من مميزات العالم أن ينتقد ما يصدر منه من أفكار، لأنّه يعلم أنه ليس بمعصوم فيما يطرحه من حديث أو فكر، وما يؤلفه من كتب، فيستفيد من الآخرين في رقي نفسه من خلال انتقادهم له، ولا يستنكف من انتقاد نفسه، وذلك لأنّ الجاهل يبرر لنفسه الخطأ إذا صدر منه، والعالم ينتقد الخطأ الصادر منه، وذلك دليل علمه، إنّ العالم في حالة رقي، فهو يمتطي الكمال دون توقف، جاء في الروايات (من قال: أنا عالم، فهو جاهل)^(٢) لأنّه لا يريد أن يرتقي بالباطل، فهناك طريقان: إما أن يتقدم الإنسان إلى الإمام أو أن يتراجع إلى الورا، والإمام عليه السلام أوضح ذلك بقوله: (ومن دلائل العالم انتقاده لحديثه، وعلمه بحقائق فنون النظر)^(٣) أي تتوافر لديه مهارات شتى في مجالات مختلفة تدل على علمه.



الرابعة: أهم خصال المؤمن.

قال إمامنا عليه السلام في إرشاداته التربوية التي يُسديها لمن يتصل به: «إنّ المؤمن اتّخذ الله عصمته وقوله مرآته»^(٤)، هذه صفات رائعة وجميلة، وهي من علامات المؤمن، التي تميزه عن غيره، أولى هذه الخصال اعتصامه بالله تعالى، فالمؤمن لا يعتصم بغير الله تعالى، أما غير المؤمن فاعتصامه بغير الله، ولذا نجد أنّ ابن نوح قال: ﴿سَأْوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي﴾ (هود: ٤٣)، فيتصور أنّ اعتصامه بالجبل ينجيه من عذاب الله تعالى، والواقع أنه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢، ص ١١٠.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١١٩.

(٤) نفس المصدر السابق.

الْمُعْرِقِينَ ﴿٤٣﴾ (هود)، فالْمُؤْمِن لَا يَعْتَصِم بِالْمَالِ أَوْ السُّلْطَةِ أَوْ الْجَاهِ أَوْ الْعِلْمِ، لَعَلَّمَهُ أَنَّ الْعِصْمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي تَنْجِيهِ هِيَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ.

ثم قال ﷺ: (وقوله مرآته)، إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَدَيْهِ بَوْصَلَةٌ يَحْدُدُ بِهَا الطَّرِيقَ الَّذِي يَسِيرُ فِيهِ، كَيْ يَصِلَ إِلَى مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ، وَهَذِهِ الْبَوْصَلَةُ هِيَ إِتِّبَاعُ مَا يَقُولُهُ الْحَقُّ تَعَالَى: «وقوله مرآته» أَيِ اتَّخِذْ قَوْلَ اللَّهِ مِرْآةً تَرِيهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالرُّشْدَ مِنَ الْغِيِّ، فَتَارَةً يَنْظُرُ إِلَى نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَيْ يَجْعَلَ صِفَاتِهِمُ وَالتَّطْبِيقَاتِ وَالْإِرْشَادَاتِ لَهُمْ سَلُوكًا لَهُ، وَأُخْرَى يَنْظُرُ فِي وَصْفِ الْمُتَجَبِّرِينَ كَيْ يَتَجَنَّبَ صِفَاتِهِمُ وَالْخُصَائِصَ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا الْمُتَغَطَّرُونَ.

ثم قال ﷺ: (فهو من الله تعالى في لطائف)، اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ سَارُوا عَلَى وَفْقِ عِبُودِيَّتِهِ. (وفي نفسه في تعارف)، أَيِ أَنَّ مَعْرِفَتَهُ بِنَفْسِهِ تَهْدِيهِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ يَحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى نَفْسِهِ. (ومن فطنته في يقين)، أَيِ يَعْرِفُ الْحَقَائِقَ وَالْأُمُورَ.

ثم قال ﷺ: (ومن قُدْسِهِ عَلَى تَمَكِينٍ)^(١)، هَذِهِ مِنْ أَرْوَعِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الْمُؤْمِنُ الْحَقُّ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى مُكْنَةِ فِي التَّصَرُّفِ بِقُدْرَاتِهِ الْإِيمَانِيَّةِ، فَلَا يَنْجَذِبُ إِلَى السُّلُوكِ الْمُنْحَرِفِ، وَلَا يَتَّبِعُ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ، بِاعْتِبَارِ وَجُودِ حَالَةِ الْقُدُسِ وَالطَّهَارَةِ لِدَاوَتِهِ وَعَدَمِ تَلَوُّثِهَا بِإِغْوَاءَاتِ الشَّيْطَانِ. وَهَذِهِ النَّصَائِحُ التَّرْبَوِيَّةُ الَّتِي أَسَدَاهَا إِمَامُنَا الْحُسَيْنُ ﷺ هِيَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ.

الدور التربوي للإمام زين العابدين ﷺ

إِنَّ الْإِمَامَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ ﷺ تَمَيَّزَ فِي الْجَانِبِ التَّرْبَوِيِّ وَالسُّلُوكِيِّ وَقَدْ خَصَّصَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْجَانِبِ، وَأَثَرُ عَنْهُ ﷺ كَلِمَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فِي مَجَالَاتٍ شَتَّى، لَعَلَّ بَعْضَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ تُثَمِّلُ لَوْحَاتٍ فَنِيَّةٍ رَائِعَةٍ الْجَمَالَ تُبْدِي السُّلُوكَ التَّرْبَوِيَّ بِصُورَةٍ مُشْرِقَةٍ تُثَمِّلُ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَقِيَمِهِ الْحَضَارِيَّةِ، وَأَهَمُّ النِّقَاطِ الَّتِي طَرَحَهَا الْإِمَامُ ﷺ هِيَ:

(١) نفس المصدر السابق.

الأولى: المبادرة إلى فعل الخير.

قال عليه السلام لابنه وهو يعضه: (افعل الخير إلى كل من طلبه)^(١) فأني إنسان يريد أن تُسدي إليه خيراً وأنت قادرٌ على ذلك فحاول جاداً أن تقدمه له. «فإن كان أهله ذلك الطالب فقد أصبت موضعه» نفس المصدر السابق، أي إذا كان طالب الخير من أهله فقد أصبت موضع الخير، والنبى ﷺ دعا الله بقوله: (اللهم اجعل برِّي في موضعه) فهو ﷺ يعلم بمواضع البر، لكنه يريد أن يعلمنا اختيار أفضل مواضعه.

ثم قال عليه السلام: (وإن لم يكن بأهل - للخير - كنت أنت أهله)^(٢)، إن هذا من روائع كلماته عليه السلام التي يُبين فيها أن الإنسان يمكنه أن يقدم الخير إلى من لا يستحقه، ولا يعني ذلك أن الخير قد ضاع واضمحل، بل يبقى الإنسان مصدراً للخير كالباري تعالى، فيتصف بصفاته تعالى حتى مع من لا يستحق الخير، لأن ذلك يؤثر تأثيراً إيجابياً على الآخرين.

الثانية: المرونة في قبول اعتذار الآخرين.

قال عليه السلام: (وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك واعتذر فاقبل عذره)^(٣)، يرشدنا الإمام عليه السلام إلى التسامح في السلوك مع الآخرين، من أجل تقويم اعوجاجهم، فإذا اعتذر المسيء فذلك دليل على أنه غير متكبر بل يحاول أن يتلافى خطأه، وعلى من اعتذر إليه أن يسهم إسهاماً مؤثراً في رفع مستواه، وانتشاله من خطأه.

الثالثة: حضور مجالس الصالحين.

قال عليه السلام في أحد إرشاداته: (مجالس الصالحين داعية إلى الصلاح)^(٤)، إن من يجالس الصلحاء يتكهرب بصلاحهم، ويكون صلاحهم ورُشدُهم باعثاً لرُشده وصلاحه

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٤١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٤١.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٤١.

(٤) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١، ص ١٤١.

وسينطلق الرشد والصلاح منه عفويًا للتأثير غير المباشر لمجالسته للصالحين، لذا نجد بعض علمائنا يتحرز من الجلوس مع غير الصالحين، وعندما سُئل قال: أخاف أن أتأثر بسلوكهم، اللهم إلا إذا كان الجلوس معهم للموعظة والرشد والهداية.

وقال الإمام عليه السلام: (وآداب العلماء زيادة العقل)^(١)، فمن جلس مع عالم واستمع إلى موعظته وأنصت إلى نصحه واستجاب له، فقد ازداد عقله.

الرابعة: أثر الاستثمار الصحيح للأموال.

ثم قال عليه السلام: (واستثناء المال تمام المروءة)^(٢)، إن استثمار المال في المشاريع الاقتصادية التي تعود بالفائدة على النفس والمجتمع دليل على المروءة وحب الخير للمجتمع.

الخامسة: إسداء النصيحة للآخرين.

ثم قال عليه السلام: (وإرشاد المستشار قضاء لحق النعمة)^(٣)، فمن استنصحك مستشيرًا فحاول جاداً أن توضح له اللوالبس وتشرح له المقاصد بما أفاضه الله عليك من نعم لترفع مستواه وتوصله إلى الحق.

السادسة: عدم الاعتداء على الآخرين.

ثم قال عليه السلام: (وكف الأذى من كمال العقل، وفيه راحة البدن عاجلاً أم آجلاً)^(٤)، إن عدم إيذاء الإخوان من كمال العقل، وثمرته الراحة النفسية التامة التي تنعكس على راحة الجسد.

السابعة: طريقك للوصول إلى الأمن في الآخرة.

قال عليه السلام: (ثلاث من كن فيه من المؤمنين كان في كنف الله، وأظله الله يوم القيامة في ظل عرشه، وآمنه من فزع اليوم الأكبر، من أعطى الناس من نفسه ما هو سائلهم لنفسه)^(٥).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٤٠.



الأمر الأول: أن يُقدم الإنسان الخير للآخرين بمقدار ما يطلب أن يقدموه له، إذ كيف يطلب احترام الآخرين وهو لا يحترمهم؟ إنَّ قاعدة العدل والإنصاف من أهم القواعد في الفقه، ولها تأثير تربوي وسلوكي في مسار الإنسان، والأئمة عليهم السلام يُذكِّرون الناس بها، فمن أراد أن يتعامل معه على وفق الرشد والكمال فليحاول أن يصدر ذلك منه في تعامله الإيجابي.

الأمر الثاني: الذي ذكره عليه السلام (ورجل لم يُقدم يدًا ولا رجلاً حتى يعلم أنه في طاعة الله) ^(١) إنَّ الإنسان لا يُقدِّم على أي عمل من الأعمال إلَّا بعد دراسته له ومعرفة عاقبته ليكون ذلك داعٍ إلى الرشد والسداد، وينطلق من علم ويقين في خطواته، فإذا كان العمل طاعة تقدَّم إلى الأمام، وإذا علم أنَّ العمل يحجره إلى المعصية أحجم مبتعداً عن كل منزلق يؤدي إلى المعصية.

الأمر الثالث: الذي تعرض له الإمام عليه السلام (ورجل لم يُعب أخاه بعيب حتى يترك ذلك العيب من نفسه) ^(٢) هذه سمة رائعة، فالإنسان لا يعيب الآخرين بعيب يتصف به، لأنَّ ذلك داعٍ إلى زيادة العيب والعداوة بينه وبين الآخرين، والإمام عليه السلام يشرح ذلك بشكل جميل ورائع.



قال عليه السلام: (وكفى بالمرء شغلاً بعيبه لنفسه عن عيوب الناس) ^(٣) هذه قاعدة تربوية وسلوكية، فالذي يريد أن يتقدم باطراد في معالي الكمال، لا بد أن يشتغل بعيوب نفسه، ويحاول أن يصلحها سلوكياً قبل انتقاده للآخرين، بل لا يخطو في انتقاد الآخرين إلَّا إذا وصل إلى مرتبة يستطيع من خلالها تقويم سلوكهم ومنعهم من الوقوع في الزيف أو الاعوجاج.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

مكتسبات العيد في الجانب العبودي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٤) **فَيَأْتِي** **ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** (٢٥) **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** (٢٦) **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ** (٢٧) **فَيَأْتِي** ﴿الذاريات﴾، صدق الله العلي العظيم.

أهمية العبادة في حياة الإنسان

تشكل العبادة أمراً فطرياً في كيان الإنسان، وقد أثبتت الدراسات أنه لا يوجد إنسان إلا وقد عبد معبوداً، ويدل ذلك على أن العبادة من الأمور الفطرية التي وجدت مع الإنسان يحتاج إليها كاحتياجه إلى الأكل والشراب والجنس، ولا تستقر شخصيته إلا بها، فهي جزء منها، فالإنسان يعيش ظمأً واحتياجاً لا يُملئان إلا بالعبادة، لذا، كانت محوراً لدعوة الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام.

معنى العبادة:

للعبادة معنيان:

الأول: خاص.

ويأتي بمعنى التهيئة والتمرين فيقال: «عبدتُ الطريق» أي مهدته وأصلحت شأنه ليتمكن من المرور فيه كي يصل الإنسان إلى ما يريده، فالتعبيد والعبودية بمعنى خلق

حالة خاصة في شخصية الإنسان، يتمكن بها أن يصل إلى ما يريد، قال تعالى: ﴿وَكَاُنُوا لَنَا عٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء، ٧٣)، أي أنّ الأنبياء يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون ويحجّون ليعبدوا الله تعالى عبادة بالمعنى الخاص.

الثاني: عام.

وهو الانسياق والسير على وفق نظام محدد يُوصل الإنسان في كل حركاته واتجاهاته وأفعاله وأقواله وما يصدر عنه إلى هدف محدد، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر، ٩٩)، والعبادة هنا ليست بالمعنى الخاص، بل بالمعنى العام الذي تكون فيه أعمال الإنسان كلها لله تعالى حتى يصل إلى مرتبة اليقين. وهذا المعنى للعبادة يُركز على السعي، الذي يتطلب تمهيداً وتوطئة من خلال العبودية بالمعنى الخاص، إذ الإنسان لا يمكنه أن يصبح عابداً بالمعنى العام - ويسير في الاتجاه الذي كان عليه الأنبياء والرسل والذي بينه قوله تعالى: ﴿وَكَاُنُوا لَنَا عٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء، ٧٣) - إلا من خلال العبادة بالمعنى الخاص.

تلازم العبادة بالمعنى الخاص والعام

إنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، ٥٦) طُبّق من الأئمة عليهم السلام على بعض المعاني، قال الإمام الصادق عليه السلام: أنّ الإمام الحسين خطب أصحابه فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»^(١) وقال عليه السلام أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦): «خلقهم للعبادة»^(٢)، وسمى سيدنا العلامة الطباطبائي - رحمه الله - ذلك بالجرى في التفسير، وله شواهد في كلام إمامنا الصادق عليه السلام، فقد طُبّق عليه السلام الآية السابقة على بعض المعاني، فقال في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، ٥٦) (أي ليعرفون)، ثم قال

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٢٢٣.

ﷺ: (وكيف تعبد رباً لم تره؟ وكيف تعبد رباً تجهله؟)، إذن لا يمكن للإنسان أن يعبد مجهولاً، بل لابد أن يعبد معلوماً بنحو ما من العلم والمعرفة، وقوله ﷺ: (أي ليعرفون) بيان لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات)، وفيه انسجام وتلاق، لأن المعرفة مفردة من مفردات العبادة، أي أن العبودية لله تعالى في معناها العام تتطلب معرفة لله، والمعرفة تتطلب عبودية له تعالى، ولا يتاح للإنسان أن يتعرف على الله تعالى دون عبادة، فالمعرفة الحققة تستدعي من الإنسان أن يكون عابداً لله تعالى. من هنا جاءت تأكيدات متكررة في آي القرآن الكريم والأحاديث الواردة عن المصطفى ﷺ والأئمة من أهل البيت ﷺ تخص الإنسان على العبادة لله تعالى، خصوصاً في شهر رمضان الكريم، فقد وردت أوامر استحبابية تحث المؤمن على أن يصلي في شهر رمضان ألف ركعة، وهناك تأكيدات متعددة على الصلاة مائة ركعة في كل ليلة من ليالي القدر، بالإضافة إلى الأدعية والأذكار التي تشرح ما ينبغي للمؤمن أن يقوم به في عبوديته لله بالمعنى الخاص، أي الممهّد لعبودية الإنسان بالمعنى العام، وإذا استطاع المرء أن يكون عابداً لله تعالى بالمعنى الخاص تمكن أن يكون عابداً لله بالمعنى العام، فهناك تلازم بين العبوديتين، أما إذا كان الإنسان غير عابداً لله بالمعنى الخاص فلن يتمكن من العبودية بالمعنى العام، لأنه سوف يتعثّر في خطاه ويضل الطريق، ولن يصل إلى الغاية.

إنّ تتبع سيرة المصطفى ﷺ والأئمة ﷺ في شخصياتهم يجسد المصداق الأمثل في العبودية لله تعالى، نقرأ في سيرة النبي ﷺ أنه كان شديد التأثر في عبوديته لله تعالى، حتى خاطبه الحق تعالى: ﴿طه﴾ ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه)، وأوضح القرآن الجهد الكبير الذي يبذله النبي ﷺ في عبوديته لله بالمعنى الخاص ليرسم صورة ذات أبعاد متجذرة في العبودية لله بالمعنى العام، ولا يُتاح ذلك إلا لمن سار إلى الله تعالى بالعبودية بالمعنى الخاص. وإذا لم يستشعر الإنسان أنّ الله تعالى حاضر وناظر على أفعاله وأقواله، فلن يتاح اجتناب الظلم، وإذا لم يدرك عظمة الله تعالى فلن يتاح له أن لا يتكبر على أخيه الإنسان، إنّ الإنسان إذا لم يلتفت إلى أنّ ما لديه من نعم من عند الله



تعالى فإنه سيعصي الله تعالى بنعمه التي وهبها له.

دور النبي ﷺ في تجسيد معنى العبودية

جسد النبي ﷺ الجانب العبودي في شخصيته، وكان في شهر رمضان المبارك يُولي أهمية فائقة للاعتكاف وقيام الليل في العشر الأواخر، فلا ينام الليل تلك الفترة من أجل أن يرسم ﷺ طريق العبودية لله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وهكذا كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من أهل البيت عليه السلام.

آثار العبودية الخاصة لله تعالى

للعبودية الخاصة آثارٌ متعددة:

الأول: الاستقرار والاستقامة.

هناك ترابط بين مفردات العبادة، فمن صام وقرأ القرآن، وُفق لحفظ جوارحه، ومن صام وذكر الله كثيراً وُفق لفعل الخير، ومن اعتكف وصام وقام الليل بعض ليالي الشهر قُرب من الحق تعالى وتألّق ذلك أنّ التالي في العبادات سوف يصنع منه شخصية إلهية مستقيمة تراعي حقوق الإنسان بل لديها مراعاة لحقوق كل شيء في الكون فضلاً عن الإنسان، وبذلك يتحول إلى ملاك في تعامله مع أخيه الإنسان.

الثاني: العدالة.

وهي أثر اجتماعي جدهام، أي أنّ العبودية من آثارها التي تنعكس على شخصية الإنسان الاطمئنان، فيعيش مستقراً لكونه يستشعر وجود الله تعالى في كل حالة من حالاته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، وتتجلى هذه المعية لمن اتصل بالله تعالى، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه أو قبله أو



معه^(١) إِنَّ هذه المعية الخاصة، لا يصل إليها الإنسان إلا إذا كان عابداً بالمعنى الخاص، وعندئذ يترتب عليها العدالة. وهي المطلب الأسمى إذ كانت دعوات الأنبياء هدفها أن يكون الإنسان عادلاً مع نفسه ومع أخيه الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، وأثر الصوم التقوى إذ الصائم عابد بالمعنى الخاص، وتنعكس عبادته على نفسه وغيره فيتحقق أثر اجتماعي كبير - العدالة -.

الثالث: الولاية لله تعالى.

إِنَّ من آثار العبودية بالمعنى الخاص الولاية لله تعالى، فإذا تدرج في عبوديته يصبح ولياً لله تعالى، محبوباً له، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)، وتحقق هذه المرتبة من خلال سيره في العبودية الخاصة التي أوضحها الروايات، جاء في الحديث القدسي: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به)^(٢)، فيصبح فعل الإنسان فعل الله تعالى، وذلك بتسديده تعالى له، قال تعالى في حق النبي ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال: ١٧)، فرميته ص رمية الله تعالى، لكونه يجسد كلا المعنيين للعبودية - الخاص والعام - ولا يمكن لغيره أن يعبد الله تعالى كعبادته ﷺ، لأن عبوديته انصهار وذوبان في ذات الحق تعالى فلا يرى لنفسه وجوداً.

أبعاد المعرفة الحقة لله تعالى

إِنَّ الأثر الذي يترتب على عبودية الإنسان لله تعالى بالمعنى الخاص وصوله إلى مرحلة الولاية، فيكون ولياً لله تعالى، وإذا أصبح ولياً لله أجرى الله تعالى الخير وقضاء الحوائج وكل ما يريده تعالى أن يتحقق للخلق على يد العابد. فيستجيب دعاءه ويقبل ثناءه فيكرمه بولايته لله تعالى، إذ أَنَّهُ حقق هدف الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

(١) موسوعة العقائد الإسلامية للريشري: ج ٣، ص ٧٥.

(٢) جامع السعادات للزراقبي: ج ٣، ص ١١٦.

أَلْحَنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ (الذاريات)، ولا بد أن نتعرف على المعاني الكبيرة التي تضمنها النص القرآني من المعرفة لله تعالى، وما يترتب على العبودية بالمعنيين الخاص والعام من آثار طيبة ومباركة، والتي منها أن يكون الإنسان مستبشراً فرحاً فهو في عيد دائم، وقد جاء هذا المعنى في كلام علي عليه السلام، قال: (وكل يوم لا يُعصى الله فيه فهو عيد)^(١) فيعيش فرحاً مستبشراً إذا لم يعص الله تعالى.



(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١٠٠.

الاستعداد لشهر رمضان

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (القدر).

وقال تبارك وتعالى أيضاً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة) صدق الله العلي العظيم.

وقال نبينا ﷺ: (شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات، شهر دعيت فيه إلى ضيافة الله وجعلتم فيه من أهل كرامته) ^(١) صدق المصطفى ﷺ.

هذه الخطبة التي استعرضنا شطراً منها، من الخطب الجميلة والعظيمة التي خطبها النبي ﷺ في آخر جمعة من شعبان، لينبه المسلمين فيها إلى أهمية العمل الصالح في شهر رمضان، ودوره في التكامل المعنوي لشخصية الصائم، ونشير هنا إلى بعض التنبيهات التي لها مدخلة في قبول الأعمال والاستفادة القصوى من شهر رمضان المبارك.

الاستعداد الحقيقي لشهر رمضان

هناك أجندة عمل ترتبط بما قبل شهر رمضان تمثل استعداداً وتهيئة للإنسان كي

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١١٧.

يوفق للإفاضات الروحية في هذا الشهر، وقد أشارت الروايات إليها نستعرض أهمها على التوالي:

الأول: التخلص من العهد التي في الذمة.

تؤكد الروايات على أهمية التخلص من العهد والمسؤوليات المناطة بالإنسان مع أخيه الإنسان أو مع الله تعالى استعداداً لشهر رمضان من ناحية، قال الإمام الرضا عليه السلام: (ولا تدعن أمانةً في عنقك إلا أديتها)^(١) إنَّ بعض الناس يطالبه الآخرون بديون أو ببعض الاستحقاقات غير المالية، ولا بد له كي يحصل على بركات الشهر أن يتخلص من العهد قبل شهر رمضان بفك الارتباطات التي ارتبط بها مع الآخرين، خصوصاً في الجانب المالي، فإذا كان مطالباً بدين عليه أن يفي به للدائن أو يستميحه في إرجاء دينه ويطلب منه مهلةً من الوقت للوفاء به، إنَّ التخلص من الحقوق المالية يؤثر تأثيراً بالغاً في قبول الطاعات والأعمال في شهر رمضان كما يظهر ذلك من الروايات.

الثاني: التعرف على أهمية شهر رمضان.

إنَّ معرفة الخصوصيات التي امتاز بها الشهر معنوياً لها الدور الفائق في تهيئة الإنسان واستعداده لهذا الشهر، ذلك أنَّ الإنسان إذا علم بأهمية شيء تحرك تجاهه مستعداً له، أما إذا كان لا يعلم بأهميته ولم يعرفه فلن يبدي تجاهه مبالاة ولن يوليه الأهمية المناسبة له، لذا نحترم من يستحق الاحترام إذا علمنا به، فالعالم الكبير إذا كنا نجعل مقامه ولا نعرف شخصيته، لن نوليه الاهتمام المناسب مع علمه وشخصيته، وكذلك الزائر إذا كنا لا نعرفه فلن نوليه اهتماماً يتناسب مع شخصيته، والعكس من ذلك إذا كنا نحيط بشيء من صفاته كعلمه أو وجاهته أو ثقافته فإننا سوف نبدي مزيداً من الاهتمام والعناية به والأعمال المعنوية التي يقوم بها الإنسان في شهر رمضان إذا أدرك أهميتها سوف يستعد لها بما يتناسب مع عظمتها.



(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٤، ص ٧٣.

الثالث: الورع عن محارم الله تعالى.

إنَّه في غاية الأهمية وقد يتناساه الإنسان ويتوجه بجهد طاقته إلى الأعمال العبادية والطاعات الظاهرية غافلاً عن روحها وحقيقتها المتمثلة في الورع عن محارم الله تعالى، والروايات أفصحت عن ذلك، ورد أن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال في شهر رمضان، فقال ﷺ: (أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عز وجل)^(١) ذلك أن ممارسة المحظورات والمحرمات توجب إحباط العمل، خصوصاً الكبائر كالغيبة، والنميمة، واللواط، والزنا، فالآثام الموبقة تحجب الطاعات والقربات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة)، وعليه لابد من السعي الحثيث للتخلص من المحظورات والمحرمات التي توجب إحباط ما يأتي به الصائم من أعمال صالحة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان) والآية تبين أن الأعمال لا قيمة لها، إذا لم تتحقق شرائط قبولها أما إذا حقق المرء تلكم الشرائط وتخلص من المعاصي والذنوب، فإنه سوف يحصل على التوفيق الإلهي، ويجني رضا الحق تعالى.

الرابع: الاستثمار الحقيقي للوقت في الطاعات.

إنَّ عمر الإنسان محدود بأجل معين ينقضي تدريجياً، وكل ثانية ودقيقة وساعة ويوم منه تنقضي ينقضي معها أجله وينتهي بها عمره، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (العمر تفنيه اللحظات)^(٢) ولا بد للإنسان من الاستفادة من الزمن المحدود، وانتهاز الفرص الخاطفة لاستثمارها بنحو صحيح، يتوافق مع رضا الله تعالى، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (إِنَّ أَنْفَاسَكَ أَجْزَاءُ عُمْرِكَ فَلَا تُفْنِهَا إِلَّا فِي طَاعَةٍ تُزَلِّفُكَ)^(٣) إنَّ من استفاد من عمره في العبادة، والمواظبة على قراءة القرآن، والطاعة لله تعالى لم يخسر عمره، بل ربحه ونجح معنوياً على جميع الصُّعد، خصوصاً إذا قضى شطراً من عمره

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١١٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم للواسطي: ص ٣٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم للواسطي: ص ١٤٩.

في قراءة القرآن، وفهم أسراره واستيعاب معانيه أو بذل عمره خدمة للمجتمع أو بر والديه، فإنه ربح الوقت واستثمره استثماراً حقيقياً واستفاد منه فيما يرضي الله تعالى، وبعض الأزمنة أولى بالاستثمار من بعضها الآخر، وقد أوضح القرآن الكريم معادلة ترتبط بشهر رمضان هي أن الإنسان يمكنه أن يستثمر عمراً ينوف على ثلاث وثمانين سنة في طاعة الله تعالى، فيربح عمراً كاملاً في ليلة واحدة تلك هي ليلة القدر، قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر)، والآية تؤكد أن العمل في ليلة القدر أفضل منه في ثلاث وثمانين سنة، إذا قُدر للإنسان أن يعيش ذلك، إن من يكدح جاهداً ليحصل على مليون ريال في سن التقاعد، فإنه إذا حصل عليه في فترة قصيرة مع توافر الشروط، فقد حقق آماله في زمن قياسي وسيتيح له ذلك استثمار أمواله، والتعامل بأخلاقية فائقة وسوف يُقدم على ذلك العرض، لأنه حقق أحلامه وطموحاته في فترة زمنية قصيرة. وهذا ما ينطبق على من يريد الوصول إلى مراتب الكمال المعنوي، فإنه بإحيائه ليلية القدر سيتمكن من اختصار المسافة الطويلة، وتحقيق الاستثمار الحقيقي للوقت، إذا توافرت الشروط لديه بترك الحرام، وأداء الواجب، فإن قبول الأعمال الصالحة مشروط بأداء الصلاة وبر الوالدين، وتقوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة)، وقد أكد المصطفى ﷺ أن من ذكر الله تعالى كمن غرس شجرة في الجنة، وسمعه بعض الصحابة، فقال: إن شجرنا لكثير، فقال ﷺ: ﴿نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها﴾، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد) (١) إذن لا بد من الاستعداد لهذا الشهر لنيل ما أعده الله تعالى من الفضل للصائمين، قال ﷺ: (شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامته) (٢)، إنه تكريم من الله تعالى للصائمين عندما يحقق شرائط الفيض الإلهي.



(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٤٣٤.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١١٧.

البعد المعنوي في سمات قارئ القرآن

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد) صدق الله العلي العظيم.

خصائص قارئ القرآن

استعرضت النصوص الإسلامية آداباً لقارئ القرآن، وركزت على بعض الخصائص والسمات التي يجب أن تتوافر فيه، وأن من يريد أن يكون من أهل القرآن عليه تحقيق تلك الخصائص:

الأولى: الخشية من الله تعالى.

الخشية من الله تعالى من أهم الميزات التي يستقيها القارئ من القرآن، ويعود ذلك لتأثير القرآن الكريم على الموجودات، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر)، والروايات ركزت على هذه السمة، سئل النبي ﷺ عن أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فأجاب ﷺ: (من إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله) ^(١)، وهو ﷺ ميز قارئ القرآن الكريم بهذه السمة الرائعة، ذلك أن قراءة القرآن توجب الخشية من الله

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٥٢٥.

تعالى، وهي كالصلاة والعلم يجلبان الخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨) (فاطر).

الثاني : التخلق بأخلاق القرآن.

إن القرآن الكريم كتاب هداية ومنهج حق لمن سار على إرشاداته وتوجيهاته. وواظب على تلاوته، وعندئذ لا بد أن يتأثر به مستفيداً منه، قال ﷺ عندما سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (البقرة: ١٢١)، إنه (يتبعونه حق اتباعه) ^(١) ذلك أن حقيقة التلاوة تكمن في الاستفادة من القرآن في الناحية سلوكاً، والتخلق بأخلاقه، اقتداءً بالنبي ﷺ فعندما سُئِلت بعض أزواجه عن خلقه ﷺ، قالت: (كان خلقه القرآن) ^(٢) فأخلاقه ﷺ وسلوكه منبثقان من القرآن، ولا بد لقارئ القرآن أن يكون خلقه وسلوكه على وفق ما جاء به القرآن من مفاهيم وتعاليم.

الثالث: التحذير من الاستخفاف بالدين.

حذر النبي ﷺ من قراءة القرآن التي توجب الاستخفاف بالدين، فقال ﷺ: (أخاف عليكم استخفافاً بالدين، وبيع الحكم، وقطيعة الرحم، وأن تتخذوا القرآن مزامير) ^(٣) أي تلحنون بالقرآن، ذلك أنه يمكن أن تُؤدوه وتتلوه بقراءة رائعة دون أن يختل الواقع المضموني للقرآن، قال النبي ﷺ: (اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسوق وأهل الكبائر) ^(٤).

الرابع: عدم استغلال القرآن للمصالح الشخصية.

ينبغي لقارئ القرآن أن يتصف به وأن يسعى للأهداف العامة التي يريد بها القرآن،

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٥٢٦.

(٢) مسند أحمد لأحمد بن حنبل: ج ٦، ص ٩١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٧، ص ٣٠٨.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٦، ص ٢١١.

غير أننا نلاحظ اتجاهاً سائداً في البشرية يتمثل في اتخاذهم القيم والمثل ومنها القرآن طريقاً للعبور إلى المآرب الدنيئة، وقد أشارت الروايات إلى سوء استغلال القرآن، قال عليه السلام: (ومن قرأ القرآن يريد به سمعة والتماس الدنيا لقي الله يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم)^(١)، مثال كنائي يُبين الشكل المرعب والمخيف الذي يكون عليه قارئ يوم القيامة عندما يصبح هيكلاً عظيماً، ينفر الآخرون منه ويتعدون عنه، وأشار عليه السلام إلى بُعد قارئ القرآن إذا قرأه لغير الله تعالى، فقال عليه السلام: (رُبَّ تال للقرآن والقرآن يلعنه)^(٢)، إنَّ القرآن الكريم موئلاً لنزول الرحمة الإلهية واستمطاراً للغيث إذا قرأ الله إلاَّ أنه يصبح لعنةً وطرداً من رحمته إذا كان لغيره.

أصناف قراء القرآن

إنَّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام تبعاً لجدهم المصطفى عليه السلام صنفوا قراء القرآن وبينوا لنا ما ينبغي أن يكون عليه قارئ القرآن بلحاظ الغاية والهدف، ومن أروع وأجل الروايات ما ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام: (القراء ثلاثة):

الأول : القارئ الذي يستدر الشخصيات الكبيرة.

(قارئ قرأ القرآن ليستدر به الملوك ويستطيل به على الناس فذاك من أهل النار)، الهدف مشخص وواضح، والغاية من قراءة القرآن هي أن يستدر به الشخصيات الكبيرة؛ كي يرفعوا من مكانته بواسطة قراءة القرآن، لذا قال الإمام عليه السلام: (ويستطيل به على الناس فذاك من أهل النار)، فجزاؤه ونهايته هي النار.

الثاني : القارئ للقرآن من دون تطبيق لحدوده.

ثم قال عليه السلام: (وقارئ قرأ القرآن فحفظ حروفه وضع حدوده)، وهذا قارئ

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٦، ص ١٨٤.

(٢) مستدرک الوسائل للنوري: ج ٤، ص ٢٤٩.



يستطيع أن يأتي بالقراءة وفق الضوابط التي يطرحها علماء التجويد ولديه الأداء والترتيل الممتاز، لكنه من ناحية التطبيق للقرآن الكريم على العكس من ذلك لا يطبق ما يقرأه. ولقد سمعت في بعض الإذاعات حواراً مع بعض القراء للقرآن تحدث فيه عن حجاب المرأة، وفسر بعض الآيات القرآنية كما يريد، ثم بين أن آيات القرآن لا تقول بوجوب الحجاب، وإنما توجهه بعض الروايات الموضوعية أو الضعيفة، وينطبق على هؤلاء كلام الإمام عليه السلام: (فحفظ حروفه وضع حدوده)، فهو حافظ للقرآن، وبإمكانه قراءته على أكمل وجه، لكنه لا يفقه مضمونه ومفاهيمه العالية، وقد يلتبس على عامة الناس، خصوصاً الجيل الحديث الذي يُصغي إلى ما يُطرح من فكر في القنوات الفضائية والنت، فيؤثر عليه ظهور أمثال هؤلاء القراء بآرائهم الشاذة، وربما كانت تلك الشخصية ميزاناً لصحة بعض التصرفات عند البعض، لذا، حدد الإمام عليه السلام أن مصير هذا الصنف هو النار.

الثالث: القارئ للقرآن المطبق لحدوده.

ثم قال عليه السلام: (وقارئ قرأ القرآن فاستتر به تحت برنسه) نحو من الكناية، لأن الاستتار تحت البرنس - قلنسوة طويلة توضع على الرأس ملتصقة به - نظير قولنا عضّ عليه بنواجذه؛ أي تمسك به مطبقاً لحدوده، على النحو الأكمل، وأشار الإمام عليه السلام إليه بقوله: (فهو يعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه، ويقوم فرائضه ويحل حلاله ويحرم حرامه).

آثار خاصة لقارئ القرآن

ويشير الإمام عليه السلام في الحديث إلى الآثار الوضعية المترتبة على من يقرأ القرآن مطبقاً لحدوده.

الأول: النجاة من الفتن المضلة.

قال ﷺ: (فهذا من ينقذه الله من مضلات الفتن)، الإنسان في الدنيا معرض للافتتان والابتلاءات الكثيرة التي تحقق دينه، لكنه يستطيع أن يحفظ دينه بالتزامه وسيره وفق الشريعة .

الثاني: استحقاق الجنة.

ثم قال ﷺ: (وهو من أهل الجنة)، أي، إن حياة مثل هؤلاء السائرين وفق نهج القرآن تختم بالسعادة الأبدية.

الثالث : الشفاعة للآخرين.

ثم قال ﷺ: (ويشفع فيمن شاء)^(١)، أي أن له حق الشفاعة، كالأنبياء والرسل، مما يشير إلى مكانته الرفيعة عند الله تعالى.

الرابع : التحصن من بلاء الدنيا.

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ يضيف فيها إلى آثار القرآن الثلاثة أثراً رابعاً، فيقول: (يُدْفَعُ عَنْ قَارِئِ الْقُرْآنِ بَلَاءُ الدُّنْيَا)^(٢) أي أن الابتلاءات التي يمر بها الإنسان في الدنيا كالزلازل والأمراض ومصاعب الحياة والوضع الاقتصادي المتدني وغير ذلك مما يصاب به الإنسان نتيجة لبعض العثرات والذنوب، كما أكد ذلك القرآن الكريم، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۖ﴾ (الشورى)، فإن الله تعالى يعفو ويمنع من نزول البلاء بواسطة أسباب متعددة، كالطاعات، والأعمال الصالحة التي تدفع الآثار السلبية للذنوب والعثرات، وفي مقدمتها، التمسك بالقرآن نهجاً وسلوكاً. ثم إنه ﷺ تعرض لأثر قراءة القرآن على

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٥٣٠.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٥٣١.



المستمع فقال ﷺ: (يُدفع عن مستمع القرآن بلاء الآخرة)^(١) وهذا الأثر ليس لكل مستمع، وإنما المستمع المطبق لحدود القرآن، لذا، قال ﷺ: (من استمع إلى آية من كتاب الله كُتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلا آية من كتاب الله كانت له نوراً في يوم القيامة)^(٢) أي، يستمع للتلاوة ويطبق فيها حدود القرآن.



(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج٣، ص ٢٥٣١.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج٣، ص ٢٥٣١.

شهر رجب مدرسة التقوى وحسن الخلق

ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام في أدعيته لشهر رجب: (يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، لكل مسألة منك سمع حاضر وجواب عتيد)^(١).

طريق السعادة للإنسان

شهر رجب شهر فضيل، وهو أحد الأشهر الحرم، ويتم فيه ترسيخ القيم والمثل في الجانب المعنوي لشخصية الإنسان، فالإنسان يعيش أمواج الابتلاء التي لا حدود لها ولا يستطيع الأمن والخروج فائزاً من الابتلاءات المحيطة به إلا إذا فهم ما ينبغي عليه القيام به للوصول إلى السعادة، وقد ركز القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام على محورين أساسيين :

الأول: الارتباط بالله تعالى.

فالارتباط بالله يمنح الإنسان أمناً من كل مكروه، وتجاوزاً لكل عقبة وإحرازاً لكل نجاح، والارتباط بالحق تعالى يتحقق عبر وسائل متعددة، خصوصاً في الأزمنة المباركة، التي أبان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فضلها، كشهر رجب فقد ورد أنه شهر أمير المؤمنين عليه السلام كما أن شهر شعبان شهر النبي ﷺ وشهر رمضان شهر الله، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يصوم رجباً، ويقول: (رجب شهري، وشعبان شهر

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين (أبوظبي) للإمام زين العابدين عليه السلام : ص ٢٠٠.

رسول الله، وشهر رمضان شهر الله عز وجل^(١).

ولعل هناك تناسب بين هذه الأشهر الثلاثة، فالإمامة طريق إلى الرسالة، والرسالة طريق إلى الحق تعالى، والوصول إلى الحق فوز وظفر في عالمي الدنيا والآخرة، وقد أكد الأئمة عليهم السلام في هذا الشهر على عمل الخير بنحو عام، وعلى مفردات خاصة من الأعمال تربط بالله تعالى، نذكر بعضها:

الأولى: الصوم. وقد أكدت أحاديث أئمتنا عليهم السلام على أهمية الصوم في شهر رجب، قال الإمام الكاظم عليه السلام: (ومن صام يوماً من رجب تباعدت عنه النار مسيرة سنة، ومن صام ثلاثة أيام وجبت له الجنة)^(٢) ويحسن إلفات النظر إلى أنّ كل عمل من الأعمال له شروط، فلا يمكن أن يكون الصوم محققاً لأثره مع اقتراف القبيح، فمن يريد الجنة وهو يقترب الذنوب ويأتي بالمستحبات، وظنه أنّ المستحب سبب تام لدخول الجنة فهم متوهم، لأنّ الأمر ليس كذلك، فهذه الأعمال المستحبة لها شروط، وحتى الولاية لأهل البيت عليهم السلام لا تُدخل الجنة دون تقوى الله، كما ورد عن أئمتنا عليهم السلام، فلا ينبغي أن نفهم الأحاديث بنحو خاطئ، فنتصور أنّ الصوم وإن اقترن باقتراف القبيح يُدخل الجنة، فالصوم وتقوى الله يُؤثران في صفاء النفس وجعلها برة طاهرة، محبة للخير، سائرة في صراط العزيز الحميد، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧٧﴾ (الفاتحة)، فالثواب الوارد على الأعمال في الروايات له تفسيران:

الأول: أنّ القيام بهذه الأعمال عامل موفق للتوبة، والسير في صراط الله تعالى، والاقتداء بالصالحين.

الثاني: أنّ معنى من صام ثلاثة أيام دخل الجنة أو وجبت له الجنة مشروط بالالتزام بما أوجب الله عليه، وترك ما نهى عنه.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٤٨٠.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٤٧٣.



الثانية: الدعاء والارتباط بأهل البيت عليه السلام من خلاله. وهو ما أوامناً إليه من أن شهر رجب شهر أهل البيت عليه السلام، لذا رُبط الدعاء بهم لأمر جدّ هام، وهو تذكير الإنسان بالقدوة الحسنة، ففي الأدعية الواردة في شهر رجب رُبط الدعاء بأهل البيت عليه السلام للتوسل بهم، (اللهم أني أسالك بالمولودين في رجب محمد بن علي الثاني وابنه علي بن محمد المنتجب، وأتقرب بهما إليك خير القرب، يا من إليه المعروف طُلب، وفيما لديه رُغب، أسالك سؤال معترف مذنّب قد أوبقته ذنوبه، وأوثقته عيوبه، فطال على الخطايا دؤوبه، ومن الرزايا خطوبه يسألك التوبة وحسن الأوبة، والنزوع عن الحوبة، ومن النار فكاك رقبته، والعفو عما في رقبته، فأنت يا مولاي أعظم أمله وثقته^(١)) وهذا الدعاء فيه توسل بإمامين عظيمين من أئمة أهل البيت عليه السلام، ويعطي معنى عميقاً، يُذكر بمن جسد العبودية الحقّة لله تعالى سلوكاً واستقامة، والتوسل بأهل البيت عليه السلام يُحقّق الاندماج المعنوي والروحاني بهم، وبذلك يتحقّق الاقتداء بسلوكهم، فالتوسل بهم ع فيه معانٍ سامية، منها ما نقرأه في بعض الأدعية، (اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاية أمرك المأمونون على سرك المستبشرون لأمرك الواصفون لقدرتك المعلنون لعظمتك، أسألك بما نطق فيهم من مشيتك فجعلتهم معادن لكلماتك^(٢)) فهذا الدعاء يبين عظمة أهل البيت عليه السلام من ناحية، ويربط المؤمن بهم من ناحية أخرى، فتوثق علاقة المؤمن بالحق تعالى من ناحية ثالثة، فلا غنى للإنسان عن مبدأ القدوة، الذي يتأتى بتتبع سيرة الشخصيات العظيمة المتمثلة في محمد وآله الكرام، فالأدعية الواردة في رجب، يريد بها الأئمة عليه السلام أن يركزوا في الذهن الربط الدائم بالحق تعالى من خلال مبدأ القدوة، المجسد في الطيبين الطاهرين، والسالكين الواصلين للباري تعالى، وهذا معنى جدّ عظيم، فالمرتبط بغير الكامل ينحرف، فالأمان يحصل بالاقتداء بهم كما أكد عليه المصطفى صلى الله عليه وآله، (أنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي،

(١) المصباح للكفعمي: ص ٥٣٠.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٥، ص ٣٩٣.

وأنها لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض^(١) وإذا ارتبط الإنسان بالله تعالى عبر هاتين الركيزتين اللتين تدعوان لكل عمل صالح من الصوم والدعاء بالأدعية الجامعة لشؤون الإنسان الدنيوية والأخروية، (يا من أرجوه لكل خير، وآمن سخطه من كل شر، يا من يعطي الكثير بالقليل، يا من يعطي من سألته، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة، أعطني بمسألتني إياك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة، واصرف عني بمسألتني إياك جميع شر الدنيا وشر الآخرة)^(٢).

الثاني: حسن الخلق مع الناس.

إنّ الإنسان إذا ارتبط بالله تعالى وصل إلى الكمال وانعكس ذلك على سلوكه فحسّن خلقه، وأحبّ الخير للناس، فالكامل من سماته حُبُّ إيصال الغير إلى الكمال، الذي وصل إليه، والمرتبط بالله تعالى يكون عظيماً في أخلاقه، وعظيماً في حُبِّه للآخرين، وعظيماً في المجالات المتعددة، وهذا أمر غاية في الأهمية، في عصرنا الحديث، إذ أنّ الكثير من الأخلاق تبتني على المصلحة والمنفعة فحسب، بيد أنّ المنهج الإسلامي لا يبنّي الأخلاق على الجانب النفعي فقط وإنّ ترتب النفع بنحو طبعي على الخلق، لكن الإسلام يجعل الأخلاق وحب الخير يرتبطان بمن ارتبط بالحق تعالى، وبذلك تترتب فوائد جمّة.



العلاقة بين الارتباط بالله والخلق الحسن

ذكرنا آنفاً ما يؤكد على أهمية الأخلاق من خلال الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت ، وهذا لا يتحقق إلّا إذا كان المحور الأول - الارتباط بالله - قوي ومتين لدى الإنسان، فتصبح الأخلاق سجيّةً، فالسماحة والندى والكرم والبشر سجايًا من طبع الإنسان لارتباطه بالله تعالى، قال الإمام الصادق : (لا

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٧، ص ٣٤.

(٢) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٣١١.

عيش أهنأ من حسن الخلق^(١).

طريقة النبي ﷺ في تقويم السلوك

النبي ﷺ له طريقته الخاصة في تقويم السلوك المعوج، وهو ما نجده في تعامله مع الآخرين، فقد روي عن أنس بن مالك قوله: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين، والله! ما قال لي: أفأقط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا)^(٢)، الإنسان قد يخطئ في بعض تصرفاته بيد أن الطريقة الصحيحة في علاج الغلط هو ما كان يفعله النبي ﷺ فلا يقول: لماذا صنعت هذا الخطأ؟ ولا يُعَنِّف، بل، يُعَلِّم الناس تلافي الغلط، والعمل بمكارم الأخلاق، ويتعلم الطرف الآخر بنحو طبعي ما ينبغي له أن يصنع، وكان المصطفى ﷺ يقول: (سوء الخلق شؤم)^(٣)، فهذه الروايات تنفر الناس من الخلق السيئ، وقال ﷺ: (أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق)^(٤) فحسن الخلق يجذب الناس إلى تقوى الله والارتباط به تعالى، وهي حالة معنوية توجب حُبَّ الآخرين وإيصالهم إلى الخير.

فوائد حسن الخلق

وتترتب على حسن الخلق فوائد لا عدَّ لها، كسعة الرزق وإدخال السرور على الآخرين، فالإنسان الكامل يجذب الآخرين ويشعرهم بالارتياح تجاهه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (حسن الأخلاق يدر الأرزاق ويؤنس الرفاق)^(٥) فمن أراد سعة الرزق وأنس من يسايره به وشعوره بالارتياح والاطمئنان النفسي تجاهه، لأنه لا يرى ضرراً منه، بل يرى الخير، فعليه بحسن الخلق، فهو سمة الصالحين.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٧٩٩.

(٢) ميزان الحكمة: ج ١٠.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٢.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٤٢٦.

(٥) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٥.

الاستعداد الروحي في شهر رجب

في هذا الشهر الفضيل - رجب - نهى أنفسنا لشهر شعبان، الذي يهيؤنا لشهر رمضان، فنحصل على تكامل بالأدعية والصوم والصدقة وكثرة الاستغفار والذكر لله تعالى.



شعبان شهر الرقي والكمال المعنوي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ (نوح).
صدق الله العلي العظيم.

أثر أعمال شهر شعبان

شهر شعبان شهر رسول الله ﷺ، ولا بد أن نذكر أنفسنا بأهمية بعض الأعمال الواردة في هذا الشهر الفضيل، بفهم ركز عليه أهل البيت ، يظهر من خلال الجمع بين الأعمال الواردة والتوجيهات الأخلاقية لهم ، وحتى نفهم التأثير الإيجابي لما ورد من أعمال لا بد أن لا نقرأ العمل وحده، وإنما ننظر إليه مع ما ورد من توجيه أخلاقي عن أهل البيت .

أهم مستحبات شهر شعبان

في شهر شعبان وردت مجموعة من الأعمال جد هامة، وذات تأثير عظيم على الإنسان، فرداً كان أو مجتمعاً، أهمها أمران:

الأول: الاستغفار.

الاستغفار في اللغة: طلب المغفرة من الله بالستر على الذنوب والخطايا، ومعنى ذلك أن المستغفر يجد كادحاً في تغطية عيوبه طالباً من الله تعالى أن يغفر له، ويحاول

أن يتلافى الأخطاء كي لا تصدر منه في المستقبل، ويقلل التأثير السلبي للذنوب التي صدرت منه في الماضي، ويتلافها بأعمال تُغطي على تبعاتها، هذا معنى الاستغفار كما ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام.

الثاني: الصدقة.

وهي من الأعمال الواردة في شهر شعبان، فقد ورد أنَّ الإمام الصادق عليه السلام سئل عن أفضل الأعمال في هذا الشهر فأجاب عليه السلام: (الصدقة والاستغفار) فعن داود الرقي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن صوم رجب؟ فقال: أين أنتم عن صوم شعبان؟! فقلت: ما ثواب من صام يوماً من شعبان؟ فقال: الجنة والله، فقلت: ما أفضل ما يفعل فيه؟ قال: الصدقة والاستغفار، ومن تصدق بصدقة في شعبان رباها الله تعالى كما يربي أحدكم فصيله حتى يوافي يوم القيامة وقد صارت مثل أحد^(١).

أما الاستغفار فقد أوضحنا معناه آنفاً، وأما الصدقة فهي الإحسان إلى الغير، كما أنَّ الاستغفار إحسان إلى النفس.



الأعمال الشعبانية إصلاح للنفس والمجتمع

ولفهم معني الصدقة والاستغفار يحسن أن نلتفت إلى المعروف والإحسان للنفس والغير، فالاستغفار إحسان إلى النفس بنحو مباشر، فمن يستغفر يتلافى خطايا وذنوبه بنحو مباشر، وبالتالي يُحسن إلى المجتمع بنحو غير مباشر، أما الصدقة فهي عكس الاستغفار، إحسان إلى الغير بنحو مباشر، وإحسان إلى النفس بنحو غير مباشر، وقد ربط الإمام الصادق عليه السلام بين الإحسانين، المباشر إلى النفس بالاستغفار وغير المباشر إلى الغير بالصدقة، وهما إحسانان إلى النفس وإحسانان إلى الغير، وجُلَّ ما ورد في شعبان عندما يُنظر إليه بنظرة تأمل يصب في هذا المسار، بمعنى أنَّ الإنسان يحسن إلى نفسه من ناحية، ويحسن إلى الغير من ناحية أخرى، فقد ورد في المناجاة الشعبانية ما يرتبط بالإحسان إلى النفس والإحسان إلى الغير.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٥١١.

في رحاب المناجاة الشعبانية

والمناجاة الشعبانية دعاء لكل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فجميع الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يناجون الله تعالى بهذه المناجاة، (إلهي قد جُرْتُ على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها. إلهي لم يزل برك عليَّ أيام حياتي فلا تقطع برك عني في مماتي. إلهي كيف آيس من حسن نظرك لي بعد مماتي. وأنت لم تُولني إلا الجميل في حياتي. إلهي تول من أمري ما أنت أهله. وعُد عليَّ بفضلك على مذنب قد غمره جهله)^(١) هذا المقطع في غاية الجمال والأهمية، فالداعي يقول: (إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها).

ظلم النفس مبدأ الظلم

الإنسان عندما يظلم ويحور، فمركز ظلمه ينبثق من نظره إلى نفسه، فعندما ينظر إليها فذلك مصدر الجور على ذاته وعلى الآخرين، فإذا أراد أن لا يكون ظالماً عليه ألا ينظر إلى نفسه، وإنما ينظر إلى الله تعالى، حيث يجعل وجوده عبداً للحق تعالى، وفي نهاية المقطع نلاحظ أن الداعي يقول: (إلهي تول من أمري ما أنت أهله، وعُد عليَّ بفضلك على مذنب قد غمره جهله)^(٢).

أساس الظلم

والجهل هو الأس الذي يجعل الإنسان ينظر إلى نفسه، فينشأ لديه الكبر والغرور من نظره إلى نفسه، فإذا أراد أن لا يتكبر ولا يغتر فعليه أن لا ينظر إليها، وإنما ينظر إلى الباري تعالى، وحتى من وجد لنفسه كما لا فعلية أن لا ينظر إليها، إذ منشأ الحق تعالى.

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٩٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

حقيقة الكمال المعنوي

وحتى يتضح هذا ويرتبط بالمفردتين اللتين ذكرناهما، الصدقة والاستغفار، نشير إلى أن الفلاسفة ذكروا أن كمال كل شيء بظهور خواصه وآثاره، فكل شيء لا يكمل إلا بترتب آثاره عليه، وكمال الإنسان يتأتى بخاصتي الأنس والمحبة، وأعظم ما يتنافى مع هاتين الخاصتين، الكبر والغرور، فمن نظر إلى نفسه ووجوده كوجود أفضل وأعظم من الغير، سوف يغتر ويتكبر، فيجور على الغير، ويتعدى على حقوقه، ويتاح للإنسان أن يظهر خواصه التي تحقق كمال ذاته بإظهار الأنس والمحبة، فيصبح لبنة في مجتمع متعاون يأخذ بعضه ببعضه الآخر، ويسوده السلام والمودة، ويصبح المجتمع - كما يقول العلماء - كمجتمع النمل والنحل في تعاونه، فهذان المجتمعان متعاونان، وتعاونهما غريزي، نشأ من الحب والأنس، والإنسان لديه الحب والأنس، وهما منحة إلهية، لكنه يغطي عليها بالتبعات، من الجور والكبر والغرور بنفسه، حتى يصبح غيره منظوراً إليه بنظرة دونية، ليس له كرامة عنده، وفي شهر شعبان هناك تركيز على الأعمال المؤهلة للإنسان للدخول في شهر رمضان، ليصبح محبوباً لله، ومحباً للغير، محسناً لنفسه ولغيره، غير ناظر إلى نفسه نظرة تقطع جبل المودة والأنس بينه وبين غيره، وهذا المعنى المشار إليه أكدته دراسات لكبار العلماء والأخصائيين، تشير إلى أن كمال الإنسان بأنسه ومحبه. وأن إحسانه إلى الغير ينبثق عن أنسه ومحبه، وما يؤثر سلباً على الأنس والمحبة هو الكبر والغرور، ولا يتحقق كماله الذاتي إلا بإدراكه لعيوبه، وتلافيه المستمر لها، والإنسان لديه استعداد للكمال، لأن الله تعالى فطره عليه، ويحبه لذاته وللآخرين.

موانع الوصول إلى درجات الكمال

وما يمنعه من الوصول إلى الكمال هو الكبر والغرور، ولإيضاح هذه الحيشة بالذات نلاحظ أن الإنسان إذا أخطأ ونُبّه على خطئه بنحو مباشر لا يقبل ويدافع



بضراوة عن ذاته، ويُورد العشرات من الأدلة والمبررات على أنّ ما صدر منه عين الصواب، ويحاول أن يُخطئ المنتقد له، ويعود السبب إلى وجود كبرياء شخصيته، فلا يسمح بتناول ذاته بالنقد، لغروره الذاتي، بينما لو جاءه من يحبه ويحسن إليه، فنقده وأبان له خطأه تجده على أتم الاستعداد ليبدل ما صدر منه من خطأ إلى صواب، والفارق بين نقد من لا ينسجم معه وبين النقد الصادر ممن يحبه هو وجود الكبرياء في شخصيته وذاته، فلا يسمح بنقد من لا ينسجم وإياه ويحاول جاداً أن يتعدى على شخصيته ويكيل الصاع صاعين، فالكبرياء والغرور في الشخصية لا يسمحان بتلافي الخطأ وقبول النقد ممن لا يُحبه ولا يأنس به، والعكس من ذلك فمن يحبه يفتح قلبه عليه ويأنس به، وهذا الفارق أشار إليه بعض العلماء، كالبروفسور روبنسون في كلمة رائعة: (إننا كثيراً ما يتفق لنا أن نبذل كثيراً من أفكارنا أو أعمالنا من دون أي قلق أو اضطراب ولكننا إذا أطلعنا أحد على خطأ أو زلة وجدنا في أنفسنا ثورة توقفنا أمام هذه النسبة موقف الدفاع، إننا نتقبل العقائد بكل سهولة، ولكننا إذا أراد أحد أن يسلبنا عقيدتنا وقفنا أمامه موقف المدافع المتهور، بينما لا نجد علاقتنا بأصل عقائدنا بهذه المتانة والقوة، ولكننا نرى عواطفنا وأحاسيسنا إذ ذاك في خطر عظيم، لو قيل لنا: إن ساعتك تتأخر أو إن سيارتك قديمة الطراز نتألم تألماً لا نتألم بمثله فيما لو قيل لنا أنّ معلوماتك عن جداول المريخ أو نوعية حضارة الفراعنة في مصر خاطئة).

طريق الوصول إلى الكمال

شهر شعبان مدرسة لكمال شخصية الإنسان بإحسانه إلى الغير من ناحية وإحسانه إلى نفسه من ناحية أخرى، وهذا يتوقف على أن لا ينظر إلى نفسه ليكون جائراً عليها، وينعكس بجوره على الآخرين، كما في المناجاة الشعبانية، (إلهي قد

جرت على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها^(١) فالعاقبة أن يكون مصير الإنسان إلى - الويل - وادٍ في جهنم، وفي المناجاة أيضاً (وعد علي بفضلك على مذنب قد غمره جهله)^(٢).



(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

شهر رمضان خصائص وثمرات

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة) صدق الله العلي العظيم.

شهر رمضان بمكان مكين من العظمة، والقرآن الكريم أبلغ ما يعبر عن أهمية هذا الشهر، فقد وصفه بالشهر الذي أنزل فيه القرآن، والقرآن هو أعظم كتاب مُعجز يُدلل على الحق تعالى، ويتكفل بهداية الإنسانية، فالزمان الذي أنزل فيه يتصف بأعلى مكانة وأعظم منزلة، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة)، فالآية دليل على عظم مكانة شهر رمضان، وهذا أمر هام لمن يريد أن يجتاز المسافات الطويلة ليصل إلى معدن العظمة للحق تعالى.

أهمية شهر رمضان

ورد في أهمية هذا الشهر روايات تُدلل على منزلته ومكانته الكبيرة، فالنبي ﷺ قال عند دخول هذا الشهر: (سبحان الله! ماذا تستقبلون؟! وماذا يستقبلكم؟!)، يكررها ثلاثاً^(١).

خصائص شهر رمضان

وقد وردت في هذا الشهر الفضيل وصايا متعددة لأئمتنا عليهم السلام تبين أهميته، قال

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١٦.

إمامنا الصادق عليه السلام في وصيته لولده: (إذا دخل شهر رمضان فاجهدوا أنفسكم، فإنّ فيه تُقسَمُ الأرزاق، وتُكتب الآجال، وفيه يُكتب وفد الله الذين يَفِدون إليه، وفيه ليلةُ العمل فيها خيرٌ من ألف شهر)^(١). في هذه الوصية الرائعة يبين الإمام الصادق عليه السلام حيثيات هامة في خصائص هذا الشهر:

الأولى: تقسيم الأرزاق.

فما أروع أن يحصل الإنسان على الرزق الطيب والمبارك، ويتمكن من ذلك بابتهاله وقربه من الله في شهر رمضان.

الثانية: تقدير أجل الإنسان.

فأجل الإنسان محدود في هذه الدنيا، وهو يسأل الله تعالى العمر الطويل والمبارك، فبعضُ الناس يعيش العمر الطويل غير مبارك، وبعضُ آخر يعيش العمر المبارك غير أنه قصير، وثالث يعيش عمراً مديداً ومباركاً، والإمام الصادق عليه السلام يلفت انتباه ولده بأهمية كتابة الآجال في هذا الشهر، ولا بد أن تُغتتم الفرصة السانحة للحصول على العمر المديد والمبارك، فبركة العمر تتحقق لبعض الناس الذين يعيشون عمراً قصيراً، ملؤه الخيرات والطاعات والخدمات الكثيرة للإنسانية، والتي يعجز عنها من يعيش عمراً طويلاً، وذلك أنّ الله تعالى بارك في عمره وجعله مثمراً، فالإنسان بحاجة إلى العمر المبارك، كما أنه بحاجة إلى العمر الطويل، ليهنأ عيشه ويكثر برّه، وتدخل عليه المسرة في عالم الآخرة.

الثالث: مضاعفة أجر العمل.

ويواصل الإمام عليه السلام في تحديد سمات الشهر الفضيل، باختلاف وقته وزمنه عن سائر الأوقات والأزمنة، فبعد أن أبان عليه السلام أنّ الله تعالى يكتب الذين يَفِدون إليه، أوضح حيثية هامة، وهي مضاعفة العمل في هذا الشهر، فمضاعفة العمل غنيمة

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١٦.

العمر خصوصاً لمن فرّط فيه.

الرابعة: ليلة القدر في هذا الشهر.

وأبان عليه السلام، (وفيه ليلة، العمل فيها خيرٌ من ألف شهر)^(١) فالعمل في ليلة القدر في هذا الشهر أفضل - وليس مساوياً - من العمل في أكثر من ثلاثة وثمانين سنة، إذ يُحقّق الإنسان هذا الإنجاز والعمر المديد في طاعة الله في ليلة واحدة من شهر رمضان، والإمام عليه السلام يلفت انتباه أبنائه إلى قسمة الأرزاق وكتابة الأجل واغتنام العمر، والتوفيق للحج والقرب من الله تعالى.

الخامس: أفضلية الزمان في شهر رمضان.

ولفضل شهر رمضان وما يحصل عليه المؤمن ورد عن إمامنا زين العابدين عليه السلام في مخاطبته للشهر في دعاء من أدعيته، (السلام عليك يا شهر الله الأكبر ويا عيد أوليائه، السلام عليك يا أكرم مصحوب من الأوقات ويا خير شهر في الأيام والساعات، السلام عليك من شهر قربت فيه الآمال، ونشرت فيه الأعمال، السلام عليك من قرين جل قدره موجوداً وأفجع فقده مفقوداً ومرجو ألم فراقه)^(٢)، فالشهر زميل وقرين جليل قدره عظيمة منزلته، ويشير الإمام عليه السلام إلى عظم مكانة الشهر بتسليمه عليه، (السلام عليك من قرين جل قدره موجوداً، وأفجع فقده مفقوداً) فإذا زال وتصرم الشهر تألم الإمام عليه السلام لتصرمه، ذلك أنّ أولياء الله يحبون أن يكون العمر رمضان، ليكونوا في رقي وعروج إلى الله تعالى، أما سائر أيام السنة فلا يتاح للإنسان أن يكون في مثل تلك الحالة من الاتصال غير المنقطع بالله تعالى، وقد جاءت خطبة النبي صلى الله عليه وآله في آخر جمعة من شعبان تفصح عن ذلك، (أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة)^(٣)، فمن يعمل خيراً في أيام السنة يُكتب له، أما

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١١٦.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ٢١٣.

في شهر رمضان فأنفاسه تسبيح، ونومه للاستجمام عبادة، والإمام السجاد عليه السلام يتفجع على فقده، (أَفْجَعَ فَقْدُهُ مَفْقُودًا، وَمَرْجُوُّ أَلَمِ فِرَاقِهِ)، فيتألم عليه السلام على فراق الشهر، بينما يفرح بعض الناس لفراقه.

السادس: سرعة تلافي التقصير.

ويمكن للعصاة ومن قصّر أن يتلافى التقصير في هذا الشهر، فيصلح فيما بينه وبين الحق تعالى بسهولة ويسر، لا يتاح له أن يحصل عليه في غيره من الشهور، والفارق أن البناء يكتمل بسرعة في شهر رمضان ولا يحتاج الإنسان إلى مسافة طويلة ليقطعها، (أنّ الراحل إليك قريب المسافة)^(١)، وهذا ما أبانته الروايات للمقصر والمذنب ومن اقترف بعض المحظورات أن يغتنم شهر رمضان، قال عليه السلام: (فمن لم يغفر له في رمضان ففي أي شهر يغفر له؟!)^(٢) أي أنّ الذي لا يغفر له في شهر رمضان لا ينال المغفرة والرضوان من الله تعالى، قال النبي صلى الله عليه وآله: (أيها الناس، إنّ جبرائيل استقبلني فقال: يا محمد، من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فيه فمات فأبعده الله قل: آمين، فقلت آمين)^(٣) فمن حظي ببركة العيش في شهر رمضان ولم ينل المغفرة من الله تعالى سينتهي أجله ويتصرم عمره دون أن يغفر له، هذا ما أخبر به جبرائيل النبي صلى الله عليه وآله، وطلب منه أن يؤمن عليه، فقال جبرائيل قل: آمين يا رسول الله، فأمن صلى الله عليه وآله على هذا الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

تأثير صيام شهر رمضان

إنّ تأثير الصوم في شهر رمضان يتبين بجلاء في حديث النبي صلى الله عليه وآله للصحابي جابر رضي الله عنه، (يا جابر! هذا شهر رمضان، من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعفّ

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ١٩٠٧.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١١٨.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١١٨.

بطنه وفرجه وكف لسانه خرج من ذنوبه كخروجه من الشهر^(١)، يلفت ﷺ انتباه الصائم إلى ما ينبغي أن يحققه في شخصيته وذاته في هذا الشهر الكريم، وعندما استمع جابر رضي الله عنه لحديث المصطفى ﷺ، قال: (يا رسول الله، ما أحسن هذا الحديث!)، أن يقوم الإنسان ببعض الأعمال في هذا الشهر فيصبح مولوداً جديداً، عند ذلك أجابه النبي ﷺ، (يا جابر، وما أشدّ هذه الشروط!)^(٢)، فهذه الشروط لا يتأتى القيام بها لكل أحد، ويحسن أن نستعرضها بإيضاح:

الأول: صوم النهار وقيام الليل.

بين النبي ﷺ أن الصوم جسر يصل به الصائم إلى ما بعده، وهو قيام الليل، فالصوم يُحرك الإنسان للوقوف بين يدي الله في ليالي هذا الشهر، مبتهلاً متضرعاً مستغفراً، فيقوم ورداً من الليل بدافع من الصوم.

الثاني: عفة البطن والفرج.

وعفة البطن أن لا يأكل حراماً، ويسعى جاداً في طلب الرزق الحلال، صائناً نفسه عن الوقوع في الحرام، فمن لم يصن نفسه لا يكون عفيفاً، فلا يحقق معنى الصوم، وهو معنى الفلاح المشار إليه في الذكر، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ (٢)﴾ (المؤمنون)، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٦). فالصائم يحتاج إلى عفة بطن وفرج كي يسير على وفق ما يريده الشارع.

الثالث: صون اللسان.

ومن أعظم الشروط التي أبانها المصطفى ﷺ أن يسيطر الإنسان على لسانه، إذ أن الصوم جسر للسيطرة على الجوارح، ومن أعظم ما يحتاج الإنسان للسيطرة عليه

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

البصر واللسان، كما في الروايات، فمن يأتي بالخير لكنه ينظر إلى السوء والفحشاء سوف يفسد ما حققه من خير، ويقضي على حسناته بحصاد لسانه، قال النبي ﷺ عندما سأله أبو ذر رضي الله عنه (إِنَّا لَنُؤْخَذُ بِمَا تَنطِقُ بِهِ أَلْسِنَتُنَا؟)، (وهل يُكَبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) ^(١).

ثمرات تحقيق الشروط..

فمن استطاع أن يحقق هذه الشروط التي أشار إليه النبي ﷺ فقد حقق معنى إنسانيته، ووصل إلى الحق تعالى، وسيخاطب عند وفاته، ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ﴿٣٠﴾ (الفجر).



(١) الأماشي للطوسي: ص ٥٣٦.

شهر رمضان واقع العبادة وطموح التغيير

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) (مريم).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) (البقرة). صدق الله العلي العظيم.

روح تشريع زكاة الفطرة

الصوم والزكاة عبادتان كبيرتان؛ والباري تعالى قرنهما في الكثير من أي الذكر الحكيم، كما أنه تعالى قرن الزكاة عملاً بالصوم في شهر رمضان، فالمسلم يصوم شهر رمضان وفي آخر الشهر يدفع زكاة الفطرة، غير أن التشريع الإلهي له روح، وروحه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ (مريم: ٣١)، أي يكون الإنسان بركة وخيراً على أخيه الإنسان ونافعاً وناصحاً له، وبمعنى آخر يصل إلى درجة التقوى التي هي الهدف من تشريع الصوم، ويصل أيضاً إلى القدرة الكبيرة في التعامل مع من يسيئ إليه، فضلاً عما يحسن إليه، وهذا ما أورده الذكر الحكيم، ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) (فصلت)، وصبروا في الآية فُسر بتفسيرين:

الأول: أنَّ لهم القدرة على المقاومة تجاه الأحداث المسيئة إليهم.

الثاني: أنَّ الصبر في القرآن الكريم هو الصوم، فالصائم الذي وصل إلى درجة التقوى يستطيع أن يتعامل مع من يُسيئ إليه بالإحسان، إذن لدينا تشريع ولدينا روح التشريع، وروحه تتحقق بكون الإنسان تقياً ومحسناً لغيره ومباركاً أينما حلَّ.

أسس التعامل مع الآخرين

إنَّ البركة والإحسان للآخرين يحتاج المرء إلى فهم أعمق للحصول عليهما، ومن خلال تتبع الروايات الواردة في كيفية التعامل الحسن مع الناس، نعي ذلك إذ أنَّ الناس لديهم قراءات متعددة تجاه الآخرين، ويرون الأعمال حسب الظاهر وحسب الحالة النفسية التي عليها الإنسان، وعلى هذا الأساس يتم إصدار الحكم في حق أخيهم الإنسان بما لا يتوافق مع الواقع في كثير من الأحيان، وقد جاءت الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام تبن أهمية حسن المعاملة من جهة، وأنَّ حسن المعاملة والنفع للآخرين يتوقف على مران وممارسة وفهم واع لكيفية التعامل من جهة أخرى، وعبرت عن ذلك الروايات بمدارة الناس، فلا يدخل الإنسان معهم في شجار يؤدي إلى إساءة العلاقة بينه وبينهم، بل يحاول جاداً أن يحترم وجهات نظرهم ويُقدر معاشرتهم، وقد أبان النبي ﷺ وأسس التعامل مع الناس بقوله ﷺ: (ثلاث من لم يكن فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل)^(١).

الأول: (ورع يحجزه عن معاصي الله)، ويتحقق ذلك بالصوم والعبادة. الثاني: (وخلق يداري به الناس) أي يستطيع أن يتعامل بإيجابية مع الآخرين، وقال ﷺ أيضاً: (أمرني ربي بمدارة الناس كما أمرني بأداء الفرائض)^(٢) فالإنسان كما يؤدي الصلاة والزكاة عليه أن يحترم وجهات النظر المختلفة للآخرين، قال ﷺ: (مدارة

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ٨٦٤.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ٨٦٤.

الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش^(١)، ومن أراد أن يعيش في وئام مع الآخرين عليه أن يداريهم، وحتى إذا أراد أن يرفع مستواهم الإيماني فعليه أن يلتفت إلى أن ذلك لا يتأتى إلا من خلال مداراتهم، والروايات متعددة في أن حقيقة الإيمان ترتبط بما لدى المؤمن من مشاعر فياضة بالحب لأخيه المؤمن كما يجب لنفسه، قال ﷺ: (لا يستكمل عبد الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)^(٢)، فالتعامل مع المؤمن لا بد فيه من مداراة ورفق، وعليه أيضاً أن يكون مرآة له، لا يتعامل معه بنحو يغطي تبعاته بل يسعى في رفع مستواه وتصحيح أخطائه بالرفق والمحبة، قال ﷺ: (إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه)^(٣) أي يرفق بالآخرين، ويسعى جاداً في رفع مستواهم ولا يقلل من شأنهم، وورد أيضاً الحض على قضاء حاجة المؤمن والسعي فيها وخدمة المؤمنين، وهذه مفاهيم تمثل روح التشريع.

الثالث: (وحلم يرد به جهل الجاهل)، فقد يصدر من الجهلاء ما فيه إساءة أو قراءة غير صحيحة للموقف الصادر من الآخرين، بينما لو وصل الإنسان إلى تقوى الله وأصبح مباركاً، فعليه كما أشرنا إلى ذلك آنفاً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(٤) (مريم)، عند ذلك أن يجعل عمله تاماً وكاملاً مقبولاً. إن الإنسان بحاجة ماسة إلى الحلم باعتباره خلقاً عملياً لا غنى عنه في التعامل مع الناس.

طريق الوصول إلى قمة التشريع

والتشريع إذا لم تترتب عليه الفوائد كان أجوفاً، فمن يؤدي الصلاة ويسبيح للآخرين أو يصوم لكنه غليظ وفيه جفاء لم يفهم روح تشريع الصوم، قال الإمام الصادق عليه السلام: (من قضى لأخيه المسلم حاجة كان كمن خدم الله عمره)^(٥) أي كأنه

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ٨٦٤.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٩٦.

(٣) سنن الترمذي للترمذي: ج ٣، ص ٢١٨.

(٤) عوالي الثالي لابن أبي جمهور: ج ١، ص ٣٧٤.

في صلاة وصوم طوال حياته، وما أروع الدين الذي يبلور لنا المفاهيم لشريعتنا السمحاء، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، وقال إمامنا الباقر عليه السلام موضعاً للآية: (قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم)^(١)، فإذا كان الإنسان يريد من الآخرين أن يتحدثوا بكلام جميل عنه فعليه أن يتحدث عنهم مبيّناً الجانب الإيجابي في شخصياتهم، قال عليه السلام: (خصلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بالله والنفع لعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء: الشرك بالله والضرر)^(٢)، فمن يسيئ للآخرين بلسانه أو بعمله فقد وصل إلى درجة من البعد عن الله كأنه أشرك به.

قواعد إرشاد الآخرين

النبي عليه السلام والأئمة من أهل البيت عليهم السلام أرشدوا الناس إلى طرق الخير والصلاح، قال النبي عليه السلام: (خصلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بالله والنفع لعباد الله)، فالنبي عليه السلام أبان كيف يصل الإنسان إلى قمة العبادة والدرجة العالية، فمن لا يفهم التشريع الإسلامي فهماً صحيحاً فلن يتغير سلوكه، قال عليه السلام: (أنسك الناس نسكاً أنصحهم جيباً وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين)^(٣)، فإذا كان لديك صديق أو رفيق قدّمت له ما يدخل عليه الخير ويرفع من مستواه فقد نصحتّه، (وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين)، فالذي لا يحمل الحقد والضغينة على إخوانه المسلمين فقد وصل إلى قمة العبادة، فهو أنسك الناس، وهو الأرفع درجة عند الله تعالى.

العيد فرصة الإحسان للآخرين

إنّ روح التشريع للصوم تكمن في إيصاله إلى تقوى الله تعالى، أما الزكاة فترفع المستوى الاقتصادي للناس وتدخل عليهم البهجة والسرور، ليس في العيد فحسب، بل طوال الحياة، إذ أنّ العيد يمثل طريقاً للتفاعل الإيجابي في عمر الإنسان الممتد إلى

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٣٧٦.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٤٢٣.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ١٨٠٢.

موته، من هنا نفهم المغزى الكبير لقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) (مريم)، قال النبي صلى الله عليه وآله: (الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله) (١) أي أن أقرب الخلق وأحبهم إلى الله من نفع خلق الله، وقدم النصح لهم وتعامل بمرونة وإيجابية معهم ليرفع من مستواهم، قال إمامنا الباقر عليه السلام: (تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرف القذى عنه حسنة) (٢)، وقال الإمام الصادق عليه السلام: (ليس من الأعمال عند الله عز وجل بعد الإيمان أفضل من إدخال السرور على المؤمنين) (٣)، وهذا درس عظيم في كيفية لقاء الآخرين بوجه ملؤه البشاشة والبشر، والاستقبال الحسن، والسعي لصرف القذى والأذى عنهم حتى تمهد لهم الطريق للوصول إلى الله تعالى، وقال الإمام الصادق عليه السلام: (ما عبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن) (٤) وفيه إبانة لأهمية جعل الإخوان المؤمنين يعيشون حالة من الارتياح النفسي بتعاملهم وإياك وبلقائهم معك، وهذا هو روح التشريع الإسلامي، فإذا فهم الإنسان ذلك أدرك معاني آي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢٥) (فصلت)، وأدرك معنى قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) (مريم)، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبٌ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) (البقرة).

المعنى الحقيقي للصيام

وفي آخر شهر رمضان الكريم على المؤمن أن يلتفت إلى أنه لابد أن يكون لصيامه

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ١٩٣٤.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٩٤.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢١٢٦.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٦، ص ٣٤٩.

وعبادته وأدعيته معنى، ينعكس على توجهاته وتعامله مع الناس خصوصاً أقرب المقربين إليه كأولاده وبناته وزوجاته وأرحامه، وإذا فهم التوجيهات التي قالها النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  فقد فهم روح التشريع الإسلامي.



خصائص الصوم المعنوية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ (البقرة: ١٨٣). صدق الله العلي العظيم.

حكمة تشريع الصوم

من أعظم العبادات التي شُرعت الصوم، وله حكم ومصالح متعددة، أبان بعضها القرآن الكريم، فالصوم شرع لإيصال الصائم إلى تقوى الله تعالى لينال رضوانه.

مميزات الصوم

وينبغي للصائم أن يلتفت أن صومه يختلف عن فطره، كما أبانت الروايات ذلك بشيء من التفصيل موضحة ما ينبغي للصائم أن يكون عليه.

الأولى: نوم الصائم عبادة.

ورد عن النبي ﷺ قوله: (نوم الصائم عبادة ونَفْسُهُ تسبيح)^(١) والحديث يدل على عظمة هذا التشريع، وذلك أن العبادات الأخرى لا يمكن أن يؤتى بها وتشمل غيرها من العبادات بمعنى أن يكون له أجر تلك العبادة وعبادات أخرى، بل لا يمكن أن يأتي بها العابد وهو نائم، إذ يشترط في العبادات القصد والتوجه والنية، وذلك لا

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٦.

يتأتى للنائم غير أنّ الصوم يختلف عن بقية العبادات، فالصائم في عبادة وصوم وهو نائم، أي أنّ الصائم بصومه في عبادة من العبادات الأخرى بالإضافة إلى صومه.

الثانية: أنفاس الصائم تسبيح.

أما قوله ﷺ: (وَنَفْسُهُ تَسْبِيحٌ)، أي أنّ الأنفاس التي يتنفسها تسبيح لله تعالى، وفي هذا الحديث إيماءة، وذلك أنّ العلماء أبانوا أنّ الثناء على الله تعالى على نوعين:

الأول: ثناء بصفات الجمال، كقول الحامد: (يا رحيم، يا كريم، يا عليم).

الثاني: ثناء على الله تعالى بصفات الجلال للحق تعالى، وتنزيهه عن ما لا يليق به من صفات، ويطلق العلماء الصفات الجلالية على الصفات التي لا يتصف بها الله تعالى كالولد والنظير والمثل، وما لا يصح أن تتصف به الذات المقدسة، والصائم يثني على الله تعالى وينزهه عن الصفات التي لا تليق بجلاله وعظمته.

حقيقة عبادية النوم والأنفاس

إنّ استيعاب معنى نوم الصائم عبادة يحتاج إلى شيء من البيان، وذلك أنّ الصائم يتزكى بصومه فيظهر من الناحية المعنوية، ويدرك عظمة الحق تعالى، ويأدراكه لعظمة الحق تعالى يلتفت أنه لا يتصف بصفات النقص، والرواية القائلة: (وَنَفْسُهُ تَسْبِيحٌ)، تبين معنى لازماً للصائم وهو أنّ الصائم يصل بصومه إلى درجة تكون أنفاسه دالة على عظمة الحق تعالى عما لا يليق أن يتصف به، ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ۝١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ (الصفافات)، فالله تعالى نزه نفسه عما لا يليق به من صفات النقص.

الثالثة: الصائم مستخلص لتنزيهه.

فالمخلص هو من استخلصه الله تعالى لنفسه واجتبه لذاته، والنبي ﷺ أبان أنّ من يأتي بالصوم ويخلص في عبادته يصبح مخلصاً، وتكون أنفاسه منزهة للحق تعالى عما لا يليق أن يتصف به.



الرابعة: استشعار الأعضاء عظمة الله.

هناك طائفة أخرى من الروايات تبين أن جميع أعضاء الصائم تسبح لله تعالى، قال عليه السلام: (ما من صائم يحضر قوماً يطعمون إلا سبحت أعضاؤه وكانت صلاة الملائكة عليه، وكانت صلاتهم استغفاراً) ^(١) أي استغفاراً له، وتسبح الأعضاء إيماءً بأن من يحضر الطعام ويتوق إليه، فيتذكر أنه صائم لله تعالى تسبح أعضاؤه الحق تعالى، وتستشعر عظمته، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤).

الخامسة: صمت الصائم تنزيه لله.

جاء عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام قوله: (نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، ودعاؤه مستجاب، وعمله مضاعف، إن للصائم عند إفطاره دعوة لا ترد) ^(٢) وقوله عليه السلام: (وصمته تسبيح) تعبير كنائي بأن الصائم حتى إذا لم يتكلم فصمته تنزيه للحق تعالى.

السادسة: الدعاء مستجاب.

(ودعاؤه مستجاب)، والله تعالى يستجيب للصائم إذا ابتهل إليه بالدعاء متضرعاً في كل وقت من شهر رمضان.

السابعة: مضاعفة العمل.

(وعمله مضاعف)، من الخصائص المترتبة على الصوم أن جميع الأعمال التي يأتي بها الصائم مضاعفة، نعم هناك مضاعفة للأعمال بنحو فردي، أي أن العمل يضاعف وحده، فإنفاق المال مضاعف والصلاة جماعة تتضاعف، لكن الصوم يضاعف نفسه ويضاعف جميع الأعمال العبادية الأخرى.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٦.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٦.

الثامنة: جائزة عند الإفطار.

قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (إنَّ للصائم عند إفطاره دعوة لا ترد)، إنَّ الله تعالى يستجيب دعاء الصائم بنحو عام، وله دعوة مستجابة في كل يوم بنحو خاص.

مستحق ثواب الصوم

إنَّ الفضل الوفير للصائمين يترتب لمن يلتفت لخصائص وميزات الصوم، فهو عبادة لها حرمة، وليست مجرد إمساك عن الأطعمة والأشربة، والحكم والمصالح الجائية في الروايات تترتب لمن يراعي تلك الحرمة.

صيام الجوع والعطش

إنَّ بعض الصائمين ليس له من صيامه إلا العناء والجوع، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش)^(١)، أي لا ينال فوزاً ورضاً من الله تعالى، ولا يحقق مآربه بصومه، لأنه لا يعرف كيف يصوم، ولا يعرف آداب الصوم، فيصوم ويغتاب، وقد تصدر منه الفواحش، فلا تصوم جوارحه، وهكذا حاله في بقية العبادات، فيأتي بها دون أن يترتب عليها أثر عليها، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (ورب قائم حظه من قيامه السهر)^(٢) إنَّ من قام ليتهدد ليلاً دون أن يتقي الله فلن يترتب على سهره فائدة.

الصوم عن المحارم

إذن ينبغي أن نعرف كيف نصوم؟ والروايات تعلمنا ذلك، فعن علي عليه السلام قال: (الصيام اجتناب المحارم)^(٣) أي أنَّ الصوم جسر يجتازه الصائم ليمتنع عن اقتراف المحارم، وعنه عليه السلام: (صيام القلب عن الفكر في المآثم أفضل من صيام البطن عن

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٦.

الطعام^(١) أي أنّ الصوم ليس بترك الطعام، بل باستشعار القلب عظمة الله تعالى فلا يبيح الصائم لنفسه الوقوع في الإثم، إنّ الله تعالى حذّر من الوقوع في الفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن، وجعل الصوم جسراً لاستشعار عظمته وإدراك أنه حاضر ناظر عالم بما يصدر من أقوال وأفعال، وإذا وصل الصائم إلى ذلك لن يفكر في الإثم، وتلك مرتبة عليا لحكمة الصوم تترتب على صيام القلب عن الفكر في الآثام.

ثمرة الصوم الحقيقي

سمع رسول الله ﷺ امرأة تسب جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله ﷺ بطعام، فقال لها : كلي، فقالت : إني صائمة، فقال : (كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريته)^(٢) أي أنّ الصوم ليس من الطعام والشراب فحسب.

إنّ الله لا يريد من الإنسان أن يصوم ليجنب الطعام، بل ليتعرف على الحكمة والهدف من الصوم ليصل إلى عالم المعنى فيصدر منه الخير ويمتنع فعل السوء والشر.

أنواع الصوم

وللصوم مراتب ثلاث:

الأولى: الصوم المسقط للتكليف الشرعي، وهو الصوم عن المفطرات.

الثانية: الصوم الذي يمثل درجة متقدمة في عالم المعنى، فيستشعر الصائم أنه سيطر على حواسه، ويختلف هذا عن النحو الأول من الصوم لأن الأول يسقط التكليف فحسب.

الثالثة: صوم القلب عن جميع الآثام، بحيث لا يشغل القلب بغير الله تعالى، وقد أبان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الخصائص الثلاث فقال: (صوم القلب خير من

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٧.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٠، ص ١٦٣.



صيام اللسان وصيام اللسان خير من صيام البطن^(١) أي أن الدرجة الثالثة من الصوم هي المثلى، جاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: (القلب حرم الله، فلا تسكن حرم الله غير الله)^(٢) إذن فصوم القلب خير من صيام اللسان وصيام اللسان خير من صيام البطن، ومن سيطر على حواسه، فقد حصل على خير كثير، إلا أن الأفضل أن يسيطر على جوانحه ويخلي قلبه من الإثم فيستشعر عظمة الحق تعالى.



(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٦٨٧.
 (٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٥٠٣.

الحفاظ على منجزات شهر رمضان

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر). صدق الله العلي العظيم.

مكتسبات شهر رمضان

إنَّ شهر رمضان شهر خير وبركة وعتق من النار، وله فوائد لا عدّها ولا حصر، نذكر بعضاً منها:

الأولى: إدراك ليلة القدر.

من أعظم ما يتحقق للصائم في شهر رمضان أن يحظى بليلة القدر، التي تحدث القرآن عنها بأنها خير من ألف شهر، ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ (القدر)، أي أنها عمر كامل، يربو على ثلاثة وثمانين سنة، وتلك غنيمة كبيرة يحظى بها الصائم المقبل على الله تعالى.

الثانية: ثواب تلاوة القرآن والأذكار.

بالإضافة إلى ذلك يحصل الصائم على أجر تلاوة القرآن الكريم والأدعية والأذكار الواردة في هذا الشهر الفضيل.

الثالثة: قيام الليل.

فالصائم يحصل أيضاً على أجر قيام الليل ومناجاة ربه، يدعوهُ خوفاً وطمعاً، راجياً رحمته، خائفاً من سخطه وغضبه، بالكِ بين يديه تعالى، لينال ثوابه، وينجو من عقابه وسخطه.

الرابعة: تحقيق فوائد أخلاقية.

كل هذه المنجزات وغيرها يحصل عليها الصائم، وأهم ما يصل إليه الصائم في شهر رمضان التغذية لروحه، إذ يختلف شهر رمضان في عطائه عن غيره من الشهور، فمن صام هذا الشهر الفضيل وجد نفسه إنساناً آخر، حصل على كثير مما كان يصبو إليه من تعلم الصبر والحلم وكظم الغيظ والسيطرة على الغرائز والكيفية المثلّي في تعامله مع إخوانه المؤمنين بل مع الطيف الاجتماعي المتعدد من خلال مدرسة الصوم العظيمة.



الحفاظ على مكتسبات الشهر

إلا أنّ ما ينبغي التأكيد عليه في العيد بعد اجتياز هذا الشهر الكريم أنّ ما حصل عليه الصائم من خير وبركة ومن سؤدد في الرأي وقرب من الله تعالى لا بد من الحفاظ عليه، وقد أكّد علماء الأخلاق على مسألة غاية في الأهمية هي أنّ المنجزات في هذا الشهر الفضيل قد تذهب بارتكاب معصية.

الذنب ومنجزات الشهر

هناك معادلة ذكرها القرآن الكريم وأكدها علماء الأخلاق بل أولوها عناية فائقة، قال تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ (هود، ١١٤) أي أنّ اقتراف الإنسان إثماً من الآثام، أو معصية من المعاصي قد يستطيع أن يتخلص من أضرارها وآثارها بالاستغفار والتوبة وأعمال البر المختلفة، ذلك أنّ كل عمل خير يتقبله الله تعالى بقبول حسن، وهو كفارة للسوء الذي صدر عنه، إلا أنّ الآية المباركة لها معادلة

عظيمة، فقوله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ (١١٤) (هود)، يعادلها إِنَّ السَّيِّئَاتِ يُذْهِبْنَ الْحَسَنَاتِ.

كيفية تأثير الذنب على الأعمال الصالحة

لقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى لبعض الصحابة عندما قال: (من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له شجرة في الجنة. فقال رجل من قريش: يا رسول الله! إن شجرنا في الجنة لكثير؟! قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيرانا فتحرقوها، وذلك أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) (محمد^(١))، والنبي ﷺ يوضح أَنَّ المعصية تحرق عمل الخير، وَأَنَّ أعمال الخير تثمر خيراً وأعمال السوء تُثمر سوءاً.

المعنى الحقيقي للعید

إِنَّ العید عودة إلى الله تعالى، ذلك أَنَّ الصائم خرج من ذنوبه كخروج الشهر، كما عبّر النبي ﷺ، والخروج من الذنوب تكويني قهري، أي أَنَّ من صام الشهر وجاء بالأعمال الطيبة والخيرة فَإِنَّ الله تعالى بكرمه ورحمته سيجزيه، أي أَنَّهُ إِذَا صَامَ الشهر وتقرّب إلى الله تعالى بأعمال الخير سيغفر الله تعالى له ذنوبه ويتجاوز عن سيئاته ويخرجه منها كخروجه من الشهر.

أثر الخطأ على عمل الإنسان

إِنَّ الخطأ الكبير يمحّق الحسنات كما جاء في رواية تبين ذلك في خطأ الزوجة في حق زوجها المحسن إليها، البار بها عندما تصدر منه هفوة فلا تغفرها له، بل تنسى معروفه، قال ﷺ: (رَأَيْتِ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٤٣٤.

لم يا رسول الله قال بكفرهن قيل أيكفرن بالله قال يكفرن العشيرَ وَيَكْفُرْنَ الإحسان؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط^(١) تبين الرواية أنه عندما صدر الخطأ من الزوج وقابلته الزوجة، بقولها: (لم أر منك خيراً قط)، فقد أنكرت المعروف، وكفرت بالعشرة الجميلة والحسنة، وعندئذ حبطت أعمالها جميعاً، وقد بينت الروايات أنّ الأعمال السيئة كالكلمة السيئة قد تقضي قضاءً مبرماً على الأعمال الخيرة، ونبه هنا أنّ هذا لا يخص الزوجة، بل يعم الزوج، وأنّ السيئات تذهب الحسنات يشمل الجميع.

مكتسبات عظيمة

إنّ المؤمن الذي يريد أن يصل إلى درجات عالية عليه أن يحافظ على مكتسبات صومه المتجسدة في الآتي:

الأول: الصبر.

فلكي يحافظ على المنجزات عليه أن يكون صابراً، وإذا تعلم الصبر من الصوم فعليه أن يتكئ على هذه السجية لئلا تزول.

الثاني: السيطرة على الجوارح.

والصائم قد تعلم السيطرة على جوارحه ذلك أنّ الصوم ليس من الطعام والشراب فحسب بل بالسيطرة على الجوارح.

الثالث: كظم الغيظ.

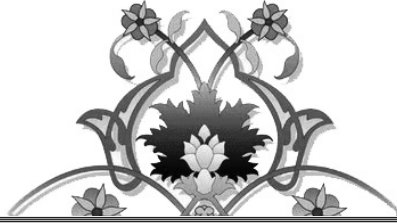
وعلى الصائم أن يكظم غيظه فلا ينفعل بسرعة. وإذا حقق الأمور الثلاثة الآنف الذكر بأن سيطر على جوارحه وكظم غيظه ولم يرد الفعل السيئ بمثله عندئذ حقق معنى الصوم.

(١) مسند أحمد لابن حنبل: ج ١، ص ٢٩٨.

نتائج الصوم

إنّ الصائم إذا تعلم الصبر استطاع تجاوز ردود الأفعال واستفاد من صومه، وإذا سيطر على جوارحه حقق إنجازاً كبيراً ذلك أنّ الجوارح إما أن تستخدم في الخير أو في السوء، وقد تعلم الصائم استخدام الجوارح في الطاعة والخير، وباستطاعته أن يقاوم ردود الأفعال، ومن أعظم ما يؤثر على الإنسان الغضب، فهو نار تحرق كثيراً من منجزات الإنسان، والصائم بكظم الغيظ والعفو عن الناس ومقابلة الإساءة بالإحسان ظفر بكثير من منجزات الصوم، وإذا حافظ على ذلك وقى نفسه من غضب الله تعالى ووصل إلى مرضاته.





الفصل الثاني:

■ ■ الواقع الاجتماعي في حياة الشباب ■ ■



بِرُّ الْوَالِدَيْنِ

قال الله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ (الإسراء: ٢٣)
وقال تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ (النساء: ٣٦) صدق الله العلي العظيم.

إنَّ برَّ الوالدين من الواجبات التي أكد عليها القرآن الكريم واستعرضت في السنة النبوية والأحاديث الواردة عن أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعند التأمل في النصوص الإسلامية نجد العُجاب في التشديد والحض على برِّ الوالدين، وذكر الآثار الوضعية المترتبة على برِّهما.

الآثار الوضعية لبرِّ الوالدين:

قبل استعراض أي القرآن الكريم والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليه السلام نذكر بأمر هام هو أنَّ موجبات التفوق في الحياة تتأتى عبر مجموعة من الأمور، من أهمها الارتباط بالله تعالى والعلم، والارتباط بالله يتأتى عبر الطاعات التي أمر الله تعالى بها، وهناك مفردات من الطاعات كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وكذلك برِّ الوالدين فهذه المفردات من الروابط الوثيقة بين العبد وربِّه، والإنسان إذا ارتبط بالله تبارك وتعالى هياً الله له الأسباب ورزقه من حيث لا يحتسب، ودفع عنه البلاء، وأزاح عن طريقه العقبات، فيرى أسباب التوفيق تتأتى إليه الواحد تلو الآخر، إذ أنَّ الكون بيد الله تعالى، والإنسان إذا سعى لتحصيل التوفيق عبر آلياته كالبكور في

طلب الرزق، والخلق الحسن، والتعامل مع الناس بشفافية ووضوح، فإن هذه الأمور تحببه إلى الناس ولها أثر بين في سهولة التعامل غير أن التأثير الأكبر لبرّ الوالدين، فمن رام طلب الرزق، والصحة في الجسد، ودفع العقبات الكأداء التي تعترض طريقه، فعليه ببرّ الوالدين، فإن كل هذه الأشياء تحصل له بإذن الله تعالى.

وهناك قصص وردت في الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام، وشاهدنا بعضاً منها في حياتنا اليومية.

برّ الوالدين وطلب الرزق:

إذن برّ الوالدين تترتب عليه آثار كبيرة وعظيمة، ونشير إلى أمر هام، وهو طلب الرزق، فالإنسان يسعى في طلبه، ويمضي جُلّ وقته في الكدح من أجل تحصيله، والروايات الواردة تؤكد على أنّ من أوثق الأسباب لتحصيل الرزق والرفاهية في العيش برّ الوالدين، فهو يفتح أبواباً من الرزق لا تخطر ببال الإنسان أبداً، فضلاً عن التوفيقات التي يحصل عليها البار في كثير من شؤون حياته، فالإنسان الكادح في تحصيل الرزق بجهد كبير، يمكنه أن يحصل على الرزق الوفير، بجهد أقل إذا كان باراً بوالديه، ويظهر من الروايات أنّ الله تعالى يهباً أسباباً غير للبار بوالديه، وقد جاء في تفسير سورة البقرة التي أحبي بها ذلك القتل من بني إسرائيل، كيف أنّ البقرة طُلبت بثمن أكثر من وزنها ذهباً بأضعاف متعددة، والسبب يعود للبر بالوالده، من هنا ندرك أنّ برّ الوالدين من الأسباب القوية للرزق الوفير.

أهمية برّ الوالدين في الأديان السماوية:

إنّ برّ الوالدين أكد عليه في الرسائل السماوية جمعاء، لكنه يختلف لدى أتباع الديانات السماوية عنه لدى أتباع القوانين التي تُسن وتُنظم من قبل المنظرين، فهناك قوانين تراعي المسنين والشيوخ - كبار السن - والضعفاء وأهل الإعاقات، غير أنّ القانون السماوي ركّز على أهمية برّ الوالدين بنحو يفرق جوهرياً عن ما هو موجود في الأنظمة والقوانين الوضعية.

الإحسان إلى الوالدين في القرآن والأحاديث

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١)، إن الله تعالى بعد أن أمر بشكره الذي يوجب المزيد من الخير، أمر بشكر الوالدين، وبعد أمره بطاعته أمر بطاعة الوالدين، وبعد تحريمه الشرك به أمر بالإحسان إلى الوالدين أي أن عدم الإحسان إليهما على حد الشرك بالله، وعقوقهما بالإساءة إليهما من أعظم وأشد المحرمات، فهو على حد الشرك بالله تعالى أي من الذنوب التي لا تغفر.

قال الله تعالى: ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ (البقرة: ٨٣)، وقال إمامنا الصادق صلوات الله وسلامه عليه، لما سُئِلَ عن معنى الإحسان في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣) قال عليه السلام: (الإحسان أن تحسن صحبتها، وأن لا تكلفها أن يسألك شيئاً مما يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنيين)^(١). قد يكون الوالد مستغن إلا أن الله تعالى يريد بالإحسان الإفاضة في العطاء والرأفة والحنان وإظهار الاهتمام مما يكون له التأثير البالغ في مراعاة الحاجات المادية والنفسية والمعنوية، ثم قال الإمام عليه السلام: ليس يقول الله عز وجل: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢) والإمام عليه السلام يستشهد بالآية ليبين أن الولد يجب المال ووالده لديه المال، ويُقدمه لوالده أو لوالدته ليكون

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٨٨.

مصدقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ (الإسراء: ٢٣) وقال ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ (الإسراء: ٢٣) (إِنْ أَضْجَرَاكَ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)^(١)، ونشير هنا إلى مسألة هامة تتعلق بكبار السن الذين لديهم رغبة في الكلام الكثير قد يؤدي بالولد إلى السأم والضجر والملل، ويتطلب مراعاة مشاعرهما إلى قدر كبير من التحمل والصبر، لئلا يضجر أمامهما بل يظهر لهما السرور والانشراح، ويؤدي التأدب تجاه الوالدين مظهرًا لهما الاستفادة من كلامهما الذي يسمعه، وفي كثير من الأحيان تصدر التوجيهات من الوالدين نتيجة لاختزان تجربة كبيرة تعود على الولد بفوائد جمّة قد لا يلتفت إليها إلا بعد زمن طويل، قال إمامنا الصادق ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) (الإسراء): (إِنْ ضَرَبَاكَ، فَقُلْ لَهُمَا غَفَرَ اللَّهُ لَكُمَا، فَذَلِكَ مِنْكَ قَوْلٌ كَرِيمٌ)^(٢) أي أَنْ تَدْعُوَهُمَا بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَبَيْنَ ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (١٤) (الإسراء) فقال ﷺ: (لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يديك فوق أيديهما، ولا تُقدم قدامهما)^(٣)، أي لا تتقدم عليهما في المشي، ونضيف هنا شرًا لقوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾، إِنَّ فَرَاخَ الطَّيْرِ تَتَعَامَلُ بِنَوْعٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَاللُّطْفِ عِنْدَمَا تَرِيدُ مِنَ الْأَبِ أَوْ الْأُمِّ الطَّعَامَ وَالرِّزْقَ لَيْسَ عِبْرَ الْإِشَارَاتِ وَالْمَوْجَاتِ الصَّوْتِيَةِ الَّتِي هِيَ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بَيْنَ الطَّيُورِ، بَلْ يُلَوِّحُ الطَّيْرُ الصَّغِيرُ بِجَنَاحِهِ، لِيُبْدِيَ ضَعْفَهُ وَتَوَاضَعَهُ أَمَامَ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وَهَذَا الْمَعْنَى غَايَةٌ فِي الدَّقَّةِ، فَالْمُتَتَبِعُ لِرَوَايَاتِ الْمُعْصومِينَ ﷺ يَجِدُهَا كَثِيرَةً وَكَثْرَتُهَا فِي حَضْرَتِهَا عَلَى بَرِّ الْوَالِدَيْنِ، جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا سَأَلَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ ﷺ: (الصَّلَاةُ لَوْ قُتِلَتْ) قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ شَيْءٍ؟ قَالَ: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ شَيْءٍ؟ قَالَ: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)^(٤).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٤، ص ١١٣.

معنى الوالدين

المقصود من الوالدين في الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، هما الوالد وإن علا، أي: (يشمل آباءه وأجداده)، والوالدة وإن علت (أي يشمل آباءها وأجدادها)، والآية شاملة لهما، وقد جاء تفسيرها بهذا المعنى في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، وفي أقوال علماءنا الأبرار.

تعامل النبي ﷺ مع البار بوالديه:

لقد كان النبي ﷺ يتعامل مع البار بوالديه بطريقة معينة، يُبدي فيها اهتمامه الخاص به، ويعطي للأمة درساً في برِّ الوالدين، ومن يتصف بهذه الصفة يجد أن التاريخ يحدثنا عن أنّ أخت النبي من الرضاعة، عندما جاءت إليه، احتفى بها الرسول ﷺ بحفاوةٍ بالغة وفرش لها رداءه، وأخذ يُحدثها ويُضحكها، ثم جاء أخوها بعد ذلك إلى الرسول ﷺ فتعامل معه بخلق حسن، لكنه بأقل مما تعامل به مع أخته، فلما سئل المصطفى ﷺ عن فعله، أوضح ذلك بقوله: (لأنّما كانت أبرّ بوالديها منه)^(١).

كيف نتعامل مع الوالدين ؟

إنّ الوالدين بعد أن يقضيا في الحياة الدنيا في كدح وتعب مضمن من أجل تحصيل العيش الرغيد لأبنائهما، يصلان إلى مراحل قد تصعب عليهما الحركة، ويعوزهما النشاط، ولا تسعفهما الحيوية، خاصة في مرحلة الشيخوخة التي يحتاج فيها إلى مزيد من الرعاية والاهتمام، وذلك يتطلب من الأبناء التعامل معهما بمتنهي اللطف والمحبة، ولا يراد بذلك أن يهتم باحتياجاتهما فحسب، بل يريد الله تعالى إظهار الذل والخضوع أمام الأب والأم، وذلك يُحقق للإنسان اللطف والعناية به بنحو لا يعلم به إلا الله تعالى، لقد قرأت الكثير من سير العلماء والصالحين الذين أجمعوا على أنّ برّ الوالدين من أسرار التوفيقات في العبادات والطاعات، والتحصيل العلمي، والقرب من الله، والمحبة لأهل البيت عليهم السلام ودفع البلاء.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢١، ص ٤٨٩.

وعلىنا أن نعلم أبنائنا على البر والاحترام لآبائهم وأمهاتهم، غير أن بعض الناس لا يلتفت إلى التربية السليمة التي ترشدنا أن نُربي الطفل منذ نعومة أظفاره على برّ الوالدين، لأن ذلك يحقق له السعادة ويوصله إلى الدرجات العالية التي يطمع الوالدان في أن يصل الولد إليها.

قصة واقعية في برّ الوالدين:

إنّ البار لوالديه يصل إلى درجات وتوفيقات لا يحصل عليها غيره فضلاً عن العاق، لقد ذكر لي أحد الثقة: أنّ أحد الرؤساء الكبار في منطقتنا عنده والد غير متعلم وبسيط، لكنه يحترمه في غاية الاحترام، وكان الوالد يتعامل بشدة وقسوة مع الولد، وفي قبال ذلك يتعامل الولد مع أبيه في غاية اللطف والمحبة، فلما سُئل الولد الذي كان في مستوى من العلم والموقع الاجتماعي كيف تتعامل مع والدك بهذه الطريقة؟ أجاب بجواب غاية في الروعة فقال: وما يدريك أنّي ما وصلت لهذا المنصب والمكانة الاجتماعية إلا نتيجة لبري به وتعاملي معه بالمحبة والاحترام.

زيادة البر بالأم

إنّ كل ما أمر الله تعالى به من بر للأب، فللأم ثلاثة أمثاله، وعلىنا أن نراعي هذا الجانب، إنّ ما دعاني للتحدث عن برّ الوالدين بعض العقوق التي نسمع بها للأسف الشديد، وليعلم أنّ من يعق الوالدين فإنه يدخر ذلك لنفسه في المستقبل، وسيحصل مأس لا يعلم بها إلا الله تعالى، أقلها الفقر والابتلاء وعدم التوفيق للطاعات وعدم التوفيق في علاقاته الاجتماعية مع الناس.

ولنحذر جميعاً من عقوق الوالدين ونُراعي ما أكد عليه القرآن الكريم والأحاديث المتواترة عن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام.



الانتخابات خطوة في الاتجاه الصحيح

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات) صدق الله العلي العظيم.

حديثي معكم في هذا اليوم يدور حول الايجابية الحاصلة من المشاركة في الانتخابات البلدية، وما يترتب على المشاركة فيها من فوائد لنا ولوطننا.

وقبل البدء أشير إلى أنّ تقدّم الأمم والمجتمعات مرهون بالأعمال والأفكار التي تصدر من لَدُن هذه الأمم والمجتمعات، وبقدر ما يصدر منها من أعمال وتخطيط وفكر بناءً تتقدم.

المقارنة بين النظرية الإسلامية والنظريات الأخرى

إنّ أدنى تتبع للنظريات الحديثة في التقدم الحضاري للأمم والشعوب نجد أنها تختلف مع النظرية الإسلامية شكلاً ومضموناً، وكي يتجلى لنا الاختلاف بوضوح نستعرض إحدى النظريات في علم الاجتماع القائلة: (إنّ الأمم والحضارات لها ضعف وقوة فضعف فموت) أي أنّ الأمم والحضارات تمر عليها مراحل أربع: مرحلة الضعف ومرحلة القوة ومرحلة الضعف بعد القوة، ثم مرحلة الموت، غير أنّ آيات القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي ﷺ

وأهل بيته تؤكد أنّ الأمة تتقدم من خلال أعمالها وسعيها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم)، والنظرية السابقة التي يرتئها بعض علماء الاجتماع لا تتفق مع ما يُستظهر من آي القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته  من عدم ذكر للضعف أو الموت إذا صلح العمل وصلحت الذات، هذا بالإضافة إلى أنّ كثيراً من النصوص الإسلامية تُبين أهمية التخطيط والسعي والكد والعمل للوصول إلى التقدم والازدهار في المجالين الشخصي للفرد والاجتماعي للأمة.

العوامل المؤثرة في تقدم الأمم

هناك عوامل لا بدّ أن تأخذ بها الأمم كي يتأتى لها التقدم إلى الأمام، نذكر بعضاً منها:

الأول: التخطيط.

إنّ التخطيط لتطوير الأمة يُحقق النجاح الباهر، ويتأتى من خلال أمور ثلاثة:

الأول: إعداد دراسات علمية شاملة تهتم بتقصي الأسباب التي تؤدي إلى تراجع الأمة ومعالجتها والقضاء عليها.

الثاني: أن تكون هذه الدراسات شاملة وتحت إشراف متخصصين في مجالات متعددة كي يتحقق ما تصبو إليه الأمة من تقدم وازدهار.

الثالث: استشراف المستقبل والنظر إلى الأمام، كي لا تكون النظرة أو الدراسة محدودة بفترة زمنية قصيرة لا تُحقق طموحات وآمال الأمة فتكون نتائجها محدودة.



الثاني: مسؤولية الفرد تجاه المجتمع.

إنَّ بعض الناس بل الكثير منهم لا يُولي اهتماماً بالمصالح الاجتماعية، ويصب اهتمامه بمصالحه الشخصية، وذلك لا يُحقق رضوان الله تعالى، إذ أنَّ الشريعة الإسلامية أولت عناية فائقة بالمصالح الاجتماعية، قال النبي ﷺ: (خيرُ الناس أنفعهم للناس)^(١) والذي لا يحاول أن يوصل النفع إلى الآخرين ويسعى لتحقيق مصالحهم لن يكون محبوباً عند الله تعالى، أما من سعى لإيصال النفع إليهم، فهو المحبوب في الحديث القدسي: (الخلقُ عيالي، فأحبُّهم إليَّ الطُّفُّهم بهم، وأسعاهم في حوائجهم)^(٢) والنبي ﷺ وأهل البيت  لم يقتصر دورهم على حث الناس بالاهتمام بالمصالح الاجتماعية بالقول فحسب، بل جسدوا ذلك بسلوكهم العملي وسعيهم الحثيث في قضاء حوائج الناس وإيصال النفع إليهم عبرَ آليات متعددة وسبل متنوعة، تختلف بحسب تطور المجتمع وتوسع ثقافته وازدياد إمكانياته التي لها الأثر الفعّال في الرقي الدائم للأمة.

الثالث: المراقبة والمحاسبة.

من العوامل التي تحقق التقدم وتنبتق مما تقدم المراقبة والمحاسبة، لمن يتبوأ منصباً في الدولة، حتى وإن كانت نواياه طيبة حسنة، ويمتلك خبرات جيدة إلا أنَّ ذلك لا يكفي، والمسؤول بحاجة إلى أمور كي يرقى إلى الأفضل:

الأول: إدخال خبرات ومهارات أخرى لها دور في تكامل العمل الوظيفي، إذ أنَّ الإنسان مهما أُوتي من العلم يحتاج إلى غيره، قال تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢) وطبيعة الحياة يحتاج فيها بعض الأفراد إلى بعضهم الآخر، وتلك سُنةٌ كونية وقانونٌ عام.

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٢، ص ٣٩١.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٦، ص ٣٦٧.



الثاني: المراقبة التي تقوم على أساس متابعة عمل الموظفين ومستوى آدائهم الوظيفي.

الثالث: المحاسبة التي تبتني على الأمر السابق، ليتعرف على مواطن الضعف في عمل الموظف وأسبابها لكي يتم معالجتها، خصوصاً إذا كانت عن تقصير في الأداء الوظيفي، لإسداء النصيحة له والتحاور معه لتقديم أفضل الحلول الناجعة لتطوير العمل.

الرابع: أن يكون القرار المتخذ مبنياً على الرؤية الثاقبة للأمور التي تستوعب الظروف المحيطة بالإدارة والعمل والموظف، ومحاسبة أصحاب القرار حال اتخاذهم أي قرار من دون دراسة الظروف المحيطة به، والمراقبة والمحاسبة للمسؤول والإدلاء بالنصيحة له ومشاركته الرأي من أهم المبادئ في التطور الاجتماعي للأمم، قال المصطفى ﷺ: (الدين النصيحة)^(١) يشير ﷺ إلى هذا المعنى، أي تقديم ما يستطيعه المرء لإيصال من يتبوأ مقام المسؤولية إلى اتخاذ القرار المناسب.



الرابع: التعاون.

ويراد به اشتراك الجميع في إيصال المجتمع إلى الخير، وإذا لم يحدث تعاون اجتماعي وكانت الروح إتكالية لا يهتم بعض الأفراد بما يحدث، فإن ذلك من عوامل التقهقر والتخلف، والعكس من ذلك إذا نظر الناس إلى المستقبل وتعاونوا مسهمين في إصلاح ما يمكن أن يُصلَح، سَيُسْهِمُ ذلك إيجابياً في تقدم المجتمع، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)، فالتعاون من العوامل الهامة التي تُسهم في التطوير والرقى للمجتمع.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٢٧٨.

الخامس: الاستفادة من تجارب الأمم والشعوب الأخرى.

الاستفادة من منجزات ومكتسبات الحضارات الأخرى مبدأ عام أشار إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجَدَّلُ لَسُنَّةٍ اللَّهُ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢)، والشهيد الصدر (رحمته الله) يسمي ذلك بالسُنن الكونية، والإنسان عليه أن يدرس العوامل والسُنن التي حققت التقدم للأمم، كي يستفيد منها ويسير على وفقها لتحقيق أهدافه.

أهمية الانتخابات في العصر الحديث

إنَّ الانتخابات والمشاركة في الرأي من أهم الأسُس التي تُطور المجتمع في العصر الحديث، من خلال الدور المهم الذي تُعطيه للإنسان في إبداء رأيه والإدلاء بصوته، وعلينا أن نسير على وفق المكتسبات والمنجزات التي حُقِّقَت في الحضارات الأخرى، وذلك لا يتنافى مع إسلامنا الحنيف، فقد ركز النبي ﷺ على مبدأ الشورى في الأمة، ومارس ذلك لأجل غرس مبادئ المشاركة في الرأي من قِبَل الأمة، والأمم الأخرى تفوّقت علينا بالانتخابات، وحققت منجزات كبيرة، وعلينا إذا أردنا أن نحفظ لأمتنا الإسلامية كرامتها والسعي إلى التقدم أن نحترم الرأي الآخر ونشارك في صنع القرار الذي يُحقق التقدم.

إنَّ مسألة الانتخابات البلدية خطوة في الاتجاه الصحيح، تُسهم في جعل القرارات المتخذة في البلدية على أُسُس من الموضوعية والدراسة لتلامس حاجات الناس، وأن يكون المُنتخَب محاسباً فإذا شارك في اتخاذ قرارات غير صائبة فقد ثقة الناس، ولم يُجدد انتخابه في دورة أخرى، فيكون ذلك دافعاً لبذل قصارى جهده في تقديم أفضل السُّبل والحلول لرفي مجتمعه ووطنه.

قد يقول بعض: إنه لا تترتب آثار مفيدة على المشاركة في الانتخابات فيقاطعها.

وذلك غير صحيح، نعم؛ قد لا تترتب الآثار الكبيرة والعظيمة على الانتخابات بادئ ذي بدء، لكنه إذا كان المُنتخب لديه الأهلية الكاملة لتقلد المسؤولية وتلمس حاجات الناس، وكان لدى الناس اهتمام كبير على مستوى المساءلة والمراقبة والمحاسبة لمن يُنتخب، والإلحاح في المطالب ومتابعتها، فعندئذ تتحقق النتائج الباهرة والفوائد الكبيرة التي تعود على المجتمع والوطن.



دور التقليد والمحاكاة في تقدم الأمم

قال الله تعالى في القرآن الكريم - حاكٍ عن إبراهيم عليه السلام في ذمه لقومه لما اتخذوا الأصنام وعللوا ذلك بأنهم وجدوا آباءهم الأولين على عبادتها-: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء) صدق الله العلي العظيم .

والآية الكريمة تدم التقليد إذا كان لا يؤدي إلى الخير، وتمدحهم إذا كان على أسس وضوابط عقلية.

إيجابيات المحاكاة والتقليد الممدوح:

التقليد من الظواهر الاجتماعية التي تسهم في تقدم المجتمعات تارة، والتأخر تارة أخرى، والإنسان يحتاج إلى التقليد كي يتقدم في العُرف الاجتماعي والجانب الثقافي وجميع مجالات الحياة، إنَّ الأخذ بالتقليد إذا كان يسهم في رقي المجتمع وصعوده فإنه تقليد نافع، وقد أشار القرآن الكريم إلى احتياج الإنسان في التعلُّم إليه في قصة ابني آدم عندما قتل قابيل هابيل، ثم تعلَّم كيفية المواراة لجسد أخيه باستفادته من الغراب الذي رآه يُواري غراباً آخر في التراب، والقصة القرآنية وإن كانت واردة في ذم فعل قابيل إلاَّ أنها يمكن الاستفادة منها في تعلم المحاكاة وتطوير قدرات الإنسان، وتفعيل مهاراته، والشارع المقدس شجع على ذلك عبر آيات القرآن الكريم والأحاديث المروية عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام.

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يتقدم باطراد إلا بالمحاكاة والمجاراة والأخذ بما هو مفيد لدى غيره في العلوم والفنون والتقنيات مما يوجب تقدم الأمة، ولعل من أبرز الأمثلة في العصر الحديث محاكاة اليابانيين للغرب في مجال التقنيات والتكنولوجيا، فالأمة اليابانية خَطَّت خطوات كبيرة جداً في المائة والخمسين سنة الماضية، واستطاعت أن تتفوق في بعض المجالات على الغرب بالمحاكاة والمجاراة، إذن المحاكاة والمجاراة إذا كانت تسهم في تفعيل القدرات فهي أمرٌ محمود خصوصاً إذا كانت قائمة على أصول وثوابت تنسجم مع العقل والدين فإنّ التقليد سيكون رائعاً وجميلاً.

خطر المحاكاة والتقليد المذموم:

والمحاكاة كما تُسهم في تقدم الإنسان قد تُسهم في تأخره إلى الوراء، بل قد توجب الذل والهوان له، والتقليد كما يكون لدى الفرد، يكون لدى المجتمعات والأمم والشعوب، ويؤثر سلبياً على الفرد، ويشتد تأثيره إذا كان من قبل أمة لأمة أخرى، إذ يحمل سلبيات كبيرة في مقدماتها، ما يطلق عليه العقل الجمعي، أي أنّ من سلبياته أنّ المجتمع يفقد قدراته الإبداعية في فهم الصواب والخطأ، ولا يستطيع أن يميز بينهما لقوة الإعلام والدعاية التي تُفقد الكثير من الأفراد وتبعده عن التمييز بين الصواب والخطأ، ولعل ما أثاره المشركون ضد المصطفى ﷺ بأنه ساحر أو مجنون شكّل مثلاً للعقل الجمعي، غير أنّ النبي ﷺ استطاع أن يُفكك ذلك العقل الجمعي بدعوتهم أن يقوموا لله مشنّى وفراذى ثم يتفكروا هل أنّ صاحبهم مجنون أم أنه يتمتع بقدرات كبيرة في العقل ورجاحة وحصافة في الرأي؟ إنّ النبي ﷺ كان يرى التأثير السلبي للعقل الجمعي على المجتمع بأكمله، إذ يسلب قدرات الفرد والمجتمع فلا يستطيعان معرفة الصواب.

إذاً التقليد له سلبيات كبيرة خصوصاً إذا كان من قبل الأمة لأن أفرادها سوف يسировون في الاتجاه العام لعدم امتلاكهم موازين التمييز للخطأ من الصواب لذا



عالج النبي ﷺ ذلك بالتفكير المتوازن بين عدة أفراد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفَرْدًا ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦) ﴿سبأ﴾.

النبي إبراهيم عليه السلام في مواجهة التقليد المذموم

إنَّ التقليد إذا كان لا ينسجم ولا يتلاءم مع العقل فهو منبوذ ومذموم شرعاً، وقد جاءت آيات وروايات في ذمه ولكي يتضح ذلك ويتبين تأثيره نستعرض بعض آيات الذكر الحكيم التي تبين الميزان في المحاكاة والتقليد، وبالتأمل فيها يتبين ما نريد أن نصل إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ (٥١) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عِبَادِينَ﴾ (٥٣) ﴿الأنبياء﴾، إنَّ قوم إبراهيم عليه السلام قالوا إنَّ السبب في عبادة الأصنام هو أنهم وجدوا آبائهم لها عابدين، مع علمهم أنها لا تضر ولا تنفع، إلا أنهم يسرون على مسار الآباء، قال تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عِبَادِينَ﴾ (٥٣) ﴿الأنبياء﴾، ثم ردَّ عليهم الخليل عليه السلام، ف ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٥٤) ﴿الأنبياء﴾، وعليه فالتقليد هنا والمحاكاة ضلالة، ثم سأله قومه، ف ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ (٥٥) ﴿الأنبياء﴾، إذ أنَّ العادة أن يكون بعض المُنذرين من أصحاب الأهواء الذين لا يحملون القيم ولا يجسدون المثل، فأجابهم عليه السلام قائلاً: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٦) ﴿الأنبياء﴾، أي أنَّ إبراهيم عليه السلام بعد أن وجد أنَّ الموعظة والفكرة لا تفيد أراد أن يُبلور المفهوم بأسلوب عملي فقال عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٧) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ (٥٨) ﴿الأنبياء﴾، فلما رجعوا ورأوا أصنامهم كُسرت من قبله عليه السلام ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠) ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٦١) ﴿الأنبياء﴾ فوجهوا التساؤلات له عليه السلام، ف ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٢) ﴿فَأَجَابَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣) ﴿الأنبياء﴾، هذه علامة

استفهام وضعها ﷺ لقومه إذا كانوا يمتلكون الرشد والعقل والمنطق ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ﴿الأنبياء﴾، أي اكتشفوا خطأهم، فالأصنام لا تمتلك عقلاً، ولا تستطيع نطقاً، فكيف تعبد؟ ومن رجع إلى نفسه وبدأ بالتفكير تجلّى له الحق وأدرك الصواب باستخدام العقل والبرهان، قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ﴿الأنبياء﴾، أي أنه بالرغم من علمهم أنهم لا ينطقون ولا يعقلون إلا أنهم عبدوهم تبعاً لآبائهم، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿الأنبياء﴾، أي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (الأنبياء)، ونلاحظ هنا أن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبيان أن المحاكاة وتقليد الآباء والأجداد قد يضر وقد ينفع، فإذا كان يفيد الإنسان ويثريه في الثقافة والخلق وتحذير القيم، فذلك أمر مطلوب، وإذا كان يضره ولا ينسجم مع منطق العقل والبرهان فذلك تقليد مذموم إوهو الذي عناه الخليل ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) ﴿الأنبياء﴾، أي أن العاقل لا بد أن يجعل مساره ومحركاته للغير ينسجم مع منطق العقل وموازن البرهان، إن التقليد أمر طبيعي، وقد أكد علماء النفس والاجتماع أن الإنسان إذا استمع إلى شخصين بينهما نزاع، فإنه يحاكي في ردود فعله نزاعهما، فإذا ارتفع النزاع ارتفعت المحاكاة، وإذا حزن أحد المتخاصمين يحزن، وإذا ضحكا يضحك فيحزن ويضحك تبعاً لما يراه في نزاعهما، وعليه أن يُحْكَم موازين العقل والمنطق.

دور الأسرة في إيضاح فكرة المحاكاة

إن الأبوين مدعوان إلى غرس تأثير المحاكاة والتقليد إيجاباً على الأولاد والبنات، إذ أن محاكاة الغير خصوصاً إذا كان يتمتع بالرفاه المادي والسلطة القانونية، فإن من يحاكيه يتأثر به إذ أنه الأقوى، والأضعف يتبع الأقوى دائماً إلا من عصمه الله تعالى وسار على موازين العقل.

القواعد الأساسية في طرح فكرة التقليد

إن شرح الأبوين الآثار السلبية والإيجابية للتقليد يتحقق بسيرهما على وفق القواعد التالية:

الأولى: البحث عن ظاهرة المحاكاة، وفهم المردود الإيجابي وتشجيع الأبناء على تلك المحاكاة، وإذا رأيا المردود السلبي أكّدا على أهمية الابتعاد عنها.

الثانية: تبيان أنّ المحاكاة لا بد أن تتلاءم مع موازين العقل والمنطق.

الثالثة: إدخال الأبناء والبنات في اختبار لرفع مستوى الكفاءة والقدرة التمييزية لديهم وتحصينهم عن المحاكاة والتقليد السلبي، وقد ورد عن الإمامة عليه السلام توجيهات لتبيان كيفية إفهام الآخر وما ينبغي عليه أن يكون عندما يختبر غيره، ويفيدنا ذلك في الأسلوب التربوي، قال الإمام الصادق عليه السلام: (إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد فَحَدِّثْهُ في خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكره فهو عاقل وإن صدقه فهو أحمق)^(١) أي أنّ الاختبار يُوضح أنّ المختبر هل يسير على وفق الموازين العقلية أم لا؟ ويفيدنا ذلك في الجانب التربوي لأبنائنا وبناتنا، ذلك أنه عندما نطرح عليهم الأفكار والقصص نرى أنهم هل يصدقون كل ما يسمعون أو يسرون في الاتجاه غير المدروس أم أنهم لا يمتلكون حصانة ذاتية بسبب الأسلوب التربوي الذي تلقوه من الأبوين.

الرابعة: إنّ العاقل لا يكتفي برأيه بل يحاول أن يستشير ويُشرك الآخر للوصول إلى النتائج الإيجابية الحميدة، وعليه فعندما يسير في اتجاه خاص أن لا يكتفي بقدراته العقلية وحدها، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (حقّ على العاقل أن يُضيف إلى رأيه رأي العقلاء، ويضم إلى علمه علوم الحكماء)^(٢) والعاقل جدير أن يربي أبنائه على

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٠٥١.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٢٥.

الاستشارة بإشراكهم في الرأي، والتأكيد على أنهم مهما وصلوا إليه من قدرات تفوقية وتميز سليم، لن يكتفوا بذلك بل يحتاجون إلى ضم ما لدى العقلاء الآخرين إلى عقولهم ليصلوا إلى الصواب.

الخامسة: المعرفة بالزمان، فالزمان الذي نعيشه له سماته، إذ أننا نعرف أنّ هناك حضارات أقوى من حضارتنا في المجال المادي والأضعف يتبع الأقوى، وإذا كان الأقوى لديه سلبيات كثيرة، فإنّ على الأضعف أن يأخذ الجانب الإيجابي فحسب، قال الإمام الصادق عليه السلام: (على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه مُقبلاً على شأنه)^(١).

هذه قواعد خمس تفيدنا في تعليم أبنائنا وأسرنا ليأخذوا التقليد الإيجابي وينبذوا السلبي.



(١) ميزان الحكمة للريشهري ج ٣ ص ٢٠٤٧.

الوعي الاجتماعي للوقت في العطلة الصيفية

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر) صدق الله العلي العظيم.

أهمية الوقت في حياة الإنسان

هذه السورة المباركة تبدأ بالقسم بالعصر، وله معانٍ متعددة، فمن معانيه الزمن، ويحتل أهمية كبيرة في حياة الإنسان وفي حياة الأمم والشعوب والحضارات، ويكفي أن الله تعالى دلل على هذه الأهمية الفائقة في القرآن الكريم بالقسم به في آيات متعددة، كالعصر الذي يشمل في بعض معانيه الزمن كله، غير أن هناك فترات من الزمن خاصة أقسم بها القرآن الكريم لأهميتها، كالليل، ﴿وَالَيْلُ إِذَا بَغِثَ ۝١﴾ (الليل)، والضحى، ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَالَيْلُ إِذَا سَجَى ۝٢﴾ (الضحى)، والفجر، ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ (الفجر)، وهناك إشارات متعددة في القرآن أبان فيها الحق تعالى أهمية الوقت في حياة الإنسان كفرد، وفي تقدم الأمة كمجتمع.

الهدف من القسم في القرآن

الحق تعالى عندما يقسم بشيء فهو دليل على أهميته في النظام الكوني، وهذا ما أوضحه المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ (الواقعة)، إذ أن مواقع النجوم لها أهمية خاصة في النظام الكوني،

فلذلك أقسم الله تعالى بها، وكذا الحال، في الفترات المحددة إذ أنّ لها أهمية كبيرة في حياة الإنسان والمجتمع، فوردَ القَسَمُ بها.

مشكلة الوقت لدى الشباب

لا بد أن نبه على الأهمية الفائقة للوقت والزمن في حياتنا وحياة أبنائنا وبناتنا، لأننا نعيش إشكالية كبيرة في عدم الاستفادة المثلى من الوقت، فهناك الكثير من الشباب والفتيات يعيشون هذا المأزق، ويظهر ذلك في حديثهم، فتجد أحدهم يعبر بأننا نريد قتل الوقت أو أننا نعيش السّامة والملل بسبب عدم انقضائه، والناس يختلفون في أزمة الوقت، فهناك من لا يجد الوقت الكافي لتحقيق أهدافه وانجاز ما أعده لنفسه من أولويات والعكس من ذلك، من يعيش أزمة في مسألة الوقت لعدم إدراكه لأهميته.

استغلال الوقت في العطلة

ومن هنا على الآباء وأولياء الأمور خصوصاً في العطلة الصيفية - التي تقرب من ثلاثة أشهر- أن يثقفوا أبناءهم وبناتهم على أهمية الوقت من ناحية، وعلى كيفية الاستفادة المثلى منه من ناحية أخرى، أي أنه لا بد أن نجعل الأبناء والبنات يعون الأهمية الفائقة للوقت، والذي لا يدري أهمية الوقت يذهب وقته هدرًا، ويقضي وقته في جلسات مُملة، لا تعود عليه بفائدة، كمن يجتمع في البساتين والمزارع لقضاء الوقت في التدخين وتناول المعسل والنارجيلة، ويقضي جُل وقته في حديث فارغ ليس لإجراء حوار أو مناقشة لمسألة هامة، بل همه القضاء على الوقت، وإن كان في أمورٍ تعود عليه بالضرر.

أهمية الوقت في الإسلام

في ثقافتنا الإسلامية لا معنى لما يسمى بقتل الوقت وإضاعته فيما لا نفع له، بل العكس من ذلك عندما نرجع إلى آي القرآن الكريم والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت  نجد تركيزاً كبيراً على أهمية الوقت، قال النبي



عليه السلام: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت)^(١) والشاهد في هذه الرواية قوله عليه السلام: (عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه)، حيث أنّ فترة الشباب تمثل حيوية كبيرة في حياة الإنسان ولا بد أن يعي تلك الفترة، التي هي أعظم ما يملكه الإنسان في حياته.

رقي المجتمع في وعيه الصحيح للوقت

قد نسمع أنّ الوقت كالذهب غير أنّ الوقت لا يساوى بالمال في الأهمية، فالوقت أعظم من المال، فلا يساويه شيء، إذ هو جوهر العمر الذي يستطيع الإنسان فيه أن يحقق الانجازات والأهداف التي يطمح إليها، فإذا قضى وقته فيما لا نفع فيه فقد ذهب عمره سُدًى، وهذا يعني أنه أنفق أعظم نعم الله عليه دون فائدة، غير أنه يمكن لمن يعي الأهمية للوقت أن تُسهم ثقافة إدارة الوقت في ترقيته وترقية مجتمعه فيما لو ركّز على ثلاث نواحٍ هامة:

الأولى: التوعية بأهمية الوقت.

إنّ تثقيف أبنائنا وبناتنا بأهمية الوقت في حياتهم لا بد أن يتم في جهتين، فردية، يُؤكد فيها على ما يمثله الوقت للإنسان كفرد، واجتماعية، يُبين فيها تأثير الوقت على المجتمع في نموه وازدهاره، إذ أنّ الوقت جزء من حياتنا التي نحقق فيها الانجاز للمجتمع وللأمة في كل مجالات التقدم وعلى جميع الأصعدة، فإذا هُدِرَ الوقت وذهب سُدًى، فسوف يؤدي إلى إيجاد خلل في مجال التقدم والتنمية للمجتمع والوطن. والتثقيف بأهمية الوقت لأنفسنا وأهلنا - وبالخصوص أبنائنا وبناتنا - يرفع عنهم المعاناة لأزمة الوقت في العطلة الصيفية، التي يشعرون فيها بالسأم والضجر، ولا يعون استثمار الوقت، وهذا ما نشاهده لدى بعض الشباب الذين يفترون الطرق للعب الورق طوال الليل، وهو مما يندى له الجبين، فمرحلة الشباب هي من أهم مراحل عمر

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ٦٢٢.



الإنسان التي ينبغي الحفاظ عليها والاستفادة منها، كي لا تهدر وتستهلك في اللعب الذي لا فائدة منه، والفائدة المرجوة تكمن في أن يقضي الشباب أوقاتهم في قراءة كتاب أو تعلم مهارة، أو النوم مبكراً كي يستيقظ وملؤه الحيوية والنشاط لأداء عملٍ مفيدٍ، فلا يقضي نهاره في النوم والكسل، مما يُنبأ عن ثقافة لا واعية تجاه الوقت.

الثانية: الاستفادة المثلى من الوقت.

بعد بذل قصارى الجهد في التركيز على ثقافة الوقت وفهم الكيفية في ترسيخ مبادئ هذه الثقافة الهامة علينا أن نبين لأبنائنا وبناتنا الاستفادة المثلى من الوقت، وعلى الآباء والأمهات أن يستخدموا وسائل متعددة وطرقاً مختلفة لتحصيل هذه الثقافة، فنحن لا نعيش في الزمن الذي قضاه أجدادنا يصعب علينا تحصيل المعلومة، بل، إنّ الإنسان في زماننا يستطيع الحصول على المعلومة التي يطمح إليها بسهولة ويسر، ومن أهم هذه الطرق التي توصله إلى ذلك، أن يشتري كتاباً في إدارة الوقت، ويُقدم الكتاب هدية لأسرته، فهذا من أحسن الهدايا وأفضلها، فالمكتبات فيها عشرات الكتب، بل المئات تتحدث عن إدارة الوقت، ومن المؤسف أن الناس لا يهتمون بالقراءة التي ترفع مستواهم الثقافي في هذا المجال الهام الذي يُحسّن من قدراتهم وإسهاماتهم الاجتماعية، إذن علينا أن نبذل قصارى الجهد في تثقيف أبنائنا بأهمية الاستفادة من الوقت من خلال طرح تساؤلات متعددة عليهم، كيف تقضي وقتك؟ وماذا تريد أن تنجز في العطلة الصيفية ككل؟ وماذا تريد انجازه في هذا اليوم أو في هذا الأسبوع أو في هذا الشهر؟

الثالثة: تلافي نقاط الضعف ومعالجتها.

وهنا يحسن بنا أن نذكر بعض الملاحظات، التي لها تأثير فائق في تعليم الأبناء والبنات كيف يستفيدون من الوقت، بالتركيز على أهمية تلافي نقاط الضعف لديهم، فإذا كان لدى الأبوين ابنٌ ضعيف في حقل علمي خاص - الرياضيات - فلا بد أن يكون في العطلة الصيفية قد تلافي هذا الضعف، وهكذا في كل عطلة صيفية

يُحدد هدفاً عاماً لها، فيُسعى لرفع مستوى الابن في الحقل العلمي الذي أخفق فيه، وتحقيق الهدف الذي وُضع لتطويره، وكذا الحال إذا كان الابن ضعيفاً في الجانب الأخلاقي أو في جانب القيم، لا بد أن يُجعل ذلك هدفاً في العطلة الصيفية لرفع مستواه، وقد تحدث القرآن الكريم في بيان إسداء النصيحة للأبناء بحوار لقمان مع ابنه، ﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلَى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٧﴾ (لقمان)، فهذا درس قرآني عظيم يعلمنا كيف نعلم أبناءنا ونسدي لهم النصيحة بطريقة مؤثرة.

برمجة الوقت في العطلة الصيفية

بعض الناس ليس لديه هدف، فهو كما عبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : (كالبهيمة المربوطة همها علفها)^(١) وبعض آخر لديه أهداف بعيدة المدى من الناحية الزمنية، وأخرى متوسطة، وثالثة قصيرة، لذا، لا بد من تعليم أبنائنا كيفية الاستفادة من عمرهم وأوقاتهم الخاصة - العطلة الصيفية - أو العامة التي ترتبط بالعمر كله، كي يسعون إلى تحقيق انجاز لأنفسهم، ويتقدمون خطوات إلى الأمام، وهذا معنى التثقيف بكيفية الاستفادة من الوقت مع التأكيد عليه بكتابة أهدافه بوضوح وبيان نقاط الضعف في شخصيته حتى يتسنى له تلافيها في العطلة الصيفية، وقد لا يستطيع أن يحقق إلا بعضاً منها، لكن المهم هو أن ينجز القليل وبالتدرج سوف يحقق ما يطمح إليه، ومن خلال كتابة الأهداف وتقسيم الوقت ووضع أجندة بالأولويات التي يريد أن يحققها فإن الأبناء والبنات يتعلمون الطريقة المثلى في الاستفادة من وقتهم، فإذا كان يقضي في أيام الدراسة ست أو سبع ساعات في المدرسة، فعليه أن يقضي في العطلة ساعتين للراحة والاستجمام واللعب والمرح وما إلى ذلك من الأمور التي لا تعني برنامجاً جاداً، ولكن عليه أن يقضي الباقي من الوقت - خمس ساعات من السبع - فيما يعود عليه بالنفع من خلال البرمجة ووضع الأولويات وقراءة الكتب وبالخصوص ما كان منها في إدارة الوقت وكيفية الاستفادة منه، مثل قراءة سيرة العظماء الذين استفادوا من أوقاتهم،

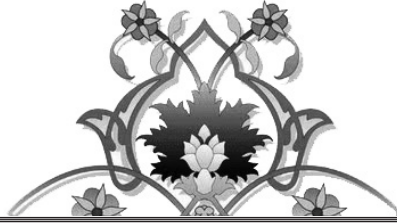
(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٢٨٠٢.

ككتاب، (معاقون ولكن عظماء)، الذي يتحدث عن من لديه إعاقة إلا أنه بالصبر والثبات والاستفادة من وقته استطاع أن يحقق انجازات كبيرة لنفسه، بل للبشرية جمعاء، فإذا كان المصاب بإعاقة يتمكن أن يحقق انجازات كبيرة، فحرّي بالإنسان السوي الذي يتمتع بكامل قدراته وقواه أن لا يقضي وقته هدرًا.

أفضل استثمار للوقت

إنّ من أعظم ما يستفيده الإنسان تعلم القرآن، ليس في القراءة والتجويد فحسب، وإنما كمنهج وسلوك، فقد كان النبي ﷺ خُلِقَ القرآن، وهذا ما أبانته سورة العصر بأنّ الإنسان في خسران دائم، إذا لم يكن على ارتباط وثيق بالحق تعالى من خلال الإيمان الراسخ عقدياً، والعمل الصالح سلوكياً، الذي يؤثر على مسيرة الإنسان، فيوصله إلى ما يطمح إليه.





الفصل الثالث:

■ ■ هموم الشباب ■ ■



الامتحانات ... حصاد الموسم الدراسي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١) صدق الله العلي العظيم.

وقال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (قيمة كل امرئ ما يحسنه)^(١).

الأيام الأخيرة من السنة حصاد الموسم الدراسي، وتتطلب من التلميذ عناية خاصة، ومن الوالدين أيضاً ذلك أنّ الشار المرجوة للعام الدراسي بأكمله تقطف في هذه الأيام، لذا نذكر بتذكيرات هامة لها مدخلية في الوصول إلى أفضل النتائج ونيل أعلى الدرجات، ونصنفها إلى صنفين:

الأول: التذكيرات المعنوية التي لها دخل في تحصيل الطالب.

الثاني: التذكيرات المادية، التي تتطلب الالتفات إلى بعض التقنيات الخاصة ليحصل الطالب على مزيدٍ من الدرجات ويصل إلى ما يروم.

أما ما يتعلق بالجانب المعنوي فهو أمور:

الأول: الاستعانة بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة)

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١، ص ١٦٥.

الاستعانة بالله تعالى غاية في الأهمية لكل عمل كبر أو صغر، وتتأتى بمفردات:

١- الدعاء: أن يدعو الطالب الله تعالى، وكذلك يدعو الوالدان له بمزيد من العناية والتوفيق الإلهي، والدعاء يتطلب عملاً كما ورد في الروايات، وله تأثيره الكبير في إيصال الطالب إلى ما يريده.

٢- الصبر: وهو التحمل مع مزيدٍ من العمل، فالصابر هو الذي يبذل قصارى جهده في العمل ويترقب النتائج من الله تعالى، ولا يختص ذلك بالتحصيل العلمي، فكل سير إلى هدف محدد، وكل عمل من الأعمال التي يقوم بها الإنسان عليه أن يستعين بالصبر.

وهناك مفردات متعددة مؤثرة في الجانب المعنوي، نذكر بعضاً منها لكونها تجلب التوفيق للمحصلين من الأبناء، أهمها:

١- بر الوالدين: فالبار بوالديه يكتب له التوفيق من الله تعالى.

٢- ذكر الله تعالى: فعلى الطالب أن يذم من بعض الأذكار التي تؤثر خصوصاً في المراحل العالية، فهناك أذكار تجلب التوفيق في التحصيل العلمي، منها (الصلاة على محمد وآل محمد) هذه الصلوات خفيفة على اللسان، سهلة ويسيرة لكنها مؤثرة في التوفيق لطلب العلم ودفع العقبات، وتأثيرها لا يعلم به إلا الله تعالى، وقد رأيت في سير العظماء من علمائنا أن من أسباب توفيقهم الإكثار من الصلاة على محمد وآل محمد، وقد ذكر بعضهم أن من أسرار حياته العلمية الإدمان على هذه الصلوات، وهناك عشرات من المفردات غير إني ذكرت أهمها.

أما ما يؤثر في الجانب المادي فهو كثير، نذكر منه بعض المفردات الهامة:

الأولى: تكرار الدرس: وهو سرٌ عظيم لمن يريد أن يصل إلى مراتب عالية في التحصيل العلمي، فلا بد أن يتعاهد دروسه أولاً بأول وأن يكررها كي يتقن



المطالب العلمية، وفي سيرة علمائنا الأكابر أمثلة تحتذى فالشهيد الثاني رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «ما أخذت درساً إلا وكررت ما لا يقل عن خمسة عشر مرة» (النظر في مصدر منية المريد - تكرار الدرس) ولذا تبوأ المكانة العالية والمقام السامي، وعلينا أن نعلم أبنائنا وبناتنا أهمية التكرار للدروس المتلقاة منذ البدء أولاً بأول، خصوصاً الدروس التي يصعب على التلاميذ الانسجام معها، كاللغة الإنجليزية والرياضيات وقواعد اللغة العربية والفيزياء وبعض الدروس الأخرى التي تصعب على بعض التلاميذ، فتذليل صعوبتها بتكرارها.

الثاني: الاستفادة من الوقت: وهو يماثل التكرار في الأهمية، فعلى المحصل أن يقسم وقته إلى أقسام، إنَّ الوقت بعضه وقت الذروة من النشاط كفترة الصباح لبعض الأشخاص أو فترة المساء لبعض ثانٍ أو العصر لبعض آخر، وينبغي أن يلتفت الإنسان إلى ذاته ليرى وقت النشاط والفاعلية وقمة العطاء المناسبة له، ويحاول أن يكرر المعلومات ويذاكر دروسه في وقت نشاطه ويرجى الأعمال الأخرى عن وقت الذروة، وهذه تقنية خاصة للوصول إلى الهدف، لا بد من تعليمها لأنفسنا وأبنائنا وبناتنا ليصلوا إلى المقامات السامية.

ومن التذكيرات الهامة خاصةً للمرحلة الثانوية ومخصوصاً للصف الثالث الثانوي والتحصيل الجامعي كذلك المباحثة العلمية، فهي جد هامة ولها فاعلية في الحوزة العلمية، ومن أفضل الطرق للتحصيل العلمي وتركيز المعارف والمعلومات، وقد رأيت بعض الدكاترة يشيدون بالحوزة العلمية لهذه التقنية الخاصة التي من النادر أن تجدها في غيرها، أما في الحوزة العلمية فهي شبه نظام يستفيد منها الطالب المنتظم وغيره.

كيفية المباحثة العلمية:

هي أن يتمم التلميذ دور الأستاذ في شرح الدرس، فإذا كان اثنان من التلاميذ



يحصلان المادة العلمية، يمارس أحدهما دور الأستاذ يوماً ما ثم يأتي زميله، ليمارس نفس الدور في شرح تلك المادة العلمية، إنّ ذلك يرفع كفاءة الطالب لمستوى الأستاذ في تقرير وشرح المادة العلمية، ويتعلم الطالب بواسطة المباحثة العلمية طريقة جميلة في إيصال المعلومة إلى الغير، بالإضافة إلى فهمه لها، وإتقانه مهارة التدريس، إنّ المباحثة العلمية غاية في الأهمية للتلاميذ خصوصاً في أواخر السنة الدراسية - حصاد السنة - وعلى الطالب أن لا يدخر جهداً في عدم أخذه بهذه المهارة والطرق المؤدية إلى التفوق العلمي في أيام الامتحانات - الأسابيع الثلاثة الأخيرة من السنة -.

فإذا تعلم الطالب المهارات والتقنيات الموصلة إلى تفعيل قدراته حصد أفضل النتائج.

أهمية الأجندة



ومن المسائل الهامة للطالب أن يضع أجندة، فالكثير من المحصلين في المراحل الدراسية العالية، وقد يكون في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية أو الجامعية يقومون بأعمال لآبائهم وبيوتهم، وقد يمارس بعضهم عملاً فترات العصر أو الليل، وعلى هؤلاء أن يضعوا أجندة ليقدموا الأهم على المهم، فالدراسة هي الأهم والعمل مهم، وعند التعارض يقدم التحصيل العلمي على غيره من الشئون ويرجى العمل إلى فترة العطلة، ويمكن إسناد بعض الأعمال إلى بعض أفراد الأسرة بالاستئذان من الأب بأن يدع التلميذ العمل فترة محدودة، ليمارس تحصيله العلمي بنشاط وحيوية فترة الامتحانات، إنّ تقديم الأهم على المهم لا بد أن يلتفت إليه الطالب في تحصيله العلمي ومذاكرته ومباحثته العلمية.

الاستعداد النفسي

إنّ التهيؤ النفسي جد هام، وله مدخلية كبيرة للوصول إلى ما يصبو إليه التلميذ

والوالدان، ويراد به إزالة العوائق والتفرغ ليصل الابن والبنت إلى ما يبتغيانه.

الثقافة والتفوق العلمي

وهما من المسائل المؤثرة في التحصيل العلمي، إذ أن بعض التلاميذ لا تتوافر لديه الثقافة، ولا يختص هذا بتلاميذ المدارس بل يشمل تلاميذ الحوزات العلمية، فبعض الطلبة لا يعرف أهمية الثقافة في التحصيل الأكاديمي والحوزوي، إن المحصل يحتاج إلى استعانة واسترشاد بخبرات الآخرين في أي مجال من مجالات الحياة، خصوصاً في مجال التحصيل العلمي لارتباطه بالتغذية الصحية والنوم والرياضة وأمور أخرى.

فالتغذية لها تأثير فاعل في التحصيل العلمي، ونجد بعض الآباء يتحدث عن ابنه واصفاً إياه بالذكاء والجد في التحصيل، ثم يبين أنه مصاب بخمول لا يستطيع أن يفعل قدراته، وإذا بحثنا حالته نجده لا يهتم بأمرين:

الأول: التغذية الصحية.

الثاني: الراحة والنوم الكافي.

الجسم يحتاج إلى قسطٍ وافرٍ من الراحة خصوصاً أيام الامتحانات فسهر الليل ومذاكرة الدروس بالشكل المطلوب يورثان المرء العناء والإرهاق، فإذا جاء وقت الامتحان قد لا يستطيع أن يستحضر المعلومات وتصبح غائبة أو غائمة ضبابية نتيجة للسهر والأرق، أما إذا كان الجسم مرتاحاً فيستطيع أن يؤدي ما عليه بجدارة، فالراحة والتغذية والتهيو النفساني عناصر ضرورية وافتقاد أي واحدٍ منها يؤدي إلى السأم والكسل، ومن الضروري أن نثقف أبنائنا وبناتنا بأهمية التغذية الصحية التي يتوافر فيها العناصر الضرورية من البروتينات والفيتامينات والعناصر الأخرى التي يحتاجها الجسم ليأتي الطالب إلى الامتحان في قمة نشاطه، إن بعض المدرسات والمدرسين يشاهدون بعض الطلاب عندما تقدم له الأسئلة يكاد أن يقع من شدة التعب والسأم



خصوصاً البنات إذ تنقصهن ثقافة التغذية أكثر من الأولاد، وبعض الآباء يتصور أنّ ما يحدث لبناته وأبنائه فترة الامتحانات نتيجة لإصابتهم بالعين مع أنّ المسألة ترجع إلى ثقافة التغذية، وتنظيم وجبات الطعام وراحة للجسم.



أهمية الوقت في العطلة الصيفية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ﴾ (الليل)، وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ ٢﴾ (الفجر)، وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ ٢﴾ (الضحى) صدق الله العلي العظيم.

إنَّ الله تعالى يقسِّم بالزمن لأهميته القصوى والفائقة التي تجعل من الإنسان يتألق كنجم مضيء ليس أبان حياته التي يعيشها بل بعد موته بقرون وهذا ما تشير إليه الأحاديث والروايات وتجارب العلماء، إنَّ من جملة المفاهيم الهامة في حياتنا، والتي نحن بأمس الحاجة أن نتقف أنفسنا بإدراكها بنحو سليم والاستفادة منها مفهوم الوقت.

معنى الوقت:

الوقت هو الزمن، والزمن هو من الأبعاد التي يتشكل منها الوجود المادي. والزمن هو مقدار حركة المادة. فكل وجود مادي له حركة، أما الموجودات المجردة فهي فوق عالمي الزمان والمكان، إذ هما بعدان مختصان بعالم الوجود المادي ولذا إدراكهما واضح.

والذهن بقدرته التأملية يُحوّل مفهوم الزمان إلى نفس ما يستفاد من المكان فكما أنَّ المكان ظرف كذلك الزمان ظرف، لذا نجد الكثير من الناس يقيسون الأشياء ويتعاملون معها بمقتضى وقوع الأحداث فيها، فالإنسان إذا مر عليه حادث محزن أو مفرح فإنَّ ذلك الحادث يشكل بدايةً لأمرٍ ما يتعلق بشؤون حياته.

والمهم الذي نريد إيضاحه هو أن الزمان رغم أنه بعد من الأبعاد المجردة إلا أن عقل الإنسان يُحوّل البعد المجرد إلى ما يشبه الوجود المادي ويعتبره ظرفاً يقيس به الأشياء، فيتصور أن الأشياء تقع في الزمان، والحال أن الزمان يقترن بالأشياء وليست الأشياء تقع فيه فيكون ظرفاً لها، غير أنّ عندما نسأل إنساناً غير متعلم، ما هو الزمن؟ يجيب: الدقيقة أو الساعة أو اليوم أو الأسبوع أو السنة. أي (أنّ الزمن هو المقدار الذي نحدد به الحركة)، وبهذا يكون مفهوم الزمن من المفاهيم العميقة من ناحية والواضحة من ناحية أخرى.

أهمية الوقت:

وينبغي أن نفهم ما يترتب على الزمان من أهمية، إنّ الزمان هو من أعظم ما أعطاه الله تبارك وتعالى للإنسان، فجميع ما يريد أن يحققه الإنسان في عالم النشأة المادية يرتبط بمسألتي الزمان والمكان، والزمان أعمق أثراً من المكان، والمكان متسع كبير للإنسان ولا يمكن أن يضيع فالتقصير في مسألة المكان يمكن أن يُتلافى ولا يمكن أن يُتلافى في مسألة الزمان.

قال العلماء: إنّ حركة الزمان قهرية لا تتوقف، فلا يمكن القول للزمن: قف لا تتحرك ليُقضى وطراً أو ليحقق انجازاً، فالزمان سيسير شيئاً أم أبيناً.

حركة الإنسان مع الزمن:

الإنسان بالنسبة للحركة الزمنية على قسمين:

الأول: يستطيع أن يحول الحركة القهرية بإرادته ويجعلها تصب في صالحه.

الثاني: يمر عليه الوقت دون أن يستفيد منه ويخسر الزمن قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ (العصر) أي أنّ الأمر الإنسان يخسر بنحو طبيعي إذا مرّ الزمن عليه وتصرم الوجود في الحياة وتلاشى الوقت، ولم يستطع أن يحقق لنفسه ما كان يصبوا إليه، وذلك هو الخسران. وقد أشارت الآيات والروايات والأبيات الأدبية المنسوبة إلى أئمتنا عليهم السلام إلى أهمية تحويل الزمن إلى ما يعود بالنفع والخير العام في عالمي الدنيا والآخرة، وذلك بحسب ما ينجزه الإنسان باستفادته من الوقت الذي يمر عليه.

الوقت في كلمات المعصومين عليه السلام

لقد جاء الكثير من الآيات والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أئمتنا عليهم السلام، نُسب إلى إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام أبيات شعرية:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني^(١).
فنبض القلب مؤشر على انتهاء أمد الإنسان الزمني لأن كل نبضة من نبضات قلبه لا يمكن أن تتكرر، وهي إشارة إلى اقتراب الساعة الزمنية من نهايتها.

قال بعض العلماء عندما سأل أيهما أكبر الصغير أم الكبير؟

قال مجيباً إن الصغير هو الأكبر لأنه يمتلك زمناً أكثر، والكبير انتهى زمنه فمر عليه الزمن وبقي يصغر وبذلك امتلك مقداراً بسيطاً من الزمن، وإذا كان الزمن بهذه المثابة فعلينا أن نلتفت إلى ما جاء من تذكرة بأهميته من ناحيتين:

الأولى: أهمية بعضه بنحو خاص كفترة الشباب، قال المصطفى صلى الله عليه وآله: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: -منها- عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه،....)^(٢).

إنّ مسألة الزمن غير قابلة للتعويض بأي نحو من الأنحاء، والإنسان مدعو لتثقيف نفسه وأبنائه بأهمية دوران عجلة الزمن، ونحن أمام أمرين:

(١) جواهر الأدب لأحمد الهاشمي: ج ٢، ص ١٠.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٦٢٢.

الأول: إدارة الوقت.

هناك الكثير من المؤلفات في المكتبات العامة والعشرات من الكتب المختصة بإدارة الوقت، وهي تجارب، والتجارب علم مستأنف للإنسان كما قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام وهي تراث للإنسانية جمعاء.

وبالإمكان قراءة حياة عالم من المسلمين أو من غيرهم كتب خبراته في كتاب، فيستفاد من حياته غاية الاستفادة، والتجارب تشرح ما جاء في آي القرآن الكريم والأحاديث عن أهمية الوقت والاستفادة منه.

الثاني: الثقافة.

يستفاد من الزمن بالثقافة ويتطلب ذلك أمرين هامين:

(أ) القراءة في الكتب المختصة بإدارة الوقت وشرائها للأبناء لتثقيفهم، وإلفات نظرهم بأهمية إدارة الوقت، فالوالد كما يشتري الثياب الجديدة والسيارة والحاسب الآلي كذلك عليه أن يشتري الكتاب المفيد لأبنائه.



(ب) عكس الثقافة التي حصلت عليها على أبنائي وبناتي، فمن المهم في أوقات العطلة الصيفية التحدث مع الأبناء والحوار معهم عما يفكرون فيه فعندما يسأل بعض الآباء الشباب في المرحلة المتوسطة أو الثانوية بعد انتهاء فترة المدارس عما يقوم به من عمل يجيب الشاب إني متملل وسأم، ومعنى ذلك (أن الوقت يمر عليه دون أن يستفيد منه). ولا بد من بيان أهمية الوقت له ليتحول إلى عنصر فاعل لشخصيته ومجتمعه ووطنه. فمن الضروري تثقيفه بكيفية الاستفادة من الوقت، ولعل من أروع الأزمنة التي مرت على الإنسان الزمان الذي نعيشه لوجود إمكانية الاستفادة بجهد بسيط يحقق للإنسان آثاراً إيجابية كبيرة لا حد لها ولا حصر، ولنرى بعض الأمور التي يمكن أن نستفيد منها، والتي ينبغي لنا أن نثقف أنفسنا وأبنائنا عليها:

١ - ضرورة تقسيم الوقت.

٢- تنبيه الإنسان على وضع أجندة محددة بتقديم الأهم على المهم، حيث تتوافر برامج صيفية كُثر ترفع مستوانا الديني والإيماني عبر الحضور في ندوات، والاستماع لمحاضرات، وتعلم قراءة سليمة للقرآن الكريم، وحضور دروس دينية في الفقه والعقائد والأخلاق، وبذلك يقضي الشاب أوقاته في التعلم والتعليم ويعود عليه ذلك بالخير والنفع العميمين.

٣- معرفة ماذا يريد أن يكون في المستقبل، حيث تبدأ مرحلة التخصص بعد انتهاء المرحلة المتوسطة والثانوية، فيبدأ يحقق ذاته بقراءة الكتب في مجال التخصص الذي يريده، فإذا كان يريد أن يكون مدرساً للغة العربية فيمكنه بدء فترة التخصص من خلال قراءة عشرات الكتب في الإنشاء والقواعد وشرح المفردات وزيادة الثروة اللغوية التي تعطيه زخماً هائلاً من المفردات، فإذا أراد أن يعبر عن أمر ما ليشرحه لتلامذته كانت له مهارة كبرى، فيجب أن يتلقى المعرفة عن تخصصه، فمن أراد أن يتخصص في اللغة وهو لا يمتلك المفردات ولا يفهم القواعد بنحو سليم فإنه حتى إذا أخذ الشهادة لن يستفيد منه تلامذته الاستفادة المطلوبة، ويرون أن المادة التي يدرسها يشوبها الغموض ويعتريها الإبهام أي (أنه غير قادر على تحييد التلاميذ الذين يتلقون الدرس منه) أما إذا كان بمستوى من القوة والمتانة في تحصيله العلمي، فهو قادراً أن يتألق في شرحه، ويعطي أمثلة متعددة، ويجب التلاميذ في تخصصه، وكذا الحال بالنسبة للطب، فهناك الطبيب العادي، وهناك طبيب دائرة معارف في ثقافته الطبية، تجده مبتكراً ولديه قدرات رائعة في مهنته. وهلم جرا في التخصصات الأخرى كالهندسة، إن من الضروري تعليم الشاب أن يقرأ ويحصل في تخصصه المستقبلي وتحديد أوقات خاصة، وحضه على حضور الدورات التي تعطيه مهارات شخصية ونفسية كتعلم دورات في الحاسب الآلي واللغة الإنجليزية و LNP (البرمجة العصبية)، وعشرات الدورات الأخرى التي تُعطى في العطلة الصيفية وتعود على الإنسان بالنفع والخير العميمين. إذن بالإمكان أن يملأ وقته أكثر من مرتين، ويرى أن العطلة الصيفية عادت عليه بالخير الكبير، وبذلك لا يسأم ولا يمل من الوقت ولا



يعبر أنه يريد أن يقتله.

٤ - التدريب على القراءة أمرٌ في غاية الأهمية، وعلينا أن نعلم أبنائنا القراءة، ومن ضروري أن تكون في كل بيت مكتبة صغيرة فالرقي والتقدم لأي مجتمع يرتبط بثقافة ذلك المجتمع المترتبة على القراءة والتحصيل العلمي.

عوداً على بدء الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ (العصر) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِالزَّمَنِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي خُسْرٍ إِلَّا إِذَا كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فَعَلِينَا أَنْ نَحُولَ حَيَاتِنَا إِلَى مِيدَانِ عَمَلٍ، والعمل يتوقف على العلم وإتقان المهارات.



تألق النجاح في الاستفادة من تجارب الآخرين

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق) صدق الله العلي العظيم.

أهمية الاستفادة من تجارب الآخرين

إنّ من المهمات الكبرى لدى المتخصصين في التربية أن يُولوا عناية فائقة لتجارب الآخرين المستفادة من مدرسة الحياة، لتأثيرها الكبير في مستقبل شخصية الأبناء، لذا، ينبغي للأبوين أن يُعلِّما الأبناء الطريقة المثلى للاستفادة الدائمة والمستمرة من تجارب الآخرين، فهي درس متجدد لا ينقطع يفتح آفاقاً واسعة في الجانب العملي، ويهيئ المرء للأخذ بأسباب التقدم والرفق، إنّ تجارب الآخرين لا يمكن أن تُفهم إلاّ بالجهد والتضحيات الكبيرة، غير أنّ الإنسان يستطيع أن يحصل عليها بسهولة من خلال زيارة الآخرين والتحاور معهم، ليستفيد من تجاربهم وحكمهم، قال إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) موضحاً أثر التجربة الكبير والإيجابي على حياة الإنسان: (عليك بمجالسة أصحاب التجارب، فإنها تُقَوِّمُ عليهم بأعلى الأثمان، وتأخذها منهم بأرخص الرخص) (١) إنّ الحاذق يستطيع أن يستفيد من تجارب الآخرين التي لم يصلوا إليها إلاّ بجهد كبير وصبر على الأذى فحصلوا على تلك الحكم، واستطاعوا إنضاج

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٢٠، ص ٣٣٥.

التجربة المؤثرة عليهم في سنن الحياة واستفادوا، والإمام عليه السلام أوضح في كلمته الرائعة أهمية الأخذ بالتجربة للوصول إلى التكامل والرقى. قال العلماء: إنَّ الأخذ بالتجارب والاستفادة من الحِكم التي لدى الآخرين ترجع إلى الذكاء المكتسب، وهو علم لا يتناهى ولا ينقطع، ويستطيع الإنسان أن يُطوّر قدراته ومهاراته وما لديه من إمكانيات من خلال الذكاء المكتسب.

أنواع الذكاء:

الأول: الذكاء الموروث.

وهو الذكاء الطبيعي، ويحصل عليه الإنسان بالوراثة.

الثاني: الذكاء المكتسب.

وهو الذكاء الذي يحصل عليه الإنسان بالتجربة التي يمارسها بنفسه أو من خلال تجارب الآخرين. ويؤثر هذا الذكاء تأثيراً بالغاً في استقامة الشخصية وعلو الرتبة والمكانة للإنسان فالذي يستفيد من تجارب وحِكم الآخرين يُصبح قادراً على التعامل بمرونة فائقة مع مختلف أصناف الناس، مما يجعله يستفيد استفادة عملية مُطردة لا تنتهي.



الفرق بين الذكاء الموروث والمكتسب:

الذكاء الموروث

عندما ننظر إلى الناس، نجدهم على قسمين:

الأول: يفهم المعلومة بشكل سريع، ويكاد أن يسابق من يأخذ منه الأفكار فهو بمجرد أن تحدّثه بالجزء الأول من الفكرة عرف جميع ما يتعلق بها، وفهم اللوازم البعيدة والمتوسطة لها، وهذا لازم للذكاء الموروث، ولا يتمتع به جميع الناس، بل هو لقسمٍ يمتلك القدرة الفائقة في كسب المعلومة.

الذكاء المكتسب

وهو الذي يحصل عليه المرء من خلال العوامل والأسباب التي تعرّض لها الأفراد والأمم والجماعات، واستطاعوا أن يتخلصوا من المشاكل والعوائق التي وقفت في طريق تقدمهم بعوامل محددة وأصول وقواعد ساروا على هديها، فاجتازوا العقبات وذلّلوا الصعاب.

تأثير الذكاء المكتسب في حياة الإنسان

إنّ الذكاء المكتسب يستمر مع الإنسان، أما الذكاء الوراثي فإنّ أقصى مدة يستمر فيها هي خمس وعشرون سنة، أما المكتسب فإنه يستمر مع الإنسان إلى آخر رفق من حياته، فإذا كان لديه استعداد غرف من بحر لا ساحل له لسعة رقعة وتعدد مجالاته، واستطاع به أن يطور شخصيته دون انقطاع، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (التجارب لا تنقضي، والعقل منها في زيادة)^(١) إذن التجارب التي يمر بها الإنسان بنفسه أو يمر الآخرون بها لا تنقضي، ويستفيد العقل الاستفادة مطردة منها، وقد اختلف العلماء في مدى التأثير الكبير في شخصية الإنسان بين الذكاءين -الموروث والمكتسب- فبعضهم يعزو عظمة الشخصية إلى الذكاء الموروث، وبعضهم إلى المكتسب لأنه لا ينتهي، ومنهم من ينسب عظمة الشخصية إلى الذكاءين، ك(مان) -عالم النفس المشهور- قال: إنّ على الإنسان أن يستفيد من كلا الذكاءين.

دور الأبوين في الاستفادة الأبناء من التجارب

وعلى الأبوين اللذين يريدان لأبنائهما الرقي والتقدم المستمر أن يوليا عناية كبيرة بالاستفادة من مدرسة الحياة، لتأثيرها العظيم في شخصية الأبناء، بأن يقوم الأبوان بتعليم الأبناء كيفية الصحيحة في الاستفادة من التجارب الشخصية التي مرت عليهم، والاستفادة من تجارب الآخرين بدراسة التاريخ والاستفادة من حركته في صعودها ونزولها، ومعرفة كيفية استفادة الأمم والحضارات من التجارب، فهناك أمم استطاعت أن تذلّ العقبات بالاستفادة من مدرسة الحياة.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٣٧٧.

عواقب الغفلة عن الاستفادة من التجارب

إنَّ من لا يستفيد من مدرسة الحياة ولا يعلم مدى التأثير الفائق لهذه المدرسة في التقدم، فإنه يتقهقر إلى الوراء، ولا يستطيع أن يحافظ على مستواه فضلاً عن أن يتقدم، وقد بين إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة، فقال عليه السلام: (من غني عن التجارب عمي عن العواقب)^(١) أي أنَّ من رأى نفسه في غنى عن التجربة التي لدى الآخرين، فهو في عمى، وعدم إدراك للعواقب الوخيمة المترتبة على عدم الاستفادة من الأدوار المشابهة التي مرت على الآخرين، وذلك يُوجب السقوط في مشاكل عويصة، لكونه لم يأخذ بالأسباب التي أخذ بها الآخرون، واستطاعوا بها أن يتخلصوا من العقبات الكأداء.

أصناف الناس في الاستفادة من مدرسة الحياة

الأول: إنَّ بعض الناس يعتبر أن التعليم الأكاديمي وحده كافٍ ولا يحتاج المرء إلى غيره، فمن وصل إلى مرتبة علمية أكاديمية أو حوزوية اكتفى.

الثاني: ومنهم من لا يكتفي بما حصل عليه من تعليم، وإن نال أعلى الدرجات والرتب العلمية، بل يجد نفسه في حاجة إلى الاستفادة من تجارب الآخرين شعوباً وقبائل وأفراداً، فيتعلم منهم طرق التخلص من المشاكل، وتذليل الصعاب، واجتياز العقبات الكأداء.

مسؤولية الأبوين في إلفات الأبناء إلى أهمية التجارب

هناك مسؤولية كبرى تواجه الأبوين، ذلك أنَّ الأبناء قد لا يلتفتون إلى الأهمية الفائقة للاستفادة من تجارب الآخرين، لقلة معرفتهم بأهميتها فيفتون كثير من الدروس العملية، من هنا يتأكد دور الأبوين في التركيز على أهمية الاستفادة من التجارب في مجالات الحياة، وكيفية توضيح الفكرة بطرح مثلاً عملياً نلاحظه في تعاملنا

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٣٧٦.

مع الآخرين، حيث إنَّ الناس يصنفون إلى صنفين:

الأول: من يسير دون ضوابط، فيمارس الخديعة، وعدم الانضباط، وكل ما هو خلاف القانون الشرعي والعقلاني للوصول إلى مآربه، وقد يظهر للآخر بصفة المستقيم المتدين، فيخدع كثير من الناس به.

الثاني: المنضبط في سلوكه، وتعامله الاقتصادي والمالي، رغم كونه غير متدين ولا يظهر بمظهر المتدينين، إلا أنه يتفوق على غيره في الانضباط السلوكي.

أهمية إكساب الأبناء مهارة تعاملية

إنَّ بعض الأبناء في بداية تعاملهم مع الآخرين يقعون في أخطاء، لأنهم يثقون بالناس ثقة عمياء لبساطتهم، خصوصاً من يترى في أسرة متدينة غير منفتحة، من هنا يأتي دور الأبوين في التأكيد على التعامل مع الآخرين بنحو لا يخضع إلى ما يتصوره الإنسان من بساطة، بل أن عليه أن يُمَاكس ويتعامل بحنكة وحذر، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال إكساب الأولاد مهارة التعامل، وبيان أن الإنسان إذا لم يَحْصُ بالتجربة العملية في تعامله فإنه يُخدع في كثير من الأحيان، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: (من قلت تجربته خُذ) ^(١) أي أن الذي لا يمتلك تجربة في التعامل مع الآخرين يُخدع بشكل متكرر، أمّا من يتعامل بتجربة ويستفيد من الآخرين ويتعامل بحنكة ومهارة فإنه يُنجي نفسه وأسرته من مزالق خطرة، وينجو من محاولة إيقاعه بالمكر والخديعة.

أهمية المرونة في التعامل مع الأعداء

الدرس العملي الذي على الإنسان أن يستفيدة من التجارب التي مر بها أو مرت على الآخرين هو الحصول على المرونة الفائقة في التعامل مع أعدائه فضلاً عن أصدقائه، أي أن لا يعيش دائماً وأبداً في مشاكل ومشاكسات، بل يتعرف على حدوده ويتعامل مع أعدائه على أساس قوانين وأطر، لا يستطيع الأعداء أن يجعلوا قدرات

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٣٧٦.

هذا الشخص تستنزف في رد الفعل، والمسألة من الأهمية بمكان، والأبوان اللذان يريدان للأبناء أن يتربوا تربية صالحة تفيدهم عليهما أن يجعلا أبناءهم يتعاملون بمهارة مع أعدائهم فضلاً عن أصدقائهم من خلال النظر إلى الأعداء بمنظارين ومن جهتين:

الأولى: إن اكتساب الأصدقاء أولى للإنسان من صنع الأعداء.

الثانية: أن وجود الأعداء سُنّة من السُنن الطبيعية، وعلى الإنسان أن يستفيد من ذلك ويدرك العيوب والنقائص في شخصيته من خلال عداوة أعدائه، هناك نظرية تحض على اكتساب الصداقات، وأخرى تؤكد على أن لا يغتم الإنسان إذا ازداد أعداؤه، بل عليه أن يُحوّلهم إلى أصدقاء، وإن لم يستطع ذلك، فعليه أن يستفيد منهم، لأنّ العدو يتبع النقائص والعيوب والثغرات التي تمر على الإنسان في حياته كي يُضعف شخصيته، والنقائص من لدن الأعداء مفيدة للإنسان في تطوير قدراته وتلافي العثرات وتحطي العقبات التي مرت عليه في أعماله السابقة، قال إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام): (أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه! لأنهم يهدون إليه عيوبه فيتجنبها، ويخاف شتماتهم فيضبط نعمته، ويتحرز من زوالها بغاية طوقه)^(١) يركز الإمام (عليه السلام) على أنّه قد يكون الأعداء أنفع للإنسان من إخوانه، وليس ذلك قاعدة عامة، إلّا أنه في بعض الأحيان يكون الأمر هكذا، والسبب في ذلك لأنهم يهدون إليه عيوبه، أما الصديق فلا يُفتش عن عيوب صديقه بينما يتبع العدو العثرات والنقائص والعيوب، ويطلع من خلال ذلك على العيوب الخفية التي قد لا يلتفت إليها، لذا ذكر الإمام (عليه السلام) أنه من خلال العين الساخطة والعداوة يتجنب الإنسان العيوب، لخوفه من شتم أعدائه فإذا وقع في خطأ ضبط النعمة، وتصرف وفق قوانين وضوابط محددة متحرزاً من زوالها بغاية قدرته وطاقته.



(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٢٠، ص ٢٧١.

آليات التفوق العلمي للأبناء

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١). صدق الله العلي العظيم.

الاختبارات حصاد الجهد والعمل

إنّ أيام الامتحانات لها أهمية خاصة لذا لا بد من اغتنام الفرصة واستثمار الأوقات القليلة الباقية للحصول على النتائج الأفضل، فالأسبوعان الأخيران حصاد لموسم سنة كاملة، فكل الجهد الذي بذلناه طوال السنة نحصل عليه في هذين الأسبوعين.

طرق الوصول للنتائج الأفضل

من هنا يحسن بنا أن نذكر بأمور هامة إذا راعاها الأبوان والطالب حصلاً على أفضل الثمار، وأعلى الدرجات وأحسن النتائج، فعوامل التوفيق والأسباب المؤدية له كثيرة ومتعددة، وسنذكر بعضها لأهميته في الحصول على المعدلات العالية:

الأول: الدعاء.

ينبغي أن يلتفت الطالب وأبواه إلى أهمية الدعاء بنحو عام ودعاء الوالدين بنحو خاص فالدعاء له التأثير الكبير للتوفيق غير أنّ دعاء الوالدين له أعظم الأثر كما جاء في الروايات عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فقد بينت الروايات أهمية

دعاء الوالدين، ففي بعضها أنّ من الأدعية التي لا تحجب دعاء الوالد لولده، قال الإمام الصادق عليه السلام: (ثلاث دعوات لا يحجب عن الله تعالى: دعاء الوالد لولده إذا بره، ودعوته عليه إذا عقه، ودعاء المظلوم على ظالم، ودعاؤه لمن انتصر له منه، ورجل مؤمن دعا لأخ له مؤمن واساه فينا، ودعاؤه عليه إذا لم يواسه مع القدرة عليه واضطرار أخيه إليه)^(١) ودعاء الوالدة أعظم وأكبر فإذا كان دعاء الوالد لا يحجب فدعاء الوالدة في حالة سجودها له الأثر الواضح في الحصول على التوفيق في مجالات الحياة ومنها التحصيل والدراسة، فإذا أراد الأبوان لولدهما أن يوفق فعليهما أن يدعوا له ولا يملأ من الدعاء فإنّ المدعو له يحصل على أعظم الأثر.

سلب التوفيق في الدعاء على الأبناء

غير أنّ هناك عادات خاطئة وسلوكيات غير جيدة يجابه بها بعض الأبناء إذا كان مشاكساً لا يطيع والده أو والدته، فيدعوان عليه، وهذا من أسوأ أنماط الغلط، فلا ينبغي للأب ولا للأم الدعاء على ولدهما تحت أي ظرف من الظروف فمهما كان الابن مشاكساً أو عاقاً فعليهما بالدعاء له بالهداية والتوفيق، ولا يدعوان عليه بعدم الهداية أو بسلب التوفيق لأنّ الدعاء عليه له أثر سيء خصوصاً دعاء الأب البار على ابنه العاق، قال الإمام الباقر عليه السلام: (خمس دعوات لا يحجب عن الرب تبارك وتعالى: دعوة الامام المقتسط، ودعوة المظلوم يقول الله عز وجل: لأننتقمن لك ولو بعد حين، ودعوة الولد الصالح لوالديه، ودعوة الوالد الصالح لولده، ودعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب فيقول: ولك مثلاه)^(٢)، والرواية وإن كان سياقها للابن البار غير أنها تعم العاق بالأولوية، فعلى الأب أن يتذكر أنّ الابن إذا عقه في بعض الموارد فدعائه مستجاب على نحو الحتم والجزم، لذا نذكر الآباء والأمهات في حصاد الموسم الدراسي بأهمية الدعاء وأنّ عليهما أن يحض الابن بالدعاء لنفسه ويذكرانه بأهمية ذلك.



(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ٨٨٣.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٧، ص ١١٦.

الثاني: التذكير بأهمية المستقبل للأبناء.

التذكير المستمر للأبناء بمستقبلهم وبما ينبغي عليهم أن يفعلوه فالتذكير المستمر له أهمية كبيرة، قال تعالى: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَىٰ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات)، لذا ينبغي بل يجب على الإمام في صلاة الجمعة أن يذكر المصلين بتقوى الله تعالى، فكل مصل يعلم بأن الإمام سيوصي بتقوى الله تعالى إلا أنه مع ذلك يجب على الإمام أن يذكر المصلين بالتقوى.

السّر في التذكير والتكرار

وكي نفهم السّر بالتذكير المستمر والدائم وأهميته في الحصول على الآثار الطيبة نشير إلى ما أفاده علماء النفس، فقد قالوا إنّ الإنسان له عالمان عالم الشعور والوعي، وعالم اللا شعور واللاوعي، وعالم اللاوعي أعظم بكثير من العالم الواعي لدى الإنسان ونسبة عالم الوعي لا تتجاوز (٥٪) في قبال (٩٥٪) لعالم اللاوعي، وكثير من مواقف الإنسان والحقائق التي تتجلى له في سني عمره آتية من خلال عالم اللاوعي، من هنا تكمن أهمية التذكّر الدائمة والمستمرة، لأنّ المذكر يريد أن يغرس الحقائق في اللاوعي، وإذا أردنا لأبنائنا الخير والتقدم في مجالات الحياة علينا أن نستمر مذكرين لغرس الخير في عالم اللاوعي لديهم.

منهج التذكير في القرآن

يخطئ بعض الناس ويتصور أنه عندما يذكر أبنائه بعض المرات فذلك يكفي ويظن أنّ عدم استفادة الابن ترجع إلى عدم هدايته فيقول إنّ الهداية لمن هداه الله تعالى، وهي كلمة حق غير أنّ من واجب الأبوين أن يذكر الأبناء بنحو مستمر، ففي آية من آي القرآن الكريم تكررت كلمة التقوى مرتين، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر)، لأنّ الحق تعالى يغرس التقوى في عالمي الوعي واللاوعي.

تأثير التذكير مستقبلاً

من أراد أن يغرس الحقائق لشمر ثماراً طيبة ولو بعد حين فعليه أن يستمر بالتذكير فالوالد والوالدة والمربي والصديق من المهام الملقاة عليهم التذكير الدائم وحتى إذا ملّ من يُذكر فلا ينبغي لهم أن يملوا فالحصول على النتائج العظيمة مرهون باستمرار التذكير خصوصاً في آخر السنة.

الثالث: التحفيز المستمر.

التحفيز هو تذكير لبعض الجوانب المضيئة في حياة الابن أو البنت من خلال التركيز على نقاط هامة اتصف بها الابن للانطلاق منها إلى أمور أخرى ينبغي له أن يتألق فيها، فيختلف عن التذكير، إذ التذكير إبانة الإيجابيات التي ينبغي الاهتمام بها بغض النظر عن كونه متصفاً بها.

إبراز الجانب السلبي

إنّ استغلال الجانب الإيجابي في شخصية الأبناء وإبرازه على الدوام يقلل من الجانب السلبي، فإذا كان الطالب متفوقاً في مادة ومخففاً في أخرى فيحفز بإبراز تفوقه في تلك المادة وإظهار أنه قادر على التفوق فيما أخفق فيه إذ لا فرق بين الأمرين بل قد يكون ما تفوق فيه أصعب غير أنه بذل جهداً ملموساً فنال ما أراد.

الإخفاق وعدم الذكاء

وعليه فإنّ الإخفاق لا ينتج من عدم الذكاء، فمن يكرر المعلومة ويحفّز بالثناء عليه بإظهار تفوقه فيما أبدع فيه وبيان أنه لا ينقصه سوى الالتفات إلى مواهبه واستثمار قدراته بتكرار النقاط المضيئة في شخصيته والاستفادة منها في القضاء على الجانب السلبي، والتقدم في التحصيل العلمي فإنّ ذلك يحول الطالب من الإخفاق إلى النبوغ.



الإخفاق منطلق الإبداع

لنعلم أنّ الإخفاق بداية الإبداع، فهناك نماذج كثيرة أخفقت غير أنها تألقت بعد إخفاقها وكان السبب في نجاحها وتألقها يعود إلى التحفيز وإظهار الجانب الإيجابي في الشخصية فإلتفت ذلك المخفق ويبدأ في تلافي نقصه وإكمال ما أخفق فيه، ولدي بعض التجارب في هذا المجال تحول فيها بعض المخفقين إلى متألّقين.

التحفيز وقود التفوق

إنّ الكثير من المبدعين والعلماء السبب الرئيس لنجاحهم هو التحفيز الدائم لهم، فقد حصلوا على أناس حفزهم فتألّقوا، إنّ التحفيز هو الوقود الذي لا ينضب فهو أشبه بالوقود النووي، فمن أراد لأبنائه التفوق والعمليّة في أي مجال من المجالات فعليه بتحفيزهم، وذكر النقاط المضيئة في شخصياتهم، ومن خلال ذلك سوف يتحولون إلى مبدعين، إنّ هذا هو القاعدة العامة ولها استثناءات فقد يكون بعض الناس حتى إذا أسيء إليهم واذموا يقومون بردود فعل كبيرة في تلافي النقص الذي عُيروا به وبذلك يتفوقون غير أنّ ذلك جدّ نادر.

خطر التذكير بالسلبيات

الرسائل السلبية في الأعم الأغلب تدمر الإنسان، غير أنّ بعض الآباء والأمهات يذكرون أبنائهم بالنقاط السلبية في شخصياتهم فيكررون (أذهب فأنت فاشل ولن تفلح أبداً) ويغرسون هذه الرسائل في عالم اللاوعي عندهم، وبدلاً من تحويل الابن إلى مبدع يسهمون في فشله، إنّ ذلك من الأغلاط الفادحة التي يمارسها الآباء في حق أبنائهم وبناتهم، وعليهم أن يتنبهوا لذلك خصوصاً في حصاد الموسم الدراسي فلا ينبغي التذكير بالرسائل السلبية.

التذكير بالمواقف الإيجابية

إنّ تذكير الأبناء بالنقاط المضيئة في شخصياتهم، يدفعهم إلى الإبداع فالقول (لهم



ما شاء الله ما أروع ما قدمتموه من نجاح رغم الظروف الصعبة والقاهرة التي مرت عليكم في تلك السنة إلا أنكم اجتزتم تلك الظروف) فهذه الكلمات رغم بساطتها تصنع إعجازاً في شخصية التلميذ، وتعطيه ثقة بنفسه وتحوله إلى مقتدر فالتحفيز بإبراز النقاط المضيئة والجوانب الإيجابية في شخصيات أبنائنا وبناتنا واغتنام الفرصة في حصاد الموسم في الأسبوعين الأخيرين من السنة يحقق قطف أفضل الثمار.

الرابع: الجد والمثابرة.

الجانب الآخر الهام بالإضافة إلى التحفيز هو الجد والمثابرة، فتثقيف الأبناء بأهمية الجد والمثابرة له أعظم الأثر وليس هناك مؤثر أقوى من الجد والمثابرة قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)، والآيتان تفصحيان عن أهمية السعي والعمل.

إزالة معوقات الجد والمثابرة

قال بعض العلماء إن نصف إنجازاته في الحياة كانت من السعي، فعندما يصاب بممل أو يسأم يقوم إلى العمل، وكان يسير على هذا الطريق في أيام دراساته، فيثابر ويسعى، وقد ألف كتباً مفيدة وكان نجاحه مرتبطاً بسعيه وكدحه.

الفشل طريق النجاح

هناك حكمة قالها الرئيس الأمريكي كالفن كلدج وهو أحد رؤساء الولايات المتحدة السابقين، قال ليس هناك شيء أعظم من المثابرة والسعي، والسبب أن الكثير من العباقرة فشلوا، غير أن الكثير من العاديين من الناس أصبحوا متألقيين ومبدعين والسبب هو الجد والمثابرة.

العاهة لا تمنع من الإبداع

ولعل قصص النجاح التي تحققت لبعض ذوي الإعاقات من أعظم الدروس لمن

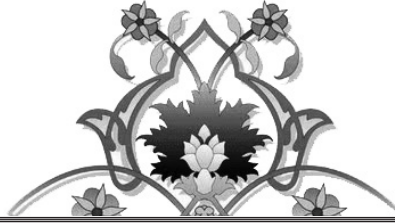


أراد النجاح فقصة هيلين كلر فهي صماء لا تسمع وعمياء لا ترى، لكنها تحولت إلى شخصية عظيمة وأتقنت لغات متعددة، وأصبح لديها ابتكارات، كل ذلك بفضل جدها ومثابرتها.

تعليم الأبناء الجد والمثابرة

إنَّ الله تعالى أنعم على الإنسان بقدرات كبيرة غير أنه يقضي على الكثير من مواهبه بعدم استفادته منها، والطريق الأمثل للاستفادة من النعم يتحقق بالمثابرة والكفاح الدؤوب والاستمرار في الحصول على التآلق، وقد يقول بعض أنه بذل جهداً غير أنه لم يحصل على نتيجة، وجوابه بتذكيره بأهمية الجد والمثابرة والكفاح حتى يصل إلى التآلق، فالإنسان كما يقول العلماء لا يستخدم من قدراته التي منحها الله تعالى إياها إلا (١٠٪)، و(٩٠٪) منها لا يستخدم، واستخدام قدراته بنسبة (٢٠٪) كفيل بتحويل الإنسان إلى مبدع وعملاق، إنَّ الأبناء أمانة في أعناق آبائهم وأمهاتهم، وعليهم أن يلاحظوا الحثيات الكفيلة بقطف الثمار الطيبة في مجالات الحياة خصوصاً في المجال العلمي، فمن يريد الخير لأبنائه عليه أن يحضهم بالتفوق في دراساتهم وإيمانهم وفي تقواهم واستقامتهم.





القسم الرابع:

■ ■ التربية الأخلاقية والسلوكية ■ ■

الفصل الأول:

آفاق الصلاة على النبي وآل



فوائد وميزات الصلوات الشعبانية

شهر شعبان من الأشهر العظيمة، وقد وردت فيه أعمال ترفع من مستوى الإنسان وتربطه بعالم المعنى، من أهمها الصلوات المروية عن الإمام السجاد عليه السلام، (الصلوة الشجرية) هذه الصلوات أكد على استحبابها في كل يوم من شهر شعبان، وعلى استحبابها في ليلة النصف منه.

فوائد الصلاة على النبي وآله

الصلاة على النبي وآله لها أهمية كبيرة، وارتباطها بهذا الشهر الفضيل لميزة، وقد أكد القرآن الكريم عليها بنحو عام، ولها فوائد متعددة، من جملتها:

الأول: استجابة الدعاء.

عن الإمام علي عليه السلام: (كل دعاء محبوب عن السماء حتى تصلي على محمد وآله)^(١)، أي أنّ الدعاء يستجاب إذا بُدء بالصلاة على النبي وآله وخُتم بها.

الثانية: القرب من محمد وآله.

ومن فوائدها اقتراب المصلي بمن يصلي عليه، فمن يكثر من الصلاة على النبي وآله، يقترّب منهم ويظهر ببركاتهما.

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٣٠٥.

الثالثة: محو الذنوب.

وردت روايات تبين أنّ الصلاة على النبي وآله تفيد في محو الذنوب وستر العيوب والاقتراب من الباري عز وجل، قال عليه السلام: (من صلى عليّ مرة لم يبقَ من ذنوبه ذرة) ^(١)، وعن الرضا عليه السلام (من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله، فإنها تهدم الذنوب هدماً) ^(٢).

اقتران الصلاة على النبي بالآل

غير أنّ الصلاة الواردة في شهر شعبان لها ميزة أخرى يمكن أن تسمى بالميزة الإيضاحية أي أنّ معناها إيضاح المعنى العميق للصلاة على النبي عليه السلام، لذا، لا بد أن يؤتى بالصلاة عليه عليه السلام مقرونة بالآل، في الرواية المتفق على مضمونها بين الفريقين أنه نهي أن يُصلى عليه بالصلاة البتراء، ففي جواهر العقدين والصواعق المحرقة: روي عن النبي عليه السلام قال: (لا تُصلّوا عليّ الصلاة البتراء، قالوا: وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: تقولون: (اللهم صلّ على محمد وتسكتون، بل قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد) ^(٣)، الصلاة البتراء يقتصر فيها على ذكر النبي عليه السلام وحده، دون أن تُقرن بآله، والأبتر في اللغة المقطوع الذي لا يؤدي إلى النتيجة ولا يربط المصلي بالمبدأ المتعال، وقد أبان عليه السلام الكيفية السليمة والصحيحة للصلاة عليه وهي أن تُقرن بالصلاة على آله.

الصلوات الشعبانية وأهل البيت

الصلوات الشعبانية إيضاح لهذا المطلب الوارد عنه عليه السلام، فهي مؤدية إلى الارتباط بأهل البيت عليهم السلام، وتبين أنّ الارتباط بهم هو الصراط المستقيم الذي أمر الخلق بالسير عليه، والأخذ بمنهاجه.

(١) مستدرک الوسائل للنوري: ج ٥، ص ٣٣٤.

(٢) الأمالي للصدوق: ص ١٣١.

(٣) ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي: ج ١، ص ٣٧.

أهل البيت عليه السلام الشجرة المباركة

قال الإمام السجاد عليه السلام: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، شَجَرَةَ النُّبُوَّةِ)^(١)، النبي عليه السلام هم الشجرة المباركة التي يستظل بفيئها ويؤكل من ثمارها فتشفي العليل وتوصل إلى الحق تعالى.

ارتباط الملائكة بمحمد وآله

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، شَجَرَةَ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعِ الرِّسَالَةِ، وَخُتْلَفِ الْمَلَائِكَةِ)^(٢)، هذه الشجرة هي موضع للرسالة، ومختلف للملائكة أي أن اختلاف الملائكة من السماء والأرض نزولاً وصعوداً - ﴿فَالْمُذَرَّبَاتُ أَمْراً﴾ (النازعات) - يرتبط بمحمد وآله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أهل البيت عليه السلام منبع العلم الصافي

(وَمَعْدِنِ الْعِلْمِ)^(٣)، أي الأصل، فإذا أراد الإنسان أن يحصل على العلم الصحيح والفهم السليم لمعاني الشريعة المقدسة عليه أن يأخذ علمه من محمد وآله.

أهل البيت عليه السلام معدن العلم وسفينة النجاة

(وَأَهْلَ بَيْتِ الْوَحْيِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ الْفُلْكِ الْجَارِيَةِ فِي اللَّجَجِ الْغَامِرَةِ)^(٤)، هم عليه السلام الأدرى بما نزل على جدهم والأعلم بمقاصد الشريعة، وهم عليه السلام الفلك الجارية، وقد جاء هذا المضمون في حديث سمي بحديث السفينة، قال عليه السلام: (أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق)^(٥)، ذلك أن

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٣٠٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٧، ص ٣٤.



الإنسان في الحياة الدنيا يرى مناهج متعددة ورؤى مختلفة وأهواء وبدع، ولا يستطيع أن يصل إلى الله تعالى إلا عبر المنهج السماوي منه تعالى، الذي وُضِعَ لهداية الخلق، يستطيع به السالك أن يمخر عباب البحر ولا تؤثر عليه أمواجه العاتية، فمن ركب سفينة أهل البيت عليهم السلام لن يغرق، أما غيرها من السفن فلا يمكن أن تحميه من أمواج البحر العاتية بل يغرق ولا يستطيع أن يصل إلى شاطئ النجاة، وساحل الأمان.

خصائص سفينة النجاة

الإمام السجاد عليه السلام عبّر عن أهل البيت عليهم السلام بأنهم (الْفُلُكُ الْجَارِيَةُ فِي اللَّجَجِ الْغَامِرَةِ)^(١)، لجج البحر غامرة ومغركة لمن لم يركب السفينة، كما ورد في حديث السفينة عن المصطفى صلى الله عليه وآله. (يَأْمَنُ مَنْ رَكِبَهَا، وَيَغْرُقُ مَنْ تَرَكَهَا، الْمُتَقَدِّمُ لَهُمْ مَارِقٌ وَالْمُتَأَخِّرُ عَنْهُمْ زَاهِقٌ)^(٢)، يمرق السهم من الرمية ولا يصيب الهدف، والتعبير كناية عن تقدم عنهم، أما من تأخر عنهم فهو زاهق لا يصل إلى النتيجة، الذي يستطيع اللحاق بالركب والوصول إلى الحق تعالى هو من ركب السفينة التي أشار المصطفى صلى الله عليه وآله إليها.

(وَاللَّازِمُ لَهُمْ لَاحِقٌ)^(٣)، من لزم أهل البيت عليهم السلام لحق بالمصطفى صلى الله عليه وآله للارتباط بين المصطفى وآله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الولاية حصن المؤمن

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، الْكَهْفِ الْحَصِينِ)^(٤)، عاش الإنسان منذ فجر التاريخ في كهوف مثلت له أماناً غير أنها تتعرض للوحوش المفترسة والأوبئة فهي غير حصينة، الحصين يأمن من دخله وهو الكهف المنتمي للنبي صلى الله عليه وآله وللأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٣٠٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

أهل البيت ﷺ غياث المضطر

(وَعِيَاثِ الْمُضْطَرِّ الْمُسْكِينِ)^(١)، يعيش الإنسان الفقر والحاجة بطبيعته، والذي يغنيه هو الله تعالى بالتمسك بالصراط المستقيم، وتفصح الصلوات عن هذا المعنى، فهم ﷺ كهف حصين وغياث للمضطر المستكين، أي من أدرك فقره وتواضع، أما المستكبر فلا يصل إلى الحق ولا يهتدي بخلاف من أذعن إلى الله تعالى وتواضع فإن الله تعالى يوفقه للتي هي أقوم، ويهديه إلى صراط مستقيم، ومن أدرك فقره ومسكنته، المسكنة المرتبة العالية من الفقر كما جاء في تفسير الفرق بين الفقير والمسكين بأن المسكين أشد حاجة قال تعالى: ﴿أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَرْبٍ﴾ (١٦) (البلد)، الإنسان بطبيعته له نوازع تجعله يأبى ويتعدى عن الحق إلا إذا تمسك بالنبي ﷺ وبأهل البيت ﷺ فيهتدي ويأمن وهروبه من الحق حينئذ مؤدبه إلى الحق وفراره منه يرجعه إليه فيؤوب ويستمسك بالعروة الوثقى.

أهل البيت ع مأمّن الهارب

(وَمَلَجَأِ الْهَارِبِينَ)^(٢)، يحتاج الإنسان إلى ركن وثيق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: ٢٥٦)، أي أنّ الإنسان فطرته وطبعه يؤدیان به إلى التمسك بأقوى السبل وأنجح المطالب، ويحتاج إلى علم يكفل له الهداية والتمسك بالنبي ﷺ والأئمة من أهل البيت ﷺ اعتصام بالله تعالى واستمسك بالعروة الوثقى، (وَمَلَجَأِ الْهَارِبِينَ، وَعِصْمَةِ الْمُعْتَصِمِينَ)^(٣)، من أراد النجاة لا بد أن يرجع إلى الله تعالى، الفرار من الله تعالى إما أن يؤدي به إليه تعالى أو إلى الشيطان، فإن أدى به إلى الله تعالى فقد اعتصم بالعروة الوثقى، وإن أدى به الشيطان فقد ضل سواء السبيل.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

أهل البيت طريق الاعتصام بالله

(وَمَلَجَا الْهَارِبِينَ، وَعِصْمَةُ الْمُعْتَصِمِينَ)^(١)، كل من أراد أن يعتصم بالله تعالى لن يتحقق له الاعتصام به تعالى إلا عبر المنهج الحق الذي هو محمد وآل محمد، ولا يمكن أن يعتصم دون الأخذ بمسلكهم والسير على دربهم، والاهتداء بهديهم فذلك هو الطريق الموصل إلى الله تعالى.

العمق المضموني للصلوات الشجرية

بينا بعض المعاني الواردة في حقيقة الصلاة على محمد وآله، وأن لها ظاهراً ولها عمقاً مضمونياً، تشير إليه الروايات والأدعية الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت . قال : (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَاةً كَثِيرَةً، تَكُونُ لَهُمْ رِضًا وَلِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ أَدَاءً وَقِضَاءً، بِحَوْلِ مِنْكَ وَقُوَّةِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ)^(٢).

هذه الصلوات مقاطع تبين مضامين آيات قرآنية وروايات، كل مقطع منها يشير إلى معنى.

أهل البيت  سفينة نوح

قوله : (الفلك الجارية في اللجج الغامرة يأمن من ركبها ويغرق من تركها)^(٣)، يبين مضمون الحديث الوارد عن المصطفى ﷺ بأنهم كسفينة نوح  من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى.

الاستغناء المعنوي

قوله : (وغيث المضطر المستكين)^(٤)، بيان أن من ينجو هو المضطر المستكين الذي يعيش الفقر والفاقة إلى الله تعالى، من عرف أن الله تعالى منبع الغنى وتواضع لذلك، فإن تواضعه واستكانته سبب ملء الحق تعالى فقره غنى وعوزه كمالاً، أما

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) مصباح المتجهد للطوسي ص ٨٢٨.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

إذا استكبر فلن يستطيع أن يستغني بل يبقى فقيراً، الفقر هنا لا يراد به المعنى المادي فحسب بل المعنوي أيضاً، وهو مراد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) (فاطر)، إذ يستطيع الإنسان أن يستغني معنوياً إذا أدرك اضطرابه ومسكنته وتواضع لله تعالى.

الصلوة الكثيرة على النبي والآل

قوله ﷺ: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَاةً كَثِيرَةً، تَكُونُ لَهُمْ رِضًا)^(١)،
الصلوة الكثيرة لها معنيان:

الأول: العمل في ولاية أولياء الله تعالى.

يريد الله تعالى من الإنسان أن يكون دائم العمل، مستمراً لا ينقطع بل يعمل دائماً وأبداً لله تعالى وكذا الحال في ولايته لأولياء الله تعالى، فإنه تعالى يريد منه أن يعمل دائماً وأبداً لأوليائه، لأن العمل لهم عمل لله تعالى وما لم يعمل كثيراً فلن يصل إلى الغاية والمقصود، الغاية أن يصبح مع النبي وآله ويحتاج أن يدعو الله تعالى كثيراً لأوليائه وأحبابه وهم النبي وآله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَاةً كَثِيرَةً)^(٢)، وبذلك يرضى القائد عنه، لأن رضا القائد يزداد عندما يرى المقودين من أتباعه يعملون بدؤب واجتهاد، لا يكلّون عن العمل، عندئذ يرضى القائد عمن يقوده، وقد جاء هذا المعنى في كلمة لإمامنا أمير المؤمنين ﷺ مدح فيها مالك الأشتر فقال ﷺ: (يرحم الله مالكا فلقد كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ)^(٣)، إنه ﷺ عبّر بهذا التعبير الجميل عن رضاه، لأن مالكا انصهر في حب الإمام ﷺ وكان دائم العمل له، ومن يستمر في عمله لن يصاب بالسأم أو الملل وسيحقق له التوفيق والنجاح تلو النجاح.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي ج ٤٢ ص ١٧٦.

الثاني: المسارعة في الخيرات.

هو معنى المسابقة للخيرات الذي جاء في بعض آي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران)، الاستباق والمسارة يحصلان بالإكثار من العمل، والدعاء هنا جزء من العمل.

معنى الأداء والقضاء في الصلوات.

(وَلِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ أَدَاءٌ وَقَضَاءٌ)^(١)، معناها الأداء والقضاء: الأداء إتيان الشيء في وقته دون تفريط أو إهمال، كالصلاة في الوقت أداءً، ومن كان في إتيانه لقائه بطيعة طاعة مطلقة بجد وثبات فقد أدى الأعمال دون تفريط.

غير أنه قد يصاب الإنسان بفترة من الخمول ويعتريه شيء من الكسل، فيُقَصِّر في بعض واجباته، ويحاول تلافي التقصير، فيتلافي، وذلك هو معنى القضاء، أي أن القضاء تلافي التقصير، لأن من طبيعة الإنسان التقصير، وقد حصل لبعض الكاملين من العلماء، لكنه تلافي تقصيره بتأليف كتاب أو القيام بعمل كبير، من أجل تلافي ما فرط فيه، إذ كان بإمكانه أن يؤدي إنجازاً.

ومعنى القضاء في الصلاة على النبي وآله، هو معنى كنائي لمن قصر في بعض الأعمال، فإن بإمكانه تلافي تقصيره بالإكثار من الصلاة على النبي وآله.

الاستمداد بقوة الله

(بَحُولٌ مِنْكَ وَقُوَّةٌ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ)^(٢)، يأتي هذا المعنى في كل الأعمال والطاعات، كلها يأتي بها المرء بحول وقوة من الله تعالى، نعم الله ومواهبه بها يطاع، ولا يستطيع المرء القيام بطاعة بقدرة استقلالية من ذاته، بل من الله تعالى فهو الذي منح القوة وامتنَّ بالقدرة، والصلاة على النبي ﷺ والآل بقوة منه تعالى، بنعمه تعالى نصل إلى رضاه.

(١) مصباح المتهجد للطوسي ص ٨٢٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

سر الصلاة على النبي والآل

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، الطَّيِّبِينَ الْأَبْرَارِ الْأَخْيَارِ)^(١)، هذا المعنى رائع، يُعَلِّل الصلاة والدعاء للنبي والآل، فنُصلي عليهم وندعوا الله تعالى لهم، لأنهم أفضل الناس وأكملهم، فهم الطيبون الذين لا يصدر منهم إلا الطيب والأبرار الذين تملأ أعمالهم الدنيا سعة وفضلاً وجوداً وكرماً، والأخيار لأنهم أكثر الناس عملاً للخير، ومن خلال هذه الأوصاف يدرك المصلي المعنى المترتب على ذلك، فقد أوجب الله تعالى حقوقهم على الخلق، وفرض طاعتهم وولايتهم لأنهم الطيبون الأبرار الأخيار، وهم موثل اللطف الإلهي ومعدن الرحمة والفضل، وبذلك أوجب حقوقهم وفرض طاعتهم، أي أنه تعالى افترض الصلوات، كما افترض الحج وأداء الواجبات، الطاعة لأوليائه ليست بالاختيار، بل فرض وتكليف كالصلاة والصوم والحج والزكاة، والحق تعالى لم يخير الإنسان بل ألزمه السير على الصراط المستقيم والطاعة للهدة الميامين.

إعمار القلب بالطاعة

من يصلي بهذه الصلوات ويذكر هذه الأوصاف للنبي ﷺ ولأهل بيته البررة الخيرين ﷺ يفهم ما يترتب من الإتيان بالمنهج الحق ويتواضع ويستكين، ويأخذ من المعين الصافي والمنهل الروي، منهل المصطفى ﷺ والآل ﷺ، وحينئذ يدعو لنفسه، (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَعْمُرْ قَلْبِي بِطَاعَتِكَ)^(٢)، لأن قلبه قد امتلأ بالطاعة والتوجه التام إلى الله تعالى وسيطرة الحب الإلهي على القلب، وعندئذ فلن يخزي بمعصية، (وَلَا تَخْزِهِ بِمَعْصِيَتِكَ)^(٣)، هناك طريقان، طريق طاعة الله تعالى الذي يؤدي بالإنسان إلى الخير والنجاح في عالمي الدنيا والآخرة، وطريق الخزي والرذيلة المؤدي به إلى النار.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

كيفية إعمار القلب

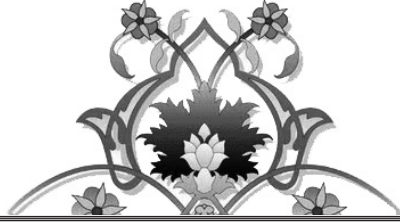
القسم الثاني من هذه الصلوات يرجع إلى الإنسان، ويترتب على بناء القواعد المتينة والرصينة التي يتكئ عليها، وهي الصلوات الشجرية بمعناها الذي أوضحناه، إن من كانت قواعده غير رصينة انهدم بناؤه، قد يبذل جهوداً كبيرة وينفق أموالاً طائلة إلا أن البناء لن يستقر بل سينهار، لأن أسسه غير رصينة، من هنا فلن يُعمر القلب بالطاعة ويُبتعد عن المعصية إلا بالمودعة لذوي القربى والأخذ بمنهجهم والتمسك بحبلهم.

نتيجة إعمار القلب

عندئذ يصل من كان كذلك إلى مستوى عالٍ، ويصبح موثقاً للخير ومحلاً له ليس لنفسه فحسب، وليس لبعض الخلق دون بعضهم، بل للبرية جمعاء، وكما أن النبي ﷺ رحمة للعالمين كذلك أهل البيت عليهم السلام، وهكذا المؤمن السائر على طريقهم، إذا اقتدى بهم وسار على منهجهم، فهو خير لجميع عوالم الوجود، أول خيره المواساة للفقراء والمعوزين، (وَأَرْزُقْنِي مَوَاسَاةً مَنْ قَتَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ رَزْقِكَ بَمَا وَسَّعْتَ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ)^(١)، ليس للمؤمنين فحسب، بل يُعم خيره الخلق أجمعين.



(١) نفس المصدر السابق.



الفصل الثاني:

■ ■ الدعاء ■ ■



آثار الدعاء في حياة الإنسان

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر) صدق الله العليُّ العظيم.

الدعاء عبادة وقرب:

الدعاء أهم العبادات في الإسلام، يتضح ذلك من خلال الآيات والروايات بل أنّ الصلاة هي دعاء في معناها اللغوي، أضاف الشارع المقدس إليها بعض الخصائص الأخرى من قيام وقعود وركوع وسجود وشرائط، وقد ركزت الشريعة المقدسة على الدعاء من أجل تقوية الربط الوثيق بين العبد والمبدأ تعالى.

موانع القرب الإلهي:

إنّ الإنسان رغم قُربه من الله تعالى إلا أنه بعيد عنه، فهو في قربه بعيد وفي بعده قريب، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى من قربه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق)، غير أنّ الإنسان يتعد عن الله تعالى بعوائق وحجب تمنعه من القرب منه تعالى:

الأول: الذنب.

إنَّ الذنوب والمعاصي حائل كبير بين العبد وربّه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ﴿المطففين﴾، أي أنَّ الذنب يُبعد الإنسان عن الله تعالى فلا يصل دعاءه إليه تعالى، قال الإمام علي عليه السلام في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء»^(١).

الثاني: الاستغناء عن الله تعالى.

إنَّ الاستقلال عن الله تعالى من أعظم الحجب التي تحجب الإنسان عنه تعالى، فيرى نفسه مستغنياً غير محتاج إليه تعالى في بعض الآونة الزمنية التي تمر عليه، ويطغى ذلك الشعور على الإنسان في الرخاء أي إذا أغناه الله تعالى وأمدّه بالصحة أو المال أو بهما معاً طغى وبُعد، وأسرف في الذنوب حتى يحتجب، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَفَى﴾ (٧) ﴿العلق﴾، إنَّ الغنى للإنسان ابتلاء بالرخاء في الحياة الدنيا غير أنه قد يؤدي به إلى رؤية نفسه مستقلاً عن الله تعالى.



علاج موانع القرب من الله تعالى

أكد القرآن الكريم والنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام على أهمية الربط الوثيق بالله تعالى عبر كل مفردات الخير خصوصاً الدعاء، لأنه الأهم من بقية المفردات، لكونه يُظهر حقيقة العبودية في الإنسان.

لذا كان التوكيد عليه بنحو أكبر خصوصاً في بعض الأشهر، كشهر رجب وشعبان ورمضان.

(١) المصباح للكفعمي ص ٥٥٥.

في رحاب أدعية شهر رجب:

وردت في شهر رجب أدعية تربط الإنسان بالله تعالى وبالطريق المؤدي إليه تعالى، ويوضح لنا الدعاء مسلكين:

الأول: الارتباط بأهل البيت عليه السلام.

«اللهم إني أسألك بالمولدين في رجب محمد بن علي الثاني وابنه علي بن محمد المنتجب، وأتقرب بهما خير القرب، يا من إليه المعروف طلب، وفيما لديه رغب، أسألك سؤال مقترف مذنب قد أوبقته ذنوبه وأوثقته عيوبه، فطال على الخطايا دؤوبه ومن الرزايا خطوبه يسألك التوبة وحسن الأوبة، والنزوع عن الحوبة، ومن النار فكاك رقبته والعفو عما في رقبته، فأنت يا مولاي أعظم أمله وثقته....»^(١).

وإذا أردنا أن نشرح مفردات هذا الدعاء المبارك استغرق ذلك منا الكثير منّا مما لا نريد أن نخوض فيه، لكننا نشير إلى مسألة التوسل بالإمامين عليه السلام، إنّ التوسل بأولياء الله تعالى يربط المرء بالله تعالى، ويجسد له المثل العليا والقيم في أشخاص انصهروا في بوتقة العبودية له تعالى، وهم الأكملون الطاهرون محمد وآل محمد عليه السلام.

قوله عليه السلام: «أسألك سؤال مقترف مذنب» تركيز على الاعتراف بالذنوب والخطيئة، لأنّ الإنسان قد يقترف بعض الذنوب والخطايا، غير أنّ عليه أن يحاول جاداً للتخلص منها لكونها تشده إلى الأرض وتصفده بأغلال لا يستطيع أن يرى عالم النورانية (عالم البهاء والارتباط بالله تعالى) فإذا توسل إلى الله تعالى بأوليائه، وأظهر فقره وفاقته بالدعاء فإنه يصل إليه تعالى.

وفي دعاء آخر من أدعية شهر رجب نجد ربطاً للإنسان بأهل البيت عليه السلام من خلال تبيان مقاماتهم عليه السلام: «أشهاد وأعضاء ومناة وأذواد وحفظة ورواد، فبهم ملأت

(١) مصباح المتجهد للطوسي ص ٨٠٥.

سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا أنت، فبذلك أسألك»^(١) هذا مقام عظيم يُبين فيه الإرادة التشريعية لله تعالى في عالم الخلق، عالم الإمكان، ويظهر حقيقة التوحيد الخالص لله تعالى التي لا يصل إليها العبد إلا من خلال ارتباطه بأهل البيت عليهم السلام، قال الإمام الصادق عليه السلام: (بنا عرف الله، وبنا عبد الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عبد الله)^(٢) أي لا يستطيع الإنسان أن يعرف الله تعالى، ويحقق مراتب التوحيد في الأسماء والصفات، وتوحيد الذات المقدسة، وتوحيد الأفعال إلا بالأخذ عن مدرسة علي وآل علي عليهم السلام، ولا نريد أن نقف في هذا لأنه يحتاج إلى أبحاث مطولة أشار العرفاء إليها وبينها علماء العقائد في كتب الكلام، وفي هذا الشهر الفضيل من خلال الدعاء يتحقق للإنسان الشعور بالفقر والاحتياج لله تعالى، فيؤثر ذلك على سلوكياته الظاهرية، إنّ الإنسان الذي يعيش الرخاء والرفاهية عندما يشعر بالفقر إلى الله تعالى لن يبطر ولن يتكبر بل لن ينحرف عن مسار الرشده والهدى. وإذا ابتلي ببلاء سيقى مرتبطاً بالله تعالى لأنه صمام أمان يحميه ويحفظه، ومصدق ذلك الإمام الكاظم عليه السلام، فقد كان صامداً قوياً أمام الضغوط الشديدة من طغاة عصره.



أهم فوائد الدعاء:

إنّ الدعاء يعلم الإنسان الصمود والتحدي والبقاء على المبادئ، ولن يؤثر عليه ما لدى الأعداء من جبروت وقدرة وطغيان، لكونه فهم أنّ الدنيا دار فناء وزوال وليست بدار قرار، لقد قضى الإمام الكاظم عليه السلام شطراً من عمره الشريف في السجن الذي كان تحت الأرض في مكان مظلم لا يُعرف فيه الليل من النهار، وكان عليه السلام يحدد أوقات الصلاة من خلال أحزاب القرآن التي يقرأها، وفي هذا الجو من التعذيب والضغط كتب عليه السلام رسالة للرشيد قال فيها: (لن ينقضي عني

(١) مصباح المتهجد للطوسي ص ٨٠٤.

(٢) التوحيد للصدوق ص ٥٢.

يوم من البلاء إلا وانقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون^(١) إنَّ من يتبع الغي ولا يقتفي منهج القرآن وما جاء به المصطفى ﷺ يخسر الآخرة، وذلك خسران مبین، ويعلم الإمام ﷺ هارون الذي كان يعيش الرخاء ويخاطب السحاب قائلاً: أينما تمطري يأتيني خراجك. أن يفهم أنَّ ذلك سيزول، ويتقل المرء من هذه الدنيا إلى الآخرة فيوفي حسابه، وذلك درس عظيم من الإمام ﷺ لمن يريد السير في جادة الصواب، والإتباع لمنهج رسالات السماء.

الأمر الآخر الذي نبه عليه هو أنَّ المنهج ليس نظرياً فحسب، بل سبيل وصراط رسمه الأئمة من أهل البيت ﷺ وجسده الحواريون من أوليائهم وأحبائهم في عصورهم، وامتد إلى علمائنا الأبرار، كآية الله الشيخ محمد الهاجري (رحمته الله) - عالم من الأحساء - فلقد كان من سماته الأساسية الدعاء، ففي جلسة معه سألته رحمه الله عن أهم الأشياء التي يستطيع بها طالب العلم أن يحقق استقلالاً ورفاهية في العيش من الناحية المادية، ونوراً يتوصل به إلى حل المعضلات العلمية؟

فقال يرحمه الله: علمتك ذكراً منذ وقت عليك بالمواظبة عليه تصل إلى ما تريد، نعم؛ لقد علمني رحمه الله أن أداوم في السجود على ذكر: «يا وهاب يا وهاب» أربعة عشر مرة. وقال: إنه يوسع الرزق، ونضيف إلى ذلك بعض الأذكار التي وردت في كتب الأدعية كالتسبيح وكثرة الاستغفار وقراءة سورة الواقعة، فهذه الأذكار تُسهم في الرفاه الاقتصادي وتُزيل العوائق المعنوية.

أوصى يرحمه الله بالمحافظة على بعض هذه الأذكار، وقال:

إنها مفيدة في أمرين:

الأول: الناحية المادية.

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٤٨ ص ١٤٨.

الثاني: الناحية المعنوية.

فإذا صعبت مسألة ستكشف مغلقاتها بل ستسهل مبهمات المسائل العويصة ببركة تلك الأذكار، إنَّ أهل البيت عليهم السلام ديدنهم الذكر وقد علموا الحواريين من أتباعهم ذلك.



أثر الجانب المعنوي في تقدم الإنسانية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴿الحجرات﴾ صدق الله العلي العظيم.

أهمية الجانب المعنوي:

للجانب المعنوي في شخصية الإنسان أهمية كبرى في برامج الأنبياء والرسل، وخصوصاً في شريعة النبي محمد ﷺ، ذلك أنَّ الجانب المعنوي يتقرر على ضوئه مستقبل الإنسان، بل مستقبل الكون بأكمله، فالصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان ليس بالآلة العسكرية فحسب وإنما صراع أفكار ولا يمكن أن يحسم إلا بغلبة الفكر، وستصل الإنسانية في نهاية المطاف إلى إدراك أنَّ أفضل النظريات وأقوم الأفكار هو الفكر الذي يحترم الإنسان ويُقدس الجانب الشخصي لشخصيته، ويؤلي الحرية العناية ويتيح للإنسان أن يرتبط بالحق تعالى على ضوء الأسس والبراهين التي جاء بها الأنبياء والرسل ﷺ.

اعتناء الأنبياء بالجانب القيمي

كل ما توصل إليه الإنسان من قدرات في العلم والتقنية والتكنولوجيا لن يستطيع أن يجعل له سيادة ورفاهاً دون أن يلتفت إلى الجانب القيمي والمعنوي في شخصيته

لأنه الوجود الحقيقي له، ولهذا أولى الأنبياء والرسل هذا الجانب عنايةً فائقةً وسعوا إلى إزالة الرواسب المصطنعة، والآية التي بدأنا الحديث بها تبين أنه لا فرق بين إنسان وآخر إلا بتقوى الله، ومعنى ذلك أن المائز الحقيقي للتفوق بين إنسان وآخر هو في الجانب القيمي بالارتباط بالحق تعالى، وليس في منطق القرآن والشرائع السماوية غير المحرفة ما يجعل امتيازاً لعرق أو لون أو شيء مصطنع لشعب على آخر، التفوق يكون بالارتباط بالله تعالى وتنمية الجانب القيمي والأخلاقي للشخصية.

علاقة التقنية الحديثة بمشاكل الإنسانية

هذا ما طرحه الأنبياء والرسل ﷺ غير أن البشرية عبر التجارب المريعة والحروب والكوارث المستمرة والتي نرى بعضاً منها في عالم اليوم حيث أن المصانع الكبيرة في الدول الصناعية تدر أرباحاً طائلة لا حدود لها لكن ذلك على حساب التأثير السلبي، فالاحتباس الحراري بات يؤثر على دول وشعوب تئن من وطأة الفقر، وتحاصرهما المياه كما في بنجلاديش وغيرها من الدول ويعود السبب إلى الاحتباس الحراري، ومعنى ذلك أن التقنية والتكنولوجيا لم تحل مشاكل الإنسانية ولم تستطع أن توجد الرفاه لها، بل ترتب على ذلك أن شعوباً أصبحت تحت وطأة الفقر والتخلف.



أثر الأسس الأخلاقية في التقدم

التقدم لبعض الشعوب تم على حساب أمراض فائكة ستؤثر سلباً حتى على الشعوب المتقدمة، باعتبار أن هذا الكوكب سفينة إذا غرقت أو احترق جزء منها فلا يمكن لبقية الركاب أن ينجو، الجميع سيغرق وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان، فالتقدم لبلد أو دولة إذا لم يكن موزوناً وعلى أسس أخلاقية كما دعا إلى ذلك الأنبياء والرسل والمصلحون فإن الجميع سيتضرر، ولا يمكن للبعض فقط أن يعيش الرفاه لنفسه ولأجياله القادمة. إذا لم تكن هناك عدالة قائمة على أسس أخلاقية كما تحدثت الآية التي ذكرناها بل سيتأثر الجميع.

الأولوية لتطوير المجال الاجتماعي والروحي

أدرك السياسيون في العصر الحاضر أن لا مستقبل للبشرية دون إيلاء الجانب المعنوي والروحي للإنسان العناية الكبيرة إذ لا تقدم للإنسانية جمعاء إلا بإيلاء هذا الجانب الأولوية ووضعه في المقدمة، وهذا ما صرح به بعض السياسيين الذين توصلوا إلى هذه النظرية بعد ردح من الزمن فـ(غورباتشوف) صرح في كتاب (البروستريكا) أن الأولوية لتطوير المجال الاجتماعي والثقافي والروحي، وليس للجانب الفردي وحده دون التركيز على الجانب القيمي والروحاني لشخصية الإنسان، ومعنى هذا أن بعض السياسيين وصل إلى أن برامج الأنبياء والرسول هي القادرة على انتشال الإنسانية والارتقاء بها إلى الرفاه أما البرامج التي تطرح من السياسيين وتركز على الارتقاء لقطر أو دولة أو عرق أو لون على حساب الآخرين سوف تتلاشى منتهية، قال غورباتشوف: (يمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذهب هالي وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العلمية والتكنولوجية نجد نقصاً واضحاً في الكفاءة في استخدام المنجزات العلمية للحاجات الاقتصادية كما أن كثيراً من الأجهزة المنزلية السوفيتية من نوع رديء ولسوء الحظ فليس هذا كل ما في الأمر فقد بدأ تدهور تدريجي في القيم الإيديولوجية والمعنوية لقيمنا، وبدأ يسري في الأخلاقيات العامة وزاد إدمان الخمر والمخدرات والجرائم وسنواصل بحزم النضال ضد السكر وإدمان الكحوليات)، أي أن التقدم والتطور في المجال العسكري دون إيلاء عناية بالرفاه الاقتصادي للإنسان لن يحل المشكلة.

إنّ التدهور التدريجي للقيم عندما بدأ ينخر في المجتمع أدى إلى سقوط تلك الدولة العظمى، وقال غورباتشوف أيضاً: (ومهمتنا الرئيسة اليوم أن نرفع من روح الفرد، ونحترم عالمه الداخلي، ونعطيه قوة معنوية ونحن نسعى أن نجعل كل قدرات المجتمع الفكرية وكل إمكاناته الثقافية تعمل من أجل تشكيل شخص نشط اجتماعياً، وغني روحياً، مستقيم وحي الضمير وينبغي أن يعرف كل فرد ويشعر أن هناك حاجة إلى إسهامه، وأن كرامته لا تتخذش، وأن يُعامل بثقة واحترام، وعندما يرى الفرد كل



ذلك فإنّ في مقدوره أن يحقق الكثير).

إنّ تركيزه على الجانب القيمي والروحاني، لأنّه رأى أنّ المنجزات والتقدم الهائل في مجال المادة لا يحسم النزاع ولا يولد الرفاه ولا يعطي التكافؤ في الفرص للشعوب، وقال: (ونحن نسعى أن نجعل كل قدرات المجتمع الفكرية، وكل إمكاناته الثقافية تعمل من أجل تشكيل شخص نشط اجتماعياً وغني روحياً)، ومعنى الغنى الروحي في كلامه أنّ الروح هي الأساس للغنى في المجالات الأخرى أما قوله: (وينبغي أن يعرف كل فرد ويشعر أنّ هناك حاجة إلى إسهامه وأنّ كرامته لا تتحدش وأن يعامل بثقة واحترام)، أي أنّ مسألة الحرية للفرد ينبغي أن تولى العناية ولا تهمل مع التوازن في الجانب الروحي، والأنبياء والرسل كان تركيزهم على الجانب المعنوي لشخصية الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

الجانب المعنوي في العالم الشرقي والغربي

قد يتصور أنّ هذا نتيجة لتردي الأوضاع وسوء المعيشة الاقتصادية في الاتحاد السوفيتي سابقاً، فهناك نقص تعانيه تلك الدولة العظمى وتحتاج إلى الرغيف لتطعم شعبها لكن هذا ليس بخاص بالاتحاد السوفيتي بل حتى الغرب أدرك بعض سياسيه بأنّ الأهمية الفائقة للجانب الروحاني والقيمي في شخصية الإنسان، ومن سبر أغوار التجربة السياسية والاجتماعية سيصل بأنّ الأهمية لهذا الجانب وهذا ما حصل مع (ريتشارد نيكسون) الذي تحدث عن أهمية الإصلاح في النظام السياسي والاجتماعي للولايات المتحدة، وقال في كتابه الفرصة السانحة: (إنّ أمريكا في مشاكل داخلية عسيرة وبسبب هذه المشاكل لم تصل إلى المكانة التي يجب أن نكون فيها، علينا أن نغتني فرصة انتصار الحرية في الخارج)، ويريد بذلك أنّ الناس لم يستنشقوا نسيم الحرية نتيجة للأنظمة القمعية فإنّ ذلك سيؤثر على الجميع لكن الانفتاح الذي حصل في الفضاء والانترنت جعل الناس يستنشقون نسيم الحرية ويطالبون بها في وسائل الإعلام.

أما قوله: (علينا أن نغتني فرصة انتصار الحرية في الخارج حتى نجعل أمريكا ليس مجتمعاً غنياً فحسب بل وفاضلاً أيضاً) أي أنّ الغنى وحده لا يحل المشكلة بل لابد أن



يقترن بالفضيلة والرئيس نيكسون ركز على الفضيلة باعتبار أنّ حاجات الإنسان لا تشبع بالمادة فحسب بل يحتاج أن يروي ظمأه بالارتباط بالقيم المعنوية (حتى نجعل أمريكا ليس مجتمعاً غنياً فحسب بل وفاضلاً أيضاً) ثم أشار إلى بعض السلبيات، وقال: (إنّ أغنى دولة في العالم لا يمكن أن يكون لها أكبر معدل إنفاق سنوي للفرد الواحد على الرعاية الصحية، ويكون فيها في الوقت نفسه ثمانية وثلاثون مليوناً من سكانها لا يحصلون على الرعاية الصحية المناسبة لأنهم غير قادرين على دفع تكاليفها، إنّ أغنى دولة في العالم لا يمكن أن تقبل أن يكون استهلاكها للمخدرات متساوياً تقريباً لاستهلاك دول العالم مجتمعة على الرغم من أنّ عدد سكانها لا يتجاوز جزءاً من عشرين من سكان العالم. إنّ أغنى دول العالم لا يمكن أن يكون لها أعلى معدل لارتكاب الجريمة في العالم وأن يموت في أمريكا قتلاً أثناء فترة حرب الخليج عشرون ضعف الأمريكيين الذين قضوا في تلك الحرب. إنّ أغنى دولة في العالم لا يمكن أن تقبل أن يكون فيها طبقة من الأشرار التي تجعل مدناً الكبيرة غير آمنة إلى درجة أنّ الحياة فيها صارت لا تطاق)، فالإنسان نتيجة لانعدام الجانب القيمي والأخلاقي لا يعيش آمناً ومطمئناً.

الإرهاب والجانب القيمي للإنسان

أما الآن فقد ازداد الطين بلة بالإرهاب وحتى لو لم يكن هناك إرهاب فهناك نقص في الجانب القيمي والأخلاقي يهدد المجتمع فالداء في نفس المجتمع أكثر من المستورد من الخارج، وفي كتابه الآخر (نصر بلا حرب) قال: (ينبغي ألا يغيب عنا التصدي لقضية البعد الروحي في الإنسان)، وهذا يعني أنّه لا أمريكا ولا الاتحاد السوفيتي ولا دول الغرب ولا أي مجتمع آخر يمكن أن يتجاهل الجانب القيمي والمعنوي في الوصول إلى السعادة.

على ضفاف البعثة

من هنا ندرك ونحن نعيش ذكرى بعثة النبي ﷺ الذي اختصر كل المفاهيم التي جاء بها في بعثته ص بإتمام مكارم الأخلاق، وإذا أرادت البشرية الخير والرفاه عليها العناية بالأخلاق والقيم وأن لا تجعل الاعتناء بالجانب المادي على حساب الاعتناء



بالجانب القيمي فتزول كرامة الإنسان ويداس على حريته ولا يكون له قيمة من أجل تحقيق مآرب بعض الدول وبعض السياسيين، فلا يمكن أن تصل الإنسانية إلى رفاه بل ستعيش مأزقاً في مسألة قيم، إننا عندما نستعرض أفكار السياسيين وعلماء الاجتماع والمنظرين ندرك معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ (التوبة: ٣٣)، فلا قيم كالقيم التي جاء بها المصطفى ﷺ، فهي التي تحترم الإنسانية جمعاء، وتقدس الإنسان ولا ترى فارقاً بين إنسان وآخر، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، المصطفى ﷺ عربي، ولم يقل العرب أكرم الخلق أو أفضلهم بل قال ﷺ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، ولم يدعو ﷺ إلى تقديس الأمة العربية على حساب الأمم الأخرى كما أنه لم يناد بتقديس قبيلته على حساب القبائل، فسيرته وسلوكه عندما يجالس الناس يرى نفسه الأقرب للجميع، وفي المقابل ترى جميع القبائل أنه ﷺ ينتمي إليها وهو أحد أفرادها، هكذا كان ﷺ في خلقه الذي عبر عنه القرآن الكريم، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم)، وفي مبعثه الشريف علينا أن نأخذ بها جاء به فاستطاع أن ينتشل البشرية.

طريق السعادة للبشرية

لن تسعد البشرية إلا بالسير على نهجه ﷺ والأخذ بهديه، وعلى أمتنا في يوم مبعثه أن تتمسك بنهجه ﷺ الوسطي ليتاح لها أن تتعامل إيجابياً مع أمم الأرض وتسهم في إنجازات العالم رفاهاً وتقدماً في الاقتصاد والعلم والثقافة، وما نراه من شرذمة قليلة خرجت على مبادئ وقيم الدين الإسلامي وعاثت في الأرض فساداً بإرهابها لا تنتمي إلى الإسلام، إذ النهج الذي جاء به النبي ﷺ هو الانفتاح على كل الناس، وقراءة الكتب والرسائل التي أرسلها إلى الملوك والأمراء ومخاطبته إياهم بأدب جم ودعوة إلى الفضيلة والرشد توضح اختلاف نهجه عما ينسب إليه من هذه الشرذمة القليلة التي بات يخاف من الإسلام بسببها، إن الإسلام هو السلام والمحبة والرفق بالإنسان، لقد كان ﷺ يريد للإنسان أن يأخذ بيد أخيه ليتقدم معه إلى الأمام، ذلك هو نهجه ﷺ الذي اختصره بفلسفة بعثته، «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١).

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٦، ص ٢١٠.

الدعاء والصوم تأمين على المستقبل

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥). صدق الله العلي العظيم.

دور الزمان في القرب من الله تعالى

يختلف بعض الأزمنة والأمكنة عن بعضها الآخر، فبعضها أفضل، والفضل والتفاوت بين زمان وآخر ومكان وغيره موجود في كل الديانات السماوية وعند جميع أصحاب الملل والنحل، ومن الأزمنة الهامة الأشهر الثلاثة رمضان وشعبان ورجب، هذه الأشهر الثلاثة لها مزية وخصائص عظيمة لأهل السير والسلوك، بل لعامة الناس.

دور الزمان في الجانب المعنوي

كل من يريد أن يحقق بعض الإنجازات والأهداف في سيره المعنوي إلى الحق تعالى يستطيع ذلك بنحو أسهل في هذه الأشهر الثلاثة فيتاح للمرء فيها أن يتبوأ مكانة كبيرة وأن يحقق لنفسه الكثير من المقاصد، وهناك شخصيات وصلت إلى مقامات كبيرة وتبوأت مكانة سامية والسبب فيما وصلت إليه يعود إلى اغتنام الفرص الموجودة في هذه الأشهر الثلاثة كما سيظهر من خلال حديثنا عن أهمية شهر رجب إن شاء الله تعالى.

مسميات شهر رجب

شهر رجب من الأشهر الحرم التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة: ٣٦)، حرم فيها القتال، ويسمى رجب برجب الأصب لأن الله تعالى ينزل فيه المزيد من رحمته ويضاعف فيه الأعمال.

رجب من الأشهر الحرم

ويسمى أيضاً بشهر رجب الأصم باعتبار عدم سماع آثار الحرب، حرم الله تعالى القتال في الأشهر الحرم لمزية لها وهذه المزية موجودة في الأديان السابقة كالديانة الإبراهيمية غير أن مكانة رجب ازدادت سمواً ورفعة في الإسلام.

شهر رجب في الإسلام

اقترن هذا الشهر بالإضافة إلى المزايا والخصائص التي يتمتع بها بمناسبات عظيمة هي مواليد أهل البيت عليه السلام والآية الكريمة التي استهللنا بها الحديث - ﴿وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥) - تفصح عن الأيام التي تتجلى فيها عظمة الحق تعالى، ومن أعظم التجليات لعظمته تعالى اقتران بعض الأزمنة بمواليد أوليائه عليه السلام، ومن أعظم من الإمام علي والباقر ومحمد بن علي الجواد وابنه الهادي عليه السلام؟! وقد أشار أحد أدعية رجب إلى ذلك، (اللهم إني أسألك بالمولودين في رجب محمد بن علي الثاني وابنه علي بن محمد المنتجب وأتقرب بهما إليك خير القرب، يا من إليه المعروف طلب وفيما لديه رغب)^(١).

خصائص معنوية في شهر رجب

غير أننا نريد أن نركز على مفردتين هامتين في هذا الشهر الفضيل هما الدعاء والصوم، ففي هذا الشهر الفضيل وردت أعمال متعددة لكننا نريد أن نعطي هاتين

(١) مصباح المتجهج للطوسي: ج ٨٠٥.

المفردتين مزية وعناية على بقية المفردات الأخرى الواردة في أعمال هذا الشهر الفضيل.

أهمية الدعاء للمؤمن

للدعاء خصائص: منها الاستغناء بالله تعالى، والاستكفاء به، وإظهار الفقر من لدن العبد لربه، وإبانة العوز والحاجة إليه فيظهر العبد نفسه إلى الله تعالى بأنه فقير يحتاج إليه وأن الله تعالى قادر على أن يسد هذا العوز والحاجة، فيملاً فقره غنىً، وعوزه استكفاءً قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر: ٣٦) ويفيد الدعاء في التوكل على الله والاعتماد عليه تعالى وفي ذلك الغنى به سبحانه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ (الطلاق)، وما أروع أن يكون لسان العبد رطباً ولهجاً بالدعاء، والتوسل إلى الله تعالى في كل شدة ورخاء، أي أنه في الرخاء يحتاج الإنسان أن يدعو الله تعالى فإذا دعاه تعالى في الرخاء استفاد من دعاءه كرصيد في الشدائد والمحن التي تمر عليه، كما جاء ذلك في الروايات.

ميزة الدعاء في شهر رجب

ينبغي للمرء أن يدعو الله تعالى في كل آن من آنات حياته، وفي كل زمان غير آن الدعاء في شهر رجب له ميزات خاصة:

الأولى: الربط الوثيق بالله تعالى.

هذا الشهر العظيم مُلء بالأدعية التي تؤدي إلى الارتباط الوثيق بالله تعالى، (يَا مَنْ أَرْجُوهُ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَآمَنْ سَخَطُهُ عِنْدَ كُلِّ شَرٍّ، يَا مَنْ يُعْطِي الْكَثِيرَ بِالْقَلِيلِ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ نُحْنًا مِنْهُ وَرَحْمَةً.....)^(١)، فالمرجو لكل خير هو الله تعالى، والمأمون سخطه عند كل شر وكربة وكل شدة هو الحق تعالى لقدرته على كشف تلك الكرب والشدائد، إذ بيده مفاتيح الأمور، وخزائن المقادير، ليس ذلك فحسب بل أن الله تعالى قادر على أن يحول الشدائد والكرب إلى نعماء وخير

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢١١.

كما تحقق ذلك لبعض أنبيائه.

الثانية: التطهير والتركية.

وهناك خصائص لأدعية شهر رجب حري بالمؤمن أن يستفيد منها، من هذه الخصائص أنّ هذا الشهر هو شهر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، ومن يرتبط بالله تعالى عبر الدعاء والصوم سيؤديان به إلى التطهير والتركية لنفسه، وعندئذ تحصل مشكلة ومشابهة بينه وبين الإمام علي عليه السلام، ولعل هذا هو المعنى المراد من كونه شهر أمير المؤمنين عليه السلام، إذ الإمام عليه السلام مطهر ومنزه من الله تعالى والارتباط الوثيق بالحق تعالى يؤدي إلى الارتباط بأهل البيت عليهم السلام عبر هذه الأعمال الصالحة التي تحدث مشكلة معهم عليهم السلام، جاء في الروايات أنّ شهر رمضان هو شهر الله تعالى، وشعبان شهر رسول الله ص، ورجب شهر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

الترابط بين رجب وشعبان ورمضان

من يأتي بهذه المفردات يحصل على المشاكلة والمشابهة بينه وبين أهل البيت عليهم السلام وتطهر ذاته وتزكو نفسه ويقرب منهم عليهم السلام، وبذلك يفهم خصائص الرسالة ومعاني شعبان، وإذا فهم خصائص الرسالة تأهل لفهم خصائص شهر رمضان، شهر الحق.

الدليل على ترابط الأشهر الثلاثة

وقد أشير إلى هذا المعنى في أحد الأدعية، (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم اعرف نبيك اللهم عرفني رسولك، فإنك إن لم تعرفني رسولك لم اعرف حجبتك اللهم عرفني حجبتك، فإنك إن لم تعرفني حجبتك ضللت عن ديني)^(١)، يحتاج الإنسان إلى معرفة نفسه وإلى معرفة الله تعالى وإلى معرفة الحجج، والمعرفة لحجج الله تعالى تحتاج إلى نزاهة وتركية، وهذا هو السبب لربط هذا الشهر بخصائصه بمولانا أمير المؤمنين عليه السلام لما ورد فيه من مفردات وأعمال تؤدي إلى الطهارة والتركية للنفس.

(١) الكافي للكليني: ج ١، ص ٣٣٧.

الصوم منبع الإرادة

الصوم هو الصبر، وهو قوة الإرادة، والتحمل للشدائد والتغلب على المشاكل، وهو الإخلاص والارتباط بالحق تعالى، وهذه المعاني جاءت في الآيات والروايات، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة)، فُسرَّ الصبر بالصوم، والصلاة هي الدعاء، إذن الصوم له كل هذه المعاني، فيه صبر ومجاهدة للنفس وإخلاص للعبادة لله تعالى.

حقيقة جزاء الصوم

وقد ركز على الإخلاص كأثر للصوم، لهذا ورد (الصوم لي وأنا أُجزي به) ^(١)، وقُرأ (وأنا أُجزي به) ^(٢)، وكلا المعنيين صحيح إلا أنَّ المعنى الثاني فيه حيثيات جميلة:

الأولى: أنَّ العبد يرى أنَّ الجزاء الذي يقدمه لربه هو الصوم وهو معنى كنائي حقيقته الإخلاص لله تعالى.

الثانية: أن يكون الحق تعالى هو جزاء الصوم، وما أروع هذا المعنى فكون الحق تعالى هو الجزاء للصوم، يتضمن حقيقة الإخلاص.

الصوم عبادة حقيقتها الترك

إذ أنَّ العبادات الأخرى لها ظهور وتعلم من الغير إلا الصوم، فمن صام فلن يعلم به أحد إلا إذا تحدث عن نفسه، فالصوم كله تروك، والفعل الوحيد فيه هو النية فهي عمل إيجابي، وأما باقي أعمال الصوم، فهي تروك للمفطرات والشهوات لتربية إرادة الإنسان لتكون صلبة، والإرادة هي الفصل الحقيقي للإنسان لدى العرفاء، (حيوان ذو إرادة) ويستطيع أن يصل بالإرادة إلى ما يبتغي، ويتغلب بها على العقبات ومن العوامل الهامة في تربية الإرادة الصوم خصوصاً إذا ارتبط بالدعاء كما هو عليه الحال

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج ٢، ص ٧٥.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٣، ص ٢٥٤.



في هذا الشهر الفضيل، فقد ارتبط الصوم بالدعاء في أعمال ليلة الرغائب وكذلك في دعاء أم داوود في أعمال منتصف الشهر.

الصوم والتأمين على المستقبل

ينبغي أن نوضح أثراً هاماً للصوم في هذا الشهر بينته الروايات هو التأمين على المستقبل، الإنسان يحتاج إلى تأمين على المستقبل ومن أعظم أنواع التأمين على المستقبل الارتباط بالحق تعالى والسير على منهاج النبي ﷺ والإتباع لأهل البيت ، وذلك هو التأمين الحقيقي.

أثر الذنب على المستقبل الآخروي

قد تصدر من الإنسان ذنوب تؤثر على مستقبله الآخروي فتظهر له شدائد سكرات الموت أو أهوال يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق)، فالموت هو سلخ اللحم من العظم، وهو شيء مهول، وأهوال يوم القيامة مهولة أكثر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢) (الحج).



كيفية التأمين على المستقبل

غير أن بإمكان الإنسان أن يؤمن على نفسه ويحصل على الراحة عند الموت والأمن من أهوال يوم القيامة والتأمين يعطي الإنسان اطمئناناً في النفس وسكينة في البال كما عليه الحال في التأمين على أموالنا (البيت والسيارة والشركة)، فائدة التأمين تجعل الإنسان يتفرغ لإنجاز أعماله دون اشتغال بما يعكر صفو مزاجه ويستهلك جزءاً من قدراته فيتاح له أن يخطط خطواته باطمئنان ويتقدم بأمان أي أن فائدة التأمين تركز ذهنيته وقدراته، وهذه فائدة عظيمة ومن يؤمن بالأعمال الصالحة على مستقبله الآخروي يستفيد هذه الفائدة الجليلة.

صوم رجب تأمين للمستقبل

من الأعمال الصالحة التي يؤمن بها المستقبل الصوم في رجب، وقد جاء ذلك في رواية شارحة لهذا المعنى، فقد روي عن علي بن سالم، عن أبيه، قال : دخلت على الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في رجب وقد بقيت منه أيام، فلما نظر إلي قال لي: (يا سالم، هل صمت في هذا الشهر شيئاً؟)، قلت: لا والله يا بن رسول الله، فقال لي: (لقد فاتك من الثواب ما لم يعلم مبلغه إلا الله عز وجل، إنَّ هذا شهر قد فضله الله وعظم حرمة، وأوجب للصائمين فيه كرامته، قال : فقلت له: يا بن رسول الله، فإن صمت مما بقي شيئاً، هل أنال فوزاً ببعض ثواب الصائمين فيه ؟ فقال: (يا سالم، من صام يوماً من آخر هذا الشهر، كان ذلك أماناً له من شدة سكرات الموت، وأماناً له من هول المطلع وعذاب القبر، ومن صام يومين من آخر هذا الشهر، كان له بذلك جواز على الصراط، ومن صام ثلاثة أيام من آخر هذا الشهر، أمن يوم الفزع الأكبر من أهواله وشدائده، وأعطي براءة من النار)^(١).

عظمة شهر رجب

قوله عليه السلام : (قد فاتك من الثواب ما لم يعلم مبلغه إلا الله عز وجل)، إيابة لما فات من الخيرات الكثيرة، وقوله عليه السلام : (إن هذا شهر قد فضله الله وعظم حرمة، وأوجب للصائمين فيه كرامته)، بيان لعظمة هذا الشهر.

الصوم وسكرات الموت

أما قوله عليه السلام : (يا سالم، من صام يوماً من آخر هذا الشهر كان ذلك أماناً له من شدة سكرات الموت)، فهو من مصاديق قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجَى إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) (الفجر)، وقوله عليه السلام : (وأماناً له من هول المطلع)، ذلك أن الإنسان يخاف من هول المطلع فهو حياة أخرى وعالم آخر يواجهه الإنسان، ولن يحصل له الأُنس بذلك إلا بالصوم، فالصوم يقيه من عذاب القبر ويسهل له هول المطلع.

(١) الأُمالي للصدوق: ص ٦٦.

الصوم والجواز على الصراط

ثم قال عليه السلام: (ومن صام يومين من آخر هذا الشهر، كان له بذلك جواز على الصراط)، الصراط جاء في الروايات ميزان دقيق يسقط الكثير في جهنم بمرورهم عليه، وهو أحد من السيف وأدق من الشعرة.

الصوم وحسن العاقبة

ثم قال عليه السلام: (ومن صام ثلاثة أيام من آخر هذا الشهر، أمن يوم الفزع الأكبر من أهواله وشدائده)، الصوم من العلل المعدة التي يتوفق بها الصائم إلى أن يختم له بالحسن، ويوفق لقبول أعماله، وحرى بالمؤمن السائر على صراط المصطفى صلوات الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أن لا يفوته الدعاء في هذا الشهر، وصوم بعض أيامه، أما إذا كان مريضاً لا يقدر على الصوم فيتصدق برغيف عن كل يوم، ومن لم يستطع الصدقة يأتي بالتسبيح الوارد لينال به ثواب الصوم.



آداب الدعاء في آفاق شهر رمضان المبارك

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦) (البقرة).
صدق الله العلي العظيم.

الدعاء طريق الوصول إلى الله تعالى

من المهمات الأساسية للمؤمن الاستفادة من الدعاء خصوصاً في شهر رمضان لأن أوقاته ذات خصوصية، فهي أفضل من كل زمان آخر، قال النبي ﷺ: (عباد الله إن شهركم ليس كالشهور، أيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات)^(١)، وهذه خاصية زمانية بالإضافة إلى مجموعة من العوامل إذا توافرت أتيح للإنسان أن يصل إلى مقامات ربانية ومعرفية بالدعاء، ذلك أن الوصول إلى مقام شامخ من المعرفة، لا بد أن يكون بخطوات، وقد صنف العلماء آداب الدعاء إلى صنفين: ظاهرة وباطنة.

الآداب الظاهرية للدعاء:

أما الآداب الظاهرة فنلخصها في نقاط:

(١) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق ص ١٠٨

الأولى: تحري الوقت المناسب.

للوقت أهمية لكونه ظرفاً للدعاء بما يحمله من مكانة خاصة ترتبط بما يفيضه الله تعالى من ألطاف في ذلك الوقت تحقق فيها إجابة الدعاء، وقد جاء التأكيد على تحري أوقات الدعاء واغتنامها كيوم عرفة ووقت نزول المطر، ويوم الجمعة، وبين الأذان والإقامة، ووقت السحر وشهر رمضان وأوقات الصلوات، أما في شهر رمضان فقد أشار النبي ﷺ في خطبته آخر شعبان فقال: (وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم فإنها أفضل الساعات ينظر الله فيها بالرحمة إلى عباده)^(١).

الثانية: اختيار المكان.

إنّ مكان الدعاء بما له من شرف وقُدسية له أثره الفعّال على الداعي والدعاء لأنه يُضفي أجواءً إيمانية تحقق للنفس إقبالاً على الدعاء، وأهم هذه الأماكن المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ ومشاهد أهل البيت ﷺ والمشاعر المقدسة في الحج.

الثالثة: شخص الداعي.

إن روح الداعي تشكل ظرفاً للدعاء، وعليه أن يتجانس مع أجوائه، فيكون متطهراً متعظراً مقراً بذنوبه ملحاً بالدعاء والتضرع والابتهاال.

الرابعة: نفس الدعاء.

وينبغي الانتباه إلى أمور هامة، منها: أن لا يكون الدعاء بأمر محرم وأن لا يكون مناقضاً للحكمة الإلهية بأن يدعو بالرزق وهو جالس في بيته، وأن لا يطلب أمراً مستحيلاً، وأن ينسجم الدعاء مع حكمة الحق تعالى كالأدعية الواردة عن المعصومين ﷺ فهي منسجمة مع الحكمة لأنهم أقرب الخلق إلى الله تعالى وأعرفهم بمخاطبته بالدعاء، وأن يبدأ بالبسملة والصلاة على محمد وآله وتمجيد الله تعالى والثناء عليه، وهناك آداب ظاهرية أخرى.

(١) الأُمالي للصدوق: ص ١٥٤.

الآداب المعنوية للدعاء:

أما الآداب الباطنية التي تلامس كُنه الإنسان، وإذا التفت إليها أدرك واقعها، فهي أمور:

الأول: معرفة الله تعالى.

إن معرفة الله تعالى من أهم المسائل العقدية التي تؤسس قاعدة إيمانية صلبة للارتباط به تعالى، ومن خلال المعرفة بإحاطة الله تعالى وبقدرته اللامحدودة على جميع ذرات عالم الوجود يتغير واقع الداعي الملتفت إلى قدرته تعالى إلى الأحسن لعلمه بأن الله تعالى قادر على أن يُغير الظروف المعاكسة وغير المؤاتية لما يريد في أنفسنا وفي واقعنا الخارجي، وإذا تغير ما في نفوسنا تغيرت القوانين التي سنّها الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وقد ركزت الروايات على معرفة الله تعالى، حضر جماعة عند الإمام الصادق عليه السلام فقالوا له: ندعو فلا يستجاب لنا، فقال عليه السلام: (لأنكم تدعون من لا تعرفونه)^(١)، إن المعرفة ينبثق منها الاعتقاد الجازم بالإجابة، قال عليه السلام: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة)^(٢).

الثاني: الرضا بالقضاء والقدر.

قال إمامنا الحسن عليه السلام: (أنا الضامن لمن لم يهجمس (أي يحدث نفسه) في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له)^(٣). هذا أدب جد هام في التوجه إلى الله تعالى، فمن رضي بقضاء الله تعالى وقدره وعلم أنّ ما يحدث من الله تعالى مصلحة للعبد استفاد منه أو لم يستفد منه شخصياً، لأنّ هناك فائدة عامة تعود إلى النوع الإنساني بل إلى عالم الوجود بأسره، وإذا استطاع أن يصل إلى هذه المرتبة المعنوية استجاب الله تعالى دعاءه، وقد ضمن ذلك إمامنا الحسن عليه السلام.

الثالث: اليأس عما في أيدي الناس.

لا يقل هذا الأدب أهمية عن سابقه، وقد أوضحت الروايات أنه ينبغي للداعي اليأس عما في أيدي الناس والتعلق بالله تعالى، وذلك من الآداب الدقيقة في السير

(١) التوحيد للصدوق: ص ٢٨٩.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٧، ص ٥٣.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ٨٨٢.

والسلوك وقد اهتم به العرفاء، وعُبر عنه في الروايات بالغنى الأكبر، وحقيقته هي أنّ من أراد أن يدعو الله تعالى عليه أن لا يتعلق قلبه بما في أيدي الناس، فلا يدعو الله تعالى ويرجو غيره، وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام هو الأنموذج الأمثل الذي يجسد واقعهم، قال الصادق عليه السلام: (إذا أراد أحدكم أن لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه فليأس من الناس كلّهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله عزّ وجلّ، فإذا علم الله عزّ وجلّ ذلك من قلبه، لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه)^(١).

وقال عليه السلام: (ثلاث هنّ فخر المؤمن وزينه في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولاية الإمام من آل محمد عليهم السلام)^(٢).

وينبغي أن يلتفت إلى معرفة النفس وافتقارها إلى الله تعالى فلا يسأل الله تعالى شيئاً إلاّ ويجد في نفسه بأنّ الله تعالى يعطيه إياه، لأنّه القادر على كل شيء، ذلك أنّ معرفة النفس تؤدّي إلى معرفة الحق، أما من لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فإنه تائه قد لا يصل إلى ما يريد بل قد يؤدّب كي يرجع إلى الله تعالى، جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي: (إلهي لا تؤدّبني بعقوبتك)، التأديب بالعقوبة الإلهية أن يبقى الإنسان في تيه طوال حياته دون أن يتعرف على نفسه، ولا يتمكن أن يصل إلى معرفة ربه.



الرابع: حضور القلب.

من الآداب المؤثرة حضور القلب، فلا يدعو المرء غير متوجه لما يقوله بقلقة لسان فقط، بل عليه أن يدعو بقلب متوجه إلى الله تعالى، وقد أكدت الروايات ذلك، مفصّحة بأنّ الدعاء من قلب لاه لا يسمع، إنّ الله تعالى سميع بصير، والصفتان ترجعان إلى علمه وإحاطته بعالم الوجود، والإمام عليه السلام يبين أنه (لا يقبل دعاء قلب لاه)^(٣)، والمقصود بذلك أنّ الله تعالى رغم علمه بالدعاء لكنه لا يقبله، فلا يتحقق ما يصبو إليه الداعي الغافل المعرض عن الله تعالى، قال الإمام الصادق عليه السلام: (من أراد أن يعرف كيف منزلته عند الله فليعرف كيف منزلة الله عنده فإنّ الله يُنزل العبدَ مثل ما يُنزل العبدُ الله من نفسه)^(٤).

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ١٤٨.

(٢) الكافي للكليني: ج ٨، ص ٢٣٤.

(٣) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٧٣.

(٤) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٨، ص ١٥٦.

الصحيفة السجادية عطاء للإنسانية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة) صدق الله العلي العظيم.

الإمام زين العابدين عليه السلام دوحة المجد في سماء الإمامة، برز الإمام عليه السلام على صعد متعددة، لعل من أبرزها ربط الخلق بالحق تعالى عبر الدعاء، فما زال الباحثون يصطادون الكثير من غوالي اللئالي فيما ورد عنه عليه السلام.

صناعة الإنسان

إنَّ أهم الميادين هو ميدان صناعة الإنسان، يقول الشيخ الحائري (يرحمه الله) «يقولون: من السهل أن تصبح معمماً - رجل دين - ولكن كم هو صعب أن تكون إنساناً»، إلا أن هذا القول غير صحيح، إذ ينبغي القول: من الصعب أن تصبح عالماً ومن المستحيل أن تكون إنساناً.

قال السيد الإمام يرحمه الله: «إنَّ من الصعب أن تكون عالماً ومن الأصعب أن تكون إنساناً» فمقام الإنسانية يحتاج إلى جهود جبارة وذلك أنَّ الجانب الحيواني في الإنسان يرسف به إلى الأرض، ويحجبه عن رؤية عالم الجبروت، والإمام عليه السلام رغم اشتغاله بميادين متعددة غير أنَّه أولى ميدان صناعة الإنسان بإيصاله إلى الحق تعالى عناية كبيرة.

أسباب البعد عن الإنسانية

إنَّ ما يصدر من الإنسان من خطأ وظلم وكبرياء وغرور، بل كل سوء منشأه التكبر على الله تعالى والبعد عن ساحة عبوديته، وإذا استطاع أحد إيصال الإنسان إلى الله تعالى، زال السوء كله، وبقي الجانب الإنساني والعقلي يخلق بهما إلى السماء ويوصلانه إلى الله تعالى.

الجوانب التي اهتم بها الإمام عليه السلام في أدعيته

اختار الإمام عليه السلام الدعاء في هذا الميدان، وما أدراك ما الدعاء، هو أعظم رابطة تشد الإنسان إلى الله تعالى ولا يوجد شيء أعظم منه للربط الوثيق بين الإنسان وخالقه، فجميع الأشياء الأخرى التي تربط الإنسان بالله تعالى أقل من الدعاء، وقد أشار المصطفى صلى الله عليه وآله إلى هذا المعنى، قال صلى الله عليه وآله: «الدعاء مخ العبادة»^(١) أي أنه اللب، وبقية الأشياء بمثابة الهيكل والجسم له، والإمام عليه السلام جسد مدرسة القرآن بأبعادها المختلفة في جوانب متعددة:



الأول: ربط الإنسان بالله تعالى.

إنَّ أدعية الإمام عليه السلام كثيرة ومناجاته متعددة غير أنَّ المشهور ما جاء في الصحيفة السجادية الكاملة، والأقل شهرة هو ما جاء في بقية الصحف السجادية، فهناك أربع أو خمس صحف جمعت في عصرنا في صحيفة واحدة سميت بالصحيفة السجادية الجامعة، حوت كثيراً من أدعية الإمام عليه السلام، إنَّ الكثير من تراث أهل البيت عليهم السلام لم يجمع لأنَّ التدوين في العصور السابقة لم يكن كما عليه الحال في عصرنا وكان الناس يعتمدون الحفظ وقلة منهم اعتمد التدوين، والإمام عليه السلام عاش ظرفاً حالكة من الاضطهاد والظلم، غير أنَّ ما وصل إلينا من التراث الضخم والكبير فيه معارف غاية

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٠، ص ٣٠٠.

في الأهمية تتعلق بالحق تعالى وربط الإنسان بربه.

الثاني: التقيد بالشرعية.

إنَّ التقيد بالشرعية يدور حول العدل والعدالة والتقيد بأحكام الشارع إذ أنَّ الارتباط بالحق عبر ذكره ودعائه دون السير على نهجه لا معنى له.

الثالث: الآداب.

الآداب هي أمور تهيب الداعي للعمل بالأحكام، وإذا عمل بها اقترب من الحق تعالى وعرج إلى عالم الجبروت عبر هذه المعاني السامية التي طرحها الإمام عليه السلام في مناجاته وأدعيته، فكل دعاء وكل مناجاة بل كل مقطع ومفردة من هذه الأدعية والمناجاة لها معنى دقيق، وهناك تأملات للعرفاء من العلماء في أدعيته ومناجاته عليه السلام، ومن أراد أن يصل إلى الله تعالى فإنَّ خير الأسفار الذي يتزود به للوصول إليه تعالى أدعية الإمام عليه السلام لشرحها للقرآن الكريم فهي تستجلي مفاهيم القرآن كي يصل القارئ إلى الله تعالى إنَّ أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام لا نظير لها في ذلك، وسنأخذ بعض مقاطعها.

أدب التوبة

الإنسان بحاجة دائمة إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى لما يصدر منه من تقصير، وقد جاء في مناجاة التائبين ما يهيء التائب لقبول توبته ببلاغة عظيمة، قال عليه السلام: «إِلَهِي أَلْبَسْنِي الْخَطَايَا ثَوْبَ مَذَلَّتِي، وَجَلِّلْنِي التَّبَاعُدُ مِنْكَ لِباسَ مَسْكَنَتِي، وَأَمَاتْ قَلْبِي عَظِيمُ جِنَايَتِي، فَأَخِيهِ بِتَوْبَةٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي وَبُعَيْتِي وَيَا سُؤْلِي وَمُنِيَّتِي»^(١).

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ٤٠١.

الذنوب حجب

الذنوب حُجب تحجب الخلق عن الحق تعالى فيصبح المذنب ذليلاً مطروداً عن ساحته تعالى، وبعيداً يتسرّب بلباس المسكنة، بل ميت القلب لا يعي مصلحته الدائمة بما صدر منه من ذنب.

علاج الذنوب

يعلمنا الإمام عليه السلام أنّ الذنوب وإن صدرت من العبد فأصبح مطروداً غير أنّ بإمكانه أن يلتجأ إلى الله تعالى، فلا ملجأ ولا منجأ منه إلاّ إليه تعالى، قال عليه السلام: «فَوَعَزَّتْكَ مَا أَجِدُ لِدُنُوبِي سِوَاكَ غَافِراً، وَلَا أَرَى لِكَسْرِي غَيْرَكَ جَابِراً» أيّ إنني أثقلتني الخطايا فكسرتني، التعبير غاية في الدقة يفصح عن ثقل الذنب معنوياً وتأثيره بكسره استقامة المذنب، ومع ذلك فإنّ الله تعالى جابر العظم الكسير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ (الشورى: ٢٥) يفرح الحق تعالى بتوبة عبده، قال الإمام عليه السلام: «أَسْأَلُكَ يَا غَافِرَ الذَّنْبِ الْكَبِيرِ، وَيَا جَابِرَ الْعُظْمِ الْكَسِيرِ، أَنْ تَهَبَ لِي مُوبِقَاتِ الْجَرَائِرِ» -الجرائر الموبقة هي التي تشد الإنسان إلى الأرض- ثم يسترسل ويقول عليه السلام: «إِلَهِي ظَلَلْتُ عَلَى ذُنُوبِي غَمَامَ رَحْمَتِكَ، وَأَرْسِلْ عَلَى عُيُوبِي سَحَابَ رَأْفَتِكَ» يبين عليه السلام ما أشرنا إليه آنفاً من رجوع المذنب إليه تعالى، قال عليه السلام: «إِلَهِي هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الْآبِقُ إِلَّا إِلَى مَوْلَاهُ، أَمْ هَلْ يُجِيرُهُ مِنْ سَخَطِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ» فلا ملجأ بعد العثرة إلاّ الله تعالى وحده.

الشكوى في أدعية الإمام عليه السلام

إنّ نقاط الضعف متعددة لدى الإنسان ويريد أن لا تؤثر عليه فيبث شكواه إلى الله تعالى ويظهر ما يلم به، ويبين الإمام عليه السلام في مناجاة الشاكين نقاط الضعف للنفس الإنسانية في جمل تحتاج إلى بحث طويل ومعمق من بحوث علم النفس.

الشكوى من ضعف القوة

الكبرياء والتهيه والخروج عن صراط العبودية المستقيم، كل ذلك يجعل المرء ضعيفاً إلى الغاية فلا قوة له، والقوة من عند الله تعالى، قال عليه السلام: «إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً»^(١) نفس الإنسان تشده إلى السوء والشر لطبيعتها إلا إذا رباه تربية صالحة وربطها بالله تعالى.

الشكوى من النفس الأمارة

قال عليه السلام: «وَالِإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةٌ»، النفس لا تأمر بالسوء فحسب، بل تسرع إلى الخطيئة، ولها علاقة قوية بها، «وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلَّعَةٌ» أي أن بعض الناس له ولع بالمعصية، غير أن ضميره يؤنبه من البدء إلى النهاية، قال عليه السلام: «وَلَسَخَطُكَ مُتَعَرِّضَةٌ، تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ» إن كل الطرق التي سولت للنفس في ولوج المعصية توجب الهلكة والبعد عن رب العالمين، قال عليه السلام: «وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ، كَثِيرَةَ الْعِلَلِ» هناك علل تشد الإنسان إلى السوء وتبعده عن الله تعالى أبانها الإمام عليه السلام، قال: «طَوِيلَةَ الْأَمَلِ، إِنَّ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزُّعٌ» طول الأمل والجزع من البلاء الذي أصابه بما كسبت يدها، ومع ذلك لا يتذكر نعم الله التي أنعم الله عليه ولم يستخدمها فيما يرضيه تعالى، «وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمَنُّعٌ، مَيَّالَةٌ إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ».

الشكوى والالتجاء إلى الله تعالى

بين الإمام عليه السلام أنه لا ملجأ ولا منجأ من الله إلا إليه تعالى، فله القدرة المطلقة وحده، قال عليه السلام: «إِلَهِي لَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِقُدْرَتِكَ، وَلَا نَجَاةَ لِي مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا إِلَّا بِعِصْمَتِكَ، فَاسْأَلُكَ بِبَلَاغَةِ حِكْمَتِكَ وَنَفَازِ مَشِيَّتِكَ، أَنْ لَا تَجْعَلَنِي لِغَيْرِ جُودِكَ مُتَعَرِّضًا» إن هذا المقطع غاية في الروعة، يشرح الضعف من ناحية ويدل على سبيل

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ٤٠٣.

الوصول إلى الله والأخذ بحبله الذي لا ينفصم ولا يضعف بالتمسك بقدرته الإلهية اللامتناهية.

طرق الوصول إلى الله تعالى

يرغب الإنسان أن يصل إلى الله تعالى ولا يعرف كيف يحقق هذه الرغبة، والإمام زين العابدين عليه السلام بين لنا ذلك في مناجاة الراغبين:

الأول: التوكل على الله تعالى.

قال عليه السلام: «إِلَهِي إِنْ كَانَ قَلَّ زَادِي فِي الْمَسِيرِ إِلَيْكَ، فَلَقَدْ حَسَنَ ظَنِّي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ»^(١)، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْفِي الْعَبْدَ إِذَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الزمر: ٣٦.

الثاني: الخوف من العقاب الإلهي.

من أراد أن يصل إلى الله تعالى عليه أن يعمل غاية جهده ويتوكل عليه تعالى، وإن كانت ذنوبه كثيرة موجبة للخوف، قال عليه السلام: «وَإِنْ كَانَ جُرْمِي قَدْ أَخَافَنِي مِنْ عُقُوبَتِكَ».

الثالث: الرجاء وحسن الظن بالله تعالى.

إِنَّ حَسَنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ كَفِيلَانِ بِتَحْقِيقِ الْأَمْنِ لِمَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِ، فَحَسَنَ الظَّنِّ وَالرَّجَاءُ يَخْتَزِلَانِ الطَّرِيقَ وَيُوصِلَانِ الْعَبْدَ إِلَيْهِ تَعَالَى، قَالَ عليه السلام: «فَإِنْ رَجَائِي قَدْ أَشْعَرَنِي بِالْأَمْنِ مِنْ نِقْمَتِكَ، وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي قَدْ عَرَّضَنِي لِعِقَابِكَ، فَقَدْ أَدْنَيْتَنِي حُسْنُ ثِقَتِي بِثَوَابِكَ» الثقة وحسن الظن بالله تعالى يوصلان العبد إليه زلفى.

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ٤٠٧.

آلية إدراك مفاهيم أدعية الإمام السجاد عليه السلام

يشرح الإمام عليه السلام في كل مناجاته مفاهيم أي الذكر الحكيم ويجلي معارفه غير أنه لا يعي تلك المعرفة ولا يستوعب تلك المفاهيم إلا من أطاع الله تعالى.

الأول: الارتباط بالله تعالى.

الإنسان بحاجة أن يكون مع الله تعالى في كل ما يصدر منه، قال الإمام عليه السلام في مناجاة المطيعين: «إِلَهِي أَلْهَمْنَا طَاعَتَكَ وَجَنَّبْنَا مَعَاصِيكَ، وَيَسِّرْ لَنَا بُلُوغَ مَا نَتَمَنَّى مِنْ ابْتِغَاءِ رِضْوَانِكَ، وَأَحْلِلْنَا بُحْبُوحَةَ جَنَانِكَ»^(١)، ما أحوج المرء إلى الطاعة والبصيرة، والإمام عليه السلام يشرح هذا المعنى، قال عليه السلام: «وَأَقْشَعُ عَنْ بَصَائِرِنَا سَحَابَ الْارْتِيَابِ، وَاكْشِفْ عَنْ قُلُوبِنَا أَغْشِيَةَ الْمِرْيَةِ وَالْحِجَابِ، وَأَزْهِقِ الْبَاطِلَ عَنْ ضَمَائِرِنَا، وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سَرَائِرِنَا» أي أن ما يبعد المرء عن الله تعالى هو الشكوك، فيبقى بها يدور في حلقة مفرغة حول نفسه، ويتيه كما تاه بنو إسرائيل في صحراء سيناء.

الثاني: الاقتداء بأولياء الله تعالى.

قد تطول مدة التيه، ويبقى التائه سنين لا يصل إلى الله تعالى، بل يكون في غاية البعد عنه تعالى، ومن أراد السفر إليه تعالى احتاج إلى القدوة والإمام عليه السلام يشرح هذا المعنى فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ احْمِلْنَا فِي سُفُنِ نَجَاتِكَ، وَمَتَّعْنَا بِلَذِيذِ مُنَاجَاتِكَ، وَأَوْرِدْنَا حِيَاضَ حُبِّكَ، وَأَذِقْنَا حَلَاوَةَ وَدِّكَ وَقُرْبِكَ، وَاجْعَلْ جِهَادَنَا فِيكَ» سفن النجاة هم أهل الله تعالى وخاصته، وإذا سار المرء وركب السفن التي تقطع لجح البحر دون غرق ولا انكسار - سفن الله تعالى وضعها لعباده - لإيصال الخلق إليه، وهم - الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام - هذه السفن تؤدي بالإنسان إلى النجاة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ٤١١.

الثالث: ذكر الله كثيراً.

التوفيق لركوب هذه السفن يتحقق بذكره تعالى كثيراً وبذلك يقطع المسافات البعيدة، ويختزل الطرق.

كما أن إخلاص النية لله تعالى في عبادته والتعامل مع خلقه كذلك، قال الإمام عليه السلام: «وَأَخْلَصْ نِيَّاتَنَا فِي مُعَامَلَتِكَ» أي اجعل نيتنا صادقة معك، قال عليه السلام: «فَإِنَّا بِكَ وَلَكَ، وَلَا وَسِيلَةَ لَنَا إِلَيْكَ إِلَّا بِكَ» يؤكد الإمام عليه السلام أنه لا طريق للمرء إلا باللجوء إلى الله تعالى، فهو الذي يمد الإنسان ويده الحول والقوة.

الفقر والحاجة في أدعية الإمام عليه السلام

لعل من أروع ما جاء في مناجاة الإمام عليه السلام مناجاة المفتقرين فهي تبين فقر الإنسان وعوزة وحاجته، قال عليه السلام: «إِلَهِي كَسْرِي لَا يَجْبُرُهُ إِلَّا لُطْفُكَ وَحَنَانُكَ، وَفَقْرِي لَا يُغْنِيهِ إِلَّا عَطْفُكَ وَإِحْسَانُكَ، وَرَوْعَتِي لَا يُسْكِنُهَا إِلَّا أَمَانُكَ»^(١) أي أنني انكسرت ولا طريق لجبر كسري إلا بلطفك وحنانك، فأنت الحنان المنان صاحب العطاء الخفي، والعبد مفتقر لا يستغني إلا بك وبعطفك وإحسانك وكرمك، فهو مرتاع لا يستقر إلا بأمنك، ومن أراد الأمن لن يحصل عليه إلا منك، قال عليه السلام: «وَرَوْعَتِي لَا يُسْكِنُهَا إِلَّا أَمَانُكَ».



حب الله تعالى في أدعية الإمام عليه السلام

قال عليه السلام: «وَلَوْعَتِي لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا لِقَاؤُكَ، وَشَوْقِي إِلَيْكَ لَا يَبُلِّغُنِي إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِكَ» إنها معانٍ كبيرة لو بقي المرء يشرحها أياماً وليالٍ لما وصل إلا إلى القليل منها، وقد أوضح الإمام عليه السلام طريق من أراد السلوك إليه تعالى والوصول إلى حبه، ففي مناجاة رائعة وجميلة في حب الله تعالى، بين الإمام عليه السلام أن الإنسان

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ٤١٥.

يحتاج أن يعيش الحب الإلهي لأنَّ الله تعالى لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (الشورى)، وهو تعالى يحن على العبد أكثر من الأم الرؤوم بابنها، ورحمة الخلق لبعضهم من فيضه تعالى.

المسير في حب الله تعالى

إنَّ من سمات المحب السير إلى الله تعالى لا يبتغي عنه بدلاً ولا ينصرف منه إلى غيره، قال عليه السلام في مناجاة المحبين: «إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا»^(١)، من استشعر حبه تعالى لم يتجه إلى غيره، قال عليه السلام: «وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنْسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حَوْلًا، إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ اصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبِكَ وَوَلَايَتِكَ، وَأَخْلَصْتَهُ لِدُودِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَشَوْقَتَهُ إِلَى لِقَائِكَ» المحب يشاق للقاءه تعالى، والأئمة من أهل البيت عليه السلام تجسد الشوق لديهم، نُقل عن الصديقة الزهراء عليها السلام عندما أسر إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم السر الثاني بأنها أقرب أهل بيته لحوقاً به، ضحكت مستبشرة، وهذا النمط من الشوق إلى لقاء الله تعالى لا نجده إلا لديهم، فقد أندكت أنيتهم في حبه تعالى، والإمام عليه السلام يشرح كيف يكون المرء محباً لله تعالى؟ قال عليه السلام: «وَأَخْلَصْتَهُ لِدُودِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَشَوْقَتَهُ إِلَى لِقَائِكَ، وَرَضِيَّتَهُ بِقَضَائِكَ» فالشوق إلى لقاءه تعالى والرضا بقضائه من المفردات التي تجعل الإنسان يصل إلى حب الله تعالى، قال عليه السلام: «وَمَنْحَتَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَحَبْوَتَهُ بِرِضَاكَ» أي أعطيته أعظم النعم لديك - الحبة - قال عليه السلام: «وَأَعَذَّتُهُ مِنْ هَجْرِكَ وَقِلَاقٍ» فلم يبتعد عنك واستمر لطفك به، ثم يسترسل عليه السلام في هذه المعاني، ويقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ دَأَبُهُمُ الْارْتِيَاخُ إِلَيْكَ وَالْحَيْنُ، وَدَهْرُهُمُ الزَّفَرَةُ وَالْأَيْنُ، جَبَاهُهُمْ سَاجِدَةٌ لِعَظَمَتِكَ، وَعُيُونُهُمْ سَاهِرَةٌ فِي خِدْمَتِكَ، وَدُمُوعُهُمْ سَائِلَةٌ مِنْ خَشْيَتِكَ، وَقُلُوبُهُمْ

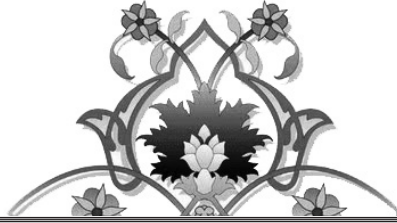
(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ٤١٣.

مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحَبَّتِكَ، وَأَفْنَدَتْهُمْ مُنْخَلَعَةً مِنْ مَهَابَتِكَ، يَا مَنْ أَنْوَارُ قُدْسِهِ لِابْتِصَارِ مُحِبِّهِ
رَائِقَةٌ، وَسُبُوحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عَارِفِيهِ شَائِقَةٌ، يَا مُنَى قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ «الأمنيات
كثيرة لدى الإنسان غير أن الأماني تتحد عندما يصل إلى الحق تعالى، إنَّ
أدعية الإمام عليه السلام دروس في إيصال الخلق إلى الحق تعالى، وليس هناك كأدعيته
ومناجاته عليه السلام .

نتائج الانتماء إلى مدرسة الإمام عليه السلام

إنَّ مدرسة الإمام عليه السلام الرائعة والجميلة فيها من الكنوز ما يعجز الإنسان عن
الوصول إلى غوره وسبر حيلياته، غير أنه إذا عاش هذا السلوك أخذ الله تعالى بيده
إليه، فأصبح مجذوباً سالكاً.





الفصل الثالث:

■ ■ الأخلاق وتهذيب النفس ■ ■



زيارة الأربعين وتكامل المؤمن

ورد عن الإمام العسكري عليه السلام قوله: «علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم»^(١).

زيارة الحسين عليه السلام معلّم كبير من معالم الإيثار، لما تحمله من دلالات كبيرة ومعالم عظيمة، وجاء النص عن الإمام العسكري عليه السلام ليرز سمات وصفات المؤمن التي تدل على إيمانه من ناحية وتكامله من ناحية أخرى، وسنوضح بعض المعاني التي أشار إليها الإمام عليه السلام.

علامات تميز المؤمن

الأولى: المحافظة على الصلاة.

من سمات المؤمن المحافظة على الصلاة، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، يتأتى الحفاظ على الصلاة عبر أمور منها الحفاظ عليها بأدائها في وقتها، ومنها الحفاظ عليها بأدائها بشرائطها وأجزائها، ومنها الحفاظ عليها بأدائها بخشوع، ومنها الحفاظ عليها بأدائها بتوجه وانقطاع إلى الله تعالى، ذلك أنه ليس للإنسان من صلاته إلا ما أقبل به على الله تعالى،

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٨٢، ص ٧٥.

وقد أوضحت الروايات طريقاً للمؤمن لإتمام الصلاة وإكمالها إذا لم يستطع أن يتوجه ب كله إلى الله تعالى فيستطيع أن يتلافى ما نقص من صلاته بالنوافل، فهي طريق لإتمام ما نقص من الصلاة، وقد أشارت الروايات إلى هذا المعنى؛ والرواية الواردة عن الإمام العسكري عليه السلام بينت أن «صلاة الإحدى والخمسين» هي الفرائض والنوافل الرواتب سمة وعلامة من علامات المؤمن، وإذا لم يستطع أن يحافظ على أداء صلاة إحدى وخمسين يوماً فلا ينبغي له أن يدع ذلك طوال الوقت، بل عليه أن يأتي بهذه الصلوات خصوصاً في الأشهر ذات التأثير الكبير من الناحية المعنوية، كرجب وشعبان ورمضان، يشير النص إلى أن التكامل الإيماني يحصل عبر الصلاة التامة الكاملة.

الثانية: الخضوع لله بتعفير الجبين.

المفردة الثانية التي أفصح عنها الإمام العسكري عليه السلام هي تعفير الجبين، وهو جانبي الجبهة، ويُعبر عنه بالجبينين وأفضل ما في الإنسان رأسه ومحياه، فهو مركز توازن الإنسان ومركز تفكيره، وإذا خضع برأسه لله تعالى وصل بخضوعه إلى الدرجة العالية من العبودية له تعالى، قال النبي صلى الله عليه وآله: «أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا كان ساجداً»^(١)، إذ يدل السجود على الاتصال الوثيق بين العبد وبين الحق تعالى، غير أن تعفير الجبين يُدلل على عمق الاتصال والخضوع لله تعالى، روي عن الإمام الباقر عليه السلام إنه قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: أتدري لما اصطفتُك لكلامي دون خلقي؟ فقال موسى عليه السلام: لا يا رب، فقال: يا موسى إني قَلْبُ عِبَادِي ظَهراً لِبَطْنٍ، فلم أجد فيهم أحداً أَذَلَّ لي مِنْكَ نفساً يا موسى! إنك إذا صليت وضعت خديك على التراب»^(٢)، أي أن موسى عليه السلام يؤدي صلواته بخضوع وانقطاع لله تعالى، وتعفير الجبين في التراب والسجود لله يقربان إليه تعالى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «عليك بطول السجود، فإن ذلك من سنن الأوابين»^(٣)، إن طول السجود سِمَةٌ من سِمَات



(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ٤، ص ٤٧٤.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢، ص ١٩٩.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٨٢، ص ٧٥.

إمامنا الكاظم عليه السلام جاء في إحدى زياراته عليه السلام «اللهم صل على محمد وأهل بيته وصل على موسى بن جعفر وصي حليف السجدة الطويلة»^(١).

الثالثة: الرحمة الإلهية في البسملة.

هناك مدارس أخرى حذفت البسملة من الصلاة أو اكتفت بقراءتها إخفاتاً، أما الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فيؤكدون على اقتران البسملة بالفاتحة والسورة التي يقرأها الإنسان في صلاته، ليس ذلك فحسب؛ بل بالإضافة إلى الاقتران يُجهر بها، لأنَّ الجهر بها له ربط وثيق بعمل الإنسان الذي يقوم به، ذلك أنَّ كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتَر، وبسم الله الرحمن الرحيم تدل على الرحمانية والرحيمية لله تعالى وارتباط الخلق بهما.

الرابعة: التختيم ومظهر الوجدانية.

ورد في الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام استحباب اتخاذ المؤمن خاتماً من عقيق يلبسه في يده اليمنى، وبينت بعض الروايات حيثية التختيم بالعقيق؛ عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «تختموا بالعقيق فإنه أول جبل أقر الله بالوجدانية، ولي بالنبوة، ولك يا علي بالوصية، ولشيعتك بالجنة»^(٢)، والإمام العسكري عليه السلام يشير إلى معنى عميق وهو ارتباط مفردات الكون بالربوبية والوجدانية لله تعالى والرسالة للمصطفى صلى الله عليه وآله والولاية لأهل البيت عليهم السلام، وذلك لإدراك الأشياء الكمال المطلق للحق تعالى، قال تعالى: ﴿نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١) (الإسراء)، وقال تعالى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) (الحديد) غير أنَّ درجات التسبيح والارتباط الوجودي لمفردات الكون مختلفة، وهذا بحث أشار إليه الفلاسفة والعرفاء بشيء من التفصيل.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٩، ص ١٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق: ج ١، ص ٧٥.

الخامسة: ميزات زيارة الأربعين.

زيارة الإمام الحسين عليه السلام تشير إلى مداليل وقيم عظيمة، نكتفي ببيان أمرين هامين:

الأول: مرجعية أهل البيت عليهم السلام.

إن زيارة الإمام الحسين عليه السلام تربط المؤمن بالطريق المستقيم، أي أن الذي أدى صلاة إحدى وخمسين وعقر جبينه بالتراب، وجهر بالبسملة؛ لا بد أن يأخذ عباداته ومعالم دينه من طريق أهل البيت عليهم السلام، ومن المعين الصافي، أي أن الحيشة الأولى التي تشير إليها زيارة الأربعين هي السير على الصراط الواضح وأن المؤمن يأخذ معالم الدين وجميع مفاهيمه عن طريق أهل البيت عليهم السلام، وهذا معنى عظيم؛ إذ أن الإنسان قد يكون مؤمناً في الظاهر؛ يؤدي الصلوات ويقرأ القرآن غير أنه لا يأخذ مفاهيم الإسلام عن طريق أهل البيت عليهم السلام، بل قد يعترض على النبي صلى الله عليه وآله كما حصل ذلك عندما قَسَمَ النبي صلى الله عليه وآله الفيء في مكة فقال بعض الأنصار هذه قسمة لا يُراد بها وجه الله تعالى في الرد على النبي صلى الله عليه وآله، أي أن لدى المعارض اعوجاجٌ وعدم استقامة ولم يؤمن كاملاً، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

الثاني: التكامل الإيماني.

يتكامل المرء في سيره حتى يصل إلى درجتي الرضا والتسليم والجود بكل ما يملكه في سبيل الله تعالى، وزيارة الحسين عليه السلام لها معنى عميق، هو أن يصل المرء في كماله إلى درجة التضحية والفداء لقيم الحق ومبادئ العدل في سبيل الله تعالى، وقد أشارت الروايات إلى هذا المعنى، ولنأخذ بعض النماذج:

الأول: جاء في زيارة الأربعين الثانية الواردة عن جابر بن عبد الله الأنصاري «أشهد أنك قد أقيمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر»^(١)، الإتيان للإمام عليه السلام يدل على المعاني الكبيرة لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: وجاء في الزيارة الشعبانية «أشهد أنك قد أمرت بالقسط والعدل ودعوت إليهما وأنت صادق صديق، صدقت فيما دعوت إليه»^(٢)، الإمام عليه السلام أمر بالقسط والعدل ودعا إليهما، ولم يأمر بهما فقط، بل دعا باتجاه تطبيق مبادئ القسط والعدل.

الثالث: جاء في زيارة الأربعين الأولى: «وأشهد أنك من دعائم الدين، وأركان المسلمين، ومעقل المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البر التقي الرضي الزكي الهادي المهدي»^(٣)، هذا المقطع من الزيارة يشير إلى نقاط هامة:

الأولى: «وأشهد أنك من دعائم الدين»، الإمام عليه السلام دِعاة يقوم عليها الدين وينهدم الدين بالإساءة إليه.

الثانية: «وأركان المؤمنين»، أي أن الإمامة ركن لمسار الأمة الإسلامية بمعنى أن انضباط المسار يتوقف على الأخذ بهديها.

الثالثة: «ومعقل المؤمنين»، لا يُفِرُّ المؤمن عن الحق ولا يدع الفضيلة إذا ارتبط بالحسين عليه السلام.

الرابعة: «وأشهد أنك الإمام البر التقي الرضي الزكي الهادي المهدي»، هذه معانٍ عظيمة جداً وهي صفات الإمام عليه السلام السائر بالخلق إلى الحق، البر والتقوى مجسدان في شخصه عليه السلام، الرضا والطهارة صفتان من صفاته نص عليهما القرآن

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٨، ص ٣٣٠.

(٢) تهذيب الأحكام للطوسي: ج ٦، ص ١١٤.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٨٢، ص ٧٥.



الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وهو الهادي المهدي فيهدي إلى الحق بإذنه تعالى إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧) وهو مهدي لأنه مختار ومجتبى من الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران).



الأخلاق العملية في سيرة الإمام السجاد عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إنما بُعثْتُ لأُتممَ مكارمَ الأخلاق) ^(١).

أفاض الإمام السجاد عليه السلام على الأمة الإسلامية كثيراً من علومه وتوجيهاته العظيمة في المعارف والأخلاق، ولعل من أروع الدروس التي سطرها الإمام عليه السلام سيرته العملية التي شيد بها مكارم الأخلاق وانعكست في تعامله مع القريب والبعيد، فقد تميز عليه السلام بالخلق الرفيع في التعامل مع الآخرين بالأخص مع من يُضمّر له البغضاء أو يُجاهره بالعداء.

أخلاق الإمام عليه السلام مع أعدائه

من الطبيعي أن يتعامل المرء مع أقاربه بالأخلاق الحسنة، غير أنه ينذر التعامل بمنتهى اللطف والمودة مع ألد خصومه وأعدائه، هذا الخلق لا يتأتى إلا من ارتقى في مدارج الكمال فوصل إلى مراتب عالية في الأخلاق والعرفان، أهل البيت عليهم السلام هم في مقدمة من يتصفون بهذا الوصف، فقد شيدوا المبادئ الأخلاقية، وأصبحت مساراً حضارياً في سلوكهم، وقد دلت الحوادث والمواقف المتعددة على دورهم عليهم السلام في تثبيت وتطبيق أسس مكارم الأخلاق، التي دعا إليها المصطفى صلى الله عليه وآله بقوله: (إنما

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٤.

بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ^(١)، والحديث يشير بوضوح إلى أنَّ إتمام مكارم الأخلاق هو الهدف والغاية من بعثته ﷺ.

جسد الإمام السجاد ﷺ الحديث في كلامه وسلوكه وفي مناحي حياته المتعددة خصوصاً مع أعدائه ومبغضيه، وسوف نستعرض حادثتين تبرزان سمو أخلاقه ﷺ:

الأولى: أنَّ أحد أبناء عمه ﷺ كان من المبغضين له، وحضر مجلس الإمام ﷺ الذي يضم أصحابه، فتلفظ على الإمام ﷺ بكلمات سيئة وجارحة، مما أدى إلى تأثر أصحاب الإمام وغضبهم، لكنه ﷺ لم يتكلم، ولما انصرف الرجل، قال الإمام لأصحابه: (لقد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردّي عليه)^(٢)، فقام ﷺ ومشى وهو يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران) فلما وصل الإمام إلى منزل الرجل، ناداه! فخرج الرجل قاصداً الشر متصوراً بأنَّ الإمام جاء للانتقام منه، فقال له الإمام ﷺ: (يا أخي، إنَّك كُنْتَ قد وَقَفْتَ عَلَيَّ آنِفاً فَقُلْتَ وَقُلْتَ، فَإِنْ كُنْتَ قُلْتَ مَا فِيَّ فَاسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهُ، وَإِنْ كُنْتَ قُلْتَ مَا لَيْسَ فِيَّ فَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ)^(٣)، فقام الرجل وقبّل الإمام وقال: بل قلت ما ليس فيك، وأنا أحق به.

هذا التعامل الفذ من الإمام ﷺ غيّر مسار الرجل وأثر في سلوكه، ولو قابله الإمام ﷺ بالمثل وردّ عليه لأدى ذلك إلى إصراره على عداوة الإمام، لكن أسلوب الإمام ﷺ الرائع أنقذ الرجل من الهلاك بعدائه للإمام ﷺ من جهة، ومن جهة أخرى أعطى ﷺ درساً أخلاقياً في التعامل مع العدو وكسبه بتحويل عداوته وبغضه إلى محبة ووثام.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٦، ص ٥.

(٣) ميزان الحكمة للري شهري: ج ١، ص ٨٠٤.

الثانية: حدثنا التاريخ أن مروان بن الحكم وهو أحد المناوئين لأهل البيت عليه السلام كانت له مواقف عدائية تجاههم عليهم السلام، منها أنه عندما تولى يزيد الخلافة طلب من الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة أن يأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام، فاستدعى الوليد الإمام الحسين عليه السلام، وكان عنده مروان بن الحكم، فطلب الوليد من الإمام البيعة ليزيد، وطلب الإمام عليه السلام المهلة إلى الغد، عندها قال مروان للوليد: احبس الرجل! لا يخرج من عندك حتى يُباع أو تضرب عنقه، فغضب الإمام الحسين عليه السلام وقال: (أنت - يا بن الزرقاء - تقتلني أم هو؟ كذبت - والله - وأثمت) ^(١).

ورغم ذلك فقد نقل المحدثون والمؤرخون أنه في ثورة أهل المدينة هرب كثير من الأمويين خوفاً على أنفسهم، منهم مروان بن الحكم، وأراد أن يترك أهله وعياله وخدمه عند شخص يحفظهم في غيابه، فتوجه بنسائه وإمائه إلى عبدالله بن عمر، فرفض ولم يقبل، فما كان منه إلا أن جاء ذليلاً إلى الإمام السجاد عليه السلام وطلب منه أن يحفظ له نسائه وخدمه، فوافق الإمام عليه السلام ورحب بذلك، وأخذ الإمام عليه السلام أهله مع نساء مروان وأخرجهم خارج المدينة إلى ينبع للمحافظة عليهم، وهذا سلوك يجسد منتهى مكارم الخلق في تعامل الإنسان مع ألد أعدائه عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ (فصلت)، وقد ترك هذا الخلق الفذ الناس حيارى يشيدون بمناقب الإمام عليه السلام ومآثره.

أخلاق الإمام عليه السلام مع عبيده وخدمه

كثر في عصر الإمام السجاد عليه السلام الرقيق من العبيد والإماء للحروب والغزوات التي خاضها المسلمون، وكانت فئة من المجتمع الإسلامي والسلطة -آنذاك- تتعامل معهم معاملة سيئة وغير إنسانية، فمارس الإمام عليه السلام دوراً اجتماعياً جباراً في الوقوف

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٤، ص ٣٣٤.

مع هذه الطبقة المسحوقة، كان يشتري كثيراً من العبيد والإماء، ويضع لهم برنامجاً متكاملاً، لرفع مستواهم الإيماني والعقدي والثقافي والاقتصادي، بالإضافة إلى إعطائهم دروساً متعددة في التربية والسلوك والأخلاق من خلال معاشتهم لسلوك الإمام وطريقة تعامله وتواضعه في أكله وجلسه معهم، وبعد تلقيهم لتلك الدروس التي تؤهلهم للدخول في أوساط المجتمع والتبليغ فيه، يقوم عليه السلام بعقبتهم، وقد أعتق ما يقرب من مائة ألف من العبيد والإماء، يشكلون جيلاً من الطلاب الذين تربوا على يد الإمام واستفادوا من علومه التي زودهم بها، كي ينشروها وينقلوها للأجيال اللاحقة، وبهذه الطريقة نشر فكر أهل البيت عليهم السلام، فكانت إحدى وسائل التبليغ التي تُبدي حكمته وحصافة رأيه عليه السلام، وقد نقل المؤرخون الأساليب التربوية والتعاطف المعنوي الذي كان الإمام عليه السلام يُبدي في تعامله مع خدمه وعبيده، ونذكر هنا موقفين بارزين له عليه السلام :

الأول: صبر الإمام عليه السلام وقوة تحمله.

كان من عاداته عليه السلام أن يذبح في كل يوم ذبيحة لأقربائه وأولاده وعبيده وخدمه، وفي أحد الأيام كان عنده عليه السلام ضيوف، فاستعجل خادمه كي يأتي بالشواء من التنور، فأقبل الخادم مسرعاً، فسقط السفود ووقع على رأس أحد أبناء الإمام فمات، فاضطرب الخادم عند ذلك وخاف من العقوبة، وكان ردُّ الإمام عليه السلام في هذا الحادث المفجع المؤلم قوله عليه السلام : (أنت حرٌّ لوجه الله، لأنك لم تتعمد)^(١)، إنها مكارم الأخلاق التي يتعامل بها الإمام عليه السلام، فلم تصدر منه كلمة تقريع أو تأنيب أو ردة فعل عنيفة، وبهذا الأسلوب ملك عليه السلام قلوب الناس، وأشاد الجميع بتصرف الإمام الرائع وقدرته الفائقة على التحكم في عواطفه والسيطرة الكبيرة على نفسه.



(١) شرح إحقاق الحق للمرعشي ج ١٢ ص ٧٩.

الثاني: حلم الإمام عليّ عليه السلام .

هناك حادثة جرت بين الإمام وإحدى جواريه التي كانت تسكب الماء على يدي الإمام في إحدى الليالي وكانت مرهقة، فحدثت لها إغفاءة بسيطة في أثناء سكب الماء على يدي الإمام، فسقط الإبريق وشجَّ رأس الإمام عليه السلام فالتفتت إلى الإمام، فقالت له: ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال عليه السلام: (قد كظمت غيظي)، فقالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال عليه السلام: (قد عفى الله عنك)، فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال عليه السلام: (اذهبي فانت حرة)^(١).

إنه درس عظيم نستفيده من مكارم أخلاق الإمام في تعاملنا مع الخدم والعمال إذا ارتكبوا أخطاءً، لذا تأثر كثير من عبيد الإمام عليه السلام فلم يرد أن يخرج من بيته عليه السلام بعد نيله للحرية، بل رغب في البقاء في كنف الإمام وخدمته، لما يرى من الدروس الكبيرة التي يتلقاها منه عليه السلام لتعود عليه بالفائدة.

إن ذكرى الإمام عليه السلام فرصة لنا كي نستلهم الدروس العظيمة من سيرته العطرة لنطبقها على سيرتنا العملية وسلوكنا الذي نتعامل به مع شتى طبقات المجتمع حتى مع غير المسلمين لنحقق أهداف بعثة المصطفى ﷺ عندما أشار مفصلاً مبيناً ذلك: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٢).

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٤٦ ص ٦٨.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري، ج ١ ص ٨٠٤.

العزة الحقيقية في الارتباط الإلهي

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨) صدق الله العلي العظيم.

أهمية العزة في الإسلام

أعطى الدين الإسلامي كرامة ورفعة للإنسان لم تستطع النظم الوضعية أن تحققها له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء)، ولم يقتصر التكريم الإلهي على هذا الجانب فحسب، بل ارتقى إلى مراتب أعلى، خصَّ الله بها الإنسان المسلم فجعله عزيزاً مُصان الكرامة، لا يبتغي الذل لنفسه بأي نحو من الأنحاء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران)، لقد أكدت روايات أهل البيت عليهم السلام على مبدأ العزة قال الإمام الصادق عليه السلام: (إنَّ الله فوض إلى المؤمن أمره كُلَّهُ ولم يُفوض إليه أن يكون ذليلاً)^(١).

التواضع في النصوص الإسلامية:

أكدت النصوص الإسلامية على العزة والتواضع، هناك آيات من الذكر

(١) الكافي للكليني: ج ٥، ص ٣.

الحكيم وروايات تحت المسلم على أن يكون متواضعاً غير متكبر متجنباً للعجب بنفسه، قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء)، وقال النبي ﷺ: (من يتواضع لله درجة يرفعه الله درجة حتى يجعله في عليين)^(١)، وورد النهي عن التكبر في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر)، قال الإمام علي عليه السلام: (احذر الكبر فإنه رأس الطغيان ومعصية الرحمن)^(٢)، وقال الصادق عليه السلام: (من أعجب بنفسه هلك، ومن أعجب برأيه هلك)^(٣).

لا تعارض بين النصوص:

يتراءى للإنسان العادي -عندما ينظر في هذه النصوص الإسلامية- وجود تناقض وتهاافت بين ابتغاء العزة للمسلم وبين أمره بأن يكون متواضعاً في سلوكه غير متكبر ولا معجب برأيه، إذ أن عزة النفس قد يعنى بها في بعض الأحيان الكبرياء والإعجاب بالنفس فكيف يجمع بين النصوص؟ خصوصاً، والشعارات التي وردت على لسان إمامنا الحسين عليه السلام، تصب كلها في عزة الإنسان وكرامة نفسه كقوله عليه السلام: (هيهات منا الذلة)^(٤)، وقوله عليه السلام: (إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)^(٥)، بالإضافة إلى نصوص أخرى وردت في الثورة الحسينية المباركة.

الجمع بين النصوص الإسلامية:

ونجمع هنا بين هذين النحويين من النصوص التي أكد بعضها على العزة

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٥٥٩.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٦٥١.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ١٨١٥.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٦٨٨.

(٥) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٤، ص ١٩٢.

والكرامة وبعضها الآخر حث على التواضع وعدم التكبر على الآخرين بما أفاده العلماء بأنّ الإنسان له جُنبتان ونفسان -إذا صح التعبير- يشبه هذا تعبير علماء النفس في العصر الحديث عندما قالوا: إنّ للإنسان شخصيتين، فهم لا يقصدون أنّ الإنسان الواحد هو في نفس الوقت اثنان، إذ أنّ الواحد لا يتعدد، لكنه كناية عن وجود مرض نفسي يدعو إلى التوجه إلى أمرين منفصلين ومختلفين في آن واحد، ويُعبر عن هذه الحالة بانفصام الشخصية. ويمكن هنا أن يقال إنّ الإنسان له جُنبتان مختلفتان:

الأولى: يُشير إليها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر: ٢٩)، فجنبته البقاء في الوجود الإنساني هي الروح.

الثانية: هي المادة المحضة التي لا ترتبط بالروح، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ (فاطر: ١١)، لذا، مارس الطُعاة عبر تاريخ الإنسانية الطويل برامج تصب في هذه الجنبية التي تربط الناس بالمادة فحسب، وتهمل الجانب الروحاني، أما الأنبياء والرسل والأولياء والمصلحون فبرامجهم تصب في رفع كرامة الإنسان بإيجاد التوافق والتلاؤم بين جنبته المادية وجنبته المعنوية، قال العلماء: إنّ الهدف من كل حركة وسكون يقوم بها الإنسان في الحياة الدنيا هو الوصول إلى التكامل والقرب من الله تعالى، ولا يتحقق التكامل للإنسان إلا عبر النظر بعين الاعتبار إلى الوجود الباقي في شخصيته أي إلى الجانب الروحي الذي لا يمثله عالم المادة فقط.

الجمع بين النصوص:

إذن؛ إذا قيل للإنسان تواضع لا تتكبر ولا تُعجَب برأيك، فمعنى ذلك أن لا يلتفت إلى الأشياء التي تُبرز جانب المادة في وجوده بل عليه أن لا ينظر



إلا إلى ما يحقق هويته ووجوده وهو عالم المعنى -الجانب الروحاني-، لذا أمرنا الإسلام بتزكية النفس، وصونها عن الدنس، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) (الشمس)، ويراد بذلك الحفاظ على الجانب المعنوي من وجود الإنسان، لأنَّ الروح تتدنس بالإثم والمعصية وعبادة غير الله تعالى بل تطغى فتهلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩)﴾ (النازعات).

آلية إصلاح النفس الإنسانية:

هناك صراع في داخل الإنسان، والأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام يقومون بالإصلاح وإرجاع التوازن له، فإذا وجد هؤلاء أنَّ الجانب المادي طغى على الجانب المعنوي والروحي ثاروا لإصلاحه، ولهذا نهض الإمام الحسين عليه السلام للقيام بالدور الإصلاحي في الأمة الذي أخبر النبي صلى الله عليه وآله بأنَّ الأمة ستتردى في أوضاعها وينتشر فيها الفساد إذا تولى الأمويون أمرها فيتخذون عباد الله خولاً، أي عبيداً لهم بدلاً عن عبادة الله تعالى، لذا، جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان) (١).

العزة في الارتباط بالله تعالى:

والنصوص التي طلبت من الإنسان أن يكون عزيزاً لارتباط الجانب المعنوي منه بالله تعالى، أما النصوص الأخرى التي تنهى عن تكبر الإنسان وإعجابه بنفسه ورأيه فقد طلبت منه أن لا ينظر إلى الجانب المادي من وجوده فقط، بل عليه أن

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ١٨٠.

يلتفت إلى أهمية وقدسية النفس التي لا بد لها من الارتباط بالله تعالى لتطبق أحكامه وقوانينه غير خائفة من التجويع والقتل الذي يمارسه الطغاة عبر التاريخ، بالذات عندما وُجّهت إلى الأولياء والصالحين، إنّ القتل الذي تعرض له الأنبياء سببه عدم قولهم: (نعم) لتحقيق رغبات الظالمين في وضع المؤمنين تحت رحمة الطغاة المتكبرين، ليقضوا على الجانب المعنوي في شخصياتهم، إنّ كلمة (لا) صدرت منهم لتؤكد العزة والكرامة للوجود المعنوي وهو أسلوب في صيانة دين الله تعالى والسير على طبق القانون الإلهي، قال الإمام الحسين عليه السلام: (مثلي لا يباع لمثله)^(١)، ولا يعني ذلك أنّ الإمام عليه السلام يتكبر، بل يريد أن يؤكد على عزّته المنبثقة من ارتباطه بالله تعالى وسيره على هدي القوانين الإلهية التي انتهكها يزيد بشرب الخمر وقتل النفس المحترمة ولا يمكن لمثل الإمام الحسين عليه السلام أن يُباع من يدوس كرامة الإنسان ويهتك حرّماته ولا يبالي بوجود عزّة للإنسان المؤمن يجب أن تُصان قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافون: ٨).

الاستعلاء الحقيقي:

ظهر الجانب الآخر من النصوص في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ (٨٢) (القصص)، تُشير الآية إلى المنطق الاستعلائي الذي ذكره القرآن في قصة السحرة قبل إيمانهم بموسى عليه السلام عندما أكدوا على أنّ الاستعلاء للجانب المادي فقط، قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾ (٦٤) (طه)، وعندما دخل النبي ﷺ مكة كان بعض المشركين يقول: (اعلُ هُبُل، اعلُ هُبُل)، أي يطلب العلو للأصنام، وكان المسلمون تبعاً للنبي ﷺ يؤكدون بأن كلمة الله هي العليا، بقولهم: (الله أعلى وأَجَل)^(٢)، إنّ المبادئ والقيم

(١) كتاب الفتوح للكوبي: ج ٥، ص ١٤.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري ج ٣ ص ٢٢٤٢.

الساوية لا بد أن تكون عالية وليس العلو للقيم التي تدعو إلى الانحطاط والذل والهوان. يستوعب الجانب المعنوي من وجود الإنسان كيانه وكل مساره في العالم المادي إلى أن يصل إلى الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (النجم).



أثر التوكل على الله في حياة الإنسان

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ (الطلاق) صدق الله العلي العظيم.

دور التوكل على الله في اطمئنان الإنسان:

التوكل على الله تعالى مَعْلَم هام وأساس متين من الأسس والمعالم التربوية التي ينبغي للأبوين أن يولياها عنايةً كبيرةً، كي يتحقق الأثر الطيب في نفس ذلك الولد وتلك البنت، ذلك أن الاعتماد على النفس وحده إذا لم يقترن بالتوكل على الله تعالى، فلن يصل الإنسان إلى ما يرجوه من خير في كثير من الأحيان، ويرجع ذلك إلى أن الإنسان يُواجه عقبات كثيرة ومتعددة في الحياة وهو وإن اعتمد على نفسه فإنه إذا لم يتوكل على الله ولم يُفوض الأمر إليه ولم يعرف بأن مجاري الأمور بيده تعالى قد يُصاب بإحباط في بعض الأحيان التي لا يتوصل فيها إلى ما يصبو إليه، رغم أنه بذل قصارى جهده واستنفذ كل طاقاته غير أن الأبواب انسدت في وجهه، ولم يُحقق النتيجة التي كان يطمح في الوصول إليها، ذلك أن الأمور ليست دائماً وأبداً تسير على ضوء ما خططه الإنسان، بل في كثير من الأحيان يخطط الإنسان كي يصل إلى هدفٍ ويستنفذ كل قدراته وطاقاته غير أنه لا يصل إلى النتيجة التي خطط لها، من هنا فإنَّ على الإنسان أن يستنفذ كل إمكانياته وأن

يخطط بالاعتماد على ذاته مع التوكل على الله تعالى، وإذا لم يصل إلى ما كان يصبو إليه من النتائج فلا يعني ذلك أن يُصاب باليأس أو يعتريه الإحباط، نتيجةً لتلك الجهود التي باءت بالفشل، لأنَّ الله تعالى حكيم، ومن حكمته أن يُرجى بعض النتائج من أجل صلاح الإنسان، ولا يكتشف المرء ذلك إلا بعد حين، وقد أشار إمامنا السجاد عليه السلام إلى هذا المعنى، قال عليه السلام: (ولعلَّ الذي أبطأ عني هو خيرٌ لي لعلَّكم بعاقبة الأمور)^(١)، إذاً التوكل على الله صمام أمان للإنسان، يستطيع من خلاله أن يحافظ على توازنه الشخصي، وبالتالي يُحقق الهدوء والاطمئنان لنفسه.

نتائج التوكل على الله تعالى:

يترتب على التوكل على الله إذا اقترن مع الاعتماد على النفس، وتفعيل طاقات وقدرات الإنسان نتائج باهرة وكثيرة:

الأولى: الاستفادة من الطاقات المادية والمعنوية.

التوكل على الله يدفع الإنسان إلى بذل قصارى جهده في الاستفادة من طاقاته المادية والمعنوية، بيد أنه لا يعتمد عليها اعتماداً كلياً، بل على الله تعالى لأنه السبب الأقصى والنهائي لكل شيء، جاء في بعض أدعية أهل البيت عليهم السلام ما يُبين هذا الأمر في الرزق: (اللهم يا سَبَبَ من لا سَبَبَ له، يا سَبَبَ كل ذي سَبَبٍ، يا مُسَبِّبَ الأسباب من غير سَبَبٍ)^(٢) (سَبَبٌ لي سَبَباً لا نستطيع له طلباً)^(٣)، أي إذا أُوصدت جميع الأبواب أمام الإنسان فإنه سوف يجد باباً لا يُوصد هو باب الله تعالى، القادر على إزالة الكرب وتفريج الملمة.

(١) مصباح المتجهد للطوسي: ص ٥٦٤.

(٢) المصباح للكفعمي: ص ١٧٠.

(٣) المصباح للكفعمي: ص ٣٠٦.

الثانية: الاطمئنان والاتزان والسكينة.

التوكل على الله يُحقق الاطمئنان والاتزان - الذي أشرنا إليه فيما تقدم - لأن التوكل على الله توأم مع ذكره تعالى، ومن يتوكل على الله ويرى بأن الأمور بيده تعالى، فهو ذاكر لله في كنه وجوده وفي سريرة نفسه، قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد)، وإذا بذل الإنسان قصارى جهده وسار بثبات من خلال توكله على الله عاش الاتزان والاطمئنان والسكينة في خطواته.

الثالثة: تحمل الصعاب واجتياز العقبات.

يستطيع المرء بالتوكل على الله تعالى أن يتحمل الصعاب ويمتاز العقبات الكبرى ويواجه أعتا القوى في العالم دون خوف، لأن التوكل على الله والسير على المنهج الإلهي، -تطبيق الموازين الشرعية والإلهية- مع الاعتماد على النفس يذلان الصعاب والعقبات الكبرى فتتضاءل أمام ناظريه إلى أن تتلاشى، ويتحول المستحيل إلى ممكن، والممكن إلى واقع، إن سيرة الأنبياء والرسل والصالحين يظهر فيها جلياً ذلك، فقد استطاعوا بالاعتماد على ذواتهم، وتفعيل قدراتهم الذاتية مع توكلهم على الله تعالى أن يحققوا الإنجازات الكبرى في التأريخ، إن سيرتي موسى وإبراهيم في مواجهة القوة الهائلة والجبروت الكبير، لهما درس عملي لمن اقتدى بهذا المنهج، وسيرة ذي القرنين تظهر أن الاعتماد على النفس والتوكل على الله توأمان يتحقق بهما تلکم الإنجازات الكبرى.

الرابعة: السير وفق المنهج الإلهي.

التوكل على الله والسير على وفق المنهج الإلهي مع الأخذ بالأسباب الطبيعية يقترن بالنجاح، وقد أفصح القرآن الكريم عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران)، الآية من غرر

وروائع القرآن الكريم، وكل آي القرآن غرر وروائع، إنها تأمر النبي ﷺ بأن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص في المجالات المتعددة، كي يسير على وفق ما توصل إليه مع الاستشارة، ورغم أننا نعتقد بأن النبي ﷺ هو الأعلّم والأفضل الأكمل وأنه لا يحتاج إلى أحدٍ سوى الله تعالى، لكنه ص يُؤسس منهجاً ربانياً يبلور من خلاله هذا المفهوم العام، أي أنّ المسار العام للإنسان الإلهي لا بد أن يكون على وفق الاستفادة من الآخرين في تخصصاتهم في حقولهم العلمية المختلفة، وبالتالي على الإنسان قبل أن يصل إلى المراحل الأخيرة والنهائية للعزم والجزم أن يستشيرهم، وإذا وصل إلى مرحلة العزم والجزم -الجزء الأخير من العلة النهائية كما يُعبر عن ذلك العلماء- أن لا يكتفي بذلك وحده، بل عليه أن يقرن ذلك بالتوكل على الله. إنّ الآية: ﴿وَسَآوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ لا تعني بأنّ على الإنسان أن يستشير أي شخص حتى إذا كان لا يملك تجربة أو لا يحمل اختصاصاً، بل الاستشارة من ذوي الخبرة وأصحاب الاختصاص، ومع ذلك لا ينبغي له أن يركن إلى الأسباب الظاهرية وحدها دون أن يعتقد بأنّ الله تعالى بيده جميع الأسباب وهو المسبب لها.



الخامسة: عدم الغرور والتكبر.

من نتائج التوكل على الله أنّ الإنسان لا يُصاب بالغرور، ولا تعتريه الكبرياء مهما حقق من إنجازات، لأنه يرى أنّ تلكم الإنجازات الكبرى والعظيمة لم تتحقق من خلال ذاته فقط، وإنما بتوفيق ومعونة من الباري تعالى، ولكونه يسير على صراط العبودية المستقيم فلن يُصاب بغرور ولن تعتريه كبرياء، لأنّ الغرور والكبرياء يُدللان على وجود مرض وحقارة في ذاته، لا تنسجم مع صراط العبودية، ذلك ما أوضحه الأئمة من أهل البيت عليه السلام، قال الإمام الصادق عليه السلام: (ما من رجل

تَكْبَرُ أَوْ تَجْبَرُ إِلَّا لِلذِّلَّةِ وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ^(١)، وقال ﷺ: (ما من أحدٍ يتيه -التيه هو الكبرياء مع اختيال- إلا من ذلّةٍ يجدها في نفسه)^(٢)، المؤمن الذي يسير في المسار الراشد ويُعلّم أبناءه السير فيه، لن يجد ذلّةً في نفسه بتوكله على الله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨).

السادسة: معرفة الحدود والقدرات والإمكانات.

التوكل على الله تعالى يعرف المرء حدوده، وعندئذ يدرس إمكاناته دراسةً متقنةً ومقننةً، ويُدلل على هذا ما أوضحناه فيما تقدم، ونشير إليه هنا بتفصيل أكثر، إنّ الإنسان إذا انطلق في قراراته من تهور دون دراسة فأقدم على فعلٍ دون حكمة واستشارة فإنّ النتيجة لن تكون كما يصبو إليه، بخلاف ما إذا انطلق من خلال معرفة الحدود والإمكانات والدراسة الدقيقة المتوازنة، ثم سار على وفق معرفته لقدراته وإمكاناته، فإنه يصبح محلاً لتقدير واحترام المجتمع كله، وسوف تتعزز ثقته بنفسه، ويتمكن من التقدم إلى الأمام بخطواتٍ ملؤها الثبات والنجاح، قال إمامنا أمير المؤمنين ﷺ موضحاً لهذا الأمر: (من وقف عند قدره أكرمه الناس)^(٣)، وقال ﷺ: (من تعدى حدّه أهانه الناس)^(٤).

كل هذه النتائج تترتب على التوكل على الله، والمربي الناجح هو الذي يُوصل أسرته إلى قمة الكمال ويُعزز فيها الجنبتين الآنفيتين:

الأولى: الاعتماد على النفس بتفعيل الطاقات، وقد أشارت الروايات إلى هذا الأمر بعنوان اليأس عما في أيدي الناس.

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣١٢.

(٢) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣١٢.

(٣) التبليغ في الكتاب والسنة للريشهري: ص ١١٨.

(٤) نفس المصدر السابق.

الثانية: قرّن الثقة بالنفس والاعتماد على الذات بالتوكل على الله، حتى لا يُصاب باليأس ولا يعتريه الغرور، بل يصل إلى شاطئ الأمان وساحل النجاة.



آثار إخلاص العبودية لله تعالى

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)
صدق الله العلي العظيم.

من المهام الكبرى المناطة بالأبوين في التربية والتعليم ربط الأبناء بالعبادة من خلال شرح حقيقة العبودية لله تعالى في جميع الأعمال، وذلك لما يترتب على الفهم السليم والصحيح للتقرب إلى الله بالعمل الصالح من اطراد في درجة الكمال، وقد أوضح القرآن الكريم ذلك، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

معنى التقرب إلى الله تعالى

قبل أن نبين آثار التقرب إلى الله تعالى نشرح معناه وارتباطه بالعمل الصالح كي يتضح ما يترتب عليه من كمالات في الجانب المعنوي للشخصية. عندما نطرح مفهوم القُرب نجده واضحاً جلياً بالأخص إذا ربطناه بالزمان والمكان، أي إذا كان في الأمور الحسية. فعندما نشير إلى شخصين في مكان واحد، نقول: إنّ فلاناً قريبٌ من فلان فيتبادر إلى ذهن السامع أنّ القُرب نتيجةً لتلاشي الفواصل المكانية بينهما، فكل منهما قريب من الآخر، هذا النوع من القُرب قُرب مكاني، وهناك نوع ثانٍ من القُرب هو قُرب زماني، يقال: ولدي قريبٌ من ولدك في العمر.

وهناك نوع ثالث من القُرب يرتبط بالأعمال العبادية التي يتقرب بها إلى الله تعالى، هذا النوع ليس قُرباً حسيّاً، بل هو شبيه من قولنا: فلان قريبٌ من الأمير أو قريبٌ من

العالم، إنّ ذلك لا يعني أنه ليس قريباً منه إذا سافر عنه، لأنّ القُرب يراد به هنا القرب المعنوي، أي أنّ ذلك الشخص قريبٌ من الأمير أو من العالم، لكونه يحظى بمكانة خاصة لديه، حيث تكون شفاعته مستجابة.

القُرب من الله تعالى هو ذلك القُرب المعنوي الذي لا يرتبط بالمكان، ولا الزمان، لأنّ الله تعالى لا يحده زمان ولا مكان، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤) لأنه الخالق للزمان والمكان فلا يحد بهما - الزمان هو مقدار الحركة - ولا يمكن أن يجري عليه أو يؤثر فيه تعالى الزمان، الزمان لا يجري على المجردات التي خلقها الله تعالى لكونه مقدار الحركة في عالم المادة، وعالم المجردات فوق عالم المادة. وإذا أراد الأب أن يدعو ولده أو صديقه إلى القُرب من الله، عليه أن يشرح معنى القرب بالمعنى الآنف، وأنّه يختلف عن القرب الحسي في عالمي الزمان والمكان، -الزمكان-، أي أنّ القرب في المحسوسات يختلف عن القُرب الذي يدعونا الله تعالى إليه، والذي ترتب عليه الكمالات المعنوية.

منهج القرب إلى الله تعالى

وضع الخليل إبراهيم عليه السلام منهجاً نسير عليه من خلال تبيانهِ لكيفية ارتباطه وقربه من الله في العمل الصادر منه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ (الأنعام)، إذ يربط إبراهيم عليه السلام جميع ما يصدر منه وعنه بالله، وذلك منهج عام دعا إليه الأنبياء والرسل في الجانب العبادي أي في الأمور التي لا بد أن تكون لله تعالى. وقد أوضح الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أنّ العبودية له ليست بمحصورة في الأمور التعبدية كالصلاة والصوم والزكاة ونسك الحج التي لا تصح إلا إذا كانت لله تعالى. بل تشمل جميع الأعمال التي يقوم بها الإنسان، قال بعض العلماء مفسراً قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)، إنّ ذلك لا يخص العبادات فقط، إذ يظهر من القرآن الكريم أنّ الأمر يشمل جميع الأمور والأفعال التي تصدر من الإنسان، والآية دالة بوضوح على ذلك إذ فيها ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ (الأنعام)، كلمتا «محياي ومماتي» يختلفان عن صلاتي ونسكي، لأنّ المحيا



والمهمات يُراد منهما جميع ما يتعلق بشؤون الإنسان الذي لا بد أن يكون راجعاً إلى الله في سيره الصعودي والتكاملي إليه تعالى.

أثر القرب من الله تعالى

يرتب القرآن الكريم أثراً على العبودية لله تعالى في جميع الأعمال الصادرة من الإنسان، فمن يأتي بأعمال بقصد التقرب إلى الله تعالى تتحدد درجته الكونية وتختلف عن درجة غيره، والاختلاف في هذه الدرجة يرتبط بالجانب العبودي في الأعمال. وكي يتضح هذا المعنى، نُؤكد على أن الأعمال التي لا يشترط فيها قصد القربة إلى الله تعالى هي أكثر الأعمال الصادرة من الإنسان، والتي يأتي بها بنحو طبعي، كما إذا أمر أن يأتي بهاء أو طعام أو أن يغسل شيئاً أو أن يطهر ثياباً من النجاسة فلا يحتاج إلى قصد القربة غير أن بإمكانه جعل العمل قربة إلى الله تعالى، فإذا غسل ثوبه فقد طهر لكنه إذا غسله قربة فقد ترتب على الغسل ثواب، الأعمال المشروطة بقصد القربة لا تصح إلا إذا اقترنت بالنية أما الأعمال التي لا يشترط فيها قصد القربة فهي صحيحة، كما بين ذلك الفقهاء في كتبهم الفقهية.

درجات القرب من الله تعالى

أوضح الله تعالى أن القرب منه له درجات تكاملية، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٣) هذه الدرجات لها معنيان:

الأول: ذكره بعض المفسرين من علمائنا عند شرحه للآية بأن الدرجات ترتبط بقربهم من الله تعالى أي لهم درجة في الكون المادي والمعنوي بالنسبة إلى قربهم منه تعالى، ويعني هذا وجود سلم مختلف الدرجات لا يمكن للإنسان أن يتعدى درجته الوجودية إلا إذا كان لديه عمل صالح أخلصه الله تعالى، عندئذ تكون درجته الوجودية تقربه إلى الله. إن هذا بحث عميق يرتبط بمجالات فلسفية وعرفانية تشير إليها الروايات والآيات القرآنية وتؤكد بأن درجة الإنسان في عالم الوجود لا تترتب عبثاً واعتباطاً، بل ترتبط بحركته في سيره التكاملي وقربه من الله تعالى. فكل درجة يصل إليها تمثل قرباً من الله، وقد فسر بعض العلماء القرب بالفيض منه تعالى، بمعنى أن درجة الإفاضة والطف والعناية من الله



تعالى التي تفاض على الإنسان القريب منه تعالى تختلف عن الدرجة التي تفاض على غير القريب من الله، وقد شرح الحديث القدسي هذا المعنى، جاء عن الله تعالى: (لا يزال العبدُ يتقربُ إليَّ بالنوافل والعبادات حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعُهُ الذي يسمعُ به، وبصرُهُ الذي يبصرُ به، ويَدُهُ التي يبطشُ بها)^(١)، أي أن هناك درجة وجودية للإنسان يترتب عليها جريان اللطف الإلهي له دون غيره، لأنَّ غيره يجري عليه لطف بمعنى أبعد أي تجري عليه الرحمانية العامة من الله وليس الرحيمية الخاصة، وهذا التفسير يُقرب المعنى بنسبة كبيرة.

الثاني: من له ارتباط بالمعنى السابق، وجرى عليه الفيض الإلهي بنسبة ما اختلفت عن غيره فارتقى درجات متعددة، أعلاها ما أشار إليه تعالى في حق المصطفى ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧)، أي أصبحت رميته ﷺ رمية الله، وبطشه بطش الله تعالى، وذلك هو المعنى العميق لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، النبي ﷺ يُمثل الإرادة الإلهية، فإطاعته إطاعة الله تعالى، وهناك حديث شرح هذا المعنى الذي أوردناه، جاء فيه: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يُؤدي عن الله فقد عبَدَ الله عزَّ وجل، وإن كان الناطق يُؤدي عن الشيطان فقد عبَدَ الشيطان)^(٢). هذا الشرح والإيضاح الذي أوردناه فيما يترتب على عبودية الإنسان لله تعالى من معانٍ عميقة، يُدركها الإنسان ويصل إليها بنحو تدريجي.

كيفية إيصال الخلق إلى القرب منه تعالى

يحتاج الإنسان أن يكرر في أسلوبه التربوي العام مع محبيه وأقربائه قضية القرب من الله تعالى، والحظوة عنده لكون ما يصدر من الإنسان من عمل لا بد أن يرتبط به تعالى. والمطلوب أن يؤكد على ذلك بنحو خاص على الأبناء والبنات لأهمية القرب المعنوي منه تعالى في تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية. وكلما ربط المرء أبناءه بالله تعالى تحقق كمال له ولهم، وسار الأبناء سيراً صعودياً تكاملياً في منازل القرب والحظوة والدرجات المعنوية من الله تعالى.

(١) عوالي اللآلئ لابن أبي جمهور الأحسائي: ج ٤، ص ١٠٣.

(٢) الكافي للكليني: ج ٦، ص ٤٣٤.

مكارم الأخلاق منهج قرآني وسلوك حضاري

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) (فصلت) صدق الله العلي العظيم.

نبارك لكم ميلاد الإمام الحسن عليه السلام ونستعرض درساً من الدروس الهامة التي جسدها كريم أهل البيت عليهم السلام في حياته العملية وفي تطبيقاته التعاملية مع الأقربين والأبعدين، هذا الدرس هو مكارم الأخلاق، الإمام الحسن والأئمة من أهل البيت عليهم السلام ركزوا على جنبه أخلاقية هامة في التطبيق التعامل مع مختلف الناس بشتى أنماط تفكيرهم الذي ينطلقون منه في تعاملهم مع الأئمة عليهم السلام.

أقسام الأخلاق:

سار الأئمة ع على هدي جدهم عليه السلام في تأصيل مكارم الأخلاق، فقد حصر النبي عليه السلام الهدف والغاية من بعثته بإتمام مكارم الأخلاق، قال عليه السلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١)، وكي يتضح معنى مكارم الأخلاق نسلط الضوء على علم الأخلاق فقد قُسمت الأخلاق إلى قسمين رئيسيين:

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٤.

الأول: محاسن الأخلاق.

وهو النمط السائد العام بين الناس، الذي يعتمد مبدأ المنفعة، فتُحسن لمن أحسن إليك، وتُعطي لمن أعطاك، وتصل من وصلك، وهلمَّ جرى، فالإحسان مقابل الإحسان. وعلى هذا الأساس نجد أنَّ الشرائع السماوية كافة والعقلاء يُركزون على محاسن الأخلاق باعتبار أنَّ حياة الناس لا تستقيم إلّا بها، لذا قيل في محاسن الأخلاق سعة الأرزاق، فمن يجري معاملات اقتصادية وتجارية مع الآخرين إذا كان يتمتع بالأخلاق الحسنة سوف يفتح الله تعالى عليه أبواب الرزق.

الثاني: مكارم الأخلاق.

وهي نمط آخر من الأخلاق أعظم من محاسن الأخلاق، ولا ترتبط بالرزق وديمومة الحياة، وإنما ترتبط بالواقع العميق لنفس الإنسان، أي أنَّ مكارم الأخلاق تُركّز على الجانب المعنوي في شخصية الإنسان، وتجعل الأخلاق الحسنة تنبثق من مبادئ وثوابت كامنة في كُنه وجود الإنسان، فمكارم الأخلاق لا تعتمد على مبدأ المنفعة، وإنما تعتمد على زرع الخير وإزالة أسس الشر من نفس الإنسان، وتُركز على الفضيلة وإزالة الرذيلة، تلك هي مكارم الأخلاق.



مكارم الأخلاق في أحاديث النبي ﷺ.

أولت الروايات أهمية بالغة في إعطاء تطبيقات عملية لمكارم الأخلاق، قال النبي ﷺ: (صل من قطعك، وقل الحق ولو على نفسك، وأحسن إلى من أساء إليك)^(١)، إنَّ المكارم تختلف عن المحاسن إذ في المحاسن تُحسن لمن أحسن إليك فقط، وتصل من وصلك فحسب، أما المكارم فلها مبدأ آخر، يقضي على كوامن الشر في نفس الإنسان ويزرع مبادئ الخير والصلاح والفضيلة في كُنه وجوده، لذا حصر النبي ﷺ الهدف والغاية من بعثته بإتمام مكارم الأخلاق: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٢).

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج ٤، ص ١٧٩.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٤.

دور الأئمة عليهم السلام في غرس المكارم:

قدّم الأئمة من أهل البيت عليهم السلام جهداً كبيراً وعظيماً في التركيز على مكارم الأخلاق، لكونها تحوي بُعداً يمتاز بالشمولية، نستطيع أن نسميه البعد الحضاري، بمعنى أنه لا يرتبط بالبرهنة الزمنية التي يعيشها الإنسان، بل يمتد بأبعاده إلى الرحاب البعيدة التي يجتاز فيها الأزمنة كي يؤثر في الإنسان بعد أحقاب من السنين بحيث يتكهرب الإنسان بشخصية من اتصف بالمكارم، وطهر نفسه، ذلك أنّ مكارم الأخلاق تزرع بذور الخير والصالح، ولا تكتفي باحترام الحقوق، وإنما تؤسس لأرقى وأفضل وأحسن وأكمل أنماط وأنواع التعاملات المبتنية على أسس الخير والهدى والفضيلة.

المكارم في أدعية أهل البيت عليهم السلام:

إذا رجعنا إلى التراث الزاخر بالعطاء اللامحدود لأئمة أهل البيت عليهم السلام نجد كما هائلاً من الروايات والأحاديث والأدعية والحكم تبني شخصية الإنسان على مكارم الخلق، فهناك دعاء لإمامنا زين العابدين عليه السلام في مكارم الأخلاق: (اللهم صل على محمد وآل محمد، وسدّني لأن أعارض من غشّني بالنصح، وأجزني من هجرني بالبرّ، وأثيب من حرمني بالبدل، وأكافئ من قطعني بالصّلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة وأغضي عن السيئة)^(١)، يؤكد الإمام عليه السلام بأنّ على المرء أن لا يتحدث إلا بالجميل ويغض الطرف عن السيئات، كي يصبح مصدراً للخير لا مصدراً للشر، قال عليه السلام: (وأجر للناس على يديّ الخير ولا تمحقه بالمن)^(٢)، (اللهم صل على محمد وآل محمد، وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة، ومن حسد أهل البغي المودة، ومن ظنة أهل الصلاح الثقة)^(٣)، أي أنّ الصالحين إذا ظنوا بك السوء عليك أن تقابل ذلك بالثقة، وما أروع هذه الأخلاق، (ومن عداوة الأذنين الولاية، ومن عقوق

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ١٠٣.

(٢) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ١٠٠.

(٣) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ١٠١.

ذوي الأرحام المبرّة، ومن خذلان الأقربين النّصرة^(١) هذه مكارم في الأخلاق وليست محاسن، فالمرء هنا لا يعطي من أعطاه، ولا يقدم النصّح لمن قدمه إليه بل إلى من أساء إليه يقدم الإحسان، ويصل من قطعه، وتلك هي الأخلاق التي تبني إنسانية ملؤها الفضيلة والصّلاح، تقلُّ الشرور فيها وتنضح بالفضيلة والرشد.

مكارم الأخلاق في تعامل الإمام الحسن عليه السلام :

ركّز الإمام الحسن عليه السلام على هذا المبدأ في الأبعاد التعاملية مع الأقربين والأبعدين. أما مع الأقربين الذين يعتقدون بإمامته، لكن ينقصهم الأفق الرحب الواسع، فينظرون الأشياء من خلال البعد الضيق، فقد دخل على الإمام عليه السلام شخص وخاطبه بـ: «يا مذل المؤمنين»، غير أنّه عليه السلام رد عليه: (والله ما أنا بمذل المؤمنين، ولكني معزّ للمؤمنين)^(٢)، يريد الإمام ع أن يوسع أفق نظر المعترض لينظر إلى أفق أبعد وأوسع، وكذلك عندما جاءه شامي ضلّته الدعاية والإعلام فتحدث بالسوء على الإمام الحسن عليه السلام، التفت إليه الإمام عليه السلام وقال له: (أيها الشيخ أظنك غريباً لست من أهل هذه المدينة، ولعلك شبّهت، فلو استعبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيّاك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالا كثيراً)^(٣)، هذا الموقف مثّل مفاجأة للشامي حطمت كبرياء نفسه وأزالت أثر تلك الدعايات والإعلام المضاد، وفتحت أفق الخير أمام ناظره، فتغير في سلوكه وخاطب الإمام عليه السلام قائلاً: «أشهد

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ص ١٠١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٢٨٧.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٣، ص ٣٤٤.

أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إلي والآن أنت أحب خلق الله إلي» هذا التغيير قد لا يحدث لأي شخص كما حدث لإمامنا الحسن، ولكن الموقف يؤثر من ناحية الفترة الزمنية البعيدة على الأجيال اللاحقة، ونحن عندما ننظر إلى شخصيات الأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت عليهم السلام نجدهم لا يركزون في خلقهم الكريم على البرهة الزمنية المعاشة لهم، بل ينظرون إلى الآفاق البعيدة لإنسان الأزمنة القادمة، لأنهم يريدون أن يؤسسوا مكارم الخلق في أعماق الإنسانية كي ينتشر الهدى ويعم السلام، ويُنشأ الخلق على الفضيلة والرشد. والإمام الحسن عليه السلام عندما سُئل عن بعض المفاهيم أجاب عنها مُبيناً أهمية مكارم الخلق، فقد سأله رجل: (ما الشرف يا بن رسول الله؟ قال: اصطناع العشيرة وحمل الجريرة)^(١)، ينطلق الشريف من شرفه لاصطناع الناس ليصبح الآخرون عشيرة له، ويتحمل بعض الجرائر، فإذا تعرض إنسان للخطأ وأصبح مُداناً، أسهم في رفع دينه، بل أغنى تلك الحاجة التي ألت به، ثم قيل له: (فما النجدة؟ قال: الذب عن الجار، والصبر في المواطن والإقدام عند الكريمة)^(٢)، يحتاج الإنسان أن يكون شجاعاً في مواطن الموت، وبذل النفس في سبيل الله، وقيل له عليه السلام: (فما المجد؟ قال: أن تُعطي في الغرم وأن تعفو عن الجرم)، ففي حال الغرم وكونك محتاجاً لأبد أن تكون يدك ندى وخير وجود وكرم، وكذلك إذا أُسيء إليك وأصبح الآخرون لهم جانحة تجاهك وجرم ضدك، فخلقك الصفح والعفو عن الجرم. هذه هي الأخلاق الفاضلة التي أشار إليها المصطفى صلى الله عليه وآله بقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٣)، وتنبثق من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٣٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(٣٥) (فصلت)، ومن قوله

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٠٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٤.

تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران)، وإذا سادت هذه الأخلاق في عالمنا الإسلامي عندئذ نستطيع أن نوثر في الإنسانية جمعاء وأن ننشر مبادئ الخير والسلام والرفق والاحترام الجَم لحقوق الإنسان والعدالة في ربوع المعمورة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الثقافة المستندة إلى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.



آثار ترك الصلاة على الإنسان

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ۚ ﴿٤٣﴾﴾ (المدثر) صدق الله العلي العظيم.

أولت الآيات الآنفة أهمية فائقة للصلاة، وهي أحد أركان الإسلام، وتاركها يقترب ذنباً من الذنوب الكبيرة، ذلك ما أكدته الآيات فالسبب الرئيس في دخول النار ترك الصلاة، وقد أكدت روايات كثيرة بأن ترك الصلاة من الذنوب الكبيرة، قال الإمام الصادق عليه السلام في تعداده للكبائر قوله: (...وترك الصلاة لقوله: من ترك الصلاة متعمداً فقد برئ من ذمة الله وذمة رسله)^(١).

العلاقة بين ترك الصلاة والكفر

أشارت الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليه السلام إلى كفر تارك الصلاة، قال النبي صلى الله عليه وآله: (ما بين المسلم وبين الكافر إلا أن يترك الصلاة الفريضة متعمداً أو يتهاون بها فلا يصلّيها)^(٢)، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: (أن تارك الصلاة كافر)^(٣)، وقد أوضح العلماء معنى ترك الصلاة بتصنيفه إلى صنفين:

الأول: ترك الصلاة المستلزم للكفر، وذلك، بأن يكون تركها حال كون التارك

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٧، ص ٢١٦.

(٢) ثواب الأعمال للصدوق: ص ٢٣١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١١، ص ٢٥٤.

منكرًا لوجوبها، عندئذ تركها يلزم الكفر لأن الله تعالى نصّ على وجوبها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء)، فتارك الصلاة المنكر لوجوبها كافر لأن إنكاره لوجوبها يستلزم إنكار الرسالة وإنكار القرآن الكريم والواجبات الشرعية المنصوصة، وذلك كفر.

الثاني: ترك الصلاة دون إنكار لوجوبها، ويُعد ذنباً من الذنوب الكبيرة، لكنه لا يستلزم الكفر.

إنّ بعض الناس يترك الصلاة، وإذا سُئل عن ذلك أقر بوجوبها لكنه لا يريد أن يصلي، بينما يطرح بعضهم الآخر شبهات لتركه للصلاة، كقولهم: بأن الله تعالى غني عن العالمين وليس بحاجة للصلاة التي تصلى. والشبهة ناشئة من توهم أن الله تعالى أوجب الواجبات ونهى عن المحرمات لأنه محتاج إليها، وهي مغالطة وتصور خاطئ؛ لأن الله تعالى غني مطلق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر)، فهو مستغن عن عبادة الناس، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (النساء). فلا يحتاج إلى عبادة عباده، لكنّه تعالى أراد لهم أن يسيروا على وفق نظام يعود عليهم بالنفع والفائدة، والحاجة للعبد وليس لله تعالى، وإذا صلى الإنسان لله تعالى فقد حقق حاجاته الفطرية في التزود من الجانب المعنوي. وقد أثبتت الدراسات النفسية وغيرها أن الإنسان مفتور على العبادة في تركيبته، وأن الجانب العبودي لا ينفك من تركيبته.

آثار ترك الصلاة

ترك الصلاة تارة يوجب الكفر وأخرى يكون معصيةً وذنباً من الذنوب الكبيرة، فإذا كان تركها على نحو الإنكار لوجوبها فهو كفر، أما إذا كان تركها على نحو التهاون واللامبالاة، فهو من الذنوب الكبيرة، وتترتب عليه كثير من الآثار نشير إلى ثلاثة منها:

الأول: الآثار التي تتعلق بالدين.

إنَّ تارك الصلاة من النادر أن يموت على الإسلام، نعم؛ قد تدركه رحمة فيموت مسلماً، غير أنه لا يوفق للموت على الإسلام في أغلب الأحيان، ورد عن الرسول ﷺ: (من ترك الصلاة لا يرجو ثوابها ولا يخاف عقابها، فلا أبالي أن يموت يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً)^(١)، وينبئ هذا عن سوء عاقبته وخروجه من الدين.

الثاني: الآثار التي تتعلق بالإنسان عند الموت.

إنَّ تارك الصلاة وإن مات مسلماً غير أنَّ هناك آثار تترتب على تركه للصلاة عند موته، روي عن النبي ﷺ في آثار ترك الصلاة على الإنسان عند موته قوله: (وأما اللواتي تصيبه عند موته: فأولهنَّ أنه يموت ذليلاً، والثانية يموت جائعاً والثالثة يموت عطشاناً، فلو سُقي من أنهار الدنيا لم يُروَّ عطشه)^(٢)، توضح الرواية الحالة السيئة التي يمر بها تارك الصلاة من الذل والجوع والعطش الشديد، حيث لا يرويه أي ماء من مياه الدنيا.

الثالث: الآثار في الحياة الدنيوية.

تبرز آثار ترك الصلاة في حياة الإنسان العملية، قال النبي ﷺ: (فأما اللواتي تصيبه في دار الدنيا: فالأولى يرفع الله البركة في عمره، ويرفع الله البركة من رزقه، ويمحو الله عزَّ وجلَّ سيئات الصالحين من وجهه، وكل عمل يعمل لا يؤجر عليه، ولا يرتفع دعاؤه إلى السماء، والسادسة، ليس له حظ في دعاء الصالحين)^(٣)، أكدت الرواية على أنَّ الله تعالى ينزع البركة من عمره ونزع البركة له معنيان:

(١) الصلاة في الكتاب والسنة للريشهري: ص ١٥٩.

(٢) الصلاة في الكتاب والسنة للريشهري: ص ١٣٢.

(٣) الصلاة في الكتاب والسنة للريشهري: ص ١٣٢.

الأول: قصر عمره، فلا يوفق ليعيش طويلاً.

الثاني: لا يوفق للخيرات الأخرى، وقد أُشير إلى هذا المعنى في الروايات، قال عليه السلام: (الصلاة عمود الدين)^(١) وكقولهم عليه السلام: (إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها)^(٢)، أي أنَّ الخيرات التي تصدر من تارك الصلاة غير مقبولة ولا يترتب عليها أثر، لأنها العمود تُشبه بعمود الخيمة، بدونه تسقط الخيمة كلها، والأعمال الصالحة تُقبل وتؤثر بقبول الصلاة، فإذا تُركت لم يترتب عليها أثر.

الثالث: نزع البركة عن عمر الإنسان بحيث لا يترتب على أعماله الصالحة التي صدرت منه أثر، بل تبقى محدودة في الحياة الدنيا، وقد تتلاشى فلا يبقى منها أثر للأخرة.

الرابع: قطع اللطف، إنَّ لله تعالى لطف باستجابة دعاء الصالحين، وتارك الصلاة ينقطع عنه ذلك اللطف فلا يصل إليه دعائهم.

الخامس: نزع البركة من العمر قد يتحقق بحرمانه من الذرية الصالحة التي تدعو له، إذ قد يُوفق المرء في ذرية صالحة إذا واطب على الصلاة فيأتي بعض أحفاده ليدعو له ويعمل له الطاعات فترجع عليه الفائدة ويتنفع بذلك نفعاً كبيراً.

بيّن القرآن الكريم بعض الآثار المترتبة على المتهاون بصلاته، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ (الماعون)، الويل: وادٍ في جهنم، بل في الدرجات السفلى منها، والله تعالى يفرق بين المسلم الذي ترك الصلاة متهاوناً بها، فاستحق العذاب والنار، لكنه لا يخلد فيها، وبين من جحدّها وأنكر وجوبها وكفر، فهو مخلد في النار لا يخرج منها.

إنَّ شفاعة النبي وأهل البيت عليهم السلام لا تشمل الكافر الجاحد وجوب الصلاة، نعم؛ قد تشمل المتهاون بالصلاة إذا تاب، غير أنها قد لا تدركه إلا بعد أحقاب من سنين العذاب.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٧، ص ٢١٦.

(٢) الصلاة في الكتاب والسنة للريشهري: ص ١٥٤.

الدور التكاملي للعبادة في حياة الإنسان

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١٩) ﴿الحجر﴾
صدق الله العلي العظيم.

العبادة لله تعالى تُعد مرتكزاً يُمثل هدفاً سامياً من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ زَنْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) ﴿الذاريات﴾.

أهمية العبادة:

للعبادة أهمية كبيرة في حياة الإنسان من نواح متعددة، نشير إلى بعض النواحي الهامة التي أكدت عليها الروايات، من أهم تلكم النواحي الاطمئنان والثبات عندما يتعرض الإنسان في هذه الحياة الدنيا للابتلاء، حيث يفقد المال والولد ويصاب بالأمراض المختلفة، وكثير من الناس عند تعرضه لذلك يفقد صوابه، لاطمئنانه الظاهري إلى دوام المال والصحة، وتصوره أنّ ما يُعطى من النعم في الحياة الدنيا دائم لا يتغير، والحال أنّ الدوام لله وحده، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) ﴿الرحمن﴾، لذلك يتغير عالم الدنيا ويصبح الفقير غنياً والغني فقيراً، ولا يبقى أحد على دوام حاله، قيل إنّ دوام الحال من المحال، وللعبادة أدوار متعددة في حياة الإنسان نستعرض أربعة منها:

الأول: الوصول إلى اليقين.

تأمر الآية التي ابتدأنا بها الحديث: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١٩) (الحجر) بمواصلة العبادة لله تعالى بالصلاة، والدعاء، والصوم، والإحسان إلى الغير، حتى يصل الإنسان إلى مرتبة اليقين. ومن الملفت للنظر أنَّ الآية لا تُحدد نمطاً خاصاً من اليقين، وإنما تُشير إلى اليقين بنحو مطلق، ذلك أنَّ الناس يختلفون في مسارهم العبودي فبعضهم يصل إلى علم اليقين وبعضهم الآخر إلى عين اليقين وبعض منهم يصل إلى حق اليقين وهي أعلى الدرجات، وكلُّ مُيسر لما خُلق له، غير أنَّ من المهم أن يُدرب الإنسان نفسه ويروضها على عبادة الله تعالى، ويتيقن أنه لن يصل إلى كماله إلاَّ عبر هذا الطريق، وأنَّ الطرق الأخرى وإنَّ أسهمت في وصوله بدرجة ما لكنها لن تكون كالعبادة لله تعالى في إيصاله إلى الكمال.

الثاني: العبادة تحقق الكمال للإنسان.

من أهم ما يصبو إليه العابد الوصول إلى الكمال المنشود الذي يترتب عليه الاستقرار والاطمئنان النفسي، والعلم والعمل وأمور أخرى لها مدخلة في وصوله إلى الكمال.

تنفرد العبادة بالدور الأكبر في الإيصال إلى الكمال من خلال إشباع الفطرة، قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْفَقِيرُ﴾ (الروم: ٣٠)، لقد فطر الله تعالى الإنسان على اللجوء والافتقار إليه، لكنَّه ينسى ما فطر عليه فيتعلق بغير الله تعالى ظناً منه أنه سيحصل على الغنى عند ارتباطه بغيره تعالى، والواقع أنه تعلق بسراب لا حقيقة له، لأنَّ الوجود الحق لله تعالى، وعندما يدرك المرء أنَّ ما ارتبط به لا يمثل غنىً لنفسه لفقده ما تعلق به قلبه واطمأنت إليه نفسه وسعى نحوه فوجده لا قيمة له، عندئذ يعلم بضرورة عبادة الله تعالى.



الثالث : العبادة توصل الإنسان إلى النجاح.

يربطنا الله تعالى بركن وثيق هو اللجوء إليه والفرار نحوه، قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات)، الفرار إلى الله بعبادته والتوكل عليه واللجوء إليه تعالى، هذا النحو من العبادة يحقق القرب منه تعالى، وقد أثنى القرآن الكريم على الأنبياء لتوافر هذه الصفة الحميدة فيهم، قال تعالى: ﴿وَكُنُوزًا لَنَا عَبِيدٌ﴾ (الأنبياء)، وتصف الروايات الأئمة من أهل البيت عليه السلام بالعباد الصالحين، وذلك يرشدنا إلى أهمية العبادة في حياة الأنبياء والرسل والأئمة عليه السلام والعظماء، وتأثيرها الكبير في وجودهم المعنوي من جهة، وفي مواصلة مسيرتهم التبليغية والدعوة إلى الله تعالى. وقد امتازت العبادة بدورها الكبير الهام في حياة الإنسان، لكونها تحقق الاستقرار والاطمئنان النفسي والنجاح الدائم، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (دوام العبادة برهان الظفر بالسعادة)^(١)، أي أن دوام العبادة لا يمكن أن يؤول بالإنسان إلى الفشل، لأن العابد لله تعالى لا يرجع خائباً في جهده لكونه دائم السعي والمجاهدة لله تعالى، فيهدى إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

الرابع: العبادة تورث الاطمئنان النفسي.

يتوقف كمال الإنسان النفسي والمعنوي على عبادته لله تعالى، ويترتب عليه الخروج من المآسي والآلام التي من أعظمها الأمراض النفسية التي يصاب بها المرء عندما يقع في مشكلة أو يصطدم بعقبة كأداء، فيتأثر نفسياً في مراحل متعددة من حياته أكان في مستقبل عمره أو في وسطه أو في آخر حياته، ويرجع ذلك إلى عدم لجوئه إلى الركن الوثيق - إلى الله تعالى -، فمن لم يرجع إلى الله، بل رجع إلى غيره ستضمحل آماله، وتخيب أمانيه وتتعثّر أمنيّاته التي كان يصبو أن يصل من خلالها إلى الغنى، فيعرف أنه

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٣٠٥.

لا ملجأ له من الله إلا إليه، غير أن هذه المعرفة لن تفيده إذا لم يبين شخصيته من البداية على اللجوء إلى الله تعالى.

إن من أعظم الأمور التي أكدت عليها الروايات أن على الإنسان دائماً وأبداً، وفي كل سني حياته أن يروض نفسه على عبادة الله تعالى، والمواظبة على ذكره، قال تعالى، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) أي أنه يترتب على العبادة التخلص من الأمراض النفسية، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (يونس)، من مقتضيات الإيمان ولوازمه أن يكون المؤمن ذاكرةً لله تعالى بقلبه ولسانه، لسانه رطب بذكر الله، وقلبه يرى الله تعالى حاضراً وناظراً. لقد أبان أئمة أهل البيت عليهم السلام ذلك وأفصحوا عن هذا المطلب، فورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كَلِمَ قِصَارٍ وَعِبَارَاتٍ تُوَكِّدُ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَمَنْ قَرَأَ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ وَجَدَ بوضوح الأهمية البالغة التي أولاها الإمام عليه السلام في الحضر والتأكيد على ذكر الله تعالى، والحث على عبادته جل وعلا، لأن العبادة تحمي الإنسان من المؤثرات الخارجية، وتحوطه بلطف الله تعالى، وتلفه بعنايته، فيغدق عليه الرحمة، وعندئذ لا يتأثر بالعوامل السلبية لأن غير الله تعالى خاضع له، لا يخرج من ملكوت سلطانه، وجميع الموجودات مقهورة له تعالى، ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس)، وإذا سار الإنسان في مسار عبودية الله، وتوجه إليه مؤمناً به ستطمئن نفسه بذكر الله، فلا تؤثر فيه الهزات والشدائد التي تمر عليه، بل، أن الشدائد والأحزان التي يبتلى بها يكون لها أقوى التأثير في إيجاد العمق المعرفي، والوصول إلى درجات القرب الإلهي. روي أن شخصاً قال للإمام الصادق: (يا بن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: هل ركبت سفينة قط؟ قال نعم، فقال: هل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك



أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم. قال الإمام الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث^(١).

نقل بعض العلماء أنه كان يعرف صديقاً ينكر وجود الله تعالى، وفي يوم من أيام مرض طفله الذي أصيب بداء عضال، بدأ الأب يدعو الله بتوجه وإلحاح شديد، عند ذلك، قال له العالم: ألسنت تنكر وجود الله تعالى فكيف تدعوه؟ فقال: دعني، فإني لا أريد شفاء ابني إلاّ منه تعالى. إنّ الإنسان إذا التجأ إلى الله وتعلم كيف يعبدّه وتوكل عليه، وعرف كيف يلتجئ إليه؟ عند ذلك، يستطيع أن يحل كل مشكلة تعترض طريق حياته، ويمتاز كل عقبة تقف دون وصوله إلى مبتغاه، ولا يمكن أن يقف أمامه شيء، لأنه وصل إلى معرفة الله القادر على تخليصه من العقبات والشدائد، والأخذ به نحو ساحل النجاة وشاطئ الأمان. والأهم من ذلك هو يقينه بسلامته من الهم والغم الدنيوي، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس، ١٠٦) أي أنه تعالى منحه السلامة في الدنيا والآخرة، وذلك تعبير عن وصوله إلى مرتبة اليقين التي من آثارها مناداته حال خروجه من الدنيا بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي (٢٩) (الفجر)، وذلك أروع ما يحققه العابد في مسار عبوديته.

الإمام الحسين عليه السلام رمز العبودية لله تعالى

ذكرى أربعين الإمام الحسين عليه السلام يتاح من خلالها إدراك حقيقة العبودية لله تعالى التي اتسم بها الإمام عليه السلام، وهو يتعرض إلى ذلك البلاء العظيم، بفقد أهله وأولاده وأقربائه، وعدم بقاء أحد له في عالم المادة، لكنه مع ذلك لم تؤثر تلك الشدة على الجانب

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٨٩، ص ٢٤٠.

المعنوي في شخصيته عليه السلام، لأنه يرى الله تعالى حاضراً، وقد نُسبت تعبيرات تفصح عن هذه الحقيقة للإمام عليه السلام كقوله:

تركتُ الخلق طُراً في هواك وأيتمتُ العيالَ لكي أراك
فلو قطعني في الحب إرباً لَمَّا مَالَ الفؤادُ إلى سواك

وأكد الإمام هذا المعنى بقوله عليه السلام: (هَوْنٌ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينَ اللَّهِ) ^(١)، إِنَّهُ عليه السلام يرى الله تعالى حاضراً ناظراً، ولدى الإمام عليه السلام كمال الثقة والاطمئنان به تعالى، لذا هانت عليه المصائب، وكانت عنده القدرة الكاملة في تخطي العقبات.



(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٤٥ ص ٤٦.

خطبة العيد

التكاليف الشرعية طريق الوصول إلى الله

الخطبة الأولى: جوائز الله

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وصلى الله وسلم وزاد وبارك على سيدنا ونبينا محمد وآله البررة الميامين أئمة المسلمين وهداة الخلق أجمعين، وبعد؛

أيها المؤمنون، عليكم بتقوى الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه، فإنَّ سعادة الإنسان في الدارين مرتبطة بإطاعته للحق تعالى ولن يصل أحد إلى السعادة إلا بالسير في الطريق المستقيم الذي رسمه الله تعالى لعباده.

عظمة جوائز الله تعالى

أيها المؤمنون، لقد وفقكم الباري تعالى لصيام هذا الشهر الفضيل، لحصول تقواه والوقاية من سخطه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة) وحصلتم على الجزاء الوافر والثواب الجزيل منه تعالى، فقد جاء عن أبي جعفر عليه السلام قوله: قال النبي ﷺ: (إذا كان أول

يوم من شوال نادى مناد: أيها المؤمنون، اغدوا إلى جوائزكم، ثم قال: يا جابر جوائز الله ليست كجوائز هؤلاء الملوك، ثم قال: هو يوم الجوائز^(١)، وقد أبهم النبي ﷺ الجزاء لعظمه، فلا يمكن للبيان إيضاحه.

الجائزة من جنس العمل

هذا الجزاء مرتب على العمل الذي صفى نفس الإنسان؛ ورفع روحه إلى أرواح الشهداء، وزكى عمله، فأصبح مقبولا بتقواه، ومعروفاً باسم صاحبه، فهو من السعداء، الذين شهد المخلصون والملائكة المقربون بطهارة أرواحهم ونزاهة نفوسهم وجودة أعمالهم، كما جاء في الدعاء، (وَأَنْ تَجْعَلَ اسْمِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ فِي السُّعَدَاءِ، وَرُوحِي مَعَ الشُّهَدَاءِ، وَإِحْسَانِي فِي عِلِّيِّينَ)، ما أروع الوصول إلى هذه الدرجة العظيمة والرتبة الكبيرة، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لذلك وأن يجعلنا مع الهداة المتقين محمد وآله الطيبين، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية: آفاق التوجيهات الشرعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر).

أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله واتباع سنة نبيه ﷺ والسير على هدي أهل بيته ، فإن ذلك صلاح الإنسان وعصمة لأمره.

أيها المؤمنون، إننا في هذا اليوم العظيم بحاجة إلى استذكاري أمورٍ أوصى بها الشارع المقدس:

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق ج ١ ص ٥١١.

الأول: الوسطية.

إنَّ إسلامنا العظيم هو الشريعة السمحاء الدالة على الخير والوسطية، فلا إفراط ولا تفريط، فالسائر على المنهج الوسط في عقيدته وخلقته ونهجه العملي هو ذلك الإنسان الذي يحبه الله ويحبه المصطفى ﷺ، ويهنأ بالحياة، وينسجم مع مختلف أنواع الناس، فيحبهم ويحبونه لما يجدونه من تسامح ومرونة وانسجام في تكيفه مع المجتمع، وهذا ما يجعل المسلم رحمة على أخيه المسلم وعلى المجتمع البشري بأكمله، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، غير أنَّ أمتنا الإسلامية ابتليت قديماً وحديثاً بداءٍ عُضالٍ، هو التطرف والإرهاب بالتعدي على الآخرين تحت عناوين ومسميات وتأويل للنصوص الشرعية. وتناسى المتطرفون أنَّ هذا الدين رحمة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) (الأنبياء)، ينجذب له الإنسان بطبعه لما يراه من توافق بين أحكامه والفترة. وقد أساء هؤلاء إلى ديننا الإسلامي الحنيف وأبعدوا الناس عنه بأعمالهم المشينة وتعليمهم على الأبرياء مع وضوح قول الحق تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) (الإسراء).

الثاني: الانفتاح.

وهو الإطلاع على الرأي الآخر، وله اتجاهان:

الأول: الرأي الإسلامي المخالف لنا مذهبياً.

فلا يسوغ للمسلم أن ينبر أخاه المسلم بالألقاب دون اطلاع على عقيدته من مصادرها المعتمدة بشرح وإيضاح علماء المذهب، ولا يتاح ذلك إلاَّ للمختصين غير أننا نجد أنَّ الحوار بين المسلمين أصبح شُرعة لكل وارد ممن هبَّ ودبَّ دون فهم للمصطلحات العلمية وللشروح والإيضاحات التي أفادها العلماء في المجالين العقدي والفقهية، وعلى من يريد أن يستوضح رأياً أو يطالع على جواب لإشكال أن يرجع إلى أصحاب الاختصاص حتى لا يزيد الطين بلة فتتسع شُقة الخلاف في وقتٍ

نحن بأمس الحاجة كمسلمين أن نتحد فيما بيننا.
ثانياً: الانفتاح على غير المسلمين، ويشمل الإنسانية كلها.

الثالث: التركيز على القواسم المذهبية المشتركة.

هناك الكثير مما يوحد المسلمين والقليل مما يفرقهم بيد أن أصحاب النظر المحدود والأفق الضيق بدلاً من انطلاقهم من المساحة الأوسع والقواسم المشتركة يبذلون الجهد في دفع المسلمين إلى الحقد والكراهية بالتركيز على نقاط الخلاف تاركين أمر الله تعالى، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

الرابع: الاهتمام بالحقوق والواجبات.

كل إنسان له حقوق وعليه واجبات، وبإعطائه حقوقه يسعد ذلك المجتمع، وبإزالة أسباب الخلاف وقيامه بواجباته يتقدم المجتمع خطوات إلى الأمام، باعتبار أن كل فرد يصبح لبنة في بناء ذلك الصرح الاجتماعي، ودون إعطاء الحقوق والقيام بالواجبات بين أفراد المجتمع لن يسعد ذلك المجتمع ولن يتقدم إلى الأمام على أي صعيد من الأصعدة، إذ أن عوامل الهدم تترسخ في تفكير من سُلبت حقوقه فيحاول انتزاع تلك الحقوق بطرق وأساليب تؤثر سلباً على أمن واستقرار ذلك المجتمع، من هنا جاء أمر الحق تعالى بالعدل مع من نختلف وإياه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

وفي الختام نسأله تعالى أن يوحد كلمة المسلمين ويجمع شملهم، والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ❶ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْرَسْ﴾ ❷ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ❸ (الكوثر).

البعد الشمولي في وصايا الإمام الصادق عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) صدق الله العلي العظيم.

دور الإمام الصادق الاجتماعي

لقد كان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يمثلون البلم الشافي للأمة الإسلامية على كل صعيد من الأصعدة، لذا نجد اهتمام كل إمام منهم عليهم السلام بشؤون الإنسان العامة والخاصة، الإنسان الفرد والإنسان المجتمع كي يحنو بعضه على بعضه الآخر، ويهتم بعضه بمصلحة بعضه الآخر. والإمام الصادق عليه السلام الذي تمر علينا ذكراه، قدّم للإنسان المسلم نصائح كانت دروساً عملية لرفع مستوى الإنسان في تعامله مع نفسه، ومع محيطه الاجتماعي وفي علاقته بالحق تعالى، أسدى الإمام عليه السلام النصيحة للمقربين إليه وللحواريين، وكذلك لعامة الناس وفئات المجتمع المتعددة، ونصائح الإمام عليه السلام التي كان يقدمها لبعض الحواريين يقصد منها إعطاء الدروس الثرة للتعامل بين فئات المجتمع وأخذ العبرة وفهم الكيفية العملية المستقاة من الأدب الإسلامي في تعامل الإنسان مع واقعه النفسي؛ ومع ماله وأسرته وأولاده، فكان الإمام عليه السلام يقدم تلك النصائح كدروس ملأى بالحكمة التي يستطيع الإنسان أن يتتسل بها ما يلم به من مرض ويزيل ما يعلق بنفسه من درن.

الإمام الصادق في توجيهاته للأمة

للإمام الصادق عليه السلام وصايا متعددة قدّمها للأمة، منها وصيته الرائعة لبعض حواريه، قال الإمام عليه السلام : (يا ابن جندب من حرم نفسه كسبه فإنما يجمع لغيره، ومن أطاع هواه فقد أطاع عدوه، من يثق بالله يكفه ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ويحفظ له ما غاب عنه . وقد عجز من لم يعد لكل بلاء صبرا ولكل نعمة شكرا، ولكل عسر يسرا، صبر نفسك عند كل بلية في ولد أو مال، أو رزية فإنما يقبض عاريتيه ويأخذ هبته ليلو فيها صبرك وشكرك، وارج الله رجاء لا يجرتك على معصيته، وخفه خوفا لا يؤيسك من رحمته، ولا تغتر بقول الجاهل ولا بمدحه فتكبر وتجبر وتعجب بعملك، فان أفضل العمل العبادة والتواضع، فلا تضع مالك وتصلح مال غيرك ما خلفته وراء ظهرك، وأقنع بما قسمه الله لك، ولا تنظر إلا إلى ما عندك، ولا تتمن ما لست تناله، فان من قنع شبع، ومن لم يقنع لم يشبع، وخذ حظك من آخرتك، ولا تكن بطرا في الغنى، ولا جزعا في الفقر، ولا تكن فظا غليظا يكره الناس قربك ولا تكن واهنا يحقرك من عرفك)^(١) والوصية تحوي أبحاثاً هامة نستعرضها في عشر نقاط:



الأولى: خطر البخل على الإنسان.

قوله عليه السلام : (يا بن جندب من حرّم نفسه كسبه فإنما يجمع لغيره).

تشير هذه الكلمة إلى داء البخل الذي يصاب به بعض الناس، حيث يدخر المال دون أن يستفيد منه في حياته، فيجمعه لغيره.

الثانية: الانصياع للهوى.

قوله عليه السلام : (ومن أطاع هواه فقد أطاع عدوه).

الإنسان يمكن أن يسيطر عليه الهوى وتتغلب عليه الأمنيات فيسير دون ردع لهواه الذي يُرديه بالنتيجة فيما لا تحمد عقباه، ويُحذر الإمام عليه السلام من اتّباع الهوى؛ بمعنى

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٢٨٢.

أنَّ على الإنسان أن يزن الخطوات العملية التي يخطوها ليرى انطباق ما يخطوه على ما أمر به الشارع المقدس.

الثالثة: آثار الثقة بالله.

قوله ﷺ: (ومن يثق بالله يكفهِ ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ويحفظ له ما غاب عنه).

هذه إشارة جميلة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ (الطلاق)، فمن يستكفي بالله تعالى يكفهِ، ويحفظ له أمر الدارين، بل، ويتكفل العزيز الجبار بحفظ ما غاب عنه، إذ أنَّ هناك الكثير ممن يخطط للإساءة إليك، لكنَّ الله تعالى يحفظك باعتبار توكلك عليه واعتمادك على قدرته.

الرابعة: التعامل الصحيح مع تقلبات الحياة.

قوله ﷺ: (وقد عجز من لم يعد لكل بلاء صبراً ولكل نعمة شكراً ولكل عسر يُسرّاً).

الدنيا هي دار بلاءٍ وامتحانٍ من خلال الظروف المختلفة، التي تمر على المرء، فهناك ظرف يتطلب الصبر، وظرف يحتاج إلى شكر الله والثناء عليه، وهناك الظرف الذي يحتاج إلى ترقب وانتظار الفرج، فالعسر يعقبه اليسر، وهو يحتاج إلى الأمل والانتظار، أما البلاء فيحتاج إلى الصبر والتصبر، وأما النعم إذا وافتك من قبل الله تعالى وأغدقت عليك فتححتاج إلى الشكر على مستويين؛ الثناء باللسان وصرف ما لديك من نعم فيما يُرضي الحق تعالى.

أهمية الصبر في مختلف الظروف

ثم يؤكد ﷺ على الصبر، فيقول: (صبرٌ نفسك عند كل بلية في ولدٍ أو مال أو



رزية فإنما يقبض عاريتة ويأخذ هبته ليلو فيهما صبرك وشكرك)، يتعرض الإمام عليه السلام هنا للأحداث الجسام التي تمر على الإنسان وهي رزايا تؤثر في عزيمة الإنسان وتفت في عضده؛ كما إذا ذهب ماله نتيجة للأحداث التي تمر عليه أو مات له ولد؛ فيتألم المأفائقا، ويعطي الإمام عليه السلام هنا البلسم الشافي في علاج هذه الأحداث المؤلمة التي تمر على الإنسان، كي يستطيع أن يخرج من تأثيراتها السلبية ظافراً باتّباعه لنصائح الإمام عليه السلام، (صبر نفسك عند كل بلية)، أي لا بد أن تتخذ الصبر جلباباً ودرعاً تتقي به التأثير الكبير عند الرزايا والمصائب، ثم بين الإمام عليه السلام بأن الله تعالى إذا أخذ منك الولد أو المال فإنما يأخذ ما أعارك إياه، المال عارية والولد هبة من الهبات التي يمنحها الحق تعالى لعباده، وإذا ابتلاك بفقده أو بفقد المال فما عليك إلا الادّراع بالصبر، فهو تعالى يمتحن شخصيتك وقابليتها للتحمل إذا حلت بها مصيبة، فهل تصبر أو تشكر؟ وهل لديك القدرة على الجمع بين الصبر والشكر؟

الخامسة: توازن الرجاء والخوف.

قوله عليه السلام: (وارج الله رجاء لا يجرك على معصيته).

ما أروع هذا الأمل الذي يفتحه الإمام للصالحين من العباد إذا وقعوا في لبس وتمويه من الشيطان فانزلقوا في معصية من المعاصي، فهناك موقف يتخذونه، أو ضحه الباري تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف)، وبعد الإبصار يرجع إلى الله تعالى راجياً لرحمته وموقناً أنه لا يرد استغفاره وإنابته، ولا يجركه على تلك المعصية مرة أخرى، وبعد هذا الرجاء الكبير ينتقل الإمام عليه السلام لبيان أهمية الخوف عند الإنسان كي يوازن بينهما، فيقول: (وخفه خوفاً لا يؤيسك من رحمته)، الخوف ضروري للإنسان لكن في حدود معينة بحيث لا يصل به الخوف إلى مرتبة من اليأس والقنوط من رحمة الله، فإن ذلك خلاف ما يريده الله لعباده، فهو تعالى يريد منك أن تخافه لكن دون أن تيأس من رحمته.



السادسة: تجنب الاغترار بكلام الآخرين.

قوله عليه السلام : (ولا تغتر بقول الجاهل، ولا بمدحه فتكبر وتجبر وتعجب بعملك).

الكثير من عامة الناس من الدهماء الذين لا يحيطون بشخصية الإنسان من حيث ارتباطه بالله ويغترون بالكثير من المظاهر فيغدقون في مدحهم على الإنسان بما يضره، والإمام عليه السلام يحذر من هؤلاء الناس الذين يكيلون المدح ويغدقون في الثناء دون موازين سليمة وصحيحة، يحذر من هؤلاء بأنهم جهّال، لا يحيطون بالموازين علماً فيقول: (ولا تغتر بقول الجاهل ولا بمدحه - لأنّ ذلك يوردك إلى الكبرياء - فتكبر - وأيضاً يدعوك إلى الغطرسة والتجبر - وتجبر)، بل قد تُعجب بعملك بينما على الإنسان أن يعلم بأن الله دقيق في حسابه، مُطلع على السرائر والضمائر، وما يختلج في نفس الإنسان.

السابعة: أهمية العمل الصالح.

ثم يؤكد الإمام عليه السلام على العبادة والتواضع، فيقول: (فإنّ أفضل العمل العبادة والتواضع)، لا بد للمؤمن أن يكون عابداً لله، لكنه إذا أراد أن يحفظ عبادته ومنجزاته ومكتسباته من أعمال الخير فما عليه إلّا أن يتواضع لله تعالى ولا يرى بأنّ ما قدمه من خير يمثل له سبباً عن الانزلاق في المهاوي لأنّ ذلك إنّما يكون بلطف منه تعالى ورحمة، وعلى المؤمن أن يلتفت إلى صيانة عباداته وما يقوم به من أعمال برة وخيرة بالتواضع للباري جلّ شأنه.

الثامنة: التعاطي مع المال.

قوله عليه السلام : (فلا تُضَيِّعْ مالك وتصلح مال غيرك).

يلفت الإمام عليه السلام انتباه الإنسان إلى ضرورة تأدية الحقوق الشرعية وما افترضه الله عليه تجاه المال، فلا يدخره ويخزّنه لغيره، إذ أنه محاسب على ذلك، باعتباره لم يصرفه فيما أمره الله تعالى به. المال الذي يدخره الإنسان دون أن يخضعه للموازين الشرعية وما افترضه الله عليه هو مالٌ مُعدٌّ للغير وليس لنفسه، لكنّ المال الذي يسير به على وفق الميزان الشرعي هو المال الذي ينتفع به.



التاسعة: القناعة بما لدى الإنسان.

قوله عليه السلام: (واقنع بما قسمه الله لك ولا تنظر إلا إلى ما عندك).

كثير من الناس يشرب عنقه إلى الأعلى فينظر إلى النعم التي لدى غيره دون أن يروض نفسه على القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى له فيقع في حزن ثقل على نفسه، وفي حالة نفسية كئيبة، حيث لا يستطيع الخلاص منه باعتباره يتمنى ما لدى الغير من وافر النعمة ومن الحظ الكبير دون أن يعلم بأن الله تعالى يُقسِمُ الأرزاق بين عباده لحكم ومصالح، ولعل ما قُتر عليه في الرزق أو ما أعطي إياه من النعمة هو الذي يُصلح حاله ويربطه بالله تعالى، يشرح الإمام عليه السلام هذه النقطة بالذات فيقول: (فإن من قنع شيع - أي من أَرْضَى نفسه بما قسمه الله له شيع - ومن لم يقنع لم يشيع)، ثم بين الإمام عليه السلام الاستفادة الرائعة والجميلة لهذه النعم التي يعطيها الله تعالى في دار الآخرة، فتزلفه إلى الله وترفع درجته، فقال عليه السلام: (وخذ حظك من آخرتك ولا تكن بطراً في الغنى)، هناك من يُعطى المال ويستغني لكنّ المال قد يجعله متغطراً يطر بنعمة الله تعالى بما يؤدي به إلى المعصية فإذا أعطي النعمة ينبغي أن يكون شاكراً حامداً، وإذا قُتر عليه في الرزق وأصبح فقيراً لا يجزع، قال الإمام عليه السلام: (ولا جزعاً في الفقر).



العاشرة: أسلوب التعامل مع الناس.

قوله عليه السلام: (ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك).

يعالج الإمام السلوك الأخلاقي الذي يمثل داءً وعياً لدى كثير من الناس إذ يعتبرون أنّ الغلظة تمثل رجولة بينما على الإنسان أن يعلم بأنه إذا تواضع وألان عريكته فإنّ الناس يقتربون منه ويمتزجون به ويرونه شفاءً في تعامله وإياهم.

هناك الكثير من النصائح قدّمها الإمام، وما أوردناه يمثل غيضاً من فيض من نمير علمه السعّي الذي كان يقدمه لعالمنا الإسلامي، ليس في عصره عليه السلام فقط أو في هذا العصر الذي نعيشه، وإنّا للأجيال عامة فهو عليه السلام إمام لكل المسلمين بل للإنسانية جمعاء.

البعد التربوي والأخلاقي في دعاء الإمام السجاد عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة) صدق الله العلي العظيم.

ارتبط الإمام زين العابدين عليه السلام ارتباطاً وثيقاً بأبيه الحسين عليه السلام في حياته، وبعد استشهاديه من خلال دوره الإعلامي الكبير في ترسيخ أهداف ومفاهيم الثورة الحسينية وممارسة إظهار مظلومية أبيه في نواح متعددة حتى كاد دوره الإعلامي في إظهار مفاهيم الثورة الحسينية أن يُنسى لدى بعض الناس الأدوار الأخرى التي قام بها الإمام عليه السلام، ومن المؤكد أنّ شخصيته عليه السلام لها من التأثير الكبير الذي يتطلب من الباحث الوقوف طويلاً لاستجلاء تلك الأدوار المتعددة، وباعتبارنا نعيش ذكرى وفاة إمامنا زين العابدين عليه السلام نستعرض ملامح من دوره في الناحية الاجتماعية الذي اقترن بدوره التربوي والأخلاقي معاً.

أهمية البعد التربوي والأخلاقي

أولى الإمام زين العابدين عليه السلام عناية كبيرة بتهذيب الأخلاق، وغرس مفاهيم وقيم الرسالة، والتركيز على المعاني والثواب الدينية، فبدأ بالأقربين إليه، ممن حضت الشريعة المقدسة على الاهتمام بهم، من أرحامه وجيرانه ومحبيه، خصوصاً الأولاد والبنات، أفلاذ الأكباد الذين يمثلون استمرار وجود الإنسان، وعليه أن يعتني بهم في مجالات متعددة، فألفت الإمام عليه السلام نظر الآباء والأمهات إلى أهمية العناية بهم، وهذا

دور دمج فيه الإمام البعد التربوي مع الأخلاقي بالإضافة إلى الاجتماعي، لأن الأولاد شريحة من المجتمع فإذا صلحت بعض شرائح المجتمع أثرت في بعضها الآخر.

دور الدعاء في توجيه الأمة

لم تُنحَ للإمام الفرصة أن يمارس دوراً إعلامياً كبيراً من خلال الخطب وتوجيه الشعراء والأدباء أبان تلك الفترة التي كان الإعلام ينحصر في خطب المساجد وفي المنتديات العامة أو توجيه شريحة من شرائح المجتمع للاهتمام بشريحة أخرى. وقد أومأنا في أحاديث عن شخصية الإمام السجاد عليه السلام في مناسبات متعددة، بأن الدور الذي أتيح له انحصر في مجالات محددة باعتبار أن الدولة حاصرت تحركه عليه السلام، مما أدى إلى توجيهه إلى أسلوب الدعاء.

الأبعاد المتعددة في أدعية الإمام عليه السلام

إن أدعية الإمام عليه السلام أصبحت زاد الناس فكراً وثقافة وأخلاقاً وتربيةً وارتباطاً بمفاهيم الدين وقيمه التي أراد عليه السلام أن تترسخ لدى المجتمع الإسلامي بأجمعه، ففي أحد أدعية الإمام عليه السلام وهو دعاؤه لأولاده، يقول: (اللهم ومن علي بقاء ولدي، وبإصلاحهم لي، وبإمتاعي بهم، إلهي أمدد لي في أعمارهم، وزد لي في آجالهم، ورب لي صغيرهم، وقو لي ضعيفهم، وأصح لي أبدانهم وأديانهم وأخلاقهم، وعافهم في أنفسهم وفي جوارحهم وفي كل ما عنيت به من أمرهم، وأدرر لي وعلى يدي أرزاقهم، واجعلهم أبراراً، أتقياء، بُصراء، سامعين، مطيعين لك ولأوليائك، محبين، مناصحين ولجميع أعدائك معاندين ومبغضين)^(١)، ما أروع هذا المقطع الذي جمع جوانب متعددة ينبغي أن يركز عليها الإنسان في الجانب التربوي والأخلاقي لأبنائه.

البعد التربوي للإمام عليه السلام تجاه الأولاد

بالرغم من العناية الفائقة التي يعتني بها الإنسان السوي من الناحية الطبيعية تجاه

(١) الصحيفة السجادية الكاملة للإمام زين العابدين عليه السلام: ص ١٣٣.



أبنائه إلا أن الإمام عليه السلام أولى عناية كبيرة في تربية الأولاد، وشحذ همهم، والعناية بهم في الثقافة والأخلاق والصحة، وركّز على أن المربي الناجح هو ذلك الإنسان الذي يستعين بالله في وصوله إلى مآربه، فيعتمد على الحق تعالى، وي بذل الجهد الكبير في إيصال أبنائه إلى الغاية. وهنا لا بد من إلفات النظر إلى الفهم المغلوط الذي يقع فيه حتى بعض المتدينين للحثيات التي تشير إليها مفاهيم الإسلام، فيتصوّر بأن الهداية وطول العمر من الله دون بذل للأسباب الكافية والعناية الكبيرة فيما ينبغي أن يحققه لأولاده، لذا، اهتم الإمام عليه السلام بذلك، (اللهم ومّن عليّ بقاء ولدي، وبإصلاحهم لي، وبإمتاعي بهم)^(١)، الأولاد يُحقّقون اللذة الطبيعية للإنسان، فيستمتع بهم، ويرى وجوده فيهم، وقد أشار إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى وصاياه لابنه الحسن عليه السلام، (وجدتُك بَعْضي بل وجدتُك كلي)^(٢)، فالولد يمثل وجود الإنسان، (وإمتاعي بهم، إلهي أمدد لي في أعمارهم)^(٣)، اعتناء بأن يكون الأولاد على جانب من الثقافة بصحتهم وبارتباطهم بالحق تعالى بحيث يتاح لهم أن يعيشوا العمر المديد.

ثم أشار عليه السلام إلى جهة أخرى، (وزد لي في آجالهم، وربّ لي صغيرهم)^(٤)، ما أروع كلمات إمامنا عليه السلام عندما يلتجئ إلى الله تعالى في أن ترافقه العناية بتربية الصغار، لأن هذه التربية ليست من السهولة بل تحتاج إلى الجهد الكبير.

الاعتناء بذوي الحاجة الخاصة

وقوله عليه السلام : (ورب لي صغيرهم وقولي ضعيفهم)^(٥)، هناك بعض الأولاد يحتاج إلى عناية خاصة نتيجة لبعض الأمراض التي يصاب بها، وعلى الآباء أن لا يدخروا وسعاً في الاعتناء بهذه الشريحة من الأولاد، إذ أنهم يحتاجون إلى عناية طبيعية وعناية خاصة، لوجود ضعف يحتاجون معه إلى إرادة قوية ولا يتاح أن تقوى إرادتهم إلا

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٩٩.

(٣) الصحيفة السجادية الكاملة للإمام زين العابدين عليه السلام : ص ١٣٣.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

بالاستناد إلى الأب والأم معاً، باعتبارهما الركن الوثيق الذي من خلاله تكون إرادة الولد صامدة في وصوله إلى هدفه.

أهمية الصحة في بعدها الشمولي

قوله ﷺ: (وقو لي ضعيفهم، وأصح لي أبدانهم وأديانهم وأخلاقهم)^(١)، قرّن الإمام ﷺ بين القوة والصحة في البدن والدين والتعامل الطبيعي بمحاسن ومكارم الأخلاق، ثم قال ﷺ: (وعافهم في أنفسهم وفي جوارحهم)^(٢)، دعى ﷺ بدعاء عام ثم بدأ يفصل ما أجمله، فذكر أهمية الصحة النفسية للأولاد، ليمتلئوا إرادة وقوة ومثابرة في نواحي الحياة المختلفة، ويحققوا شخصياتهم. ثم قال ﷺ: (وفي كل ما عنيت به من أمرهم)^(٣)، الوالد في الأعم الأغلب يحتاج إلى بر وعطف ولده، والإمام ﷺ يؤكد هنا على إرادته السعة في الرزق بواسطة الأولاد، فقد أتيح للأب أن يربيهم التربية الصالحة ويبدل الجهد الكبير في إيصالهم إلى تلك المكنة والقوة التي يستطيعون بها أن يحققوا المآرب له، ثم أكد ﷺ على أمر آخر، (واجعلهم أبراراً أتقياء، بُصراء سامعين)^(٤)، هناك شريحة من الناس تولي اهتماماً بالصحة البدنية والنفسية، وتعلم أولادها على الكثير من الحثيات، لكنها تنسى الجنبه الأخلاقية مع أنها من الأهمية بمكان، وقد أشار الإمام ﷺ في كلامه الآنف إلى أن التربية لا بد أن تترافق مع التقوى والارتباط بالحق تعالى، وهنا جنبه في غاية الأهمية وهي أن يكون الولد سائراً مع أولياء الله معادياً لأعدائه، فيتعرف على سلوك وأخلاق رفاق وأصدقاء ولده، وتعامله معهم. وهذه المفاهيم التي غرسها الإمام ﷺ تشكل قواعد في التربية والسلوك على الآباء والأمهات أن يعتنوا بها.



(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

أهمية الجار للإنسان

أولى الإمام عليه السلام أهمية بالجار، وما يمثله للمؤمن، إذ أن الإنسان لا يمكن أن يعيش وحده، فهو اجتماعي بطبعه، ومن النواحي الاجتماعية أنه يسكن بالقرب من أناس، ولا بد أن يتعامل وإياهم على وفق قواعد وسلوكيات مرتضاة من لدن الشرع والإنسانية، ويتوجه الإمام عليه السلام إلى الحق تبارك وتعالى ليبين بعض ما ينبغي للمسلم أن يوليه من العناية.

حقوق إسلامية تجاه أفراد المجتمع

قال الإمام عليه السلام : (اللهم صل على محمد وآله، وتولني في جيراني وموالي العارفين لحقنا والمنابذين لأعدائنا بأفضل ولايتك)^(١) ركز عليه السلام هنا على حقوق الآخرين من خلال ذكر ثلاث طوائف اجتماعية:

الأولى: الموالى، وهذا المفهوم يُقصد به العبيد والإماء، اللذان لا وجود لهما الآن من الناحية الاجتماعية، وكان الإمام عليه السلام من الذين أسهموا في العتق للقضاء على هذه الظاهرة، وإن بقيت طبقة من الناس يمثلون الرق من ناحية أخرى نتيجة لضعفهم.

الثانية: الجيران، وهم ممن يسكنون قريباً من الإنسان، ولهم حقوق وإن اختلفوا في المنحى العقدي، وهذا النحو من الاهتمام بهم كان اتجاهاً ومسلماً في منهج أهل البيت عليه السلام.

الثالثة: العارفون بحق أهل البيت عليه السلام، وهؤلاء لهم مزيد من العناية والاهتمام، قال إمامنا الحسين عليه السلام : (لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة)^(٢).

عناية الإمام عليه السلام بأفراد المجتمع

ركز الإمام عليه السلام على العناية بتلك الطوائف الثلاث في أمور متعددة، (ووفقهم

(١) الصحيفة السجادية الكاملة للإمام زين العابدين عليه السلام : ص ١٣٩.

(٢) أعيان الشيعة للأميني: ج ١، ص ٥٨٠.



لإقامة سننك، والأخذ بمحاسن أدبك في إرفاق ضعيفهم، وسد خللتهم، وعيادة مريضهم، وهداية مسترشدهم، ومناصحة مستشيرهم، وتعهد قادمهم، وكتمان أسرارهم^(١)، ما أجمل هذا التأكيد في البعد الاجتماعي، وإقامة السنن وأداء الفرائض والعناية بالدين، معلم واضح في جنبتي العناية بالأولاد والشريحة الاجتماعية العامة التي تشكل الجيرة فئة منها. كما أنّ هناك أهمية لأمر آخر وهو التكافل الاجتماعي، (والأخذ بمحاسن أدبك في إرفاق ضعيفهم وسد خللتهم)، وذلك من خلال الإرفاق بالضعفاء الذين يحتاجون إلى المساعدة في أكثر من منحى، لعل الجنبه الاقتصادية هي الواضحة، لكن هناك جوانب أخرى بحاجة إلى العناية، لأنّ الضعيف ليس في الناحية الاقتصادية فحسب، بل قد يكون ضعيفاً علمياً أو ثقافياً، ويؤكد عليه السلام على كل المناحي كما يظهر في بقية فقرات الدعاء، (وسد خللتهم وعيادة مريضهم وهداية مسترشدهم ومناصحة مستشيرهم وتعهد قادمهم وكتمان أسرارهم)^(٢)، ويترسل الإمام عليه السلام في بيان ما ينبغي أن يعتني به الجار تجاه جاره من الاهتمام الواسع بحيثيات كثيرة.



(١) الصحيفة السجادية الكاملة للإمام زين العابدين عليه السلام : ص ١٣٩.

(٢) نفس المصدر السابق.

الاستقامة على الحق طريق النجاة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة) صدق الله العلي العظيم.

هذه الآية المباركة من غرر آيات القرآن التي تبين بأن الاستقامة على الحق والوصول إلى الرشد لا يتأتى إلاّ بنبذ الباطل وإتباع الحق؛ فاتّباع الحق يقترن بنبذ الباطل وإدانتته، وبهذا يتضح للإنسان معنى السير مع الحق والإتباع له.

أهمية اتّباع الحق في الإسلام

أكدت الشريعة المقدسة على هذه الجنبّة في أكثر من مورد، فالدخول إلى الإسلام يتحقق بالشهادتين؛ لاشتغالهما على نفي الباطل وإثبات الحق، (لا إله إلاّ الله)، وكلمة التوحيد أفضل كلمة لمن يُريد أن يذكر الله تعالى، ومن آثارها الاستقامة إذا أدرك الإنسان المغزى العميق لها، وأراد أن يسير في طرق الرشد وسبل الهداية فلا بد أن ينبذ الباطل ويكون مع الحق ويتبع من يهدي إليه، وما لم يكن كذلك فإنّ المفاهيم ستختلط عليه، ولن يستطيع التعرف على الهداية بمعناها السليم.

تقوى الله طريق الوصول إلى الحق

لقد أكد الإسلام على معانٍ في غاية الأهمية تصب في المسار، الذي يُوصل إلى الحق ويجنب الباطل، من أهمها التزكية للنفس، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا^(٢) (الشمس)، فهي توصل إلى تقوى الله وتورث المعنى الحقيقي للاستقامة والسير في طريق الهداية؛ إذ أن معنى التقوى أن يجتنب الإنسان الباطل ويقي نفسه من السخط وما لم يتعرف على المعنى الدقيق للتقوى فلن يستطيع أن يقي نفسه المخاطر التي تطرأ عليه نتيجة الابتلاءات في هذه الحياة الدنيا، لباس التقوى هو درع حصينة يقي الإنسان من كل خطر، ليكون في أمن وأمان هذا اللباس يُمثل حصناً واقياً، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(٣) (الأعراف)، أبان إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام هذا المعنى الدقيق في كلمة من كلماته القصار فوصف التقوى بأنها صيانة للإنسان عن الانزلاق في مهاوي الرذيلة فلا يتبع طرق الفساد ويكون مع الله تعالى، قال عليه السلام: (ألا فصونوها وتصونوا بها)^(١)، ومعنى (فصونوها)، أي، اجعلوا جُلَّ اهتمامكم في كون التقوى لكم ومعكم. والمقصود من قوله: (تصونوا بها)، اجعلوها صائنة لكم عن الانزلاق في طرق الضلال فلن يكون الإنسان عادلاً مع نفسه وأهله ومن حوله من الأقربين إليه، وكذلك مع المجتمع الإسلامي والإنساني إلا بتقوى الله فما لم يكن من الأتقياء لن يعدل مع نفسه والآخرين لأن الأطماع ستحرفه والمصالح ستجذبه، ولعل في كلام إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام ما يبين هذا المعنى للذين لا يتبعون تقوى الله، فيظلمون أنفسهم بظلمهم الآخرين، ويعتدون عليهم بالاستيلاء على حقوقهم دون وازع أو رادع من تقوى الله، ومن غير نظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في عدالته مع الناس، قال عليه السلام: (وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يُسرِع إلى البلى قفولها- أي تبلى بسرعة - ويطول في الثرى حلولها)^(٢)، هذه كلمة جميلة، ومن



(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٢ ص ١٣٥.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٢ ص ٢١٧.

يتصور عن جهل بأن ظلمه للآخرين وتعدّيه على حقوقهم سوف يُكمله، فلن يعرف بأن الظلم والانتهاك للحقوق ظلم لنفسه، (كيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفوها)^(١)، النفس ستجتاحتها الأمراض والحوادث المتعددة في هذه الحياة الدنيا مما يؤدي بها إلى الانتقال إلى عالم آخر، فتودع اللحد.

ثم يبين الإمام عليه السلام كيف يطول تحت الأرض مكث الإنسان الذي عليه أن يراعي تقوى الله تعالى في تعامله مع نفسه ومجتمعه ومع الآخرين في الكلام والفعل، إذ أن الكثير من الناس يظلم الآخرين بكلماته، والبعض الآخر يظلمهم بأفعاله الصادرة منه.

واقع العدل وإدراك عبودية الله تعالى

إن الوصول إلى إدراك العبودية الحقة لله لا يتأتى إلا من خلال الفهم العميق الذي أبانه الله تعالى وأوضحه إمامنا أمير المؤمنين في خطبه وكلمه القصار فتقوى الله تهدي الإنسان إلى العدالة وتجعله تائفاً إلى الحرية متخلصاً من الانحراف في كل سلوك كبير أو صغير ليعيش مع الناس باطمئنان سالكاً في حياته جادة الصواب مراعيّاً ما أوجبه الله تعالى عليه، ومن خلال التقوى يستطيع أن يصدع بالحق مع أقرب الناس إليه، ولو كان على خلاف مصلحته، ويذود عنه حتى أمام أعتا القوى الظالمة والمتجبرة.

عدم قبول الحق:

بيّن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مسألة الصدع بالحق بإيضاح يمثل نبراساً يهتدى به في الظلم الحالكة، قال عليه السلام: (فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه)^(٢)، فمن يستثقل الحق لكونه غير مطبق له أو غير متبع إياه أو غير قائل به، لن يستطيع أن يقبل الحق في أفعاله.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٢ ص ٢٠١.

الانحراف عن الحق سبب ظلم الآخرين

أئمة أهل البيت عليهم السلام عندما يشرحون هذا المفهوم يريدون للساسة والمصلحين الاجتماعيين وذوي الرتب في المجتمع أن يتنبهوا لذلك فالرئيس بالنسبة لمرؤوسه عليه أن يعلم أهمية العدالة، وكذا الأب في بيته، والأم تجاه أبنائها وبناتها، والمسؤول في أي دائرة من الدوائر الحكومية أو الاجتماعية، لابد لهؤلاء أن يتعرفوا على أهمية العدل ولا يتأتى لهم ذلك إلا بتقوى الله، التي تمثل وقاية وصيانة لهم، كي لا ينزلقوا في طرق الهاوية والضلال، التي لن يستطيعوا أن يستنقذوا أنفسهم منها، وأبان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الإنسان بإمكانه أن يجعل عليه رُقباء من نفسه أولاً ومن المجتمع الصالح أو الفئة الصالحة التي تدعوه إلى اتباع الحق والأخذ به، قال عليه السلام: (فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل)^(١)، أي أنّ على الإنسان أن يبين الحق في كل كلمة يتحدث بها مع الآخرين ويشير إلى أهمية اتباع العدل، إلا أن من المؤسف أن نجد بعض من يتسلم موقع المسؤولية أو تعلق رتبته في سلم الوظيفة ينسى هذه المسألة ويتصور أنه يستطيع فعل ما يخرقه له الشيطان أو تسوله له نفسه دون وازع من الدين، ودون اتباع للحق، ولذا، نرى الكثير من الناس يتعدى حتى على الأقربين له من أبنائه وأزواجه، بل، ويتعدى على مصالح الناس التي هي أمانة في عنقه عندما يكون في موقع المسؤولية، ويعود السبب في ذلك إلى عدم اتباع العدل والأخذ بالتقوى، وهذا ما أبانه الذكر الحكيم، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ كُونُوا

(المائدة: ٨)، من تمسك بالهدي الإلهي واتبع تقوى الله تعالى استطاع أن يصل إلى ما يريده الإسلام، بل إلى ما تريده الشرائع السماوية والقوانين التي تصون حقوق الإنسان، ولا يمكن أن تصان الحقوق لفئة من الناس مقابل ظلم الآخرين، كما لا يمكن أن يُحافظ على حقوق بعض المجتمع دون الحفاظ على حقوق الآخرين؛



(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٢ ص ٢٠١.

لأنّ الظلم لفئة من المجتمع يجر إلى ظلم الفئة الأخرى والتعدي على حقوق بعض الناس يجر إلى التعدي على حقوق البعض الآخر.

العدل في أسسه وآثاره

إنّ أهمية العدل منبثقة من أسس مفهومة قائمة على تقوى الله، وليس على التشدد بالعدالة أو التحدث عن الحرية دون أن تنبثق من أسس نفسية، بل من أسس كنهها ذات الإنسان الذي فهم العدل الإلهي وعرف كيف يزكي نفسه في تعامله معها وفي تعامله مع الأقربين إليه ومع المجتمع الإنساني بأسره، فإنه لن يبقى في مساره الاجتماعي سائراً على صراط العدالة الإنسانية ومتبعاً لقوانين الحرية، هذه معادلة في غاية الصعوبة والكثير من الناس لا يتوجه إليها، ولذلك، ورد في بعض الآثار التنبيه على هذا الأمر، (الحكم يدوم مع العدل، ولا يدوم حكم مع دين وجور)، يمكن للبعض أن يتشدد بالدين ولا يطبق العدل، فلا يدوم حكمه. بيد أنّ الإنسان إذا كان من الذين لا يؤمنون بدين سماوي غير أنه يحاول جاداً أن يقترب من مفهوم العدل في تطبيقه له سيدوم سلطانه ويستمر حكمه، والحكم لا يختص بإدارة الدولة، بل، يشمل الأعم من ذلك، فمن له رتبة من الرتب الكبيرة في مسؤوليته، عليه مراعاة العدل ليدوم بقاءه في رتبته، وإن أراد أن تكون عدالته قائمة على أسس لا بد من قيامها على تقوى الله واتباع الحق ونبذ الباطل.



الرسول مُعلِّم الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت) صدق الله العلي العظيم.

النبي ﷺ في دروس الاستقامة

الرسول ﷺ المعلم الأول لمن يريد الاستقامة في الحياة الإنسانية، هذه الاستقامة التي يعلمنا إياها ركيزتها الاستقامة على المبدأ، والحق تعالى أمر النبي ﷺ بالاستقامة مع أمته؛ والقرآن يوجّه الخطاب للرسول آمراً له بالاستقامة، وهو ﷺ يعلم الأمة الاستقامة والثبات على المبدأ دون ارتداد أو ميل وانحراف.

الهدف الواضح يصنع النجاح

كل إنسان وكل أمة من الأمم لها أهداف تضعها نصب عينيها، هذه الأهداف يراد أن يُوصل إليها على المستوى الشخصي للفرد و على مستوى المجتمع كأمة، تصبو إلى تحقيق ما وُضع من أهداف إلا أننا نلحظ أنّ الفرد قد ييؤء بالفشل في تحقيق أهدافه، وكذلك الأمة، فهناك أُمم ترتد على أعقابها دون أن تصل إلى أهدافها، ويعود السبب

إلى أن الفرد والأمة لم يأخذا بدرس الاستقامة الذي علّمه الرسول ﷺ لأمته، وركّز عليه القرآن ملفتاً الانتباه إليه في أكثر من موضع.

ماذا تعني الاستقامة ؟

الاستقامة هي السير تجاه الهدف على صراطٍ مستقيم دون ميلٍ عن الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق الهدف، وهي سيرٌ في وسط الجادة بمعنى أن يكون الإنسان عند تحقيق أهدافه متصفاً بالمرونة والوسطية الموصلتين إلى تحقيق الهدف؛ فلا شدة ولا عنف في تحقيق أهدافه، هذه الاستقامة التي أمر الله بالأخذ بها قال النبي ﷺ عنها: (شيتني سورة هود)^(١)، لما ذُكر في السورة من الأمر بالاستقامة له ﷺ مع أمته الأمر لا يخصه وحده، فهو ﷺ في منتهى الاستقامة إلا أن الأمة بحاجة للاستقامة.

حقيقة توجيه الاستقامة للنبي

الرسول ﷺ مأمور بالسعي نحو استقامة الأمة كمجتمع، وهي من الأمور الصعبة والمؤرقة للقائد إذ كيف يتاح له أن يجعل المجتمع المقود يصل إلى شاطئ النجاة ويستقيم في السير على الصراط، هذه الصعوبة أشار إليها النبي ﷺ بقوله: (شيتني سورة هود)^(٢)، إذ أن الناس طباعهم متعددة وأمزجتهم مختلفة؛ يمكن أن تستقيم ثلثة منهم أو أمة برهة زمنية محدودة، لكنها سرعان ما تتراجع عن أهدافها إذا تعرضت للابتلاء والامتحان، وعلى من يريد الإصلاح أن يتحمل أقصى الألم في القضاء على الظواهر السيئة، ويتطلب ذلك جهداً كبيراً ومعاونة طويلة وبذل الطاقات المادية والمعنوية حتى يستطيع أن يصل إلى مراده.

(١) هامش عوالى اللآلى لابن أبي جمهور الأحسائي: ج ١، ص ١٨٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

عوائق في الوصول إلى الهدف

نلاحظ الكثير من الناس على المستوى الفردي يريد أن يصبح عالماً أو كاتباً أو شخصية ذات ثقل اقتصادي، إلا أنه لن يصل إلى ذلك المستوى بين عشية وضحاها وفي مدة محدودة؛ بل يحتاج إلى جهودٍ مضنية وتخطي عقبات كأداء، بيد أن الكثير من الناس مجرد أن يواجه عقبة يرتد إلى الوراء وينسى أو يتناسى الهدف الذي وضعه نصب عينيه لهذا لا يستطيع الوصول إلى ما أراد.

عقبات واجهها النبي ﷺ

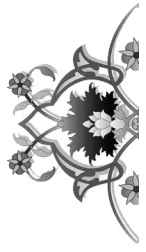
واجه النبي ﷺ عقبات كثيرة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ومُورسَ تجاه شخصيته مجموعة من الضغوط ووجّه ﷺ بالإغراءات المتعددة من الناحية المادية وغيرها، وقد يتعرض إلى ذلك الكثير فيكبو، نوجز ما تعرض له ﷺ في الآتي:

الأول: الإيذاء الشخصي له ﷺ.

أوذى النبي ﷺ من الناحية الشخصية، بإيذاء لا يتحمله في العادة حتى أصحاب الأهداف، ولا يمكنهم الصبر عليه، فالكلمات البسيطة تؤثر عليهم كيف بالإيذاء الكبير الذي أوذى به النبي ﷺ، إننا نجد أنفسنا تتألم من كلمة بسيطة قد لا تكون جارحة، تهزنا وتجعلنا نتراجع عن أهدافنا إلا أن النبي ﷺ واجه بصبر كبير الكلمات الجارحة والمقذعة، والأفعال المشينة كاللقاء الروث والأوساخ عليه أو وضع القاذورات في طريقه، وفي بعض الأحيان يؤذى بالضرب، وهذا لا يتحمل من الشخصيات الاجتماعية، بل يؤدي بها إلى التراجع عن الأهداف.

الثاني: أسلوب التحبيط والإغراء.

الإغراء والتحبيط مؤثران سلباً، وهما يجعلان الإنسان يتعد عن تحقيق أهدافه، ويتراجع عن الغاية التي ينشدها، فالكلمات المحبطة، التي تُقلل من شأن الأهداف



الكبيرة التي يطمح إليها الإنسان تُحدثُ أثراً سيئاً في نفس السامع، بيد أنّ النبي ﷺ حقق أهدافه بالرغم مما قيل له من تشييطٍ، وعُرضٍ عليه من إغراءٍ، فقد قيل له: نعطيك أجمل نساء العرب ونمنحك من الأموال ما تريد، ونحقق لك ما تطمح إليه من الناحية الاقتصادية، بل أكثر من ذلك، نُصيرك ملكاً علينا في الجزيرة العربية، ولم يتراجع ﷺ عن أهدافه بهذه الإغراءات، بل ازداد ثباتاً وبصيرةً وسار بالرغم من كل ذلك، وكان يجابه الإغراء والإيذاء بصمود وصبرٍ شديدين إلى أن تحقق له ما أراد.

مواجهة الإيذاء بين النبي ﷺ والأنبياء

وقد اختزل ﷺ هذه المعادلة التي ذكرناها من عذابٍ بأنباطٍ متعددة وأبان مقدار صبره واستقامته بقوله: (ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت)^(١)، فإبراهيم عليه السلام تعرض للعذاب فألقي في النار، وعُذِبَ موسى عليه السلام على النحو الذي قصه القرآن الكريم، وعيسى عليه السلام أبانت طائفة من الروايات ما أُوذي به، بيد أنّ النبي ﷺ بقوله: (ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت)^(٢)، أوضح أنّ جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام لم يحتملوا ما تحمله ﷺ، وذلك لثباته واستقامته ورسوخه على المبدأ إلى أن أوصل لنا الرسالة بيضاء نقية نفعي بظلمها ونجني الخيرات منها.



نتائج ثبات النبي ﷺ

إنه ﷺ لو لم يكن بذلك الثبات وتلك الاستقامة لكان الإسلام أثراً بعد عين، وكان قصة من القصص التي يقصها علينا التاريخ الإنساني ليس إلا، لكنه ﷺ بصبره وجهاده وباستقامته وثباته على المبدأ رسّخ معالم الدين وزرع هذه المفاهيم في نفوس أمته، ولم يكن همه الاستقامة لبعض أفراد الأمة فحسب، بل أراد الاستقامة لها كمجتمع في كل فرد منها.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣٩، ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

طريق الوصول إلى الهدف

إذا أرادت الأمة بشرائعها الخير لا بد أن تضع نصب عينيها الأهداف وتسعى إلى تحقيقها، وتصمد صابرةً على الأذى.

إِنَّ تَحْمُلَ الْإِنْسَانَ الْمَشَقَّةَ وَالْعَذَابَ لِلْوَصُولِ إِلَى الْغَايَةِ سُنَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ وَكُونِيَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ (فصلت)، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ ﴿البقرة﴾، فإذا رافقك التوفيق الإلهي الذي لن يتأتى إلا مع الصمود والاستقامة والثبات على المبدأ - هذه معادلة - يمكن أن تصل إلى أهدافك على المستوى الشخصي ويمكن للأمة أن تصل إلى أهدافها، ولن تحصل الأمة على الظفر والنصر ولن يصل الفرد إلى أهدافه التي وضعها دون تحمل التعب والمشقة والاستقامة على المبدأ قال الإمام علي عليه السلام: (من طلب شيئاً ناله أو بعضه) ^(١)، فمن يريد أن يحقق شيئاً ويوجه طاقاته نحوه ويصمد في سبيل الوصول له لا بد أن يصل له أو يدرك أكثر ما أراد أن يحصل عليه.

(١) نهج البلاغة خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٩٢.

الأمانة في حياة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

قالت سيدتنا الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام: (يا بن عم، ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني؟)، فقال عليه السلام: (معاذ الله، أنت أعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشدُّ خوفًا من الله أن أوبخك بمخالفتي)^(١).

أهمية الأمانة في الروايات

من المفاهيم التي لها صلة وثيقة بحياة الإنسان العامة الأمانة والخيانة، وفيها درس عملي من حياة الصديقة الزهراء عليها السلام، وقد أكد عليهما في روايات النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، قال إمامنا زين العابدين عليه السلام: (عليكم بأداء الأمانة، فلو أن قاتل الحسين بن علي عليه السلام ائتمني على السيف الذي قتله به لأديته إليه)^(٢)، وقال الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لأحد أصحابه: (من ائتمنك بأمانة فأدها إليه، ومن خانك فلا تخنه)^(٣).

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٣، ص ١٩١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢٣، ص ٢٧٨.

(٣) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج ٣، ص ١٨٦.

أقسام الأمانة

هناك أقسام عدة للأمانة أهمها ثلاثة:

الأول: الأمانة على المال، كالوديعة الشائعة بين الناس، يعطي شخص لآخر مالاً ليبقى عنده أمانة، يسترجعها منه بعد فترة زمنية.

الثاني: الأمانة على العرض من قبل المرأة تجاه الأسرة والزوج، فهي مؤتمنة على عرضها.

الثالث: الأمانة على أسرار الناس، قال الإمام الكاظم عليه السلام: (المجالس بالأمانات)^(١).

حالات جواز إفشاء السر

فإذا جلس أحد بين أناس يتحدثون لا يجوز له أن يفشي أسرار المجلس إلا في حالات ثلاث:

الأولى: أن يسمع القوم يتناجون ويُسِر بعضهم للبعض الآخر بالخيانة تجاه الآخرين كالاتفاق على سرقة.

الثاني: أن يُسِرَّ بعضهم إلى بعض الخيانة في دم.

الثالث: الخيانة في العرض.

في هذه الحالات الثلاث أجاز الفقهاء أن يُفشي سر المجلس، وفي الحقيقة إنَّ هذا ليس سراً، وإنما هو منكر يجب دفعه، أما في غير الحالات الثلاث فلا يجوز إفشاء أسرار المجلس أبداً، إذ الأمانة واجبة على المال والعرض والدم، وكذلك أسرار الناس الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية لا يجوز أن نُفشيها إذا كنا قد ائتمنا عليها، لأنَّ ذلك يسبب إرباكاً لحياتهم المستقرة السائرة في طريقها الصحيح، لذا توعد الله

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ج ٢ ص ٨٠.

تعالى على خيانة الأمانة بأقسامها الثلاثة، أي، خيانة الأمانة في المال والعرض والناحية الاجتماعية التي تظهر أسرار الناس غير المطلع عليها إلا من أصحاب الشأن كالقضاة والوجهاء والشخصيات المرموقة، فهؤلاء أمناء على أسرار الناس ولا يجوز لهم أن يفشوا الأسرار لأنّ في إفشائها خيانة تُعد من كبائر الذنوب التي توعده الله تعالى عليها بالعذاب.

جزاء خيانة الأمانة

لقد أكّد القرآن الكريم والروايات على الحياة الأخروية، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ (الرعد)، ومن يفشي سراً ويخون الأمانة فهو وإن شعر باللذة بفعله إلا أنه سيعذب في عالم الآخرة بعذاب شديد، قد يبقيه في جهنم مئات السنين لإفشائه السر، والإنسان لا يحتمل عذاب الدنيا فكيف يطيق البقاء في عذاب الآخرة، الذي قال عنه القرآن، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (الأعلى)، وعبر عنه، ﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (الحج: ٢١)، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦)، ومن هذا يتبين لنا أهمية عالم الآخرة إذ أنه العالم الذي سنؤول إليه، ﴿وَلَيْتَ الذَّارِ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت)، إنّ الإنسان لن يلبث في الدنيا إلا فترة زمنية محدودة، ومصيره عالم الآخرة، فهي الحياة الخالدة التي يطمح إليها.

التواني في أداء الأمانة

إنّ خيانة الأمانة من كبائر الذنوب التي توعده الله عليها بجهنم، غير أنّ بعض الناس يتوانى في أدائها خصوصاً في الودائع المالية، فإذا أعطي أمانة أو قرضاً ماطل في إرجاعه، وسوّف، وذلك غير جائز شرعاً، لأنّ الأمانة أو القرض وإن كان قليلاً يجب إرجاعه وسداده، وعدم السداد خيانة للأمانة وهو ذنب من الذنوب الكبيرة،

ومن المؤسف ما نراه من بعض المسلمين حتى ممن ينتمي لمذهب أهل البيت عليه السلام عقدياً من خيانة للأمانة، ونؤكد هنا على أهميتها لمن يعمل في قطاع البنوك والمؤسسات الكبيرة، إذ أنّ هؤلاء مؤتمنون على أموال الناس، ولا بد أن يحذروا، لكون الأموال أمانة في أعناقهم، والاختلاس حتى لقليل المال خيانة، وينال المختلس عاقبة وخيمة، ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ١٦٢).

خيانة الأمانة في الحرب

من الآيات الواردة في التنديد بخيانة الأمانة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران)، تتحدث الآية عن الغلول ومعناه خيانة الجنود في المعركة، عندما ينتصرون ويستولون على أموال العدو، فلا يسوغ لهم التصرف في الأموال دون إذن من القائد، نعم هناك قسمة عامة، للفارس سهمان وللراجل سهم، غير أنّ بعض الجنود يأخذ كل ما يستولي عليه من المعركة دون الاكتفاء بنصيبه المعين، الغلول خيانة للأمانة وأخذ لحقوق الآخرين دون مسوغ شرعي. والله تعالى أمر نبيه ﷺ بقسمة المال والتصرف فيه طبقاً للموازين الشرعية، والأنبياء لا يعتدون على قوانين الله، بل يطبقونها دقة وتفصيلاً لكونهم قد انصهروا في بوتقة عبودية الله تعالى.

إنّ من يخرج إلى سوح الحرب لا ينبغي أن يتعدى حدود الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، قال النبي ﷺ: (ألا، لا يُغْلَنَ أَحَدٌ بَعِيراً فَيَأْتِي بِهِ عَلَى ظَهْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ رِغَاءٌ)^(١)، لا بد للإنسان أن يتنبه إلى المعنى الدقيق لهذا المفهوم الإسلامي وأن يطبقه على نفسه قبل تطبيقه على الآخرين، إنّ أولياء الله من أصحاب المقامات العظيمة عند الحق تعالى يؤكدون بنحو عملي على أهمية الأمانة.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧، ص ٦٨.

الأمانة في جيش الإمام الحسين عليه السلام

عندما خرج الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء التفت في الطريق إلى من معه وأخبرهم بأن من كان مديناً فليرجع ولا يصحبنا إلى كربلاء، فرجع جمع ممن صحب الإمام عليه السلام، وقد ذكر ذلك المؤرخون.

قصة وعبرة للمؤمن

مما يناسب المقام، وهو بيان الأثر الأخروي الكبير لترك أداء الدين، قصة طريفة لأحد علماء النجف - السيد محمود المرعشي ٦- والد المرجع المعروف في قم المقدسة، السيد المرعشي النجفي، كانت الظروف المادية لهذا السيد صعبة جداً، يضطر بين فترة وأخرى إلى الاقتراض من صاحب محل صغير لبيع المواد الغذائية، ويأخذ منه بعض احتياجاته، وكان صاحب المحل يسجل ما يأخذه في سجل المديونيات، فنسي السيد أن يسدد بعض الديون إلى أن مات (يرحمه الله)، فجاء في عالم الرؤيا إلى ولده السيد المرعشي، وقال له: يا ولدي عليّ دين لصاحب المحل مسجل في دفاتره القديمة ولا بد من تسديده، لأنني لا أستطيع الوصول إلى المقامات التي أعدها الله تعالى للصالحين من عباده إلا بعد سداذه، والقصة منبهة لأهمية الأمانة التي أكدت عليها الروايات، واتضح عناية الصديقة الزهراء عليها السلام بها في آخر حياتها، قالت عليها السلام: (يا بن عم، ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني؟) فقال عليها السلام: معاذ الله أنت أعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله أن أوبخك بمخالفتي^(١)، إنه درس عملي في أهمية الأمانة، من التزم به صدق عليه قول أمير المؤمنين في جوابه عليه السلام لها عليها السلام، فهي عليها السلام أبر وأتقى من أن يوبخها أحد على خيانة الأمانة.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٣، ص ١٩١.

الإنسان والأمانة الإلهية

الأمانة كما أشرنا مقام عظيم أبانه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب، ٧٢)، الإنسان ظلوم بظلمه لنفسه، وجهول بجهله عالم الغيب في الآخرة.



الأخلاق الاجتماعية وحصانة المجتمع

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران) صدق الله العلي العظيم .

هدف الأنبياء والرسل ﷺ

تتمحور برامج الأنبياء والرسل ﷺ في مجموعة من الأهداف، فقد كان تركيزهم ﷺ عبر التوكيد المتواصل على الجانب الروحاني للإنسان لكون الوجود الحقيقي للإنسان بروحه، والاعتناء بالجسد لكونه مركبة للروح تتمكن بواسطته أن تصل إلى مقامات كبيرة، ولهذا اختلفت برامج الأنبياء والرسل ﷺ عن برامج من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، إذ أنّ البرامج المعاكسة لما يطرحه الأنبياء والرسل تؤكد على جانب اللذة وتحقيق ما يحتاجه الجسد فحسب.

الجانب الأخلاقي في حياة الأنبياء

أبان الأنبياء والرسل ﷺ بأنه لا ينبغي للإنسان أن يهمل حاجات جسده، بيد أنّ عليه أن يركز جُلَّ اهتمامه على متطلبات روحه، ومن أهمها الجانب الأخلاقي المتقوم بالجانب العقدي، فمن لا يمتلك عقيدة صحيحة لا يستطيع أن يُثبّت نفسه

على أسس رصينة، إنّ تركيز الأنبياء والرسل على الجانب العقدي لكونه أساس الجانب الأخلاقي، وقد أكدوا ﷺ على الجانب الأخلاقي في محورين:

الأول: الأخلاق الذاتية.

وهي التي ترجع إلى شخص الإنسان كفرد - الأخلاق الفردية - مثل لا بدية الانتهاء عن الحسد، وبغض الآخرين، والظن السيئ بهم ومجانبة الكذب، وما إلى ذلك من الأمور، التي ترجع إلى الأخلاق الفردية، غير أنها تتقاطع مع الأخلاق الاجتماعية .

الثاني: الأخلاق الاجتماعية.

وهي التي يعود نفعها إلى المجتمع ككل، وترجع إلى الفرد باعتباره كَبَنَةً يتشكل منها المجتمع، ويُعبر عن هذا الجانب في بعض الروايات بمكارم الأخلاق، إذ أنّ مكارم الأخلاق تُطلق ويراد بها ثلاثة معاني:



الأول: محاسن الأخلاق - مقابلة الإحسان بالإحسان - فإذا أحسن أحد إليك تقابله بإحسان مماثل .

الثاني: الإحسان إلى من ظلمك ووصل من قطعك وإعطاء من حرمك، وبهذا تنشر الخير والرحمة والود بين الناس .

الثالث: الخلق الاجتماعي، وما يعود نفعه إلى المجتمع، وله أهمية كبيرة في استقرار المجتمعات من جهة، وفي نموها وتقدمها من جهة أخرى .

آثار اضمحلال الأخلاق الاجتماعية

إنّ اضمحلال الأخلاق الاجتماعية تترتب عليه آثار سيئة نوجزها في الآتي:

الأول : انعدام التقدم الاجتماعي.

إنّ المجتمع الذي تتفشى فيه الغيبة - وهي مرض اجتماعي، يهدم شخصية الإنسان ويبعد الآخرين عنها- لا يتقدم لأنّ الغيبة تفكك عراه، فلا يبقى فيه ما ترتاح النفس إليه وتطمئن به، لعدم سلامة أي شخصية من شخصياته - التي تتمتع بمقومات وقدرات - من التهم الكثيرة، فلا تبقى شخصية يُستند إليها، وتمثل طريقاً موصلاً إلى الله تعالى، وبالتالي، يستحيل على المجتمع أن يتقدم من جهة، أو ينتصر على عدوه من جهة أخرى، أكان العدو داخلياً - نفس الإنسان - أو خارجياً، فلا تستطيع الأمة أن تخوض غمار حرب تتقدم فيها لعدم وجود من تلتف حوله، وترجع إليه من الشخصيات الاجتماعية الكبيرة التي تمثل أسساً وطرقاً توصل المجتمع إلى الخير والأمان، إذ أنّ الغيبة قد هدمت هذه الشخصيات وتأثر بذلك الذين لا يمتلكون وعياً ورقياً فكرياً، ولا يستطيعون أن يضعوا الأمور في موازينها الصحيحة، فلم يبقَ لديهم من يُمثل طريقاً موصلاً إلى الله تعالى، من هنا ندرك الأهمية القصوى للبرامج الأخلاقية التي تحض عليها الشريعة، وتتناول الجانب الاجتماعي في حياة الفرد وتركز على ذلك وأنها من الأهمية بمكان يفوق ما يرجع إلى الجانب الشخصي.

الثاني : انعدام الاطمئنان الاجتماعي.

إنّ الغيبة والتهمة للآخرين والكذب والافتراء عليهم، ذنوب كبيرة تقوض الاطمئنان في المجتمع وتجعله يعيش الصراع والاضطراب تجاه شخصياته التي لا تسلم من وصفٍ يقلل من قيمتها أو يسقطها اجتماعياً.

الثالث: التفكك الاجتماعي.

التعرض لشخصيات المجتمع الكبيرة يؤدي إلى انقسام المجتمع وتفككه فلا تلاقي بين فئاته الاجتماعية ولا تعاون ولا برامج عمل موحدة في الثقافة والاقتصاد



أو أمور أخرى تجمع بين أفراده .

الرابع : نقل عدوى التخلف إلى المجتمعات الأخرى.

وهذا مما يؤدي إلى نقل الوباء الاجتماعي الذي يعيشه المجتمع إلى المهجر، فإذا سافر بعض أفراد تلك المجتمعات التي تعيش بنفس العقليات والفكر تنقل الأمراض المعاشة لديها إلى المجتمعات الأخرى، وتجعل تلك المجتمعات تعيش ذلك الوباء، فالتخلف ليس في بلدان هؤلاء فحسب، بل انتقل إلى المهجر، من هنا ننصح من يسافر أن لا ينقل وباءه معه. ويحسن أن نذكر بأن من يعيش في المجتمعات الغريبة التي تعيش التكتلات لا يستطيع أن يتلاءم معها أو يتقدم مع جماعته ليلحق بها لأنه يعيش الفردية وسيبقى كما كان دون تقدم.



تجنب النقد اللاذع حصانة للمجتمع

مجتمعنا - الأحسائي - يمثل الطهر والنزاهة ويحمل إيجابيات كبيرة، وعلينا أن نحصن هذا المجتمع المحافظ من النقد اللاذع في الوسط الاجتماعي، كي لا نبتي بالداء الذي ابتلى به غيرنا، فهناك أمراض تعيشها مجتمعات أخرى ويُخشى على مجتمعنا بسبب الاختلاط بتلك المجتمعات أن تنتقل أمراضها فتؤثر علينا.

إنّ من الأمراض الفتاكة الكلام على الشخصيات الكبيرة التي لها ثقل اجتماعي بكلمات بذيئة، وذلك لا يعني أنّ الشخصيات الكبيرة وصلت إلى مقام العصمة، ولا ترتكب الخطأ، غير أنّ ارتكاب الخطأ لا يبرر النقد اللاذع في الوسط الاجتماعي.

الطريق الصحيح للنقد

إنّ إسداء النصيحة وتقويم الخطأ له طريقه الخاص الذي أوضحته الشريعة، قال أمير المؤمنين عليه السلام : (من وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه)^(١)، أي أنّ الأسلوب الأمثل للنقد لا يتم بتوجيهه بنحو مباشر في كثير من الأحيان خصوصاً إذا كان تقويم السلوك لشخصية كبيرة في المجتمع، لأنّ الأسلوب الهجومي - على فرض صدور الخطأ من تلك الشخصية - يؤدي إلى سقوطها الاجتماعي أمام

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٤٨.

الناس، وبدلاً من تصحيح الخطأ نقع فيها هو أسوأ منه، فالتشهير بتلك الشخصية وفسح المجال لتعرض الآخرين لها بالإساءة متناسين الإيجابيات التي تحققت منها والخدمات الاجتماعية التي أسدتها للناس بخس لحقها.

خطر النقد اللاذع في الوسط الاجتماعي العام

إن نقد الشخصيات الكبيرة يؤدي إلى تقهقر المجتمع وأصابته بالذبول، وبالتالي لا يستطيع التقدم إلى الأمام لأنه افتقد الشخصية التي تقوده والإيجابيات المترتبة عليها اجتماعياً ودينياً، مما يؤدي بالمجتمع إلى التخبط والشتات، ولا بد من السعي الحثيث لتحصين المجتمع، ليبقى على النزاهة والطهر خصوصاً في نظره للشخصية الدينية والاجتماعية، وتحصين المجتمع كي لا تؤثر عليه الأمراض الاجتماعية التي ابتليت بها المجتمعات الأخرى.

هدف الرسالة المحمدية إتمام مكارم الأخلاق

الآية التي استهللنا بها الحديث ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤) - بيان أن النبي ﷺ حدد أهداف بعثته الكبرى بالتزكية، لأنها تحظى بالأهمية الفائقة، وقد أكد بعض علمائنا عليها عندما سئل عن سبب استمراره في التذكير بالتزكية فأجاب إنها إحدى الأسس العظيمة التي بعث لأجلها النبي ﷺ، وترتب عليها مكارم الأخلاق، باعتبارها هدف الرسالة: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١).



(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ١٦ ص ٢١٠.

حِكم توجيهية من كلام الإمام الحسن عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة) صدق الله العلي العظيم.

فضل الإمام الحسن

شهر رمضان شهر الطاعة والمغفرة، وقد حظي الشهر بمناسبات عظيمة منها ميلاد إمامنا الحسن عليه السلام، والإمام علي عليه السلام نبراس في عالم الإيمان والإمامة، وقد جاءت الروايات عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله في فضله، ومما جاء في تبيان رتبته العالية قول المصطفى صلى الله عليه وآله: (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)^(١)، ومعنى الحديث أن الحسن والحسين قائدان للأمة ومرجعان لها سواء حارباً أو جلساً فلم يواجهها السلطة الظالمة مباشرة، وذلك أن موقف الإمام صلى الله عليه وآله يُعبر عن إرادة الله تعالى، كما دلت على ذلك آي القرآن الكريم والأحاديث الكثيرة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿عِبَادُ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْخَرُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ (الأنبياء).

حِكم من درر الإمام الحسن

غير أننا لا نريد استعراض ما جاء في فضله والإشادة بمقامه العظيم، وإنما نريد أن نتعلم بعضاً من حكمه عليه السلام، قدّم الإمام عليه السلام الحِكم المؤثرة للأمة عامة، وللحواريين

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٣، ص ٢٩١.

والأتباع الذين يريدون السير في طريق الله تعالى خاصة، فكان ﷺ يعطي دروساً في الحكمة والتزكية وتهذيب النفس لإيصالها إلى الدرجات العالية من الكمال، وقد ذكر العلماء الكثير من الحكم التي صدرت عنه ﷺ، اخترنا بعضاً منها لنستفيد منه في حياتنا ورقينا المعنوي:

الأولى: (من طلب العبادة تزكى لها).

قوله ﷺ: (من طلب العبادة تزكى لها)^(١)، هذه حكمة عظيمة أبحر فيها علماء الأخلاق، شارحين حيثياتها، وخلصوها أن من أراد أن يستفيد من عباداته وأعمال الخير التي تصدر عنه فعليه أن يزكي نفسه أولاً.

تزكية النفس

وحتى تتضح هذه الحكمة، فإنّ الفلاح عندما يريد أن يزرع يبدأ بتخصيب الأرض قبل زرعها لعلمه أنه لا يستفيد من الزرع قبل ذلك، فتخصيب الأرض وإزالة الشوائب عنها وجعلها قابلة للزراعة هو التزكية للأرض بتخليتها عن الشوائب.



علاقة التزكية بالعبادة.

التخلية والتزكية مصطلحان لمعنى واحد، والذي يريد أن يستفيد من العبادة لا يستطيع ذلك دون أن يجعل نفسه قابلة لتأثير العبادة فيها، فالعبادة لا تؤثر إلا في النفس الصافية التقية، أما من يعمل الخير مختلطاً بالسوء، فإنّ تأثير العبادة في نفسه قليل.

أثر التزكية على الأعمال.

أبانت الروايات الشارحة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة) ذلك، قال النبي ﷺ: (وكيف يقل عمل يتقبل)^(٢)، فإذا كان العمل مقبولاً عند الله

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٠٩.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٧، ص ٢٨٦.

تعالى لن يكون قليلاً، بل يتحول إلى أضعاف مضاعفة، وذلك أَنَّ النفس الطاهرة لها قابلية لإنبات النبات الحسن، فالصلاة والصوم والصدقة وصلة الرحم لن يؤثرُوا إلا بالتقوى، نعم قد تؤثر قليلاً إلا أَنَّ تأثيرها الكبير لا يتحقق إلا إذا هُذِبَ المرء شخصيته، وصفى ذاته، وجعلها أرضاً خصبة للزراع الطيب، هذه الحكمة العظيمة نستفيد منها في كل عبادتنا، خصوصاً في صومنا لشهر رمضان، فمن أراد أن يستفيد من صومه عليه أن يتجنب المعاصي.

الثانية: (إذا أضرت النوافل بالفريضة فارفضوها).

قوله ﷺ: (إذا أضرت النوافل بالفريضة فارفضوها)^(١)، هذه حكمة جميلة، وكل حكم الإمام ﷺ عظيمة وجميلة، وهي تشرح مصطلحاً جميلاً، نطلق عليه الأجندة الخاصة، فهناك أجندة عامة لكل أمور الحياة، وهناك أجندة خاصة بعمل مخصوص كالعبادات، إذ أَنَّ كثيراً من الناس يغلط في الجانب العبادي، بتقديم المهم على الأهم.

تقديم الأهم على المهم

إنَّ من يريد أن يتكامل عليه أن يُقدم الأهم على المهم، والأمور التي تشكل أهمية كبرى لا بد من تقديمها على الأقل أهمية، الناجح في حياته لا بد أن يسير على وفق هذه الأجندة، والإمام ﷺ بين أهميتها في الجانب العبادي لتأثير العبادة في السلوك.

ضرر النوافل على الفرائض

إنَّ بعض الشباب يرتكب أغلاطاً فادحةً، بل حتى بعض الكبار، إذ قد يواظب على النوافل ويُقصر في الفرائض، فبعض المتدينين من الشباب يسهر لأداء صلاة الليل، ولا يصلي الصبح في وقتها، والإمام ﷺ يؤكد هذا المبدأ بترك النافلة للفريضة، فلا يقصر في الفريضة على حساب النافلة، النافلة لا تكون بمستوى الفريضة وفي رتبها، ومن أراد طريق الله تعالى عليه أن يهتم بما أفترضه وأوجبه، ثم يأتي بالنافلة، ويحسن

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١٠٩.

أن نشير إلى أنه قد يوفق من يأتي بالنوافل، إلا أن ذلك على حساب الاستفادة من وقته وعمره، والذي يريد أن يكون مطّرداً في مساره سائراً في الاتجاه الصحيح عليه أن يأتي بما أَراده الله تعالى وأن يُقدم الأهم ثم يأتي بالمهم.

الثالثة: (اليقين معاذ السلامة).

قوله ﷺ: (اليقين معاذ السلامة)^(١)، هذه من روائع الحكم، المعاذ معناه الملجأ ومن يستعِذ بالله تعالى يكون في حرز ومأمن وكذا من يلتجئ إلى اليقين فيكون في سلامة في نفسه.

ثمرة اليقين

يحتاج الإنسان إلى معاذ وحرز في الحياة الدنيا، ومن أعظم ما يتحرز به الإنسان اليقين، خصوصاً في الجانب العقدي، وكلما ارتقى الإنسان في جانب الاطمئنان واليقين أصبح في مأمن وسلامة، وما نراه من الأمراض النفسية كالإكتئاب والقلق وانفصام الشخصية، سببها عدم الاطمئنان، وأعظم ما يُحقق معاذاً منها الاطمئنان واليقين ليتاح للمرء أن يصل إلى الكمال، إن من الأفضل أن يصل المرء إلى اليقين غير أنّ الاطمئنان وهو الظن المتأخّم للعلم، يمكن أن يُتكأ عليه بثبات، فمن يتعرض لشبهة بسيطة فتؤثر عليه تأثيراً بالغاً، إنما يرجع ذلك لعدم اطمئنانه، والإمام ﷺ بين أن من أراد أن يكون في سلامة فـ(اليقين معاذ السلامة)^(٢).

الرابعة: (من تذكر بعد السفر اعتدّ).

قوله ﷺ: (من تذكر بعد السفر اعتدّ)^(٣)، يُوضح ﷺ السفر إلى عالم الآخرة، كل إنسان يسافر هذا السفر ولا يستطيع أحد أن يمتنع منه إلا أنّ هذا السفر يحتاج إلى زاد واستعداد.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

الاستعداد للسفر

إنَّ الاستعداد للسفر أمر يهتم به الناس في حياتهم، ومن أراد السفر تهيأ له وأعد ما يحتاجه لذلك، وهذا أمر حسن أن يستعد الإنسان لما يريده، والأحسن أن يعلم يقيناً بسفره إلى الآخرة، وأن يستعد له، وقد أفاد هذه القاعدة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ (التوبة: ٤٦)، أي أن من أراد شيئاً استعد له.

الفرق بين الاستعداد والتمني

من يريد الله تعالى والدار الآخرة ولا يعمل لهما فهو يتمنى، والأمنية لكي تتحول إلى عمل تحتاج إلى جهد وحركة، الكثير من الناس لديهم أمني، إلا أن الأماني لا تتجسد في الواقع، ولا تقترن بالعمل، والإمام عليه السلام بين الأهمية لمن أراد شيئاً أن يستعد لإنجازه، أما أن يتمنى دون عمل ولا يتقدم خطوة إلى الإمام فسوف لن يصل إلى ما تمناه، ولن يحقق شيئاً، بل ستنقلب عليه الأمنية حسرة.

الخامسة: (ولا يغش العاقل من استنصحه).

هذه حكمة مفيدة في الجانب الاجتماعي وعلاقات الناس مع بعضهم، وذلك أن الناس يتفاوتون في عقولهم، منهم صاحب العقل الراجح، الذي حنكته التجارب حتى نضج، وليس لكبر السن دخل في ذلك، بل للتجارب الكثيرة في الحياة، فهي التي توصل إلى فهم سليم، إذ أن بعض الناس قد يكون كبيراً في سنه لكنه لم يخض تجارباً تنضجه.

الاستفادة من ذوي التجارب

أبان الإمام عليه السلام أن من أراد النصح والمشورة عليه أن يذهب للناس الذين عركتهم الحياة، وأصبح لديهم عقول راجحة، فقال عليه السلام: (ولا يغش العاقل من استنصحه)^(١)، العاقل يُوصلك إلى الصواب ويمحضك الرأي ويوضح لك التجربة،

(١) نفس المصدر السابق.

إن الكثير من المآسي والانتكاسات في مجالات الحياة نتجت عن عدم استشارة ذوي الرأي الصائب وعدم الدراسة الكافية لما يُراد أن يُقدم عليه، فكل شيء يحتاج إلى حكمة، والعامل معدنها فيُقدمها على طبق جميل.

السادسة: (بينكم وبين الموعظة حجاب العزة).

قوله ﷺ: (بينكم وبين الموعظة حجاب العزة)^(١)، هذه الحكمة لا يعرفها إلا ذوو المقام والرتبة، فمن كان مديراً أو عالم دين أو شخصية اجتماعية مرموقة، فهو عزيز في مكانته.

الاستفادة من الموعظة

قد تأتي الموعظة والنصيحة من الأقل رتبة وهنا مكنم الداء، فلن تقبل هذه النصيحة وتُرد للعزة التي تُشكل حجاباً شديداً فتُضر بالإنسان وتمنعه من الوصول إلى الحق، إن الله تعالى أمرنا باتباع أحسن القول ولم يحدد لنا رتبة القائل، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨)، فمن يستمع القول من الناس عليه أن يأخذ بالحكمة، فهي ضالة المؤمن، أنى وجدها أخذها.



موانع الاستفادة من الحكمة

الكثير من الناس تمنعه عزته ورتبته من الاستفادة من الحكمة، والإمام ﷺ أوضح أهمية الأخذ بالحكمة وعدم النظر إلى رتبة من صدرت منه.

(١) نفس المصدر السابق.

المحاسن والمساوئ الأخلاقية في منظور الإمام الحسن عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب). صدق الله العلي العظيم.

برز الإمام الحسن عليه السلام في ميادين متعددة منها الميدان الأخلاقي، وقد أشار المصطفى ﷺ بأن الهدف من بعثته تتميم مكارم الأخلاق، كان الإمام عليه السلام يبيد النصائح والتوجيهات في مناسبات متعددة لعامة الناس وخواصهم، وجاءت توجيهاته عليه السلام على نحو الخطب تارة والحكم تارة أخرى، الحكمة كلمات مختزلة تحمل معانٍ كبيرة وعظيمة، نستعرض بعضاً من حكمه ع التي تركز على مساوئ ومحاسن الأخلاق.

مساوئ أخلاقية

من حكمه عليه السلام قوله: (هلاك الناس في ثلاث: الكبر والحرص والحسد)^(١)، هناك أمور تؤدي بالإنسان إلى الهلاك، من أعظمها ما يوجب الهلاك المعنوي وليس المادي، وإذا أصيب الإنسان في الجنبه المعنوية لشخصيته، أي في روحه فقد هلك.

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٧٥ ص ١١١.

بين الإمام عليه السلام ثلاث مهلكات:

الأولى: الكبر.

أدى الكبر بإبليس إلى أن يطرد من رحمة الله تعالى، الكبرياء هي السبب الرئيس في عدم تألق الكثير من الناس وعدم وصولهم إلى الله تعالى، وهي صفة من صفات الله تعالى، فهو المتكبر المتعال، ومن نازع الله تعالى فيها أذله الله تعالى وقصمه، وطرده عن رحمته، والإمام عليه السلام يحذر من هذه الرذيلة التي يتصف بها بعض الناس لذلة في نفسه وحقارة في ذاته، ويحاول أن يرفع حقارته، وأن يبعد الذلة عن نفسه بالتكبر على غيره من الناس أو التكبر على رسل الله تعالى وأنبيائه وأوصيائهم أو التكبر على الأحكام الشرعية والقوانين الإلهية فلا يمثل ما أمر الله تعالى به.

الثانية: الحرص.

وهو الجشع وشدة الإرادة للحصول على المطلوب بنحو أكثر من المتعارف، كمحاولة الإنسان جمع أكثر مما يحتاجه من المال، وطلب الأشياء على نحو غير متعارف، يستنفد الحريص جهده وطاقاته دون أن يصل إلى ما يبتغيه لأنه لا يسير على وفق الموازين التي يريدتها الله تعالى، أكان في الرزق أو في غيره، ويُستخدم الحرص في الأعم الأغلب في طلب ما لا يحتاجه المرء من المال، الحريص يحاول أن يصل إلى ما يبتغيه عبر أمور ترجع إليه بالسوء، فيستنفد جُلَّ وقته أو كُلَّهُ في الطلب دون أن يلحظ الأمور الأخرى التي عليه أن يراعيها، فهو غير متوازن في شخصيته، وإذا اختل التوازن أدى بصاحبه إلى الهلكة، والهلاك هنا في الجانب المعنوي، أي أن الحريص يودي به حرصه إلى موته المعنوي.

الثالثة: الحسد.

وهو تمنّي زوال النعمة عن الغير، الحسود لا يستقر إذا حصل غيره على النعمة، ويعترض على الحق تعالى، لأنَّ الله تعالى هو الرزاق، والحسود بدل الثناء على الله تعالى



وطلب ما لديه من خير يشغل نفسه بتمني زوال النعمة من غيره، إن الحسد رذيلة من مساوئ الأخلاق التي حذر منها النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت ، ووجهوا الناس إلى التحلي بمكارم الأخلاق.

محاسن أخلاقية

للإمام ﷺ توجيهات عدة في الحض على مكارم الأخلاق، منها قوله: (مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذم على الجار، ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء)^(١).

الأولى: صدق اللسان.

لقد حض الله تعالى على الصدق وأمر بأن يكون الإنسان مع الصادقين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة)، الصدق يورث الاطمئنان في التعامل بين الناس، ومن لم يصدق قوله صعب التعامل وإياه والأخذ منه.

الثانية: صدق البأس.

ويراد به صدق العمل، إذ قد يتلى بعض بمواقف، كالذين ابتلاهم الله تعالى في زمن الإمام الحسين ﷺ، حيث ناداهم الإمام ﷺ ولم يستجيبوا له، وهم يعرفون أنّ الحق معه وأنه الإمام المفترض الطاعة، ومن لم يستجب له لم يكن صادقاً في بأسه، الصادق في البأس هو من وقف مع الإمام ﷺ، هذا ابتلاء لكثير من الناس، فإذا عرف صاحب الحق، عليه أن يكون معه، غير أنّ ضعف الإرادة يوهن المرء، ولا يستطيع أن يقف مع صاحب الحق، ومن ليس عنده بأس وشدة عزيمة في الوقوف مع الحق ليس بصادق عملاً وليس بمتحل بمكارم الأخلاق، الإنسان بالإضافة إلى إيمانه لا بد أن يكون صادقاً عملياً بقوة عزيمة وشدة بأس في الوقوف مع الحق.

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسن ﷺ: لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ.



الثالثة: إعطاء السائل.

قال الإمام عليه السلام: (وإعطاء السائل)، من تحلى بمكارم الأخلاق لا يرُد سائلاً ولو بالقليل، بل يعطي من سألته، وهذه صفة من صفات الله تعالى، الله تعالى يعطي من سألته ومن لم يسأله تحنناً منه ورحمة.

الرابعة: حسن الخلق.

قال الإمام عليه السلام: (وحسن الخلق)، حسن الخلق بلبين العريكة والسماحة في التعامل والمرونة مع الغير، الأئمة عليهم السلام يؤكدون على أمور هامة في التعامل الأخلاقي، ويحضون على المرونة واللين في التعامل، لأن الناس طيف مختلف، بعضهم لديه شكاسة في خلقه، وقد يُخرج من يتعامل معه عن التعامل الطيب، غير أن من نظر أوامر القرآن الكريم وتوجيهات الإسلام وخلق الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وجد نفسه ملزماً باتباع الهدى والخير والمرونة في التعامل.



الخامسة: المكافأة بالصنائع.

قال عليه السلام: (والمكافأة بالصنائع)، من مكارم الأخلاق المكافأة بحسن الصنيعة لمن أحسن خصوصاً وللناس عامة، يحسن لمن أحسن إليه، ويصنع المعروف لمن لم يحسن إليه، بل لمن أساء إليه، فيكافئ غيره بحسن الصنع، ومن فعل له القليل شكره بالجزيل الكثير.

السادسة والسابعة: الصلة للرحم والجار.

قال عليه السلام: (وصلة الرحم، والتذمم على الجار)، من اتصف بمكارم الأخلاق رحم جيرانه ووصل رحمه، لقد جاءت الأحاديث في الحض على الإحسان والصلة للجار المسيء والرحم الكاشح، الجار السيء الخلق والرحم الكاشح أي القاطع ينبغي أن يوصلاً، قد يُبتلى المرء بجار سيء أو رحم قاطع، وعليه أن يتعامل بالتعامل الطيب والحسن معهما.

الثامنة: معرفة الحق للصاحب.

قال عليه السلام: (ومعرفة الحق للصاحب)، من كان لديه صديق متصفاً بمكارم الأخلاق عليه أن يعرف حقوقه فيؤديها ويوفيه إياها بزيادة، غير أنّ بعض الناس لا يعرف حقوق أصدقائه أو لا يهتم ذلك، فلا يعطي الصديق حقه ويقصر في أداء الحقوق، بخلاف المتصف بمكارم الأخلاق فهو جاد في إعطاء أصحابه ما يستحقونه، بل يفي بالميزان الوفي بإحسانه إلى أصدقائه.

التاسعة: قري الضيف.

قال عليه السلام: (وقري الضيف)، أكدت الآيات والروايات على الاتصاف بالكرم، وهو صفة من صفات الحق تعالى، بعض الناس يظن أنّ الكرم ينحصر في إطعام الطعام، غير أنّ الكرم لا ينحصر بإطعام الطعام من الكرم، بل له موارد متعددة، منها كرم المرء في تعامله مع أهل بيته، يكون ندي اليد مع أبنائه وزوجه، لا يطعم الطعام للآخرين ويبخل في تعامله مع أبنائه وزوجه، فذلك ليس بكريم، الكريم يده ندية، لا يشح ولا يبخل بإمساك ما عنده عن أهله، وقد أكدت الروايات على قري الضيف إذا حل، وقري الضيف ليس بتقديم الطعام فحسب، بل بالتعامل الحسن وإياه والبشاشة في وجهه.

العاشرة: الحياء.

قال عليه السلام: (ورأسهن الحياء)، الحياء من الفضائل، والحيي يُدني نفسه إلى معالي الأخلاق ومكارمها وإلى السؤدد، أما من فقد الحياء فعكسه تماماً، من صفات النبي صلى الله عليه وآله أنه أشد من العذراء في خدرها حياءً، البنت العذراء التي تربت تربية صالحة تستحي كثيراً وهي حية جداً، والنبي صلى الله عليه وآله أشد حياءً من العذراء في خدرها عندما تذكر أمامه مساوي وقبائح الأخلاق، لذا قال الإمام عليه السلام: ورأس مكارم الأخلاق لمن أراد أن يتحلّى بها الحياء، أي يستحي من القبائح، لئبتعد ويتحلّى بالفضائل، إنّ بعض الناس لا يستحي من القبائح، فيفحش في قوله ويتعد بذلك عن المكارم.

الفرق بين الحياء والخجل

ننبه هنا على أمرين:

الأول: افتراق الحياء عن الخجل، الحياء عن المساوئ والقبائح، والخجل هو اضطراب الشخص ووجهه وعدم إقدامه للحصول على ما ينبغي أن يحصل عليه، كمن أراد أن يتعلم واستحى ولم يسأل فهو خجول.

الثاني: أنّ الحياء عن القبائح؛ أما الخجل فهو من الأمور التي على الإنسان أن يحصل عليها، إلا أنه يخجل من الحصول عليها، الخجل قبيح والحياء حسن، كون الإنسان خجولاً غير جيد، إذ لا يستطيع أن يحصل على ما يبتغيه بجرأة وإقدام.

العلم والتعلم

من محاسن الأخلاق التي ركّز عليها الإمام الحسن عليه السلام العلم والتعلم، حيث قال: (عَلَّمَ النَّاسَ عِلْمَكَ وَتَعَلَّمَ عِلْمَ غَيْرِكَ فَتَكُونُ قَدْ أَتَقَنْتَ عِلْمَكَ وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَعْلَمْ)^(١)، على الإنسان في الحياة أن يكون متعلماً منذ بدء حياته إلى نهايتها، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (اطلب العلم من المهد إلى اللحد)^(٢)، المرء بحاجة أن يتعلم دائماً، حتى العالم يحتاج أن يتعلم، إذ أنّ الإنسان جهله أكثر من علمه، والإمام عليه السلام قال إنّ كنت عالماً في بعض الأمور فعلم الناس بها، وبذلك تكون أتقنت ما تعلم وأصبحت المعارف والعلوم ملكات راسخة في ذاتك، متقنة لديك، وإن كنت لا تعلم فتعلم علم غيرك ولا تقف مكتفٍ بعلمك وتحدث نفسك بأنك لست بحاجة أن تتعلم، فإنّ ذلك يوقفك دون تقدم، بينما على المرء أن يسعى للحصول على الكمال دائماً.



(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ١١١.

(٢) العلم والحكمة في الكتاب والسنة للريشهري: ص ٢٠٦.

دور النبي ﷺ في نشر الرحمة في المجتمع

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩). صدق الله العلي العظيم.

الرحمة النبوية

بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والرسل محمداً رحمة للعالمين، فهو الرحمة المهداة ليس للبشر فحسب، بل لجميع عوالم الوجود، ذلك أن الحق تعالى كتب على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢) ورحمته سبقت غضبه قال رسول الله ﷺ: «كتب الله عز وجل كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام في ورق آس، ثم وضعها على العرش، ثم نادى يا أمة محمد: إن رحمتي سبقت غضبي»^(١).

المجتمع قبل زمان النبي ﷺ

كان النبي ﷺ يبين للناس أهمية الرحمة، إذ أن المجتمع الجاهلي - العرب - عندما بعث فيهم النبي ﷺ كان السائد فيهم العنف والغلظة والتعدي على الغير خصوصاً إذا كان الغير ضعيفاً، وأراد الله تعالى للبشرية جمعاء بل للكون كله أن يرفل في النعيم، ويعيش الرحمة والحب والمودة جميع أفرادها وكل مفرداته.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣، ص ١٢.

دور النبي ﷺ في نشر الرحمة

عندما نرجع إلى مصادر التشريع في الكتاب والسنة نجد آيات متعددة تتحدث عن رحمة الله تعالى، وأحاديث كثيرة وردت عن المصطفى ﷺ وعن أهل البيت عليهم السلام تبين أهمية الرحمة وما يترتب عليها من آثار، والأحاديث تجعل الرحمة الإطار العام الذي يجب أن يكون عليه المسلم، والطريق القويم الذي يجب أن يسير عليه الإنسان السوي، غير أن النبي ﷺ بُعث في مجتمع ينبذ الرحمة، ويقدر العنف، ويرى الرحمة مظهراً من مظاهر الضعف يعاكس الرجولة، والقوة والشجاعة.

غرس مفهوم الرحمة بين أفراد المجتمع

جاهد ﷺ في هذا المجتمع لغرس مفهوم الرحمة في الناس، والآيات والروايات التي جاءت تؤكد ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾ (البلد)، أما الأحاديث فقد جاء الكثير منها لتأكيد هذا المفهوم قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء»^(١).



إعداد القابليات لتلقي الرحمة الإلهية

وقال ﷺ: «من لم يرحم لا يُرحم»^(٢)، أي أن الله تعالى إنما يرحم القلب المتصف بالحنان واللفظ والرحمة، أما القلب الذي انتزعت منه الرحمة، فإن الله تعالى لا يرحمه، وعنه ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٣) وهنا حصر منه ﷺ برحمة الله تعالى للرحماء، وعنه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلاّ رحيماً»^(٤) إن القلب الغليظ الجافي القاسي لا يدخل الجنة ولا تناله الرحمة كما قال ﷺ، لذا تعجب من سمع هذا

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٧، ص ١٦٧.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٠٤٤.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٩، ص ٩١.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٠٤٤.

الحديث منه ﷺ، فقالوا: كلنا رحيم، قال: لا، حتى ترحم العامة، أي أن عامة الناس ينبغي أن يتعامل معهم بالرحمة والمودة واللطف، وعنه ﷺ: «خاب عبد وخسر لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر»^(١)، من انتزعت من قلبه الرحمة سيعيش الخيبة والخسران، أما من تجذرت المودة في نفسه، وكبر الحب في قلبه فأصبح رحيماً فهو مورد اللطف الإلهي وسعة الرحمة.

مواجهة مظاهر العنف بالرحمة والعطف

جذر النبي ﷺ هذا المفهوم وغرسه في أذهان أولئك الجفاة الغلاظ لأن طبيعة المجتمع العربي كانت تنبذ الرحمة وتقصد العنف، والاعتداء على الضعفاء الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وكان العرب يقدسون القوة بغض النظر عن كونها على وفق القانون أو ظالمة، ومما جاء عنهم مما ينم عن العنف والقسوة التي كانت لأجدادنا العرب ولا زالت آثارها باقية إلى يوم الناس، لأن كثيراً من العرب لم يتعرف على الأفق الواسع للشريعة الإسلامية السمحاء ويتعامل بالعنف، بل يراه المظهر الذي ينبغي أن يتجسد به الإسلام، لذا أثر الفهم الخاطئ للإسلام في إبعاد الآخرين عنه ووسم الإسلام والمسلمين بالعنف مع أنه دين الرحمة والحب، جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «وهل الدين إلا الحب»^(٢)، الحب والرحمة بينان الحضارة أما العنف فهو مظهر تحلف وهدم.

وقد ظهر العنف لدى العرب بمظاهر متعددة:

الأول: وأد البنات.

وأد العرب البنات لأمرين: الأول للشرف والثاني: أن المرأة كائن ضعيف بخلاف الرجل فهو كائن قوي، ومن ذلك وأدوا البنت لضعفها، وتعدوا على الضعفاء من الرجال، وقد جابه النبي ﷺ ذلك فوضع مع بعض العرب حلفاً إنسانياً للدفاع عن

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٠٤٥.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢٧، ص ٩٥.

الضعفاء في مكة سمي بحلف الفضول، وهو من أروع المنجزات التي قام بها بعض العرب مع النبي ﷺ قبل الإسلام.

الثاني: الاعتداء على الضعفاء.

إن السلب والنهب كانا سائدين لدى العرب قبل الإسلام، وكانوا لا يخافون إلا الأقوياء فلا يعتدون عليهم خشية من ردود فعل منهم فكان عدم الاعتداء على الغير ليس من أجل احترامه أو احترام القانون وإنما خشية من قوته.

الثالث: انتفاء العاطفة والحس الإنساني.

لقد كان العنف متأصلاً في نفوسهم وهو الإطار السائد لتعاملهم حتى مع أقرب الناس إليهم، جاء الأقرع بن حابس فرأى رسول الله ﷺ يقبل الحسن والحسين ﷺ فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم. - لأنه يرى العاطفة والحنان الأبوي ينمان عن ضعف حتى وإن كان ذلك الحنان وتلك العاطفة لأقرب الناس كالولد، فهما مظهر للضعف والنبي ﷺ رد هذا الفكر السيء - فقال ﷺ: «إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك، فما أصنع بك؛ من لم يرحم صغيرنا ولم يعزز كبيرنا فليس منا»^(١) أي ليس هذا مظهراً للرجولة والقوة، بل مظهراً للغلظة والقسوة، الرحيم هو من يتعامل مع غيره بالرحمة، وقد واجه النبي ﷺ الغلظة والقسوة والعنف والشدة والتعدي على الآخرين بالرحمة والرفق لاقتلاع جذور هذه الثقافة السيئة.

نبذ التطرف والمعاملة على الظاهر

إن العرب لم يقدسوا القانون خصوصاً إذا امتلكوا القوة وكان لهم السيطرة وهناك نماذج في الاعتداء على الغير دون قانون حدثت حتى من بعض صحابة النبي ﷺ فقد كان بعض الصحابة يريد أن يظهر بمظهر القوة والقدرة والغلبة للغير، حتى إذا أسلم الغير مع أنه لا يجوز التعدي على من أسلم في القانون الإسلامي، قال أسامة بن زيد:

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٤٣، ص ٢٨٣.

بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصباحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال: أقال لا إله إلا الله، وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح؟ قال «أفلا شققت قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»^(١) نلاحظ أسامة بن زيد لم يرعَ حكم الإسلام فقتل مسلماً لأنه أسلم لما رأى السيف وقد شجب النبي فعل أسامة لما قال أسلم خوفاً ولم يسلم طمعاً في الإسلام، فقال النبي ﷺ: «أفلا شققت قلبه؟ وكان ﷺ يكرر ذلك حتى ندم أسامة وتمنى أنه لم يسلم إلا بعد قتله لتكرار النبي ﷺ التذكير بسوء الفعل، ولا زال بعض العرب إلى يوم الناس هذا يتصف بالغلظة والعنف.

بيان مفهوم الرحمة

بين النبي ﷺ مفهوم الرحمة بأنحاء مختلفة تارة بما يترتب عليها من الثواب والآثار الطيبة في عالم الآخرة وأخرى بذكر ما يلازمها من حسن.

الأول: التشجيع على التعامل برفق .

قال ﷺ: «إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»^(٢) التعامل بالرفق والحنان يزين الموقف ويضفي عليه جمالاً، والعكس من ذلك التعامل بالغلظة والشدة يسيء الموقف ويفسده ولا يؤدي إلى خير.

الثاني: التأكيد على مفهوم الرحمة.

لعل من أبلغ ما قاله النبي ﷺ حصره لبعثته بإتمام مكارم الأخلاق، قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٣) ومكارم الأخلاق أن تعفوا عمن ظلمك وتحسن لمن أساء إليك، وتصل من قطعك، أما من يكيل الصاع صاعين لمن أساء إليه ويتعامل

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢١، ص ٦٥.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١١٠٢.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٨٠٤.

بعنف لم يع الرحمة في الإسلام، لقد عالج الإسلام مظاهر الغلظة والعنف والتعدي على الغير وعدم السير على وفق القانون، بالتأكيد على مفاهيم مضادة كمفهوم الأخوة في الدين والرحمة والرفق والحب.

الثالث: تجسيد مفاهيم الرحمة في شخصية المسلم.

الإسلام سلوك ونظام وليس ألفاظاً يقولها المسلم دون أن تطبع سلوكه بصبغته، قال الإمام الرضا عليه السلام: «المسلم الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده»^(١)، وقال عليه السلام: «خير الناس أنفعهم للناس»^(٢) والنبى صلى الله عليه وآله يريد أن يجذر في شخصية المسلم الرفق والحنان والمحبة والود كمفردات في التعامل ليس فيما يخص الإنسان فحسب بل بما يعم الكون بأسره، وقد ورد التأكيد على الرحمة حتى في ذبح الحيوان، جاء في بعض الروايات التأكيد على رحمة الطير عند ذبحه للأكل، فتسن الشفرة كي لا يتعذب الطير، الإسلام كله رحمة وحب وحنان ولطف غير أن من لم يفهم الإسلام يتعامل بغلظة وقسوة ظناً منه أن ذلك هو الإسلام، دون أن يعي أن الإسلام يتحقق بالشهادتين فمن آمن بأن لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله دخل في الإسلام، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم يتعامل معه بالرحمة والمحبة والحنان، حتى وإن اختلف وإياه في التفاصيل، وذلك هو السر في قرب الناس من المصطفى صلى الله عليه وآله ونجاح دعوته، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

استلهام دروس الرحمة من المولد الشريف

مولد النبى صلى الله عليه وآله يعلمنا درساً في القيم الأخلاقية يفيدنا في عالمي الدنيا والآخرة. في الدنيا تتطور العلاقات الاجتماعية بين الناس، وتنتشر ثقافة السلام، والحب في

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٢، ص ١٢٨.

(٢) مستدرک الوسائل للنوري: ج ١٢، ص ٣٩١.

المجتمع، وتكون المودة سلوكاً في التعامل.

أما في الآخرة فالرحيم الودود مؤثلاً للطف الله ورحمته، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة يوم خلق السماوات والأرض كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأهبط رحمة منها إلى الأرض فيها تراحم الخلق، وبها تعطف الوالدة على ولدها، وبها تشرب الطير والوحوش من الماء، وبها تعيش الخلائق»^(١) فمن في قلبه رحمة للعباد سينال الرحمة أما الذي نزعته منه الرحمة فلن يرحمه الله تعالى.

مفهوم الرحمة بين الشريعة الإسلامية وغيرها

علينا أن نفقه هذا المفهوم الإسلامي بمناسبة مولد النبي ﷺ، فالرحمة والحب والحنان ليس عند المسيحيين فحسب كما يتصور بعض، بل أن مفهوم الرحمة أكد عليه في الأديان السماوية كلها، وليس خاصاً برسالة المسيح ﷺ، بل أن ما جاء في الشريعة الإسلامية أعظم مما جاء في شريعة عيسى عليه السلام، وفي كل الأديان السماوية أي أن ما جاء في شرعنا الإسلامي أكبر وأعظم مما جاء في الشرائع السماوية الأخرى بأضعاف.

نتائج الرحمة على البشرية

من يقرأ آيات القرآن التي تتحدث عن رحمة الله تعالى وسعته، وأنه تعالى يكتبها للذين يتقون، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، والذين يعملون الخير يعني أن النبي ﷺ أراد أن يسود هذا المفهوم ليس في المسلمين فحسب، بل في البشرية جمعاء يتعاملون به، كي يصل البشر إلى الخير، ويتجسد هذا المفهوم في ذواتهم ليصبح السير على وفق المحبة والقانون واحترام الغير، كي يقطف الناس ثماراً يانعة، أما إذا كان التعامل بالسلب

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٠٤٨.

والتعدي على حقوق الغير خصوصاً إذا كان ضعيفاً يستغل لضعفه، فذلك ينم عن ثقافة جاهلية تجسدت في العرب وغيرهم، وقد بعث النبي ﷺ ليغير ذلك غير أنه لا زال بعض العرب يتسم بالعنف ويراه مظهراً للرجولة والسمو، أما غير العرب حتى إذا كان لديهم عنف إلا أنهم لا يقدسونه كالعرب، إن العنف يتضاد مع مبادئ رسالات السماء.



حقيقة الأخلاق السلوكية عند الإمام الحسن عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب) صدق الله العلي العظيم.

الإمام الحسن عليه السلام غصن الدوحة المباركة لأهل بيت النبوة عليهم السلام والأئمة من أهل البيت عليهم السلام شرحوا مفاهيم الشريعة والمفاهيم العامة للأدب، ومن أراد أن يتعرف عليها ليتاح له تجسيدها في شخصيته، عليه أن يعي المفهوم بأبعاده المختلفة -البعد الفقهي والعقدي والسلوكي الأخلاقي- لقد شرح الأئمة عليهم السلام المفاهيم من زوايا مختلفة، وإمامنا الحسن عليه السلام شرح الكثير من المفاهيم.

رُوي عنه عليه السلام في تحف العقول وغيره من الكتب التي ترجمت للإمام عليه السلام شرحاً لمفاهيم أوضحها أجوبة لأسئلة طرحت عليه، وقد بلور عليه السلام تلك المفاهيم لمن أراد أن يستفيد منها في المجال العملي ليكون تطبيقه لها دقيقاً مرضياً عنه من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

حقيقة المروءة

سئل عليه السلام عن المروءة فقال: «حفظ الدين وإعزاز النفس ولين الكنف وتعهد الصنعة وأداء الحقوق، والتحبب إلى الناس»^(١).

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج ٧٥، ص ١٠٣.

المروءة لها مجال فقهي، لذا اشترط الفقهاء على من يؤم الجماعة أن يتصف بها وشرحوا معناها فقهيًا، وأوضحها الإمام عليه السلام أخلاقياً وسلوكياً بنحو يشمل المجال الفقهي، وأنها تتقوم بستة أمور:

الأول: حفظ النفس.

إن اتصف شخص بالمروءة لا يتم إلا بحفظ دينه وحياته، والاهتمام به أشد من اهتمامه بدينه، فمن حفظ دينه بشكل دقيق عليه أن يهتم بدينه بنحو أدق ليتصف بالمروءة.

الثاني: عزة النفس.

من اتصف بالمروءة له عزة في نفسه دون كبر، فلا يكون ذليلاً في تعامله مع الشخصيات الكبيرة ذات الجاه والنفوذ، بل له عزة في نفسه تظهر في تعامله مع الطيف المتعدد، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨).

الثالث: التعامل الحسن.

قال عليه السلام: «ولين الكنف»، الكنف تعبير مجازي، وفي اللغة حُضن الإنسان، والعضدان، والصدر، غير أنه لا يراد به ذلك، وعندما نقول: فلان في كنف فلان، نريد به أنه في حياضته، وتحت إشرافه، يدافع عنه ويدود، دون أن يتعامل مع من في كنفه بالقوة والشدة والقسر، بل يحوطه بالرفق، ومن كان ذو مروءة حفظ دينه وأعز نفسه، ولان كنفه، وإذا كان مسؤولاً عن جمع من الناس، كعياله أو عمال تحته فإنه يديرهم بمسؤولية ومرونة.

الرابع: المداومة على الإحسان.

قال عليه السلام: «وتعهد الصنيعة»، من يتصف بالمروءة يستمر إحسانه دائماً، بخلاف بعض الناس فيحسن لمن أحسن إليه مرة ويقف، فإن أحسن إليه أحسن، أما ذو المروءة فيستمر



إحسانه لمن أحسن إليه إلى ما بعد موته، ويحسن إلى أولاده، كان المصطفى ﷺ قمة الخلق الكريم يحسن لمن أحسن إليه مستمراً في ذلك إلى ما بعد موته، فأحسن إلى السيدة خديجة بعد موتها، وورد عنه ﷺ أنه كان يذبح الشاة فيفرقها على صديقات خديجة^(١)، براً لها ويتعهد ﷺ الصنيعة وإدامة المعروف، وتلك سمة من اتصف بالمروءة.

الخامس: أداء الحقوق.

قال ﷺ: «وأداء الحقوق»، إن من اتصف بالمروءة دقيق في أدائه كل حق تعلق به.

السادس: التودد إلى الناس.

قال ﷺ: «والتحب إلى الناس».

يتحب بعض الناس إلى الآخرين إذا انفتحوا عليه فيفتح عليهم، ويتحدث معهم، ويتجاوب وإياهم، غير أن من اتصف بالمروءة يتحب إلى الآخرين، ويقرب منهم، ويفتح عليهم قبل أن يفتحوا عليه، ولا ينتظر من الآخرين أن يأتوا إليه ليتعرفوا عليه، بل يبادر بالتودد وإظهار الحب لهم.

حقيقة الكرم

سئل ﷺ عن الكرم فقال: «الابتداء بالعطية قبل المسألة، وإطعام الطعام في المحل».

هناك مسألتان هامتان في الكرم:

الأولى: الابتداء بالعطية.

لا يكون الكرم إلا لمن بذل قبل أن يُسأل، الابتداء بالعطية قبل المسألة سمة للكريم، ولا ينتظر أن يأتي الآخرون إليه ليظهروا له العوز والحاجة ثم يقدم لهم العطاء، بل يبادر بالعطاء قبل المسألة.

(١) أعيان الشيعة للسيد الأمين: ج، ص ٣١٢.

الثانية: إطعام الطعام.

قال ﷺ: «وإطعام الطعام في المحل»، أي وقت الشدة والجذب، بعض الناس يقدم الطعام أوقات الرفاه، وذلك شيء جميل، لكنه في أوقات الشدة والجذب لا يبذله.

الكرم والإيثار

من صفات الكرم الإيثار، إذ هناك أوقات محنة وجذب تمر على الناس، لقلة الموارد كما كان عليه الحال في بعض البلدان، فعندما تعرضت اندونيسيا إلى اتسونامي - مد بحري - وتعرضت بعض البلدان الأخرى لسيول وأمطار وبراكين وزلازل، كان الناس بحاجة للطعام واللباس، لأنهم في شدة، حيثئذ يظهر كرم الكريم، رغم كونه يعيش وسط المحتاجين وهو بحاجة إلى اللباس والطعام كأحدكم إلا أن يده سخية ندية معطاءة.

حقيقة الدنيئة

سئل ﷺ عن الدنيئة فقال: «النظر في اليسير ومنع الحقير».

الدنيئة ما نسميها في الأحساء الدنية، والدنيء من ينظر في اليسير ويمنع الحقير، يدقق في الأشياء السيرة دون تسامح ولا يغض الطرف عنها مع أنه لا ينبغي أن يلتفت إليها ولا أن يوجه قدراته لها، ويمنع الحقير، الشيء البسيط الذي يمكن أن يفيد الآخرين، يحافظ عليه، ممسكاً إياه، تلك دناءة.

حقيقة اللؤم

سئل ﷺ عن اللؤم فقال: «قلة الندى وأن ينطق بالحنى».

اللؤم أشد من البخل، واللئيم هو الدنيء الأصل، الشحيح النفس، البخل قد يعطي قليلاً واللئيم يعطي نادراً، ويمسك كثيراً، أما البخل فيعطي أقل من مستواه، بعض الناس راتبه ممتاز، وهو موظف كبير، ويمكنه أن يعيش أهله برفاه لأن الله تعالى



وسَّع عليه، غير أنه يقتَر عليهم، فأكلهم صعب ولباسهم كذلك، وبدلاً من إظهار نعمة الله تعالى عليه، يبخل بها على أقرب الناس إليه، والأشد منه اللئيم الذي من النادر أن يعطي، قال الإمام عليه السلام: «وقلة الندى»، الندى هو الطلل على الأشجار والزهور، وهو قليل جداً، ونقاطه صغيرة أشبه بالرزاذ، واللئيم بالإضافة إلى ذلك قبيحة ألفاظه يُسمَنَز منه إذا نطق، ويود السامع أن يكون في غاية البعد عنه، إنَّ الكلام الطيب له تأثيره الطيب، والسيء له تأثيره السيء، ولا يقتصر لؤم اللئيم على شحه فحسب، بل في فحش كلامه.

حقيقة السماحة

سئل عليه السلام عن السماع فقال: «البذل في السراء والضراء».

السماحة صفة البازل في السراء والضراء والشدة والرخاء، هناك من يملك المال الوفير ويبذل منه، وإذا قلَّ ماله توقف، لقد رأيت شخصيات من طلبة العلم وغيرهم من الأثرياء والمتوسطين من الناس عندما تأتيه الدنيا يكون كريماً، وإذا أدبرت عنه أمسك، وهناك من يعطي عند إقبال الدنيا وإدبارها، فيُقدِّم، وتلك هي السماحة، وهي من صفات أهل البيت عليهم السلام، قال الإمام عليه السلام زين العابدين: «أيها الناس أعطينا ستاً وفضلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين..»^(١)، البذل في السراء والضراء سماحة.

حقيقة الشح

سئل عليه السلام عن الشح فقال: «أن ترى ما في يدك شرفاً وما أنفقتَه تلفاً».

الشح صفة مذمومة، ومن اتصف بها رأى أنَّ ما يملكه شرف، وما يُقدِّمه لئسهم به في مشروع اجتماعي أو اقتصادي يعود نفعه على الجميع خسارة وتلف، وعكسه من اتصف بالإيثار، كلما أسهم في نفع الآخرين علته سمات البشر فغطت محياه، وظهرت

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج ٤٥، ص ١٣٨.

على جميع وجلة حياته، لزوال الشح عنه باتصافه بالسماحة والكرم، أما من رأى ما في يديه شرف، وما أنفقه في سبيل الله تعالى تلف، فذلك الشحيح، إن تقديم المال في سبيل الله تعالى للإسهام في الواقع الاجتماعي ذخيرة للعبد تعود عليه بالخير في دنياه وأخراه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) (الحشر)، ومن أراد أن يقي نفسه الشح عليه البذل والكرم، ليكون قريباً من الله تعالى وقريباً من الناس ومحوباً عند الله تعالى ومحوباً عند الناس، ولا يكون كذلك إلا إذا أعطى في السراء والضراء، والشدة والرخاء.



السلوك الأخلاقي عند الإمام الحسن العسكري عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة) صدق الله العلي العظيم.

التوجيه الاجتماعي

الإمام العسكري عليه السلام غصن الدوحة المحمدية ومآثره كثيرة، وجهاده على أصعدة متعددة، ومن أهم إسهاماته عليه السلام الإرشاد والتوجيه المستمر لأتباعه وشيعته، وتوجيهاته عليه السلام حكم يستضيء بها السائرون على طريق أهل البيت عليهم السلام بل هي نور يستضيء به الإنسان بغض النظر عن انتمائه العقدي.

العزة في اتباع الحق

صدرت من الإمام عليه السلام توجيهات في بناء فكر الفرد والمجتمع، قال عليه السلام: «ما ترك الحق عزيز إلا ذل ولا أخذ به ذليل إلا عز»^(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (يونس: ٦٥) وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)، تتأتى العزة بالسير على الصراط المستقيم والأخذ بالصواب وترك الباطل، وهناك من يسير في الاتجاه الصحيح برهة من الزمن، فيصل إلى مراتب غير أن الغرور يأخذه، فيتصور أن ما حصل عليه من مكانة وما تبوئه من مقام، بسبب ذاتي لشخصيته

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٦٥٥.

ناس أنّ السبب الرئيس للعزة هو أخذه بتقوى الله تعالى وسيره في الصراط السوي وإتباعه للحق، وعندما يتخاصم مع أحد يدع الحق ظناً أنّ مكانته السامية تستتبع التغلب على خصمه وإن لم يأخذ بالحق، والإمام عليه السلام يضع فيصلاً لهذه الثلة من الناس، يبين فيه أنّ عزة الإنسان تكمن في أخذه بالحق، ولا تتأتى بتركه، ومن ترك الحق ذلٌّ وإن كان عزيزاً، ومن أخذ به عزٌّ وإن كان ذليلاً، لأنّ الله تعالى يتولى أمره ويرفع مكانته ويأخذ به إلى الخير.

الوسطية والاعتدال

من توجيهاته عليه السلام: «من تعدى في طهوره كان كناقضه»^(١).

يبين الإمام عليه السلام مطلباً جدُّ هام هو الوسطية، وهي مبدأ عام في المواقف التي يقفها الإنسان في العبادات والأعمال التي يقوم بها، يحتاج أن يكون وسطاً بين الإفراط والتفريط لا غالٍ ولا قال، لأنّ وسطيته توجب التقدم له في مجالات الحياة، والعكس من ذلك إذا غالى، فغلوه حتى وإن كان في أمر حسن يوجب البعد عن الصواب، والغلو في الطهور من ذلك، فمن توضأ مرات متكررة جره ذلك إلى الإصابة بالوسواس القهري ولا يتمكن عندئذ أن يتوضأ لغلوه، والأمر كذلك في أي مجال من المجالات فمن تعدى في عباداته، وأراد أن يترك النساء ويذهب إلى صومعة فقد ابتعد عن السنّة، جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن ثلاث نسوة أتين رسول الله ﷺ فقالت إحداهن: إن زوجي لا يأكل اللحم، وقالت الأخرى: إن زوجي لا يشم الطيب، وقالت الأخرى: إن زوجي لا يقرب النساء، فخرج رسول الله ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللحم ولا يشمون الطيب ولا يأتون النساء، أما إني أكل اللحم وأشم الطيب وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢)، والإمام العسكري عليه السلام يشير إلى



(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٣٧٤.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٠٧.

ضرورة الأخذ بالوسطية في العبادات خصوصاً في الطهارة، إذ أنّ بعض من يتعدى في طهوره لا يستطيع أن يصلي بل يقضي صلاته لإعادته الوضوء مرات حتى تغرب عليه الشمس، وقوله عليه السلام: «كان كناقضه» بيان أنّ زيادة الشيء عن حده تقلبه إلى ضده.

التروي في حال الغضب

من إرشاداته في الغضب، قوله عليه السلام: «الغضب مفتاح كل شر»^(١).

يحتاج الإنسان الهدوء والسكينة والتروي في المواقف التي يحدث خطأ فيها، وكلما كبر الخطأ احتاج إلى ترو أكثر، وتفكير متأن قبل اتخاذ القرار، إلا أنّ بعض الناس إذا رأى خطأ فادحاً غضب وجره الغضب إلى ما لا تحمد عقباه، إنّ الغضب مفتاح للسوء والشر، إذ يجر إلى أمور سيئة، والعكس من ذلك التروي وإبعاد النفس عما حدث من خطأ والتفكير في معالجة الأمر بآناة، فإنّ ذلك يؤدي إلى الصواب والرشد والبعد عن الباطل.

التدرج في العلاج

وفي إرشاد آخر قال عليه السلام: «رياضة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجز»^(٢).

يشير عليه السلام إلى أنّ الإنسان بحاجة إلى خطوات مسبقة وعدم معالجة بعض الأمور بطريقة مباشرة، ولا بداية البدء بمقدمات قبل إعطاء العلاج، من ذلك ترويض الجاهل، فالجاهل لا يعطى الأوامر كمعادلات رياضية، فذلك غلط، وهو لا يفهم المعادلة، وبحاجة أن يسير في الاتجاه الصحيح قبل إعطائه الأمر، ومن أراد استجابة الجاهل له قبل ذلك فكأنه يريد إحداث معجزة، إذ الجاهل لا أرضية له، وهو بحاجة إلى مقدمات مسبقة قبل أمره، وكذلك من اعتاد شيئاً فإنّ قلب عادته كالمعجز، العادات الخاطئة كالجليل، ومن الصعوبة إزالة الجليل عن موضعه، ومن أراد تغيير العادة عليه

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٣٧٣.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٣٧٤.

أن يبدأ بمقدمات يشير فيها إلى سوءها، ويبين الصواب فيها، ومن ثم يبدأ بالسير لیتاح له تغيير العادة السلبية إلى إيجابية أو تغيير يسيراً منها، والتدرج في ذلك لحسم الأمر، أما البدء بالأمر مباشرة فإنه خطأ كبير كالأمر بترك التدخين لمن تعود عليه إذ لا يتمكن من تركه من أول يوم، وذلك أشبه بإحداث معجزة، ولا يتأتى ذلك إلا بمقدمات وإعطاء جرعات من التعليم لتركه.

التواضع وسيلة للرقى.

من حكمه عليه السلام قوله: «التواضع نعمة لا يحسد عليها»^(١).

إن كثيراً من النعم تتوجه لها العيون كالصحة فيحسد المرء على صحته، والمال وهو نعمة وخير، يتاح لصاحبه التصديق على الفقراء والتوسعة على النفس والعيال لكنه يحسد في ماله، والجاه فيحسد المرء على وجاهته، وهناك نعمة عظيمة لا يحسد عليها رغم عظمتها كالتواضع، هو من أفضل النعم، يتاح به للمتواضع الرقي باطراد دون توقف ويكون محلاً للطف الله تعالى وعطائه ومباركاً، ومن أنعم الله تعالى عليه بالتواضع فأصبح متواضعاً تطور في علمه ورقيه المعنوي والاقتصادي وارتقى في جميع المجالات، إن الله تعالى جمع له الخير كله للمتواضع، ومع ذلك لا يحسده الناس على تواضعه، وتلك نعمة عظيمة يُنعم الحق تعالى بها على بعض خلقه دون أن يحسد عليها.

البلاء والنعم الإلهية

من حكمه عليه السلام قوله: «ما من بلية إلا والله نعمة تحيط بها»^(٢).

هذه حكمة جد هامة يُلفت إليها في الشدائد التي تمر على الإنسان، فالدنيا فيها الكثير من الابتلاءات، يصاب المرء فيها بالقلق والمرض وكثير من البلايا، وينظر

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٣٧٤.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٥، ص ٣٧٤.

البعض إلى الجانب السلبي من الابتلاء فحسب، ولا يلتفت إلى الجانب الإيجابي له، غير أن هناك كثيراً من المصالح تعود على المؤمن في ابتلائه بل على غيره، ويرى العرفاء أن البلاء حسن للمسيء من الناس يقلل من سوءه، أما المتقي فبلاؤه نعمة يصقله ويطهره من الذنوب ويعلمه الصبر، وتترتب خيرات كثيرة على البلاء، قال عليه السلام: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وإن أصابه ما يحب حمد الله عليه، فكان له خيراً، وإن أصابه ما يكره، صبر عليه، فكان خيراً له»^(١)، إن حصلت له نعمة فهي خير له، وإن أصابه سوء فهو خير له، إلا أن كثيراً من الناس لا يتوجه إلى الجنبه الإيجابية من البلاء وقد يلتفت إليها بعد حين ومضي مدة فيرى أنه لو لم يصب بتلك البلية لم يصل لما وصل إليه، فالمرض بلاء لا تعد فوائده ولا تحصى، فهو يطور الشخصية، ويخلص من السلبات، والإمام عليه السلام يشير إلى الجانب الإيجابي من الابتلاء الذي يصاب به المرء، وأن على من أصيب ببلاء أن لا ينظر إلى الجانب السلبي فقط، بل يدقق النظر ويلتفت إلى كثير من الحثيات الإيجابية في الابتلاء.

آثار الرغبات الجامحة

من توجيهاته عليه السلام قوله: «ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذله»^(٢).

حري بالمؤمن أن لا تذله رغباته، إلا أن بعض الناس يطمح في شيء رغم كونه متقياً، ويخل ذلك بمقتضيات إيمانه ويبعده عن جادة الصواب، وقد سمعنا عن شخصيات من الخيرين قُصِرَ نظرهما على شيء كالجاه أو المال فأذلوا شخصياتهم بذلك وامتهنوا ذواتهم، وقد خرج بعضهم عن مقتضيات الإيمان، ويفصح الإمام عليه السلام عن أمر هام هو أن المؤمن عليه أن يلتفت إلى ارتباطه بالله تعالى وعزة شخصيته، ولا ينبغي له إذا لم تتح له الظروف الوصول إلى ما يبتغيه أن يمتن

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج ٥، ص ٣١٤.

(٢) نفس المصدر السابق.



شخصيته ويحيط من مكانته ويقلل من شأنه، بل عليه أن يلتفت إلى أنّ الإيمان منحة إلهية أعطاه الله تعالى إياها، ويبقى عزيزاً لا يمتهن شخصيته بما يطمع في تحقيقه.

إنّ بعض المؤمنين يتواضع لمن لا ينبغي التواضع له لكونه يريد الحصول على شيء، وقد يحيط ذلك من علو قدره ومكانته، وحرى به أن يتعد عن هذا ويلتفت إلى علو قدره، وأهمية ارتباطه بالحق تعالى، ويبتهل إلى الله تعالى أن يوصله إلى ما يبتغيه إن كان له صلاح.



إضاءات مشرقة من حكم المصطفى ﷺ

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١) صدق الله العلي العظيم.

الاسترشاد بحكم النبي ﷺ

النبي ﷺ رحمة الله التامة لعوالم الوجود، والاسترشاد بحكمه وهديه فائدة للإنسان في دنياه وآخرته، وللرسول ﷺ إرشادات وحكم متعددة غاية في الإفادة، نستهدي ببعضها بمناسبة مولده ﷺ:

الأولى: أهمية الصبر.

من حكمه ﷺ: «من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز»^(١).

في الحياة الدنيا ابتلاءات ومصائب كثيرة على النفس والمال والولد، والأصدقاء الذين يجهم المرء ويرتبط بهم عقدياً أو فكرياً ويمرون بابتلاءات متعددة قد لا يجد الإنسان إلاّ الجزع إذا لم يصبر، وقد يؤدي به جزعه إلى غير رشد، وليس هناك في هذه الموارد إلاّ الصبر كما قال ﷺ، وإذا لم يصبر فقد ينسلخ عن دينه، لذا أكدت الروايات على الصبر في مجابهة شدائد الحياة، والمصائب التي تمر على الإنسان وعلى من يحبه، والصبر على أداء العبادات واجتناب المحرمات درع حصينة وجلياب يقي الكثير من المتاهات.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٨، ص ٨٣.

الثانية: التعامل مع الناس.

ومنها قوله ﷺ: «من قرض الناس قرضوه ومن تركهم لم يتركوه»، قيل: فأصنع ماذا يا رسول الله؟ قال: «أقرضهم من عرضك ليوم فقرك»^(١).

هذه من أعظم الحكم فائدة للإنسان، إذ أنّ طبيعة الناس إذا اعتدى عليهم أحد ردوا له الصاع صاعين، وأكثرهم لا يتقيد بالقانون، واتباع الدين، فإذا أساء إليه أحد حاول أن يزيد في رد الإساءة.

إنّ من تتبع عورات الناس أو أساء إليهم أحاطوا به من كل حذب وتصيدوا عليه أبسط الأشياء، وذلك معنى قوله ﷺ: «من قرض الناس قرضوه»، أي من أساء بإساءة بسيطة اجتمعت عليه إساءات أكثر مما أساء.

أما قوله ﷺ: «ومن تركهم لم يتركوه»، ففيه عمق الحكمة، لأنّ الإنسان حتى وإن كف لسانه، فإنّ إساءة الآخرين ستستمر أيضاً، أي أنّ من مشى على جادة الاستقامة والصواب لم يضمن كف ألسنة الناس عنه، وعليه إذا لم يُسَئ وأساء الآخرون إليه إيكال الأمر إلى الله تعالى، وجعل إساءاتهم في ميزان الاحتساب، لذا بين ﷺ أنّ من ترك الناس لن يتركوه، وانتبه السامع إلى غرابة ذلك، وأراد النبي ﷺ أن يشير إلى بعض الناس الذين لا يسلم أحد منهم وشأنهم تتبع عيوب الناس.

التخلص من أذى هذا الصنف لا يكون إلاّ بعدم الالتفات، لذا قال، «أقرضهم من عرضك ليوم فقرك»، ومعناه ادخر إساءتهم لك عند الله تعالى ليوم تحتاج فيه إلى الحسنات، وسيكافئك الله تعالى بإساءتهم إليك بحسنات في ميزانك.

الثالثة: التطبيق الجاد للإسلام.

ومنها قوله ﷺ، قال الله تعالى (حديث قدسي): «هذا دين ارتضيه لنفسك ولن يصلحه إلاّ السخاء وحسن الخلق، فأكرموا بهما ما صحبتموه»^(٢).

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٤٨.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٤٨.



يتحدث الحق تعالى عن الدين الإسلامي وعن عظمته، ويبيّن كماله وأنه ارتضاه لنفسه تعالى لاشتماله على ما يصلح دنيا الإنسان وأخراه، وإلى ما يصلح الكون كله، ثم يبيّن الحق تعالى احتياج الدين الإسلامي إلى أمرين:

الأول: الاتصاف بالكرم والسخاء.

من أراد أن يكون سائراً على شرائع هذا الدين عليه أن يتصف بالكرم والسخاء والإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذه الصفة غاية في الأهمية، إذ أنّ كثيراً من الناس لا يفهم معطيات الكرم والإنفاق في سبيل الله تعالى، ويكتفي بالصلاة والصوم والحج وسائر العبادات، وعندما يحتاج أمر إلى بذل يتوقف، مع أنّ كثيراً من القضايا كالإصلاح بين الناس والإصلاح بين الأرحام والأقارب لا يتم إلاّ بالسخاء والإنفاق في سبيل الله تعالى، وقد يكون بإعطاء المال بنحو غير مباشر كما إذا كان المتخاضمون لا يحتاجون إلى المال، فهنا يكون البذل بنحو غير مباشر بجمعهم على وجبة طعام للتأليف بين قلوبهم، فالسخاء أشبه بالزيت للمحركات، إذ قد يصدأ المحرك أو ينكسر دون زيت، وكذلك الإنفاق في سبيل الله تعالى.

الثاني: الأخلاق الكريمة.

إنّ على المسلم التعامل بالخلق الكريم، وقد فسره ﷺ بمكارم الأخلاق - تحسن لمن أساء إليك وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك - فمن أساء إليك كأنه لم يسيء، بل تكافئه بالإحسان بدل إساءته خصوصاً إذا كان من الأرحام أو الأصدقاء أو زملاء العمل، إذ قد يبتلى بنمط من الناس جاف في علاقاته الاجتماعية، وغليظاً في التعامل فتحتاج إلى ترطيب الأجواء مع هذا الصنف من الناس، والحق تعالى بيّن أنّ الإسلام إذا لم يصحب بخلق كريم لن يحسن، «فأكرموا بهما ما صحبتموه» أي أنّ السير على القسطاس المستقيم والتطبيق الجاد لعبادات ومعاملات الدين الإسلامي لن يتم دون سخاء وحسن خلق.



الرابعة: مداراة الناس.

ومنها قوله عليه السلام: «أمرت بمداراة الناس كما أمرت بتبليغ الرسالة»^(١).

هذه من أعظم الحكم، وقد جاءت بتعبيرات مختلفة، ولبیان أهميتها قرنت بتبليغ الرسالة، فكما لا يمكن التواني وإغضاء الطرف عن ذلك، كذلك الأمر في مداراة الناس، المداراة هي غض الطرف والتعامل بمكارم الأخلاق مع من يسيء إليك أو إلى غيرك، والبدء بتحسين خُلُقهِ تدريجياً وأن لا تنظر إلى الجانب السلبي في تعاملك معه بل تنظر إلى إيجابياته وتغض الطرف عن سلبياته، تلك هي المداراة، إذ لا أحد إلا ولديه كثير من السلبيات، وإذا ركز على سلبيات الناس وذكرت بعض إيجابياتهم، فإن ذلك لن يروق لهم، بل قد تجاب من قبلهم بمثل ما أبديته لهم، ويقال إنك تتصف بذلك أيضاً، لكن عندما تبدأ بالجانب الإيجابي وتبرز هذه الجنبه لدى الناس ثم لا ترى الجانب السلبي بل تمر عليه مرور الكرام، وتعبر عن اتصف ببعض السلبيات بقولك يحسن بك أن تترك ذلك الشيء الصغير ولا يليق اتصافك به مع صفاتك الجميلة، عندئذ يتعامل الناس وإياك برفق لدفع العلاقة ووثام المحبة، وذلك مصداق قوله عليه السلام: «أمرت بمداراة الناس كما أمرت بتبليغ الرسالة».



الخامسة: حقيقة الإيمان.

ومن حكمه عليه السلام قوله: «الإيمان نصفان نصف في الصبر ونصف في الشكر»^(٢).

الإيمان هو أداء التكاليف وليس الاعتقاد النظري المجرد فحسب، بل عمل يحتاج إلى تطبيق، ولا يتحقق إلا بصبر وقوة عزيمة، وثبات على الحق، وقد بُيِّن في آيات متعددة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، لأهمية الالتزام الجاد بالشرع الحنيف.

والنصف الآخر الشكر، ومعناه تسخير النعم التي أعطاها الله تعالى في الطرق التي

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٥١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٥١.

يرتضيها، فأني نعمة من النعم تسخر في سبيله تعالى، من آتاه الله تعالى جاهاً عريضاً أو علماً أو موهبة سخرهم في سبيله تعالى، ذلك معنى الشكر، وهو صعب لا يكون إلاّ لقليل من عباد الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣)، ذلك أنّ كثيراً من الناس لا ينفقون النعم في طريق الحق تعالى، فليسوا بشاكرين، يختلف الشكر عن الحمد، فالحمد ثناء على الله تعالى باللسان فحسب، بينما الشكر ثناء على الله تعالى باللسان وتسخير المواهب والنعم في سبيله تعالى.

والنبي ﷺ أفصح أنّ حقيقة الإيمان أمران نصفه صبر - أداء التكليف وصبر على النوائب - ونصفه شكر بتسخير النعم لله تعالى.

السادسة: مكافئة المحسن.

ومن حكمه ﷺ قوله: «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فائتوا فإنّ الثناء جزاء»^(١).

إنّ أي إنسان سواء كان من الأقارب أو الأبعدين قدم معروفاً ينفعك أو ينفع الآخرين، حاول أن تكافئه بحسن الصنعة، فذلك غاية في الأهمية، غير أنّ كثيراً من الناس يرى المعروف من أقرب الناس إليه كولد يرب به أو يحسن إليه دون أن يكافئه، وقد يرى أحد أصدقائه المؤمنين يقدم عملاً جميلاً ومفيداً للمجتمع لكنه لا يكافئه بحسن صنيعته، بتقديم هدية إليه أو بعمل جميل له، هناك وسائل للمكافئة بحسن الصنعة ك شراء كتاب لولدك البار أو إعطاء هدية رمزية كدرع أو قلم تدل به على شكرك وثنائك للجميل، والنبي ﷺ يوضح أهمية رد الإحسان بالجميل والإحسان «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فائتوا فإنّ الثناء جزاء» أي إذا لم تتوافر الهدية، عليك بالكلمات الجميلة الطيبة تبين فيها أهمية الصنع الحسن.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٥٢.

السابعة: الرفق واللين.

ومنها قوله ﷺ: «من حرم الرفق فقد حرم الخير كله»^(١).

إنَّ من يتعامل بالغلظة والقسوة سوف يحرق جميع إيجابياته، وذلك خرق ضد الرفق -إنسان عنصري- لا يتعامل برفق وأناة في أموره، بل بقسوة وغلظة، ومن يفعل ذلك فقد حرم الخير كله، وقد بينَّ ص هذه الحكمة بتعبيرات مختلفة كقوله ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلاَّ زانه، ولا كان الخرق في شيء إلاَّ شانه»^(٢) وأكد في حكم كثيرة على أهمية ذلك، أي إنَّ على الإنسان أن يكون رفيقاً في ألفاظه وتعامله، يتجنب الغلظة، ويقبل من الآخرين إلاَّ أنَّ بعض الناس تقدم إليه النصيحة فيرد بأنَّ ما نصحتني به أنت أولى بتطبيقه لغلظته وجفافه في العلاقات، وتجد من يتصف بالمرونة والرفق يلاقيك بالابتسامة العريضة وانشراح الصدر، ويدعوك بعد نصحه، الناس على صنفين من يتصف برفق ومرونة ودمائة في الخلق، ومن يجابه كل شيء بمثله وهو الأخرق الذي لن يصل إلى ما يريده لإبعاده الناس عن نفسه.

حري بالمسلم أن يستفيد من حكم النبي ﷺ كدروس في ذكرى مولده الشريف.



(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٥٢.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٤، ص ١٥١.

صفات العاقل: من أضواء المبعث

نبارك لكم جميعاً ذكرى المبعث الشريف، انطلاقة النور الإلهي لتعم البشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

بيئة البعثة

بين القرآن الكريم ملامح رسول الله ﷺ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)، ويهمننا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إذ أنّ النبي ﷺ رحمة للعالمين، وقد بُعث في بُرْهة زمنية مليئة بالفتن والفتن إلى قوم عُرفوا بالهمجية وعدم احترام القانون والتعدي على القيم والمثل، بيد أنهم اتصفوا ببعض مكارم الأخلاق، ليس كظاهرة سائدة لدى الكل، وإنما لدى بعضهم، كإقراء الضيف واحترام الجار، إلا أنّ الأكثرية الساحقة ديدنها التعدي على القيم.

سر بعثة النبي ﷺ إلى العرب

من قرأ التاريخ وتأمل في الحروب كداحس والغبراء وغيرها التي استمرت عشرات السنين لأجل توافه من الأمور، يدرك أنّ الأمة العربية التي بعث فيها النبي ﷺ في الحضيض من الأمم، وقد بعثه الحق تعالى ليدل على عظمته ﷺ وعلى قدراته الخلاقة، حيث إنّ باستطاعته أن ينتشل هذه الأمة التي لم تتحضر، وهي في ضلال مبين

كما عبّر القرآن ليكون انتشال الآخرين من الأمم الأخرى أسهل، لأنّ النبي ﷺ إذا استطاع بحكمته أن يرفع مستوى هذه الأمة من الحضيض، فمن السهولة بمكان أن يأخذ بأيدي الأمم الأخرى إلى مكارم الأخلاق.

القيم في البعثة النبوية

وقد ركز ﷺ على مجموعة من القيم، عبر عنها بقوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١)، أي أنّ الهدف من بعثته إرساء مكارم الأخلاق وليس محاسنها، للفارق الجوهرى بين المكارم والمحاسن، فالمكارم قيم لا يتصف بها إلا الأماثل من الناس، كالغفو عن ظلم، والإحسان لمن أساء، ووصل من قطع، أي التعامل بالمرونة والرفق للأخذ بأيدي الغير إلى السداد والصواب، وكان ﷺ في كل صلاة من صلواته وفي كل اجتماع من اجتماعاته يتحدث ليس للعرب فحسب، وإنما للبشرية جمعاء، لنا نحن في عصرنا والعصور والأجيال الآتية، وقد تحدث عن شخصيته ﷺ الكثير، ليس ممن آمن به فقط، بل ممن لم يؤمن به، وقد راقني تعبيراً لأحد العلماء قال فيه: إن النبي ﷺ لو خرز حذاءً، لما استطاعت البشرية جمعاء أن تفكك ذلك الحذاء لأنه في غاية الإحكام، والتعبير كنائي، أي أنه ﷺ إذا أحكم أمراً بسيطاً واجتمعت البشرية على تفكيكه لن تستطيع إلى ذلك سبيلاً لحكمته ﷺ.

خصال العاقل

ويهمنا في مبعثه الشريف أن نذكر هديه وإرشاده، فقد بين ﷺ أهمية العقل، وأعطى له علامات عشر ينبغي أن يتصف بها العاقل، قال ﷺ: «والعقل يلهمه الله السعداء ويحرمه الأشقياء، وصفة العاقل أن يحلم عمن جهل عليه ويتجاوز عمن ظلمه ويتواضع لمن هو دونه ويسابق من فوقه في طلب البر، وإذا أراد أن يتكلم تدبر، فإن كان خيراً تكلم فغنم وإن كان شراً سكت فسلم وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلة انتهز بها، لا يفارقه الحياء ولا يبدو منه

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٦، ص ٢١٠.

الحرص، فتلك عشر خصال يعرف بها العاقل»^(١)، وسنستعرض هذه الخصال على التوالي:

الأولى: الحلم مع الجاهل.

يصف عليه السلام العاقل بالحلم عمن جهل عليه، إذ أن الإنسان يواجه كثيراً ممن يجهلون عليه، لكنه بالحلم لا يتأثر بهم، فالحلم سيد الأخلاق وبه يستطيع المرء أن يقابل جهل الجاهلين عليه، دون ردود فعل سلبية.

الثانية: الصفح عمن ظلمه.

قال عليه السلام: «ويتجاوز عمن ظلمه».

إن الحياة فيها الكثير من الظلم، خصوصاً من الذين لم يعرفوا الحق تعالى، ولم يعرفوا الفضائل والمثل، وانحصر همهم في الدنيا البسيطة، وقد يأتي الظلم من أقرب الناس إليك فيتجاوز عليك ويظلمك حقك، كزميلك في المهنة، وأقرب المقربين إليك كأخيك، فكيف بالأبعد منك، غير أن من اتصف بالعقل فلن يضره ذلك، بل يقابل ظلم الظالم بالتجاوز، والنبي عليه السلام وهو الأسوة قابل ظلم قومه بالدعاء لهم قال عليه السلام: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»^(٢)، فكان تعامله عليه السلام بالتجاوز عن ظلم الظالمين، ويكفينا موقفه في مكة عندما قال لمن تعدى عليه بالتعديات الكبيرة: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا له: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه السلام: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٣).

الثالثة: التواضع للآخرين.

التواضع لمن هو دونه، وهو صفة العاقل، خصوصاً إذا تكاملت شخصيته، وسار بها إلى العالم الأرفع، فيجد الكثير من الناس الذين لم يعرفوا الطريق، وهم في أدنى

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٠٤٥.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢٠، ص ٢١.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٩، ص ١٨١.

السلم، غير أنه لن يشمخ عليهم بأنفه، بل يأخذ بأيديهم برفق ليرفعهم إليه، فيتواضع لمن هو دونه.

الرابعة: التنافس في الخير.

قال عليه السلام: «ويسابق من فوقه في طلب البر»، أي إذا وجد من هو أعلى وأرفع منه درجة، فيسابقه في طلب البر، ويحاول أن يصل إلى المراتب التي وصل إليها ذلك الأرقى الأفضل.

الخامسة: التفكير في نطقه.

وهي سمة رائعة وجميلة يتصف بها العاقل، بل هي دليل عقله وعلامة حكمته، فيتدبر ويمعن النظر مفكراً قبل أن يتخذ قراراً، بدءاً من كلامه فإذا أراد أن يتكلم تدبره، فإن كان خيراً تكلم به فغنم، وإن كان شراً سكت عنه فسلم، وما أروعها من صفة، فكلامه لن يصدر منه دون تدبر وإمعان نظر وإجالة فكر فيما يريد أن يتفوه به، وعندما ينظر إليه بإمعان ويرى أنه خيراً فيتحدث به ليغنم، لأن الحديث يجز الخير له وإلى الآخرين، وإن كان في الحديث سلبيات سكت فسلم، واتخذ السكوت درعاً وجلباباً ليسلم.



السادسة: الانصياع للقانون.

قال عليه السلام: «وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله وأمسك يده»، الإنسان معرض لفتن وامتحانات في حياته، وعليه أن يتعلم كيف يواجه تلك الفتن، والنبي ص يعلم قومه الذين يأخذون ما يريدون بأيديهم دون قانون، ولعل تلك الرواسب ما زالت باقية إلى عصرنا الراهن، فالكثير لا ينصاع إلى القانون والأحكام الشرعية، ويدخل في الفتن دون أن يخرج منها، ويبين ص أن على المرء الاستعصام بالله إذا عرضت له فتنة، باللجوء إلى شرعه والتوكل عليه والأخذ بتعاليمه تعالى، ثم الإمساك بيده، والتعبير كناية عن أنه حتى إذا كان يمتلك القوة فلن يأخذ بها ما يريد دون قانون، وما أروع من تعبير.

السابعة: ضبط اللسان.

قال ﷺ: «وأمسك يده ولسانه»، ولعل أفضل ما نفسر به ذلك في عصرنا أنه كناية عن الإعلام، فقد يمتلك المرء الإعلام الهائل، فيسخره في الفتن ضد من لا يرتثيه أو يختلف وإياه وإن كان دون وجه حق، وهمه أن ينتصر على غيره بالظلم، ويحذر ص من مغبة ذلك والعواقب السيئة التي يجرها في الآخرة، بل انتقام الله تعالى منه في الدنيا.

الثامنة: اغتنام الخير.

قال ﷺ: «وإذا رأى فضيلة انتهز بها».

العاقل ساع إلى الفضائل، يريد أن يحصل على الخير، وذلك ديدنه، وهذه السمة ليست للفرد فحسب، بل هي صفة للأمة العاقلة التي تحاول الظفر بالفضائل، وقد رأينا كيف تفعل الأمم المتقدمة؟! فالتسونامي الذي حدث في اليابان جعل الأمم المتحضرة تتعلم من اليابانيين، وتأخذ بحكمتهم، وليس في ذلك عيب، إذ لديهم مُثل وخلق وتعاليم بعضها من تعاليم السماء، فالتكاتف والتآزر وانتهاز الفضائل لإيصال النفع إلى أمتهم جمعاء، والنبى ﷺ يغرس هذه الفضائل في الفرد لأنه اللبنة لتشكيل المجتمع.

التاسعة: كثير الحياء.

قال ﷺ: «لا يفارقه الحياء».

العاقل حيي، نقرأ في صفات رسول الله ﷺ أنه أشد من العذراء في خدرها، يستحي من القبيح وذكره، بينما من لم يتحضر ولم يأخذ تعاليم الأنبياء والرسول أبعد ما يكون عن ذلك في فحشه وبذاته في إعلامه، وتسليطه الضوء بما يمتلك من قدرات على من يختلف وإياه، أما العاقل فلا يفارقه الحياء.



العاشرة: انتفاء الحرص.

قال عليه السلام: «ولا يبدو منه الحرص».

يختلف العاقل عمن تعلق بالدنيا وتمسك بأهدافها ولم يعرف عالم المعنى فهو أحرص الناس عليها، بخلاف العاقل فلا يبدو منه الحرص عليها.

ثم قال عليه السلام: «فتلك عشر خصال يعرف بها العاقل»، أي إذا توافرت هذه الخصال العشر في المرء سار في طريق الصواب وكمال العقل، فإذا حاول المرء أن يجذر هذه الصفات في شخصيته هُدي إلى الرشد وأخذ بالسداد.

الإشادة بالعقل

وتعاليم النبي عليه السلام كثيرة خاصة في الإشادة بالعقل، ومن أروع ما جاء عنه عليه السلام قوله: «إنَّ الله خلق العقل فقال له: أَقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال جل وعلا: ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، بك أثيب وبك أعاقب، ولا أكملتك إلا فيمن أحب»^(١)، والحديث فيه تعبيرات رائعة منها: «أقبل فأقبل»، و«أدبر فأدبر»، للتدليل التام والانصياع الكامل لأوامر الله تعالى والتقيد بالقانون الإلهي، إذ أنَّ مشكلة البشرية هي عدم الانضباط والرعاية للقانون، فإذا سار الإنسان على هدي السماء وصل إلى ما يبتغيه، لذا أشاد النبي عليه السلام بذلك بالطاعة التامة والانقياد للقانون، فقد بين ثناء الحق على المطيع بقوله: «ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، بك أثيب وبك أعاقب، ولا أكملتك إلا فيمن أحب».



(١) الكافي للكليني ج ١ ص ١٠.

التأثير الإيجابي للكلمة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاشَأُ يَذْهَبَكُمُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (٢٠) ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ﴾ (إبراهيم). صدق الله العلي العظيم.

وقال النبي ﷺ: (الكلمة الطيبة صدقة)^(١).

تأثير الكلمة على الإنسان

للکلمة الطيبة الأثر الفاعل والكبير، على المتكلم أولاً وعلى المستمعين لها ثانياً، لذا جاءت أي القرآن الكريم وروايات النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام مبينة الأهمية الفائقة للكلمة والكلام، الذي يتحدث به المرء، لنفسه أو للمستمعين إليه، فالكلمة ترفع مقام صاحبها تارة، وتخط من شأنه تارة أخرى، غير أن بعض الناس لا يتصور ما للكلمة من أثر عظيم على شخصه أو المستمعين إليه، فيطلق الكلام جزافاً ويحدث نفسه بما يعود عليه بالضرر.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٩٧.

تحديث النفس بالكلام

وينبغي هنا أن نلتفت بأن الكلمة تارة للنفس أي يحدث الإنسان نفسه بالكلام، فلحديث النفس الأثر الفاعل، وقد استعرض في آي القرآن الكريم والروايات، قال إمامنا الصادق عليه السلام : (اجتمع الحواريون إلى عيسى عليه السلام فقالوا له يا معلم الخير أرشدنا، فقال لهم: إن موسى كليم الله عليه السلام أمركم أن لا تحلفوا بالله تبارك وتعالى كاذبين وأنا آمركم لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين، قالوا يا روح الله زدنا، فقال: إن موسى عليه السلام أمركم أن لا تزنوا، وأنا آمركم أن لا تُحدثوا أنفسكم بالزنا^(١)، إن حديث الإنسان إلى نفسه بالباطل يؤثر سلباً على شخصيته، فيصبح الكلام منطلقاً لعمل سيء، يعود عليه بالمقت والسخط من قبل الله تعالى، وينبغي للمرء إذا أراد أن يتحدث مع نفسه بالحديث الحسن والكلام الطيب، ولا يحدث نفسه بالقبيح، لأن الحديث السيئ يصبح منطلقاً لعمل سيء، إذ البداية بالتفكير الذاتي ثم يتحول إلى عمل سيئ، من هنا لا بد للمرء أن يحدث نفسه إيجابياً ويتحرى كلامه ويدقق الكلمات التي يتفوه بها، لئلا تعود عليه وبالأحراراً، لا يمكن تلافيه.



التأثير السلبي للكلمة

يظن بعض الناس أن الكلمة إذا تفوه بها لا تعود عليه بالسوء، وقد أبان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما سأله أبو ذر عن تأثير الكلام الذي يتحدث به الإنسان، فقال: يا رسول الله، إنا لنؤخذ بما تنطق به ألسنتنا؟ قال: (يا أبا ذر، وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم، إنك لا تزال سالماً ما سكّت، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك . يا أبا ذر، إن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله (جل ثناؤه) فيكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بها فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض)^(٢).

(١) الكافي للكليني: ج ٥، ص ٥٤٢.

(٢) الأماي للطوسي: ص ٥٣٦-٥٣٧.

كان أبو ذر يتصور أنّ الكلمة إذا تحدث بها الإنسان لا تعود عليه بالوبال ولا ترجع عليه بالضرر، فأبان النبي ﷺ بأنّ الكلمة تعود على المتحدث بها بأعظم الآثار السلبية.

السيطرة على اللسان

أوضح ﷺ بأنّ الإنسان يستطيع أن يقي نفسه ويسيطر على لسانه، فيتألق في الرتب المعنوية، فقال ﷺ: (من ضمن لي ما بين لحيه وما بين رجليه ضمنت له الجنة)^(١)، أي أنّ من يسيطر على فرجه ولسانه يضمن له الجنة، السيطرة على اللسان محور أولي عناية كبيرة في الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليه السلام، فالكلمة التي تنطلق منّا ونحدث بها لأنفسنا أو لغيرنا ينبغي أن توزن بميزان العقل والشرع، فيرى هل أنّ الله تعالى يرضى بها أم لا؟!

أثر الكلمة الطيبة في الأسرة

لابد من التنبيه على أنّ من أهم الأمور التي ترفع مستوى الإنسان الكلمة الطيبة، ليس لنفسه فحسب، بل لأسرته خصوصاً الزوجة، وقد أبان إمامنا الصادق عليه السلام أثر الكلمة الطيبة في شخصيتها، فقال عليه السلام: (قال رسول الله ﷺ: قول الرجل للمرأة إني أحبك لا يذهب من قلبها أبداً)^(٢)، إبراز الحب للزوجة يُشعل مصباحاً يُنير وجودها، وينعكس إيجاباً على أطفالها باعتبار أنّ ذلك النشاط والقدرة الفائقة تتحول لطفاً ورحمة على الأولاد، لذا ينبغي للزوج أن يزن كلماته، ويُرکز على الكلمة الطيبة لتُحدث أثراً مباركة، كما أنّ معرفة الإنسان تتأتى بما يتحدث به، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في بيان شخصية المتحدث: (تكلّموا تعرفوا، فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه)^(٣)، المعرفة لأدب الإنسان وأخلاقه وإيمانه بحديثه وفعله.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٥، ص ٢٥١.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ٢٠، ص ٢٣.

(٣) الأمالي للصدوق ص ٢٧٥.

طرق مؤثرية الكلمة الطيبة

ويُفهم الأثر الطيب للكلمة بوضوح من خلال ما رُوي عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: (وأحسنوا لهنَّ المقال لعلهنَّ يُحسِّنَ الفعال)^(١)، فالفعل الحسن يترتب على القول الحسن، وهذا أمر بدهي ووجداني، إذ أنَّ الكلمة الطيبة من الإحسان تستعبد المحسن إليه، ولا طالما استعبد الإحسان إنساناً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أمنن على من شئت تكن أميره)^(٢)، أي أنَّ الإحسان إلى الغير يُحوِّل أمره إلى إطاعة المحسن، أما الإساءة إليه بالكلمة فتحوله إلى عدو مبغض.

إنَّ على المرء التفكير في كلماته التي يتحدث بها إلى نفسه أو لزوجته وأسرته، فكم كلمة حولت ولداً عادياً إلى ولد صالح غاية في الجد والنشاط، استطاع أن يصنع شخصيته، غير أنَّ بعض الآباء والأمهات يُجرمن في حق أولادهم بكلمات سيئة، إنَّ كلمة واحدة قد تُحطم كبرياء شخصية الابن أو تُنزل القيم المعنوية لديه، فلا يرى لنفسه قيمة، وينبغي أن تُدرك الآثار لحديث الوالدين، فالحديث الطيب له آثار طيبة في الأبناء، أما الكلمات السيئة فتُحدث آثاراً سيئة لهم، لذا جاءت الروايات تحضنا على أن نتحدث بالحديث الحسن والطيب لأبنائنا، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (الكلمة الطيبة صدقة)^(٣)، لا يخص الأولاد، بل يشمل كل إنسان يُتحدث إليه، إلا أنَّ الأولاد أولى بذلك، وعلى المسؤول الأول في الأسرة أن يكون حديثه لأبنائه التشجيع والتحفيز والحض على القيم والمثل والخلق الفاضل والعقائد الصحيحة والأمور التي تجعل شخصية الأبناء محبوبة عند الله مرضية عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

خطر الكلمة على المجتمع

أبان إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام بأنَّ على المرء أن يعد أقواله من أفعاله، فالقول فعل، لكونه يحدث أثراً طيباً أو سيئاً، قال عليه السلام: (طوبى لمن... وأنفق الفضل من ماله،

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٩٧.

(٢) الخصال للصدوق: ص ٤٢٠.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٩٧.

وأمسك الفضل من لسانه)^(١)، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق)، أي أن الملائكة تسجل الكلمات التي يُتلفظ بها، فإذا كانت طيبة كُتبت حسنات ورُفعت خيرات عند الله تعالى، وإذا كانت خبيثة أحدثت آثاراً تعود على قائلها بالضرر والوبال.

أبعاد الكلمة في العصر الحاضر

ينبغي أن ننبه أن الإنسان كان يتحدث بالكلمات قديماً دون أن يترتب عليها الأثر الكبير، الذي يترتب في عصرنا، وقد ينتهي أمدها بانتهاء المجلس الذي يتحدث فيه، غير أن الأمر اختلف في عصرنا الحاضر وذلك بوسائل الضبط المتقدمة، فيستطيع الإنسان أن يسجل كلماته بجواله، أو يسجله الآخرون، فالتقنية الرقمية جعلت الإنسان يتقدم كثيراً، ويستطيع أن يحفظ أقواله، والكلمة التي يقولها تبقى دائمة ومستمرة، لا يستطيع أن يتخلص من آثارها، لضبطها مسجلة، لذا ينبغي أن لا يتحدث المرء إلا على ضوء الضوابط والقيم.

ضوابط وقيم الكلام

إذا التفت المرء إلى الضوابط والقيم وزن كلامه، وأصبح مؤثراً تأثيراً طيباً، أما إذا لم يلتفت لكلامه فقد يريد الخير غير أنه يُخطئ الهدف ويضل الطريق، فما أَراده من خير رجع عليه بالسوء، ذلك أن بعض الناس يريد أن يُقرب إلى الحق لكنه يُبعد عنه.

الكلمة في الحوار مع الآخر

ويحسن أن نلفت الانتباه إلى المسائل العقدية، فعلى من يحاور الغير في العقائد أن يتحرى الصدق في كلماته والوسطية في طرحه والكلمة الطيبة في حديثه، إن بعض من يتحدث في العقائد قد يبعد الناس عن الحق وذلك بعدم الإتيان للنهج السليم، فمن يتفوه بكلمات فيها من البذاءة والسوء لن يحقق مقاصده بل سيبعد الغير عن مذهب

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٤، ص ٣٣٥٠.



أهل البيت عليه السلام، روى أبو الصلت الهروي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: (رحم الله عبداً أحيا أمرنا، فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: (يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)^(١)، لأن الكلمة السيئة لا يمكن أن تُقرب الغير إلى مذهب أهل البيت عليه السلام مع أن خلقهم الكريم يحض على احترام الغير، أما الكلمة السيئة والبذينة فتبعد أقرب الناس كالزوجة والأولاد، بخلاف الكلمة الطيبة فإنها تقربهم وتفرحهم وتسهم في صنع مستقبلهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُودَ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ﴿إبراهيم﴾، الشجرة الطيبة ثمارها طيب، يؤنس بها حين قطفها، ويؤنس بأكلها وتعود بالأثر الطيب، ولا بد من إمعان الفكر وتذكر الكلمات التي تقال، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ (الإسراء: ٣٥)، وقال أيضاً: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٣٨)، آيات القرآن تحض على الكلمة الطيبة.



(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق: ج ٢، ص ٢٧٥.

الأثر السلبي لاستماع الكلمة الخبيثة

قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).

وقال ﷺ: (الكلمة الطيبة صدقة)^(١).

التأثير السلبي للكلمة.

تبين لنا الأهمية الكبيرة للكلمة الطيبة، التي أباها الذكر في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤)، واتضح بأن الكلمة الخبيثة تضاد الطيبة، ولها من الآثار ما يعاكسها، فالآثار السلبية للكلمة الخبيثة لا حدود لها، بل يصعب على الإنسان تصور الآثار السلبية للكلمات السيئة، ونشير إلى معنى هام، هو استماع الكلمة وإيصالها إلى الغير، إنَّ على من يتحدث أن ينظر إلى أثر الكلمة على نفسه وعلى غيره من المستمعين.

آداب الاستماع للكلمة

الاستماع والنقل له ضوابط جد هامة، وينبغي للإنسان أن يتحرى الصدق في نقله، وأن لا يستمع للكلام الخبيث وما لا يُرضي الله تعالى، إذ الكلمة الخبيثة إذا استمع إليها الإنسان تأثر بها سلباً، أما إذا نقلها إلى الغير أثرت عليه وعلى غيره، وهناك محاور متعددة استُعرضت في الروايات لاستماع الكلمة ونقلها:

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٩٧.

الأول: الغيبة.

يُقصد بالغيبة ذكر الغير بما فيه مع الانتقاص والخط من شأنه، ولها آثار كبيرة، كفى بالتعبير القرآني فيها غنى عن غيره، ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢)، الغيبة أكل لحم الغير ميتاً، منظر فيه بشاعة وانتهاك للإنسانية.

الثاني: النميمة.

النمام هو من يركز على الجوانب السلبية من الكلام ويتصيد نقاط الضعف فيه، لينقل ذلك للغير، قال تعالى: ﴿هَمَزَ مَشَاءً نَمِيمٍ﴾ (١١) (القلم)، النمام يهدف من نقل كلامه الوشاية وقطع أواصر الصداقة والألفة بين المتحابين، كل إنسان يمكن أن يتصيد في كلامه ضعف ما عدا المعصوم، فلا يستطيع أحد أن يجد ضعفاً في كلامه، إلا إذا جُزأ كلامه ونُقلت بعض الكلمات دون أن تُربط ببعضها وبالقرآن.

التأني في نقل الكلام

نهى الله تعالى عن الغيبة والنميمة وحذر من نقل الكلام دون تثبت، ذلك أن بعض الناس كالقادة قد يقولون كلاماً وهم في معرض بيان أمر آخر فيختلف المعنى عما يفهمه السامع، وحينئذ لا بد من التثبت.

حمل الكلام على أحسنه

للوصول إلى الطريقة المثلى في الاستماع للكلام لا بد من اعتماد خطوتين:

الأولى: أن يحمل السامع الكلام على المحمل الحسن، وهذا ما جاء في الروايات قال الإمام علي عليه السلام: (ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً)^(١).

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣٦٢.

الثانية: إذا لم يكن للكلام محمل حسن فيُرجع إلى المتحدث لِيُسأل عما نُقل عنه أصحح أم لا؟ غير أنّ بعض الناس لا يتعامل بهذا النحو، وعندما يُنقل له الكلام يُرتب عليه الأثر مباشرة، وذلك أسوأ ما يكون، فكلام الغير إذا نُقل عنه لا ينبغي أن يُرتب عليه الأثر، بل يحمل على أحسنه، وإذا لم يكن للكلام محمل حسن فيُرجع إلى قائله لِيُستفسر عن مغزى كلامه، فإذا فسره لنا قبلنا تفسيره، وهذا ما أمرنا الله به، وأمر به الرسول ﷺ والأئمة من أهل البيت عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦١)، توهم بعض بأن الرسول ﷺ أُذن أي أنه يستمع الكلام، الذي يأتيه ويصدقّه، فأوضح القرآن أنه ﷺ أُذن خير، أي لا يرتب على الكلام أثراً من الآثار السلبية، بل يرجع إلى القائل ويتثبت، لا بد من التثبت في النقل والكلام حتى المزاح منه، فلا يُمزح بالمزاح الثقيل، لأنه قد لا يستوعب بالقرائن ويؤثر سلباً، وهناك حوادث كثيرة أوجبت العداوة سببها المزاح.

عقوبة الاستماع المحرم

يستفاد من الروايات الواردة في الغيبة والنميمة أنّ السامع للغيبة والناقل لها كالمغتتاب، قال النبي ﷺ: (السامع للغيبة أحد المغتابين)^(١)، أي أنّ المستمع رغم أنه لم ينقل كلمة سيئة في الغير بقصد الانتقاص منه إلا أنه أصبح بجرم المغتاب.

الغيبة والشرك

إنّ الغيبة من أعظم الذنوب، وهي على حد الشرك بالله تعالى في الروايات قال الإمام الصادق عليه السلام: (الغيبة كفر، والراضي بها مشرك)^(٢)، أي أنّ من يرضى بالغيبة في رتبته، فالمشرك يوم القيامة يُعذب بالنار المشددة والذي يستمع للغيبة يُعذب كذلك.

(١) جامع أحاديث الشيعة للبروجردي: ج ١٦، ص ٣٤١.

(٢) جامع أحاديث الشيعة للبروجردي: ج ١٦، ص ٣٣٩.

الغيبة والخذلان الإلهي

من هنا وُجدت وظيفة شرعية لمن استمع إلى غيبة، قال النبي ﷺ: (من اغتیب عنده أخوه فاستطاع نصره ولم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة)^(١)، لا بد من نصره من اغتیب والرد على المغتاب بأن يقال له: إياك والغيبة.

مضاعفة العذاب جزاء الغيبة

وهناك آثار وضعية لمن ردّ الغيبة، قال ﷺ: (من تطول على أخيه في غيبة سمعها فيه في مجلس فردها عنه ردّ الله عنه ألف باب من السوء في الدنيا والآخرة فإن هو لم يردّها وهو قادر على ردّها كان عليه كوز من اغتابه سبعين مرة)^(٢)، إذا قدر الإنسان على رد المغتاب، ولم يرد ولم يدافع عنه يضاعف عليه العذاب سبعين مرة، وقد شرح الرواية الشيخ الأنصاري فقال: إنّ عدم الرد على المغتاب يكون سبباً في مساعدته على الجرأة على الذنوب فيصبح مصراً على المعصية.

رد المغتاب عن الغيبة

رد الغيبة يكون بالحديث مع المغتاب بأنّ ما نقله من كلام قد يُريد به المؤمن معنى حسن، لم يُلتفت إليه، وحتى إذا لم يكن للكلام وجه حسن أمكن أن يحمل عليه، يُرجع إلى قائله ويُسأل عن معنى كلامه، ومع صحة ما نُسب إليه فلا ينبغي تعييره بذلك إذ أنه ليس بمعصوم، وقد يصدر منه الاشتباه والغلط، فالمعصوم هو الذي لا يصدر منه الغلط، أما غيره من المؤمنين يمكن أن يصدر الغلط منه، ولا ينبغي أن تُثار نقاط الضعف في المؤمنين، ويُتحدث عنها على أنها صحيحة، بل ينبغي التأكيد على المغتاب بالتوبة والاستغفار من ذنبه، وبيان أنّ وظيفته ذلك لا الانتقاص من الناس، ويستحب إذا رأى المؤمن أخاه ارتكب ما يُنقصه أن يستغفر له ويدعو له وينصحه سراً، ولا يُشهر به.

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج ٤، ص ٣٧٢.

(٢) الأُمالي للصدوق: ص ٥١٦.

النميمة سبب الفتنة

بينت الروايات والآيات بأن النميمة سبب للفتنة، وتجر إلى ما لا يُحمد عقباه، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١)، وقال إمامنا الصادق عليه السلام: (وإن من أكبر السحر النميمة، يُفرق بها بين المتحابين، ويجلب العداوة على المتصافين، ويسفك بها الدماء، ويهدم بها الدور، ويكشف الستور، والنام أشرُّ من وطئ الأرض بقدم)^(١)، قال تعالى: ﴿هَمَزٌ مَشَاءٌ بَنِيمٍ﴾ (القلم)، الساحر يُقتل ويؤدب، وعمله من أكبر الكبائر، إلا أن النام الذي يتصيد نقاط الضعف وينقلها للآخرين عمله أكبر من الساحر، بسبب ما ذكرته الرواية، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة)، الهمزة هو النام كما صرح بذلك الشهيد الثاني (رحمه الله).

خلاصة ونتيجة

الجانب السلبي للكلمة له محاور متعددة، من أعظمها اغتيال الإنسان وانتقاصه والنميمة وإشاعة الكلمات السلبية بين الناس لتحقيق العداوة والبغضاء بين المتحابين والمتصافين، وعلى المؤمن أن يعي دوره الإيجابي إذا سمع ذلك حتى ممن له وجهة اجتماعية كطلبة العلم، ولا بد من الدفاع بقدر ما يُستطاع والاستفسار والتقصي عن حقيقة الأمر دون ترتيب الآثار، لأن ذلك يُسهم في الإثم.

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ١٠ ص ١٦٩.

آثار السخرية في واقع الفرد والمجتمع

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦) ﴿إبراهيم﴾ صدق الله العلي العظيم.

الآثار السيئة للكلمة

أولى القرآن الكريم والسنة الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليه السلام عناية كبيرة في بيان الآثار السيئة للكلمة التي تقال كذباً وزوراً على الغير، ويرتب عليها السامع الأثر فيصيب الغير بالأذى، قال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) ﴿الحجرات﴾.

الاستهزاء بالغير

تقال الكلمة سخرية واستهزاء بالغير للتصغير من قدره والخط من شأنه، وإضحاك الناس عليه، ولها الأثر العظيم من السوء باعتبارها تقلل من قيمة الإنسان وتجعله في معرض الاستهزاء وتحط من شأنه عند الناس، وقد تضر بالمستهزئ به فيصاب بالانحراف سلوكياً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) ﴿الحجرات﴾، إنه نهي عن السخرية، سخرية الرجال من الرجال والنساء من النساء وقد جاء النص القرآني

بهذا المفاد، ولا يراد به أنّ بعض الرجال لا يستهزئ من بعض النساء، ولكن الآية جائية للأعم الأغلب باعتبار التعامل والمخالطة، فالأكثر أن يكون الرجال مع الرجال فيستهزئ الرجال من بعضهم، وأن تكون النساء مع النساء فيستهزئن من بعضهن، من هنا جاء القرآن الكريم لبيان ذلك.

سبب نزول الآية

هناك سبب لنزول النص، إذا عُلِمَ وعُرف كيفية تطبيقه تعلم المرء درساً غاية في الأهمية، فقد كان أحد الصحابة ثقیل السمع، ويريد أن يكون بمقربة من منبر النبي ﷺ ليستمع إلى حديثه ﷺ، وكان إذا جاء يقول للمصلين تفسحوا يفسح الله لكم، فيفسح له بعض الصحابة إلى أن يصل إلى منبر النبي ﷺ ويتاح له أن يستمع، فجاء هذا الصحابي في أحد الأيام إلى المسجد، وهو مكتض بالمصلين، ويريد أن يكون بمقربة من منبر النبي ﷺ، فقال: تفسحوا تفسحوا حتى وصل إلى منبر النبي ﷺ، إلا أنّ بعض الصحابة قال له يا ثابت - اسمه ثابت بن قيس - إذا جئت إلى المسجد ووجدت مكاناً فاجلس، فهذه نصيحة، كان عليه أن يقبلها، ويسدي الشكر للناصح، غير أنه تأثر تأثراً بالغاً من الناصح، فلما انتهت الصلاة، سأله من أنت؟ قال أنا فلان - وكان يعرف أنّ بأمه عيب، إذ أنّ بعض الناس له مقام سامق غير أنّ أباه أو أمه قد تكون معيبة، الكمال لله تعالى. فقال له: ألسنت ابن فلانة مستهزئاً به، فنكس الصحابي رأسه خجلاً، ثم جاءت الآية القرآنية ناهية عن ذلك.

حفظ مكانة الغير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، تبين الآية أنّ من سخر منه قد يكون الأفضل والأحسن، ولا يسوغ للمسلم أن يحط من مكانة غيره ويستصغر شأنه، بل ينبغي أن يتعامل الناس بالخلق الكريم والآداب التي أدب الإسلام الناس عليها، وإذا روعيت الآداب توصل المتأدب إلى الرقي والكمال، والنص القرآني يظهر منه أنّ عيوب الآباء والأمهات لا تلحق الأبناء، خصوصاً العيوب التي

تأتي بقضاء وقدر من الله، كالمرض أو البدانة والطول والقصر، وأبانت الآية أيضاً أنّ بعض نساء النبي ﷺ سخرنا من صفية زوج النبي ﷺ، لأنها كانت قصيرة، فجاء النص القرآني ﴿وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، السخرية والتنازع بالألقاب، هذا فلان ابن كذا وابن كذا، التي تُقلل من شأن الغير، عمل لا يرضى به الله تعالى، ومثله السب والشتيمة، وذكر الغير بأسماء الحيوانات، للتقليل من شأنه.

عقوبة السب والشتم

أوضحت الروايات أنّ السباب والتنازع بالألقاب للحط من شأن الغير يترتب عليه العذاب في الآخرة والآثار الوبيلة في الدنيا ونشير إلى بعضها على التوالي:

الأول: السب يؤدي إلى الفسق.

قال النبي ﷺ: (سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية الله) ^(١)، أي أنّ قول: «يا ابن كذا» فسق وخروج عن جادة الصواب، أما قتال المؤمن فهو خروج عن الدين الإسلامي، وكفر، وأكل لحمه معصية كبيرة.

الثاني: السب أعظم من الغيبة.

ما ورد في الرواية أنّ أكل لحم المؤمن معصية يراد به الغيبة التي توعد الله تعالى عليها بالنار، كما جاء في الروايات، التي تشير إلى حرمة الغيبة، وقد أبان بعض العلماء أنّ السب أعظم من الغيبة، التي نهى الله تعالى عنها، ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات: ١٢)، وذلك أنّ السب له من آثار السوء ما للغيبة، وزيادة.

الآثار السيئة للسخرية

هناك آثار كثيرة تترتب على الذين يقولون الكلمة الخبيثة ويحطون من شأن الغير

(١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ٢٤٠.

ويستصغرونه منها:

الأول: الموت مיתה السوء.

قال الإمام الباقر عليه السلام: (ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلا مات بشر مיתה)^(١)، الأثر الأول أن يموت بمיתה سوء، يموت الإنسان بكل مיתה، حتى المؤمن، بيد أن الفارق الأساس هو أن بعض أنواع الموت فيه ابتلاء للميت يكون خيراً لصاحبه ويكفر به من ذنوبه، وبعض الموت وهو موت السوء المشار إليه في الرواية لا يكون خيراً له، وإنما حط من شأنه، فله العذاب في عالمي الدنيا والآخرة، فيعذب بموت السوء وفي الآخرة بشر من ذلك.

الثانية: عدم التوفيق للخير.

وأردف عليه السلام قائلاً: (وكان قمناً - حقاً - أن لا يرجع إلى خير)^(٢)، وهذا أثر وضعي يترتب على خبث اللسان وسوء الكلمة، فمיתה السوء كأن يصاب بمرض عضال أو يذهب في حادث سيارة أو يموت في مكان لا يُحمد، والأسوأ من ذلك أن الرواية أبانت أنه لا يرجع إلى خير، أي لا يوفق لفعل خير، وهذا من أسوأ الآثار، أي أن سيء الكلمة يبتعد عن فعل الخير، ولا يوفق له، وهو ما يُعبر عنه بوجود سنخية بين الأفعال وارتباط وثيق، فالسوء يجز إلى السوء، والخير يجز إلى الخير، والذي صدر منه سوء فليترقب الكثير من الآثار التي تجره إلى السوء، إن لم يتب ويرجع إلى الله تعالى.



الثالثة: الوقوع في شرك الشيطان.

قال عليه السلام: (إن الله حرم الجنة على كل فحاش، بذيء، قليل الحياء، لا يبالي ما قال، ولا ما قيل له)^(٣)، بذيء الألفاظ الخشن فيها، لا يبالي ما قال، ويُلقى الكلام على

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣٦١.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣٢٣.

عواهنه، ولا يحاسب نفسه في كلماته، ولا يقيد بها بقيود الشارع المقدس، ولذا لا يسير على الصراط المستقيم الذي أمر الله به، ثم قال ﷺ: (فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية أو شرك شيطان)^(١)، من تصدر منه كلمات السوء، إذا فتشته تجده من شرك الشيطان، أي من سلسلة خبيثة، وقد يكون ابن حرام.

كيف يتحقق شرك الشيطان

إيضاح ذلك أن النطفة قد تكون من حرام، مع أنه ليس ابن زنا، وذلك أن أباه أكل حراماً، فتكونت نطفته منه، فهو ولد من طريق شرعي، غير أن النطفة من حرام، كالذي يبيع محرماً أو يأكل أموال الناس بغير حق، ثم يشتري بها الطعام الحرام، فيأكل منه فتكون منه نطفة الولد، فيكون له من السوء ما أبانه النبي ﷺ (فإن فتشته لم تجده إلا لغية أو شرك شيطان)، والنبي ﷺ أثار استفهاماً، فسأل بعض أصحابه كيف يكون شرك شيطان؟ فأجاب ﷺ: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الإسراء: ٦٤)، فالحرام قد يكون عبر سلسلة من الأفعال المتقدمة على تكون النطفة، ومن تلك السلسلة الكلمة الخبيثة التي لها آثار سيئة في تحطيم شخصية الغير، وفي تحطيم شخصية المتكلم، لأنها تبعده عن الخير ولا يوفق له، بل يموت بميتة سوء.

(١). نفس المصدر السابق.

ممارسة الكذب في الواقع الديني والاجتماعي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦) (إبراهيم) صدق الله العلي العظيم.

أنماط الكلمة الخبيثة

هناك آثار متعددة للكلمة الخبيثة غير أنّ بعض آثارها أسوأ من بعضها الآخر، وقد بيّنا بعض النماذج والأنماط للكلمة الخبيثة كالغيبة والنميمة والبهتان، ومن أسوأ أنماطها الكذب كما جاء في آي القرآن الكريم والروايات، وقد أوردناه لنقارن بينه كنمط بالغ السوء ومحرم من جهة وبين جوازه ومسوغيته إذا كان للخير والإصلاح بين الناس من جهة أخرى ليتاح لنا التعرف على الهدف من التشريع الإلهي وهو إيصال الإنسان إلى الخير، وأن الغاية من الكلمة الإصلاح بين الناس وليس إفشاء العداوة والبغضاء بينهم.

آثار الكذب

أبان القرآن الكريم أنّ الكذب يجانب الإيمان بالله تعالى، فلا يتحقق الإيمان مع الكذب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (النحل: ١٠٥).
وبيّن النبي ﷺ أنّ الكذب يسودّ الوجه في الآخرة ويسوده في الدنيا، إنّ اسوداد الوجه في عالم الدنيا قبل يوم القيامة بلحاظ الواقع، إذ قد ترى صورة الكاذب جميلة،

غير أنّ واقعه ليس كما يظهر في صورته، إذ هناك صورة ظاهرية وواقع ملكوتي، وأبانت الروايات بأنّ وجهه يسود في عالم الواقع، قال النبي ﷺ: (إياك والكذب فإنه يسود الوجه)^(١).

الكذب مفتاح الشر

أبان إمامنا الباقر عليه السلام أنّ الكذب كلمة خبيثة وسيئة وهي مفتاح لأقفال الشر، أي أنّ هناك أنواع متعددة من الشر، يفتحها الإنسان بالكذب، ويلج فيها جميعاً، قال عليه السلام: (إنّ الله جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب)^(٢)، الخمر مفتاح من مفاتيح السوء، غير أنّ الكذب أسوأ منه.

الكذب يجانب الهداية

إنّ الكذب يجانب الهداية، من ألطاف الله تعالى على الإنسان الهداية إلى الخير، إلا أنّ الله تعالى يمنع هذا المدد عن الكاذب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: ٢٨)، فمن كثر كذبه وكان الكذب ملكة له جانب الهداية، ولن يسير حينئذ على صراط مستقيم.



الكذب يسلب الإنسانية

جاء عن النبي ﷺ بأنّ الكاذب يسلبه الله تعالى صورة الإنسانية ويجعل صورته صورة الحيوانات، أي أنه وإن كان إنساناً في الظاهر، لكنه في الواقع حيوان، بل جاء في رواية أنه حيوان مركب، رأسه رأس خنزير وبدنه بدن حمار، هذا بحث مطول فيه أسرار وردت في الروايات التي أبانت أنّ للإنسان سيرة وصورة وأنّ السيرة تؤثر على الصورة، فصورة الإنسانية كرمها الله تعالى، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

(١) مستدرک الوسائل للنوري: ج ٩، ص ٨٨.

(٢) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣٣٩.

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ (الإسراء)، لكن الكاذب تنقلب صورته بسبب الآثار البالغة السوء.

مسوغات الكذب

ومع ذلك يسوغ للإنسان الكذب للإصلاح بين الناس، ويكون الكذب هنا أثره عكس ما جاء للنهام الذي ينتقي الكلام الضعيف ليفشيه بين الناس من أجل العداوة والبغضاء، فالمصلح إذا سمع كلاماً سيئاً من الغير لا يسوغ لنفسه نقله، بل ينقل خلافه من أجل الإصلاح بين الناس، وقد أجاز الشارع ذلك لبقاء أواصر الود والمحبة لئلا تسوء العلاقات الاجتماعية ويحمل الإنسان على أخيه الضعيفة، قال إمامنا الصادق عليه السلام: (المصلح ليس بكذاب)^(١)، وورد عنه عليه السلام: (الكلام ثلاثة: صدق وكذب وإصلاح بين الناس)^(٢)، وقد شرحت الروايات معنى الكذب للإصلاح بين الناس.

طريقة الإصلاح بين الناس

قال عليه السلام: (تسمع من الرجل كلاماً يبلغه)^(٣)، أي يقول إن فلاناً قال فيك كذا، (فتخبث نفسه)^(٤)، أي حمل على أخيه الضعيفة، بينما الموقف الذي ينبغي أن يقوله صاحب الكلمة الطيبة هو إبدال الكلام الخبيث إلى طيب، كأن يقول سمعت فلاناً قال فيك من الخير كذا وكذا، والنص من الإمام عليه السلام بإبدال الكلام السيئ إلى حسن طيب لثمتين أواصر الصداقة والألفة بين الناس، قال عليه السلام لعل عليه السلام: (يا علي، إن الله عز وجل أحب الكذب في الصلاح)^(٥)، الكذب الذي جاءت آي القرآن والأحاديث تندد به يصبح أمراً محبذاً من أجل الصلاح وإفشاء الخير بين الناس، قال عليه السلام: (يا

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٢١٠.

(٢) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٣٤١.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٥٣.

علي، إنّ الله عز وجل أحب الكذب في الصلاح وأبغض الصدق في الفساد^(١)، لأنّ الصدق بين الأخوة والأصدقاء إذا أضر بهم فهو مبعوض.

إنّ بعض الناس قد يصدر منه تجاه الآخر كلمة نابية غير جيدة وينبغي من السامع ألاّ ينقل الكلمة السيئة، بل يحاول أن ينمي ما يضادها لمن قيلت فيه، عندما يُسأل عن ماذا كان الحديث؟ فيقول: كان يكنّ الود والاحترام، ويبدل الذم مدحاً، (يا علي إنّ الله عز وجل أحب الكذب في الصلاح وأبغض الصدق في الفساد)^(٢)، قال الإمام الصادق عليه السلام: (المصلح ليس بكذاب)^(٣).

ثمرة الإصلاح

أبان النبي ﷺ ما للكلمة الطيبة من الأثر العظيم والثواب الجزيل الذي يحصل عليه المتحدث بها، قال ﷺ: (ما عمل امرؤ بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس بأن يقول خيراً، ويتمنى خيراً)^(٤)، أي إذا استمع إلى الكلام السيئ الذي يؤثر على النفوس سلباً لا ينمي بل لا ينقل إلّا الخير، وما فيه الفائدة كي تتحقق المحبة.

موارد جواز الحلف كذباً

من أسوأ الكذب الحلف بالله تعالى كذباً (اليمين الكاذبة) غير أنّه أبيع للإصلاح، وجاءت طائفة من الروايات تبين جوازه لانجاء مؤمن يتعرض إلى القتل، وهو ما يسمى باليمين الغموس، التي تجعل صاحبها في دركات سافلة من النار، إلّا أنّ ذلك جائز، قال النبي ﷺ: (احلف بالله كاذباً ونج أخاك من القتل)^(٥)، ويحسن بنا هنا أن نوضح تفصيلاً هو أنّ الحلف بالله كذباً لانجاء المؤمن من القتل، ليس في كل قضية ولا يجوز أن يقسم بالله كاذباً، إلّا في قضايا ضررها كبير، أما في الحالات العادية كالضرر

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٥٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٢١٠.

(٤) الأمايلي للشيخ الطوسي: ص ٥٢٢.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج ٣، ص ٣٧٤.

المالي البسيط فلا يجوز أن تقسم بالله كاذباً من أجله، القسم كذباً لا يجوز إلا فيما هو بمثابة القتل أو في درجة القتل والضرر الكبير، أما الأضرار البسيطة فلا يباح فيها ذلك.

إيثار الصدق على الكذب

ويظهر ذلك من الروايات، ورد عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : (الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك)^(١)، أي أنّ في بعض الموارد يكون الضرر بقليل من المال أو شيء من الضرر اليسير، أي ليس بكبير يؤدي إلى القتل أو الإصابة بآفة أو سجن مؤبد، فخسارة بعض الأموال لا بأس بها، ولا يسوغ الكذب إلا إذا كان تحمل الضرر كبيراً.



(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام : ج ٤، ص ١٠٥.

فداحة المرء والخوض في الباطل

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق). صدق الله العلي العظيم.

الخوض في الحديث

لا زال الكلام موصولاً حول التأثير السيئ للكلمة الخبيثة، التي أولاها الشارع عناية، كالكذب والغيبة والنميمة والبهتان، بالإضافة إلى أمور أخرى نبّه الشارع عليها باعتبارها تمثل أسباباً رئيسة تؤدي إلى الكلمة الخبيثة، فنهى عنها، كالخوض في الحديث، وهو عنوان شرعي يراد به جلوس المرء مع غيره لمجرد الحديث دون فائدة تترتب على ذلك، كمناقشة موضوع أو بحث علمي أو حل قضية، ويعبر عن ذلك بالكلام لمجرد الكلام، قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾ (المدثر)، أي نتحدث بكلام لمجرد الكلام.

الآثار السلبية للخوض في الحديث

إنّ الكلام لمجرد الكلام يؤدي بالمتكلم إلى ما لا تحمد عقباه وله مساوئ كثيرة:

الأولى: ارتكاب الحرام.

إنه يؤدي إلى الكذب وإلى محظورات شرعية، لذا نهى النبي ﷺ عن الخوض في الحديث، الذي يبدأ الكلام فيه بغير المحرم، لكن نهايته تجر المتكلم إلى تمحل

الكلام والقول بالباطل، لذا ورد عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت ؑ تحبيب الصمت والحض عليه لأجل الردع عن الخوض في الحديث بالباطل، لإيصاله إلى الكذب والنميمة والبهتان.

الثاني : تضييع للوقت.

إنّ الخوض في الحديث يؤدي إلى تلف الوقت وتضييعه دون ثمرة تعود من ذلك.

الثالث: مصاحبة أهل السوء.

أشارت الروايات أنّ الخوض في الحديث من المحظورات، لأدائه إلى مصاحبة أهل السوء.

الجدل والمراء

ومن العناوين الواردة في الروايات المراء والجدل وهما سببان يؤديان إلى الكلمة الخبيثة، وعنوانان من العناوين المنصوص عليهما بالترك، الجدل هو ما يقوم به الإنسان من أجل الغلبة، يجادل غيره ليثبت أنه الغالب في الخصومة وأنّ الأحقية له.

مشروعية المجادلة

لقد أمر الله تعالى بالمجادلة بالتي هي أحسن، أما أن يجادل المرء بالباطل لإظهار أحقيته فذلك من المحظورات.

حقيقة المراء

المراء جدل، لكنه يختلف عنه في حيثية خاصة، فالمماري يجادل من أجل إثبات امتلاكه المهارة لقلب الحقيقة، وأنه يستطيع أن يبين للطرف الآخر أنّ ما شاء يصل إليه، والكلام طوع يديه، يستطيع قلب الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق.

مسميات المرء

للمرء إطلاقان، يُطلق تارةً على الجدل، وأخرى بالمعنى الذي أوردناه وهو الاصطلاح السليم، فالمماري هو من يُبين للغير أنَّ الأمور بين يديه، ما شاء أن يثبت به الكلام يصل إليه، أما المجادل فلا يريد أن يظهر الحقيقة، وإنما يريد أن يظهر أحقيته، بخلاف المماري فالحقيقة غير ذات أهمية لديه، فيبدأ المرء، ليعين وجوهاً مختلفة وأموراً كثيرة، فالمماراة خوض في الكلام من أجل إظهار ملكة المتكلم في قدرته على تنميق المطالب وإثبات ما يريد إثباته سواء كان حقاً أو باطلاً.

مسؤولية النعم الإلهية

استعرضت الروايات المرء والجدل والخوض في الباطل وبينت بأن المرء عليه مسؤولية في الحياة، تقتضي منه أن يوظف نعم الله تعالى في مواردها، لرقيه ورفع مستواه المادي والمعنوي، أما إذا استخدم النعم في المعاصي جرّه ذلك إلى دركات متسافلة.

المبالغة والخيال

هناك عناوين تُهي عنها، لأنها تقوم على المبالغة والخيال، وهما إن كانا من أجل إبانة الحقائق والإفصاح عما يريد الله تعالى أن يتمسك به الناس فقد مُدحا، وإن لم يكونا لذلك فقد ذُما، فالشعر مذموم وممدوح، لأنه يقوم على الخيال، ويسلب الإنسان التفكير المنطقي، الذي يستند إلى قواعد وأسس سليمة ويوصل إلى المطالب الحق، وكذا الاستماع إلى الشعر أما إذا كان للحض على الجهاد في سبيل الله تعالى والتمسك بالإيمان والخلق الطيب، فهو ممدوح، قال النبي ﷺ لحسان: (لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك)^(١)، أي ما دمت في مدح النبي ﷺ وحض المسلمين على الجهاد.

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ج ١، ص ١٧٧.

الشعر بين المدح والذم

كما أنّ الشعر الذي يبعد الناس عن الفضيلة والإيمان مذموم، والمرء قد يقول الكلمة شعراً فيهوئ بها إلى جهنم، فإنه في المقابل قد يقول بيتاً من الشعر فيدخل به الجنة، قال الإمام الصادق عليه السلام: (من قال فينا بيت شعر بنى الله له بيتاً في الجنة)^(١)، لأنه مدح أهل البيت عليهم السلام وأكد على الجانب القيمي والخلق الكريم لهم عليهم السلام، أما إذا مدح الظالمين أو أتى بكلمات امتهن بها شخصية إنسان بهجائه له فشعره عذاب عليه، يتسافل به دركات في النار.

النصوص في عدم الخوض في الباطل

النصوص الواردة كثيرة، قال النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: (ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان)، قال: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: (هو الصمت)^(٢)، أي عدم الخوض في الباطل.

فوائد الصمت

إنّ ما ورد في الصمت يبين أنّ الإنسان لا ينبغي أن يتلف وقته، فالكلام حسن وتترتب عليه آثار طيبة، والله تعالى بعث الأنبياء بالكلام بيد أنّ بعض الناس يستخدم نعمة الكلام فيما يؤدي إلى السوء، وبدلاً من ذكر الله تعالى يخوض مع الخائضين، غير أنه يمكنه تجنب ذلك بالصمت الذي له ثمرات متعددة:

الأولى: ذكر الله.

روى الإمام الصادق عليه السلام عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله قوله: (إنّ أولياء الله سكتوا، فكان سكوتهم ذكراً)^(٣)، أي عندما يسكت الولي يؤدي عملاً، وصمته لئلا يخوض في

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٤، ص ٥٩٧.

(٢) جامع السعادات للنراقي: ج ٢، ص ١٤٥.

(٣) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٢٣٧.

الباطل، يستفيد منه في ذكر الله تعالى.

الثانية: التفكير السليم.

قال ﷺ: (سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة)^(١)، للنظر معنيان: نظر بالبصر، ونظر بالبصيرة وهو التفكير، وهو بمعنييه ينبغي أن يكون له مردود إيجابي، يؤدي إلى التفكير السليم الذي يأخذ بصاحبه إلى السؤدد.

الثالثة: النطق بالحكمة.

قال ﷺ: (فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة)^(٢)، عندما يتكلم أولياء الله كلامهم حق لغاية.

الرابع: الخير والبركة.

(ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة)^(٣)، المشي بين الناس قد يكون بالسوء غير أن أولياء الله مشيهم بين الناس للإصلاح والخير، إذ أن الهدفية في الحياة تؤدي بهم إلى الخير والبركة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ ١٠ كِرَامًا كَنِينٍ ۝ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ١٢﴾ (الانفطار)، وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤).

السخرية من الخوض في الباطل

وقد ورد في السخرية والاستهزاء ما يُدخلهما في عنوان الخوض في الباطل، فذكر المستهزئ كلمة تُضحك الآخرين على مؤمن يهوي به إلى النار، قال النبي ﷺ: (إنَّ الرجل يتكلم بالكلمة يُضحك بها جلسائه يهوي بها أبعد من الثريا)^(٤)، هذه إلماحة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٩، ص ٢٥٧.

جميلة، فالثريا في أقصى درجات العلو، ويراد بها هنا عكس التشبيه، فيتسافل بها أقصى الدركات، فإضحاك الناس على شخص والخط من مقامه ومكانته عمل قبيح، بمرصاد من الله تعالى، فهو تعالى لا يريد لعباده ذلك، بل يريد لهم الكرامة والاحترام.

الكلمة الإصلاحية

قال ﷺ: (إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت)^(١)، عندما تكلم لم يُدرِك أبعاد كلمته لكنها أصبحت ذات أثر طيب فكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، ككلمة الإصلاح بين المتخاصمين بنقله لكل منهما ما يسره عن الآخر لإعادة اللحمة.

أجر الإصلاح بالكلمة

الإصلاح بين المتخاصمين أجره كبير عند الله تعالى، كما دلل على ذلك قوله ﷺ: (يكتب الله تعالى له رضوانه إلى يوم يلقاه)^(٢).



عقوبة السخرية والاستهزاء

أما السخرية والكلمة الخبيثة فقد بين ﷺ أثرهما قائلاً: (وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت)^(٣)، عندما سَخِرَ كان لسخريته غاية السوء، لذا بين ﷺ جزاء ذلك فقال: (يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)^(٤).

عقوبة المجادل

جاء في الجدل، قوله ﷺ: (لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٧٣٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

كان محققاً^(١)، لا يمكن الوصول إلى الدرجة العالية من الإيمان إلا بترك المرء والجدل حتى لو كان المجادل محققاً، والنبي ﷺ بين الهدفية، وأن بإمكان الإنسان أن يصل إلى الخير والسؤدد، ويرتقي درجات لا حدود لها بالعمل الصالح، فقال ﷺ: (يُمْكِنُكُمْ من الجنة إِيْطَاعُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ)^(٢)، أي يجعل لكم مكاناً مكيّناً، (فيمكنكم)، معناه يجعلكم أكثر مكنة من الجنة، وذلك بإطعام الطعام وطيب الكلام، وهما أمران محبذان، يستطيع بهما المرء أن يصل للمعروف والطاعة.

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦)، وقال تعالى في الكلام الحسن الطيب: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).



(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢، ص ١٣٨.

(٢) جامع السعادات للنراقي: ج ٢، ص ٢٢٠.

الترويض على الكلمة الطيبة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَأَنْقُزُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) صدق الله العلي العظيم.

بين الكلمة الطيبة والخبيثة

بينما التأثير المبارك للكلمة الطيبة، والسيئ للكلمة الخبيثة، الكلمة الطيبة تصلح الإنسان وتُقرّبه من الحق تعالى، والخبيثة تُفسده وتُبعده عنه تعالى، إلا أنّ الكثير من الناس -نتيجة للظروف المعاشة والواقع السيئ- يتساءل كيف يتأتى له أن يطبع شخصيته بمقاييس مرتضاة من قبل الله تعالى، ويُعوّد لسانه قول الكلمة الطيبة وهجران الألفاظ البذيئة وترك الكلام السيئ الذي تعودّه، وقد يتصور البعض أنّ من الصعوبة بمكان أن يُغيّر مساره، إلا أنّ الأمر غاية في السهولة، يتأتى بأمور:

الأول: بذل الجهد الذاتي.

أبان القرآن الكريم في آيات متعددة أهمية الجهد الذاتي المبذول من الشخص، وأوضحت بعض آياته أنّ الإنسان لن يستطيع أن يصل إلى مراده دون بذل الجهد وتحمل المعاناة، فلا يُتاح تحقيق المقاصد بالأمنيات المحضّة، بل لابد من الجهد الذاتي والعمل الدؤوب.

العمل في سبيل التغيير

المرء دون عمل وجهد لن يستطيع أن يصل إلى مقاصده، ويحتاج إلى جهد مضاعف لتغيير السجاياء والخلق، فالقيام لأداء الصلاة يختلف جهداً عن تغيير السجاياء والأخلاق، إذ يستطيع المرء أن يقوم للصلاة دون مساعدة الآخرين، لكنه يصعب عليه أن يعود لسانه التفوه بالكلمات الطيبة، والتعود على الصدق إذا امتنهن الكذب، وتكمن المعاناة للإنسان الذي لا يستطيع أن يُغير في شخصيته، ويبدو له في الخطوات الأولى عقبات كأداء وصعوبة يُخيل إليه أنه لن يستطيع أن يترشح عن مكانه، ولن يستطيع أن يُغير واقعه.

الثاني: التغيير التدريجي.

لقد أبان القرآن الكريم أمراً غاية في الأهمية هو أنّ الإنسان لابد أن يلتفت أنّ التغيير يتأتى بنحو تدريجي، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، والآية مع التي أوردناها توضحان أنّ تقوى الله في القول والفعل تتطلب معاناة وجهداً يحصلان بنحو تدريجي.



صعوبات التغيير

إنّ الظروف المحيطة بالإنسان صعبة وتضغط عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى فالتطبع بمساوئ الأخلاق يصعب تغييره الفجائي، وقلب الواقع إلى آخر معاكس له، والطريقة المثلى التي من خلالها يستطيع المرء التوصل إلى ما يرومه تقوى الله قدر الاستطاعة، ﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)، على المرء بذل جهده وإن عاكسته الظروف، حتى يستطيع التغيير، وعليه أن لا ييأس، بل يحاول جاداً.

العوامل المساعدة للتغيير

إنّ الحق تعالى منح الإنسان عوامل مساعدة يستطيع -إذا استغلها- انشغال شخصيته، ورفع مستواه إلى ما يريد، أهمها:

الأول: التواصي بالصبر والمرحمة.

قال تعالى: ﴿فَلَا أَفْجَحَ الْعَقَبَةُ ۖ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ۖ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ ﴿١٧﴾﴾ (البلد)، فالتواصي بالصبر والمرحمة عاملان مساعدان يستطيع الإنسان أن يسير أشواطاً بعيدة بالاستعانة بهما.

الثاني: السير مع الخيرين.

من العوامل المساعدة السير مع الخيرين الصالحين، الذين يُذكرون بالله تعالى، ويحضون الآخرين على مكارم الخلق، ومراعاة الآداب.

الثالث: التعاون مع أفراد المجتمع

هناك عقبات كثيرة، يحتاج الإنسان في اقتحامها إلى عوامل مساعدة، من أهمها ما تقدم، من التواصي بالصبر والمرحمة، فلا يستطيع المرء أن يصل إلى الخير وحده، بل يحتاج إلى آخرين يُذكرونه أهمية الصبر في الوصول إلى ما يروم، وتحقيق ما يقصد بالتواصي بالصبر والمرحمة وبذل الجهد الذاتي جُدهم.

التعود على الكلمات الطيبة

إنَّ على الإنسان كي يتقدم أن يسير بخطوات وإنَّ كانت بطيئة، لكنها في النهاية قادرة على إيصاله إلى أحسن مما كان عليه، فقد لوحظ أنَّ بعض الناس الذين ساءت كلماتهم حُسنت عندما صحبتوا الخيرين وتغير حالهم، وتحولت كلماتهم البذيئة إلى طيبة، نعم كانت الصعوبة والمعاناة لهم في البداية إلاَّ أنَّ الأمر سهل عليهم، بل صُعب عليهم الرجوع إلى سابق عهدهم، وعندما تصدر منهم كلمة نابية، يذكرون الله والآخرة والعواقب الوخيمة للكلمة التي صدرت منهم سرعان ما يعودون إلى الرشء، فذكر الله والتعود على التفكير في العواقب والتأني في إطلاق الكلمات وتبديل المفردات التي يتحدث بها إلى سجية، فيصبح حديثهم بألفاظ غاية في اللطف.

طريقة التعود على الكلمة الطيبة

إنَّ من يتعود الكذب يصعب عليه الصدق، قال النبي ﷺ: (لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)^(١)، قوله ﷺ: (لا يزال) يشير إلى الجهد الذاتي والمعاونة أي أنَّ الكلمة الطيبة لن تنطلق تلقائياً بدايةً، وإنما تحتاج إلى جهد ذاتي ومعاونة من الذين امتزجت كلماتهم بالسوء غير أنَّ الأمر سهل بالتعود والمران، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ (١٥) (الحجرات)، الآية دالة على بذل الجهد وتحمل المعاونة حتى يصل المؤمن إلى الخير.

الطريق الصحيح للتغيير

المجاهدة بذل للجهد وتحمل للمشقة ليصل المرء إلى ما يريد ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾، فجهاد بالمال وجهاد بالنفس ومعاونة وتحمل ليصل بعد ذلك السائر إلى ما يريده، فالنفس لها القابلية للسير في المسار الصحيح والمسار السيئ، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ (الشمس)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، ويستطاع تبديل السجاياء السيئة إلى محمودة بالتزكية والتغيير المستمر وتعود الخير، (لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)^(٢)، كما أنه لا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله تعالى كذاباً، أي يصبح الكذب ملكة، والصدِّيق إذا أصبح الصدق له ملكة، لن يتحدث إلاَّ صدقاً.

البيئة تدفع نحو التغيير

إنَّ من يخلق الأعداء وبرر لنفسه أنه عاش بيئة غير صالحة عليه أن يعي أنَّ القرآن بين إمكان التغيير، فالكلمات الدائرة في بيئته لن تؤثر عليه، بل يستطيع رفع مستواه إلى أرقى من البيئة التي عايشها والتحدث بكلمات طيبة أفضل من الكلمات التي كان

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٧٨.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢، ص ١٥٧٨.

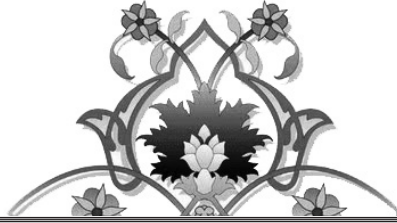
يسمعتها، فيقول الصدق وينطق بالحق ويتبعد عن الكذب إذا راقب ذاته.

الرقابة الذاتية

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق)، إِنَّ الحق تعالى يرى الخلق ويحيط بهم علماً، ومن أدرك ذلك كما بُين في القرآن تأثر تأثراً بالغاً، وأصبح ما يصدر منه موزوناً، يتصف بالحكمة فتنتطق كلماته بتحري وموازنة، ويعرف التأثير السيئ والحسن والكلمة الراجحة التي تنبغي، ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة)، المسألة غاية في الأهمية والإنسان المدرك أن أقواله مكتوبة عليه - ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق) - يحاسب نفسه ويرقب أقواله وأفعاله، ويدرك أن أقواله من أعماله، ولها التأثير الحسن اللامحدود، كما أبان ذلك النبي ﷺ فقال: (إِنَّ الرجل يتكلم بالكلمة يضحك بها جلسائه يهوي بها أبعد من الثريا)^(١)، وفي الحديث، (إِنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وَإِنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)^(٢)، فالمسألة تعود وجهد من ناحية وموازنة دقيقة بين الكلمات التي يقولها فتؤثر عليه في الدنيا والآخرة من ناحية أخرى.

(١) جامع السعادات للنراقي: ج ٢، ص ٢٢٣.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٧٣٤.



الفصل الرابع:

■ ■ ■ النظرية الإسلامية في معالجة السلوك الخاطئ ■ ■ ■



الأسلوب الأمثل في معالجة السلوك الخاطئ

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) (الهمزة) وقال أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات) صدق الله العلي العظيم.

أثر تتبع عورات الآخرين

تتبع عيوب الآخرين من الأمراض الأخلاقية الكبيرة التي يصاب بها بعض الناس فيشتغل بتتبع بعض النقائص لدى شخصيات من يرتبط وإياهم بعمل أو سائر الناس الذين لا يرتبط وإياهم بأي رابطة، لكون شخصيته بُنيت على هذا الداء، فلا تستريح نفسه إلا إذا تتبع عورات ومعائب الآخرين، وقد جاءت طائفة من الروايات تبين أنّ الإنسان ينبغي أن يجتنب هذا الداء، وأن يلتفت إلى أنّ الناس من طبيعتهم الوقوع في الخطأ، (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)^(١)، أي أنّ من طبيعة الإنسان أن يقترب بعض الأخطاء بيد أنّ الطريقة الفضلى لتلافي ما يقع فيه البعض من نقائص وما يقترب من أخطاء إسداء النصيحة، غير أنّ بعض الناس لا يمارس دوره الطبيعي، وبدلاً من أن يُعين المخطئ باجتناب الخطأ يحاول أن يُظهر الخطأ ويفشي العيب الذي وقع فيه الغير، وذلك يؤثر سلباً على مقترب الخطأ من جهة، بالإضافة إلى تأثيرات على المتتبع للخطأ من جهة أخرى نوجزها في الآتي:

(١) المستدرك للنيسابوري: ج ٤، ص ٢٤٤.

الأول: الاعتياد على إشهار عيوب الآخرين.

إنَّ من يُذيع عيوب الناس ويسعى إلى نشرها في المجتمع يسهم في جعل الخطأ بإشهاره أمراً طبيعياً واعتيادياً، فلا يتأثر مقترفه من ارتكابه مرة تلو الأخرى مادام أنه فشا واشتهر بين الناس، بل لعل ذلك يزيده تمادياً في مواصلة سلوكه الخاطيء.

الثاني: صعوبة التخلص من العيوب.

إنَّ تتبع عثرات الناس إذا أصبح جزءاً من شخصية الإنسان يتحول إلى عادة راسخة فلا يتاح له المجال للرجوع إلى الاستقامة ويصعب عليه ترك ذلك الداء.

أسلوب معالجة تتبع العثرات

عالج إسلامنا الحنيف هذا العيب المرضي الذي يصاب به بعض الناس من خلال الخطوات الآتية:



الأولى: التوجه إلى عيوب النفس.

إنَّ التفات الإنسان إلى عيوب نفسه واشتغاله بها يحجزه عن الاشتغال بعيوب الآخرين، لكونه بطبيعته يعيش النقص، إذ الكمال لله تعالى، وهو تعالى يريد من الإنسان أن يتكامل بنحو تدريجي، فإذا التفت الإنسان إلى عيوب نفسه وبدأ بإصلاحها سار في الصراط المستقيم، أمّا إذا وجّه قواه إلى عيوب الآخرين استشرت تلك العيوب والنقائص في ذاته، وتجدرت في شخصيته وأصبحت أشجاراً كبيرة يصعب عليه اقتلاعها، لذا، عالج الروايات هذا الداء بأبلغ علاج، فلفتت انتباه من وقع فيه ومن أصيب به إلى ما ينبغي فعله، قال نبينا المصطفى ﷺ: (وكفى بالمرء عيباً أن ينظر من الناس إلى ما يعمى عنه من نفسه ويُعير الناس بما لا يستطيع تركه، ويؤذي جلسيه بما لا يعنيه)^(١)، بين النبي ﷺ عيوباً ثلاثة، يهمننا ذكر العيبين الأولين وهما، النظر إلى بعض العيوب الموجودة في بعض الناس، وتناسي تلك العيوب التي ينظر إليها من اتصف

(١) الخصال للصدوق: ص ١١٠.

بها، ثم قال: (وَيُعَيِّرُ النَّاسَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ تَرْكُهُ)^(١)، فمن تحدث عن عيوب الآخرين لن ينظر إلى عيوب نفسه التي يعددها في الآخرين، فلا يرضى بعيوب الغير مع كونه متصفاً بها، وقد ذكر النبي ﷺ خصلة أخرى هي إيذاء الجليس، إنَّ الجليس له حق باحترام مجلسه فلا تذكره بعيوب أو بنقائص وإنَّ كانت تلك النقائص في شخصه، بل عليك أن تستر عيوبه، وتلتفت إلى عيوبك، قال ﷺ: (من مقت نفسه دون مقت الناس آمنه الله من فزع يوم القيامة)^(٢)، يركز النبي ﷺ على السلامة في عالم الآخرة، لأنها الفوز الأكبر، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، فوز الإنسان أن يأمن من مقت الله تعالى في عالم الآخرة، والنبي ﷺ يعلمنا بهديه كيف نستطيع أن نأمن من عذابه ونحصل على أمنه، وذلك من خلال مقت النفس، واعتبارها ناقصة، والمحاولة الجادة في تلافي ما لدى الإنسان من عيوب كي يأمنه الله تعالى في عالم الآخرة وفي عرصات القيامة.

الثانية: النظر إلى محاسن الآخرين.

بينت الروايات أنَّ أعظم الداء هو أن يلتفت الإنسان إلى عيوب الآخرين مقتصراً عليها دون النظر إلى محاسنهم والصفات الجميلة التي لديهم، مع أنَّ تشجيع الجانب الإيجابي في شخصيات الآخرين هو الذي يعود عليهم بالخير ويؤدي بهم إلى السؤدد، أما النظرة السلبية فقد تجعلهم يقفون عند تلكم السلبيات الموجودة لديهم.

الثالثة: حركة الإصلاح من النفس إلى الغير.

أكد إمامنا أمير المؤمنين ع عليه السلام على ما ينبغي للإنسان أن يلتفت إليه، ذلك أنَّ بعض الناس يخطئ الهدف ويضل الطريق، فقد يكون قصده الإصلاح، لكنه لا يلتفت إلى ما ينبغي عليه أن يبدأ به، وقد أوضح ع عليه السلام ذلك قائلاً: (إنَّ سَمْتَ هِمَّتِكَ لِإِصْلَاحِ النَّاسِ

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الخصال للصدوق: ص ١٥.

فابدأ بنفسك، فإنّ تعاطيك إصلاح غيرك وأنت فاسد أكبر العيب^(١)، أي أنّ التركيز على عيوب الآخرين بقصد الإصلاح وإظهار النقص لديهم من أكبر العيوب، رغم أنّ النية سليمة، لكن الإمام عليه السلام لا يُعير النية أي اهتمام هاهنا، ويركز على التأثير السلبي للإنسان الذي يتتبع عورات الآخرين ونقائص الناس، إنّ قوله: (إنّ سمّت همتك)^(٢)، أي، ارتفعت بقصد الإصلاح للغير لكنك ضللت الطريق وأخطأت الهدف، إذ كان ينبغي أن تبدأ بنفسك، فإنّ تعاطيك إصلاح غيرك وأنت فاسد لديك عيوب ينبغي أن تهتم بإصلاحها أكبر العيب، رغم سلامة النية، وقد مزج الإمام عليه السلام بين العمل والنية، فلا بد أن تكون النية صالحة، والعمل أيضاً لا بد أن يكون صالحاً، ولا يكفي صلاح النية وحدها مع كون العمل يؤدي إلى إيذاء الناس وتركيز العيوب في شخصيتهم، وبين عليه السلام هذا الأمر بحكمة أخرى، فقال: (جهل المرء بعيوبه من أعظم ذنوبه)^(٣).

الرابعة: التركيز على تزكية النفس.

أي أنّ من أعظم الذنوب التي يقرّفها الإنسان في حق شخصه أن يجهل عيوبه، لأنّه أمر بتزكية نفسه، ولا يتاح له تزكية نفسه مع جهله بعيوبه، وعدم التفاته إلى النقائص في شخصيته، مع أنها قد ترديه إلى الهلكة، فلا يتعلم من عيوب نفسه، ولا يبحث عن العيوب المؤثرة في شخصيته، فتسافل شخصيته وذلك من أعظم الذنوب، إنّ الكمال كل الكمال في الاشتغال بإصلاح عيوبه، قال عليه السلام: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس)^(٤)، وعنه عليه السلام: (أفضل الناس من شغلته معايبه عن عيوب الناس)^(٥)، أي أنّ الأفضل والأحسن الأكمل هو من اشتغل بعيوبه، فحاول جاداً إصلاحها، وقد أبان القرآن هذا الأمر، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) (الأعلى)، معنى التزكية الاشتغال

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٦.

(٤) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٢، ص ٩٦.

(٥) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٤.

بعيوب النفس وإصلاحها ومعالجة الأمراض التي يصاب بها بعض الناس ذلك أنّ البعض تتجذر فيه هذه العادة فيرتاح إذا اغتاب الآخرين وذمهم وأبدى معانيهم في حين أنه ينسى عيوبه، فيستهزئ بشخصيات الآخرين، لكنه لا يقبل منهم ذلك النقد اللاذع الذي يبيده إلى الغير، لأنه نسي كونه مصاباً بتلك العيوب، وقد ركّز إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام على الفضل الذي يحصل عليه المشتغل بإصلاح عيوبه لما لذلك من أثر في ترك الاشتغال بعيوب الآخرين، قال عليه السلام: (أفضل الناس من شغلته معانيه عن عيوب الناس)^(١) أي أنّ له درجة الكمال والنجاة من الله تعالى، وعكسه من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه فهو الأسوأ.

الخامسة: التحذير من مكر الله.

أبانت الروايات بأنّ بعض الناس يمكر الله تعالى بهم، لاقتراحهم بعض الذنوب، فيترصد لهم العقاب الإلهي، وهم الفئة الناسية لمعانيها، المتغاضية عن ذنوبها، الملتفتة إلى عيوب الآخرين، وقد أفصحت الروايات بأنّ من اشتغل بعيوب الآخرين هو من الذين مكر الله بهم، فأنساهم أنفسهم، قال الصادق عليه السلام: (إذا رأيت العبد متفقداً لذنوب الناس ناسياً لذنوبه فاعلموا أنه قد مكر به)^(٢)، الله تعالى يمكر بمن اقترف بعض الذنوب ويرتب آثاراً وضعية على ذنبه فينسيه نفسه بتوجهه إلى عيوب الآخرين.

السادسة: خطر استصغار عيوب النفس.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: (لينهك عن ذكر معائب الناس ما تعرف من معاييك)^(٣)، حذار أن تعيب بعيوب بعض الناس مع كونه موجوداً في شخصيتك وحذار أن تبدأ بذكر ذلك العيب وأنت تعلم باتصافك به، وقد أوضح ص أنّ بعض الناس يصعب عليه أن ينتقد ذاته، ويلتفت إلى عيبه الكبير، لكنه يرى الصغائر الدقيقة في شخصيات

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج ١٥، ص ٢٩٢.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٤.

الآخرين فهو كالمجهر يكبر تلکم الصغائر في شخصيات الآخرين، ويبدل قصارى جهده في استقصاء العيوب الصغيرة تاركاً ما توافر لديه من معایب كبيرة، قال عليه السلام: (يُبصر أحدكم القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه)^(١)، القذى، دهون تتجمع في طرف العين فيراها ويركز عليها ما دامت في عين غيره، لكنه لا يشعر بالجذع في عينه، تشبيه من النبي ص يلفت انتباهنا إلى حال بعض الناس الذين لا يلتفتون إلى العيب الكبير، ويلتفتون إلى الصغير من عيوب الآخرين.

نتائج الالتفات إلى عيوب النفس

يترتب على من التفت إلى عيوبه، وترك عيوب الآخرين امتلاك العقل الكامل؛ قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: (أعقل الناس من كان بعيه بصيراً، وعن عيب غيره ضريراً)^(٢)، أي العاقل هو من التفت إلى عيوب نفسه ودقق النظر وأمعن الفكرة في تلك العيوب وإن كانت صغيرة في ذاته، فحاول الخلاص منها، وستر العيوب الكبيرة عند غيره، ملتفتاً إلى أن اشتغاله بعيوب الآخرين ينسيه نفسه.



(١) ميزان الحكمة للريشهري ج ٣ ص ٢٢٠٥.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري ج ٣ ص ٢٢٠٤.

السلوك الخاطئ بين الوقاية والآثار الوضعية

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢)
صدق الله العلي العظيم.

أُسُس الوقاية من تتبع عيوب الآخرين

نهت الشريعة المقدسة نهياً قاطعاً عن تتبع عيوب الآخرين، وجعلت الكمال في الاشتغال بعيوب الذات، الكامل من يجتهد في الاشتغال بعيوبه عن عيوب الآخرين، وقد نظّرت الشريعة المقدسة لهذا الأمر بشيء من البيان الجميل، والمؤمن إذا التفت إلى إدراك مراد الشارع المقدس في حفظه لنفسه وسلامة ذاته عن الوقوع في هذا الخطأ ابتعد عن ذلك، فالشريعة لم تنه عن تتبع عورات الآخرين فحسب، بل نهت عن حفظ العيب لئلا يقع الإنسان في شرك الشيطان فيسول له ذكر ذلك العيب الذي حفظه. وقد استعرض المشرع هذا السلوك الخاطئ وأرشد إلى مجموعة من الأسس التي تقي الإنسان من الوقوع فيه:

الأول: عدم البحث في عيوب الآخرين.

نهت الشريعة المقدسة الإنسان عن البهجة والفرح في سلوكه مع من لا يُحبه من الناس إذا رآه قد سقط في عثرة، فلا ينبغي أن ترتاح نفسه عندما يشاهد سقطات الآخرين، قال الإمام الصادق عليه السلام: (أبعد ما يكون العبد من الله أن يكون الرجل

يُؤاخي الرجل وهو يحفظ عليه زلاته لئُعيّره بها يوماً ما^(١)، أي أنّ البعيد عن الله هو الذي يصاحب بعض الناس من أجل الإطلاع على العيوب الخفية في شخصياتهم ويحفظ تلكم العيوب ليتحرى الفرصة المناسبة لإظهارها أمام مرأى ومسمع من الناس، فمن حفظ زلات من يصاحبه لأجل انتقاصه يوماً ما، فهو بعيد تمام البعد عن الله عز وجل.

الثاني: التحفظ عن إظهار الإطلاع على عيوب الناس.

من يطمح في علاقات أفضل مع الناس لابد أن يكون ساتراً على ما اطلع عليه من عيوبهم، غاضاً طرفه عنها، محافظاً على شخصياتهم لئلا تُخدش، قال إمامنا الصادق عليه السلام عندما سُئل عن تفسير قوله: (عورة المؤمن على المؤمن حرام)، أجاب عليه: (ليس حيث تذهب؛ إنما عورة المؤمن أن يراه يتكلم بكلام يعاب عليه، فيحفظه عليه لئُعيّره به يوماً إذا غضب)^(٢)، للمؤمن حرمة، وعورته أن تستر ما اطلعت عليه من عيب وتغض الطرف عن زلته، ولا تحفظ عليه تلك السقطة؛ لتجعلها بمرأى من الناس، قد يغضب الإنسان ولا يُسيطر على نفسه ويكون ذلك سبباً في أن يُظهر ما حفظه وستره من عيوب الآخرين، والإمام عليه السلام يبلور ذلك المفهوم بقوله: (عورة المؤمن على المؤمن حرام)^(٣)، كي يقي الإنسان نفسه من الوقوع في تتبع عورات الآخرين.



الثالث: الصحة النفسية في ترك عيوب الآخرين.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في رائعة من روائعه الحكيمة: (حسب المرء . . . من سلامته قلة حفظه لعيوب غيره)^(٤)، يشير عليه السلام إلى سلامة الإنسان النفسية، إذ من المعلوم بأن الصحة الجسدية تعتمد على الصحة النفسية للإنسان؛ وكثير من الأمراض

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٢، ص ٢١٩.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٢، ص ٢١٤.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٩.

التي يُصاب بها الناس ناتجة عن الاضطراب السلوكي والنفسي في شخصياتهم، والإمام عليه السلام عندما قال: (حسب المرء من سلامته - أي من سلامة نفسه - قلة حفظه لعيوب غيره)^(١)، يؤكد على أنّ الإنسان قد يصبح في موقفٍ يتيح له أن يحفظ عيوب الآخرين إلا أنّ ذلك لا يعطيه الصلاحية بجعل تلك العيوب ظاهرة، القلة هنا في قوله عليه السلام تشير إلى المنع عن تركيز النظر في عيوب الآخرين بجعلها متجسدة أمام شخصيته، بل عليه أن لا يُعيرها أية أهمية كي يسلم من تأثيراتها السلبية، عندما يحفظ الإنسان بعض تلك الزلات وترتكز في ذهنه السقطات لابد أن يكون حكيماً محافظاً على سلامة شخصيته وطهارة نفسه بعدم التركيز على تلك العيوب وإنما يمر عليها مرور الكرام غير عابئ بها.

الرابع: عدم إظهار الفرح تجاه عيوب الغير.

الابتهاج بعيب صدر من الغير حالة غير سوية، تُنبأ عن خطر فادح وقع فيه الإنسان، قال الإمام علي عليه السلام: (لا تَفْرَحَنَّ بِسَقْطَةِ غَيْرِكَ)^(٢)، أي، لا تبتهج نفسك بتلك الزلة والعثرة التي وقع فيها بعض من لا ترتاح إليه نفسك، فتتهش وتبش لذلك، بل عليك أن تتبعد عن الفرح والابتهاج لما في ذلك من الآثار السلبية كترسيخ تلك الزلة في الذهن وحفظها لتذكره بها يوماً ما، وتحسب أنّ ذلك خير لك بينما هو شرٌّ عليك، ولا بد لك أن تغض النظر عن ذلك، (لا تَفْرَحَنَّ بِسَقْطَةِ غَيْرِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَحْدُثُ بِكَ الزَّمَانُ)^(٣)، إذ الإنسان لا يملك أن يحفظ نفسه من عوادي الدهر ومتغيرات الأيام والأزمات، وهو عاجز عن حفظ نفسه من الوقوع في الزلات، بل أنّ طبيعة الإنسان التعثر والسقوط، وهو ما أشار إليه الحديث: (كل بني آدم خطأ وخير الخطائين التوابون)^(٤).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٩.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٩.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ج ١، ص ٣٣٨.

الخامس: الحذر من الوقوع فيما وقع فيه الغير.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في التحذير من الوقوع في خطأ الآخرين، (لا تبتهجنَّ بخطأ غيرك فإنك لن تملك الإصابة أبداً)^(١)، يظن بعض الناس أنه ملك السيطرة على نفسه ولن يصدر منه ما هو سيء، غير أنه لن يستطيع ذلك، وهذا ما سنوضحه لاحقاً. إنّ من غرته نفسه وسوّل له الشيطان فتتبع عورات الغير وابتهج بحدوث بعض السقطات سرعان ما يحرج نفسه عقوبة الحق تعالى، فيسقط فيما سقط به غيره من الزلات، ويقترف تلك العثرة التي تتبعها على الغير، وقول الإمام عليه السلام: (لن تملك الإصابة)^(٢) تعبير جميل عن أنّ الإنسان لا يسيطر على نفسه، وحتى لو سيطر عليها فترة محدودة، فإنّ قواه ستضعف وستؤثر فيه الأزمنة والدهور وقد يصاب ببعض الأمراض فيغضب في يوم ما ويرتكب محذوراً بغضبه، وعندئذ يتذكر أنه عاب على غيره ما وقع هو فيه من غضب.



الآثار الوضعية المترتبة على تتبع عورات الناس

أكد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام على أنّ من أصيب بهذا الداء سيُبتلى ببعض الآثار الوضعية المترتبة على ذلك:

الأول: انتقال عدوى تتبع العورات.

على المؤمن أن يتعد عن أولئك الذين أصيبوا بهذا الداء، إلا إذا أراد أن يصحح سلوكهم؛ لقد أمرنا في الروايات بأن لا نصاحب من يتتبع عورات الآخرين، لئلا تصيبنا العدوى بهذا الداء، فيسهل علينا ذكر الغير بعيوبه لتأثرنا بذلك السلوك الخاطيء، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ليكن أبغض الناس إليك وأبعدهم منك أطلبهم

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٩.

(٢) نفس المصدر السابق.

لمعايب الناس)، أي إذا أردت أن تصاحب أحداً من الناس فعليك أن تختبره في سلوكياته وفي نظره للآخرين؛ فهل ينظر إلى الآخر نظرة كمال واحترام أم أنه ينظر إليه نظرة انتقاص؟ فإذا كان ينظر نظرة انتقاص عليك أن تتبعد منه؛ كي لا يُنزل مستواك الإيماني وتتأثر به بشكل طبيعي.

الثاني: ابتعاد الناس وتجنبهم مصاحبتهم.

إنّ من يتتبع عورات الآخرين يطرد الناس عن مصاحبتهم، فالناس لا تصاحب نتن الرائحة، بل تتبعد عنه بشكل طبيعي، أما من يعتني بهندامه ونظافته، فإنهم يرتاحون إليه ويقربون منه، إنّ من يتتبع عورات الآخرين له رائحة نتنة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (من تتبع خفيات العيوب حرمه الله مودات القلوب)^(١)، إنّ القلوب لا تحب هؤلاء الأشخاص ولا تقترب منهم، لرائحتهم المعنوية إذ هي من أعظم الروائح في نتانتها.

الثالث: محاربة الله له.

يحارب الله تعالى من يتتبع عورات الآخرين، ومن تصدى الله له بالمحاربة هزمه، لأنّه غالب على أمره، ولا يستطيع أحد أن يحارب الحق تعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير، ومن الآثار الوضعية لمن تتبع العورات أنّ الله تعالى يتصدى إليه بالمحاربة فيسقطه ويفضحه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته)^(٢)، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (في بيته)، تعبير جميل يُشير إلى أنّ أقرب الناس إليه سيفتضح أمره عنده. جرت العادة بأن يظهر الإنسان بمظهر حسن جميل عند المقربين إليه، لكنّ الله تعالى لمحاربتة له يُظهر سوأته أمام أقرب

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٨.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٨.



المقربين إليه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (من بحث عن أسرار غيره أظهر الله أسرارَه)^(١)، تلك العيوب أسرار يحاول أن يسترها، فإذا تتبع السقطات والزلات التي يتصف بها ويحاول أن يسترها عن أعين الآخرين فإنّ المولى تعالى يُظهر المخفي المستور من عيوبه، ولن يستطيع أن يستر على نفسه الزلات والسقطات التي حاول جاهداً أن يخفيها عن المقربين إليه.



(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٣، ص ٢٢٠٨.

الحلول الناجعة للتخلص من تتبع العيوب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢) صدق الله العلي العظيم.

ذكرت الشريعة الإسلامية طرقاً وأساليب متعددة للخلاص من رذيلة تتبع عيوب الآخرين، ذلك أنّ الإنسان له القدرة و الاختيار في معالجة الداء وتذوق حلاوة الإيمان.

الأول: تفعيل العقل.

ويراد به التفكير في العواقب الوخيمة والآثار السلبية لهذه الرذيلة، إذ العقلاء ينظرون في عواقب الأمور، ويرون ما يترتب على أي فعل من الأفعال، وإذا كانت العواقب طيبة أقدموا على الفعل، أما إذا كانت سيئة اجتنبوه، من سمات العاقل أنّ لديه معياراً دقيقاً يزن به أفعاله، فيُقدِّم على الحسن ويتعد عن القبيح، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (غطاء العيوب العقل)^(١)، إنّ من يريد أن يتخلص من النظرة السلبية للآخرين لا بد أن يفكر بعقلانية، ولا يجعل نظره مسلطاً على الآخرين في تتبع السلبات.

(١) ميزان الحكمة للريشهري: ج ٢٢٠٩.

الثاني: قوة التحمل.

يحسن بنا أن ننبه على أمر هام، هو أنَّ الإنسان قد يسيطر على لسانه، ولا يُبدي عيوب الآخرين من خلاله غير أنه يُبدي بعض العيوب من خلال حركة يده وغمزه ولمزه للآخرين، وتلازم هذه الصفة بعض الناس فلا يتحدث بسوء بلسانه بيد أنه يذكر بعض العيوب بشكل عملي، وقد عاجلت الروايات هذه الفئة من الناس الذين يسيئون إلى الآخرين بالفعل دون القول من خلال إلفات انتباههم إلى السيطرة بقوة التحمل على الحركات التي تصدر منهم، فمن أراد أن يتحدث عن شخص آخر، عليه أن لا يُبدي في حركاته ما يُظهر به عيبه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (الاحتمال قبر العيوب)^(١)، يستطيع الإنسان أن يدفن عيوب الآخرين من خلال قوة الاحتمال والصبر، فيسيطر على حركاته كما يسيطر على لسانه، ولا يُبدي السوء بجوارحه، فيغمز الطرف الآخر.

الثالث: إفشاء السلام.

عني الإسلام بثقافة السلام، وأراد من المسلم أن يظهر الوثام والسلام مع من يعاشره، لذا ورد أنَّ على المسلم أن يُسلم على الطرف الآخر، أي يستحب البدء بالسلام، وورد أنَّ البادئ بالسلام له تسع وتسعون حسنة والراد له حسنة واحدة من أجل غرس ثقافة السلم والسلام في عامة الناس، فالمسلم ينطلق مع الجميع من خلال الوثام والاحترام للآخر، وهذه ثقافة تغطي العيوب، إذ أنَّ معنى السلام هو السؤال من الله تعالى أن يُسلم الآخر ويدفع عنه البلاء والإصابة بالسوء، وحينئذ فالأولى بمن يسلم أن لا يُسيء بعمل للطرف الآخر، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (المسالمة خبء العيوب)^(٢)، لأنَّ المسالم يُرجح الوثام في المعاشرة، لمعرفته بمطلوبيته في الشريعة الإسلامية.



(١) ميزان الحكمة للريشهري ج ٣ ص ٢٢٠٩.

(٢) نفس المصدر السابق.

الرابع: الصمت.

رجحان الصمت يرجع إلى أنَّ الكلام الذي يُتحدث به لا بد أن يكون له فائدة، وإذا انتفت فالصمت أولى، أي أنَّ على الإنسان أن يقول الخير أو ليصمت، لأنَّ التحدث بسوء في الآخرين ليس بحسن للمتحدث ولهم، ومنه يُلتفت إلى أهمية الصمت، وقد وردت أمثلة كثيرة تنبه الإنسان إلى أهميته إذا لم يكن لحديثه معنى، ولم يترتب على كلامه فائدة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (غَطَاءُ الْمَسَاوِي الصَّمْتُ)^(١).

الخامسة: الحياء.

أَلَفَتَ الشارع المقدس الانتباه إلى الحياء، فهو شعبة من شعب الإيمان، وعلى المؤمن أن يقتدي بالنبي صلوات الله عليه وآله، «فلم يكن رسول سباً ولا لعاناً ولا فحاشاً»^(٢) أي لا يظهر عيب الآخرين بكلمات الفحش، والذي يخلصه من هذا الداء هو الحياء، فالحياء من الأساليب التي تجعل المؤمن يتخلص من هذه الرذيلة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه)^(٣)، فمن تستر بثوب الحياء لا يرى الناس عيوبه، لأنَّه لا يعيب الآخرين، ذلك أنَّ إظهار العيب ممن لا يستحي، أما الحيي فلا يجرح الطرف الآخر.

السادس: الالتفات إلى عيوب الذات.

من الطرق والأساليب التي ذُكرت في الروايات العلم، ويراد به الالتفات إلى إصلاح عيوب الذات لكونه يعود بالخير والسؤدد للمتحدث، أما ذكر الغير بالسوء فيجر الوبال والعواقب الوخيمة على الإنسان، والعلم يُسهّم في وضع حاجز يمنع صاحبه من تتبع عيوب الآخرين، فيسعى لتتبع عوراته، وذلك ما أمر به الشارع، أي أنَّ العلم كفيلاً بجعله يرتقي في مدارج الكمال، درجة تلو الأخرى.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي: ج ٧، ص ٢٠٩.

(٣) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٥٠.

السابعة: الحمل على الخير.

من الأمور التي ذكرت في الشريعة الإسلامية وينبغي أن يلتفت إليها ولعلها خاصة بطبقة من الناس وليست للكل، هناك بعض الناس يتبؤون مكانة من الإيمان، أو من الحياء والفضيلة، أو مكانة من السؤدد غير أنهم قد تصدر منهم بعض الأعمال، فيتعجب من صدور ذلك العمل الذي لا يتناسب مع مكانتهم، من هنا لا بد أن يلتفت إلى بعض الحثيات التي دعت الطرف الآخر إلى أن يصدر ذلك العمل منه، حتى وإن كانت غير واضحة ولا معروفة، أي قد يكون له ما يُبرر ما صدر عنه، بمعنى أن ذلك السوء هو أهون الشرين ولا مندوحة له عن صدوره منه في بعض الأحيان، قال الإمام الحسين عليه السلام: (العار أولى من دخول النار)^(١)، فقد يرتكب الإنسان ما يسوؤه من أجل أنه ليس أمامه إلا سلوك أحد الطريقتين، رغم أن كلاهما سيئ، لكن درجة السوء في أحدهما أقل، وقد لفتت الروايات الانتباه إلى ما ورد في الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس)، أي أن بعض الناس يكذب بما لم يحيط به علماً، لكنه إذا تعرف على الحثيات التي على أساسها صدر الفعل زال تعجبه، ورأى أن العمل طبيعي أن يصدر من الغير، وهناك كثير من الأمور التي تحدث اجتماعياً كالعلم بأن عمل ذلك المؤمن لا يليق به لكنك إذا بحثت عن الحثيات عرفت أن ذلك العمل لائق بل هو الموقف المناسب الذي عليه أن يتخذه، والآية الأنفة تشير إلى هذه المفردة ويترتب على ذلك أن لا تدم أحداً، بل عليك تحري الصدق فلا تتحدث إلا إذا كان لديك العلم والإحاطة التي تتمكن من خلالها إدراك حثيات الموضوع، هذه طرق وأساليب يستطيع بها تجنب الكثير من ذكر معائب الآخرين.



(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٤٤ ص ١٩١.

المصادر

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- إقبال الأعمال، ابن طاووس، الطبعة الأولى، المطبعة: مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي.
- ٣- وسائل الشيعة، الحر العاملي، الطبعة الثانية، المطبعة: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الناشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث.
- ٤- عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي، الطبعة الأولى، المطبعة: سيد الشهداء - قم.
- ٥- مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، الطبعة الأولى، المطبعة: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الناشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث.
- ٦- ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي، الطبعة الأولى، المطبعة: دار الأسوة، الناشر: دار الأسوة.
- ٧- جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي، المطبعة العلمية - قم.
- ٨- كنز العمال، المتقي الهندي، سنة الطبع: ١٤٠٩ هـ.
- ٩- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان.
- ١٠- المستدرک، الحاكم النيسابوري.
- ١١- ميزان الحكمة، الريشهري، الطبعة الأولى، المطبعة: دار الحديث، الناشر: دار الحديث.
- ١٢- أمالي الطوسي، الشيخ الطوسي، الطبعة الأولى، المطبعة: دار الثقافة، الناشر: دار الثقافة.
- ١٣- الصحيفة السجادية، الإمام زين العابدين، الطبعة الأولى، المطبعة: نمونه - قم،

- مؤسسة الإمام المهدي، الناشر: مؤسسة الإمام المهدي.
- ١٤ - موسوعة كلمات الإمام الحسن، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، الطبعة الأولى، المطبعة: الآثار - قم، الناشر: دار المعروف.
- ١٥ - عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، سنة الطبع، ١٤٠٤، الناشر: مؤسسة الأعلمي.
- ١٦ - الكافي، الشيخ الكليني، الطبعة الخامسة، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.
- ١٧ - مكارم الأخلاق، الشيخ الطبرسي، الطبعة السادسة، الناشر: منشورات الشريف الرضي.
- ١٨ - تربية الطفل في الإسلام، مركز الرسالة، الطبعة الأولى، المطبعة: مهر - قم، مركز الرسالة.
- ١٩ - دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، الطبعة الثانية، الناشر: دار المعارف بمصر - القاهرة.
- ٢٠ - عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، الطبعة الأولى، المطبعة: دار الحديث، الناشر: دار الحديث.
- ٢١ - المجازات النبوية، للشريف الرضي، الناشر: منشورات مكتبة بصيرتي - قم.
- ٢٢ - الأنوار العلوية، الشيخ جعفر النقدي، الطبعة الثانية، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، الناشر: مكتبة الحيدرية - نجف الأشرف.
- ٢٣ - تفسير الآلوسي، الآلوسي.
- ٢٤ - تفسير مجمع البيان، الطبرسي، الطبعة الأولى، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.
- ٢٥ - مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، الناشر: دار صادر - بيروت - لبنان.
- ٢٦ - الطفل بين الوراثة والتربية، الشيخ محمد تقي فلسفي، الطبعة الثانية، المطبعة: دار سبط النبي، الناشر: مكتبة الأوحاد.
- ٢٧ - نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، الطبعة الأولى، المطبعة: النهضة - قم، الناشر: دار الذخائر - قم - إيران.



- ٢٨- تدوين السنة الشريفة، السيد محمد رضا الجلاي، الطبعة الثانية، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.
- ٢٩- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، الطبعة الأولى، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٣٠- موسوعة العقائد الإسلامية، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، دار الحديث، الناشر: دار الحديث للطباعة والنشر.
- ٣١- جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، مطبعة النعمان - النجف الأشرف، الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر.
- ٣٢- غرر الحكم ودرر الكلم، علي بن محمد الليثي الواسطي، الطبعة الأولى، المطبعة: دار الحديث، الناشر: دار الحديث.
- ٣٣- المصباح الكفعمي، الطبعة الثالثة، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- ٣٤- جواهر الأدب، أحمد الهاشمي.
- ٣٥- أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق، الطبعة الأولى، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.
- ٣٦- مصباح المتعبد، الشيخ الطوسي، الطبعة الأولى، الناشر: مؤسسة فقه الشيعة - بيروت - لبنان.
- ٣٧- التوحيد، الصدوق، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
- ٣٨- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- ٣٩- فضائل الأشهر الثلاثة، الشيخ الصدوق، الطبعة الثانية، الناشر: دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- ٤٠- تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، الطبعة الثالثة، مطبعة خورشيد، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.
- ٤١- كتاب الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، الطبعة الأولى، المطبعة: دار الأضواء،



الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٢- التبليغ في الكتاب والسنة، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، مطبعة ستاره، الناشر: دار الحديث.

٤٣- ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، الطبعة الثانية، المطبعة أمير - قم، الناشر: منشورات الشريف الرضي - قم.

٤٤- الصلاة في الكتاب والسنة، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، المطبعة دار الحديث، الناشر: دار الحديث.

٤٥- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، الناشر: دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان.

٤٦- الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام زين العابدين عليه السلام، المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٤٧- الصحيفة السجادية (أبوظبي)، الإمام زين العابدين عليه السلام، المطبعة نمونه - قم مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام / مؤسسة الأنصارين للطباعة والنشر - قم - إيران.

٤٨- العلم والحكمة في الكتاب والسنة، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، المطبعة دار الحديث، الناشر: مؤسسة دار الحديث الثقافية - قم - إيران.

٤٩- الخصال، الشيخ الصدوق، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

٥٠- الإرشاد، الشيخ المفيد، الطبعة الثانية، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.



المحتويات

المقدمة	٥
القسم الأول: الأسرة والتربية	٧
الفصل الأول: الزواج أساس البناء الاجتماعي	٧
دور الزواج في إيصال الفرد إلى الكمال	٩
اختيار الزوجة وصفاتها	١٥
اختيار الزوجين في أحاديث المعصومين عليه السلام	٢١
الزواج من الأقارب والأباعد	٢٧
الفصل الثاني: أسس ومبادئ الحياة الزوجية السعيدة	٣٣
الأول: الاختيار السليم بين الرجل والمرأة	٣٥
الثاني: خصال الزوجة بين العقل والجمال والوراثة	٤١
الثالث: النظرة الشرعية بين الواقع الديني والاجتماعي	٤٧
الرابع: الزواج في ظل التناسب العمري والقناعة الذاتية	٥٣
الخامس: خصال الزوجين بين الواقع والطموح	٥٩
الفصل الثالث: دور الأسرة في بناء المجتمع الفاضل	٦٧
الأول: أصناف الأسرة عند علماء الاجتماع	٦٩
الثاني: أهمية الأسرة في الواقع الاجتماعي	٧٣
الثالث: مبادئ بناء الأسرة الصالحة	٧٩
الرابع: أهمية الجود والكرم في استقامة الأسرة	٨٥
الخامس: أهمية الاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة	٩١

السادس: إشباع الجانب الإنساني طريق لاستقامة الأسرة ٩٧

السابع: أهمية العلم في استقامة الأسرة ١٠٣

الثامن: أسس وقواعد في تربية الأبناء ١٠٩

التاسع: دور العبادة في بناء شخصية الأبناء ١١٥

العاشر: أهمية الوقت في حياة الإنسان ١٢١

القسم الثاني: التربية الإسلامية ١٢٧

الفصل الأول: التعاليم الإسلامية في تربية الأبناء ١٢٧

التعاليم الإسلامية في تربية الأبناء ١٢٩

الجوانب التطبيقية في تربية الأبناء ١٣٧

الفصل الثاني: مرحلة المراهقة في تأثيرها الاجتماعي والنفسي ١٤٣

خصائص مرحلة المراهقة وطرق التأثير على المراهق ١٤٥

وعى الأسرة لحاجات المراهق الخاصة ١٥١

العوامل المؤثرة في إنماء شخصية المراهق ١٥٧

الأبعاد المحورية لمسؤولية الأبوين ١٦٣

المحافظة على التوازن النفسي في شخصية المراهق ١٦٧

أسس وقواعد التعامل الاجتماعي للمراهق ١٧١

المراهق بين كثرة الأصدقاء والأعداء ١٧٣

أثر النقد في بناء شخصية المراهق ١٧٧

القسم الثالث: الشباب تكامل في البعد الزمني ١٨٣

الفصل الأول: الجانب المعنوي في حياة الشباب ١٨٣

الآثار الوضعية للأعمال العبادية في شهر شعبان ١٨٥

الأبعاد المعنوية للأعمال الصالحة في شهر شعبان ١٩١

العيد مسار التكامل والعروج نحو الله ١٩٧

الاعتماد على النفس طريق النجاح ٢٠١

مكتسبات العيد في الجانب العبودي ٢١٣



٢١٩	الاستعداد لشهر رمضان
٢٢٣	البُعد المعنوي في سمات قارئ القرآن
٢٢٩	شهر رجب مدرسة التقوى وحسن الخلق
٢٣٥	شعبان شهر الرقي والكمال المعنوي
٢٤١	شهر رمضان خصائص وثمرات
٢٤٧	شهر رمضان واقع العبادة وطموح التغيير
٢٥٣	خصائص الصوم المعنوية
٢٥٩	الحفاظ على منجزات شهر رمضان
٢٦٥	الفصل الثاني: الواقع الاجتماعي في حياة الشباب
٢٦٧	برُّ الوالدَيْن
٢٦٩	الإحسان إلى الوالدين في القرآن والأحاديث
٢٧٣	الانتخابات خطوة في الاتجاه الصحيح
٢٧٩	دور التقليد والمحاكاة في تقدم الأمم
٢٨٥	الوعي الاجتماعي للوقت في العطلة الصيفية
٢٩١	الفصل الثالث: هموم الشباب
٢٩٣	الامتحانات ... حصاد الموسم الدراسي
٢٩٩	أهمية الوقت في العطلة الصيفية
٣٠١	الوقت في كلمات المعصومين عليه السلام
٣٠٥	تألق النجاح في الاستفادة من تجارب الآخرين
٣١١	آليات التفوق العلمي للأبناء
٣١٩	القسم الرابع: التربية الأخلاقية والسلوكية
٣١٩	الفصل الأول: آفاق الصلاة على النبي والآل
٣٢١	فوائد وميزات الصلوات الشعبانية
٣٣١	الفصل الثاني: الدعاء
٣٣٣	آثار الدعاء في حياة الإنسان



- أثر الجانب المعنوي في تقدم الإنسانية ٣٣٩
- الدعاء والصوم تأمين على المستقبل ٣٤٥
- آداب الدعاء في آفاق شهر رمضان المبارك ٣٥٣
- الصحيفة السجادية عطاء للإنسانية ٣٥٧

الفصل الثالث: الأخلاق وتهذيب النفس ٣٦٧

- زيارة الأربعين وتكامل المؤمن ٣٦٩
- الأخلاق العملية في سيرة الإمام السجاد عليه السلام ٣٧٥
- العزة الحقيقية في الارتباط الإلهي ٣٨١
- أثر التوكل على الله في حياة الإنسان ٣٨٧
- آثار إخلاص العبودية لله تعالى ٣٩٣
- مكارم الأخلاق منهج قرآني وسلوك حضاري ٣٩٧
- آثار ترك الصلاة على الإنسان ٤٠٣
- الدور التكاملي للعبادة في حياة الإنسان ٤٠٧
- خطبة العيد: التكليف الشرعية طريق الوصول إلى الله ٤١٣
- البُعد الشمولي في وصايا الإمام الصادق عليه السلام ٤١٧
- البُعد التربوي والأخلاقي في دعاء الإمام السجاد عليه السلام ٤٢٣
- الاستقامة على الحق طريق النجاة ٤٢٩
- الرسول مُعلّم الاستقامة ٤٣٥
- الأمانة في حياة الإنسان ٤٤١
- الأخلاق الاجتماعية وحصانة المجتمع ٤٤٧
- تجنب النقد اللاذع حصانة للمجتمع ٤٥١
- حكم توجيهية من كلام الإمام الحسن عليه السلام ٤٥٣
- المحاسن والمساوئ الأخلاقية في منظور الإمام الحسن عليه السلام ٤٥٩
- دور النبي صلى الله عليه وآله في نشر الرحمة في المجتمع ٤٦٥
- حقيقة الأخلاق السلوكية عند الإمام الحسن عليه السلام ٤٧٣



٤٧٩	السلوك الأخلاقي عند الإمام الحسن العسكري عليه السلام
٤٨٥	إضاءات مشرقة من حكم المصطفى صلى الله عليه وآله
٤٩١	صفات العاقل: من أضواء المبعث
٤٩٧	التأثير الإيجابي للكلمة
٥٠٣	الأثر السلبي لاستماع الكلمة الخبيثة
٥٠٩	آثار السخرية في واقع الفرد والمجتمع
٥١٥	ممارسة الكذب في الواقع الديني والاجتماعي
٥٢١	فداحة المرء والخوض في الباطل
٥٢٩	الترويض على الكلمة الطيبة
٥٣٥	الفصل الرابع: النظرة الإسلامية في معالجة السلوك الخاطئ
٥٣٧	الأسلوب الأمثل في معالجة السلوك الخاطئ
٥٤٣	السلوك الخاطئ بين الوقاية والآثار الوضعية
٥٤٩	الحلول الناجعة للتخلص من تتبع العيوب
٥٥٣	المصادر

